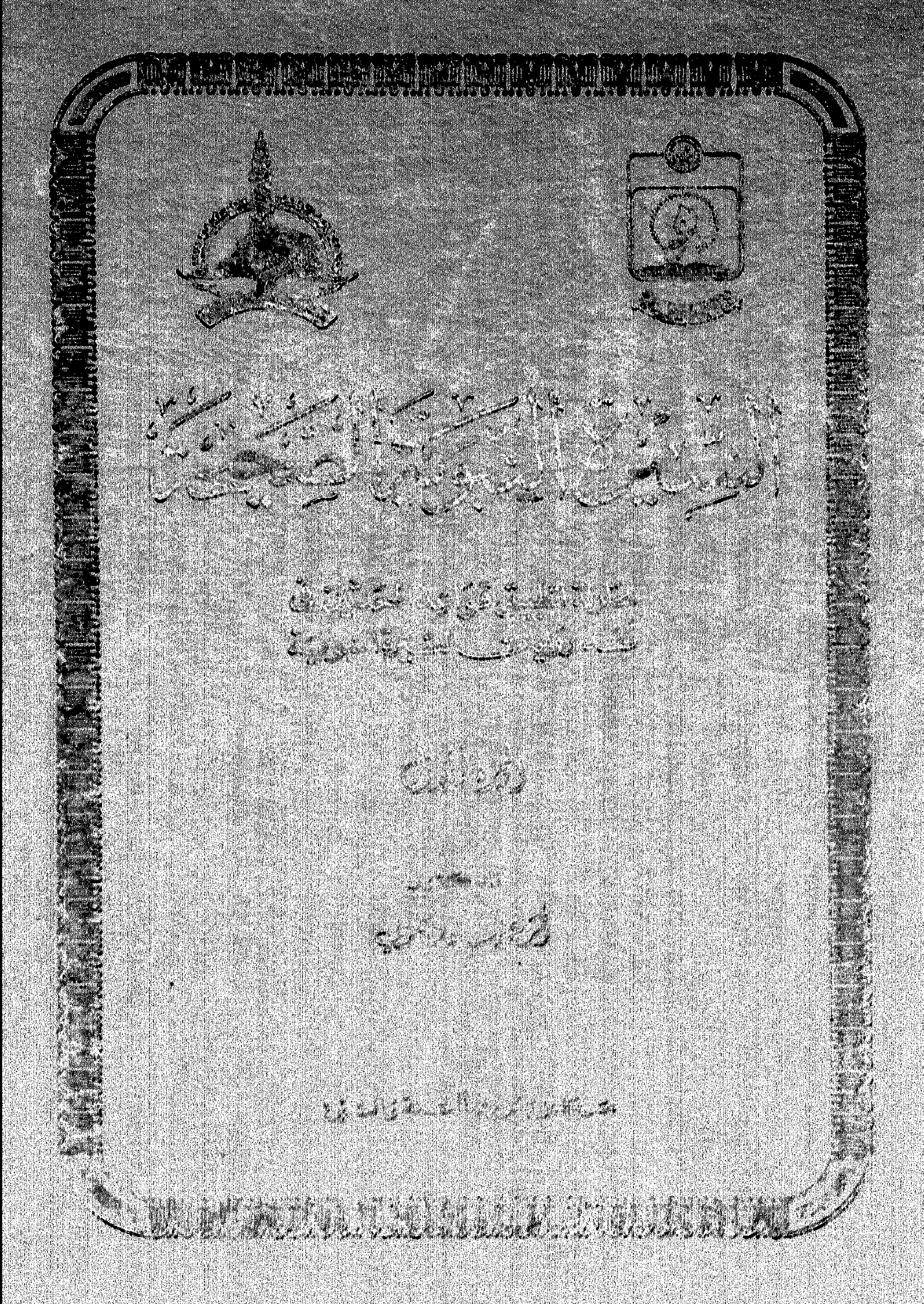


السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ الصَّحِيحَةُ

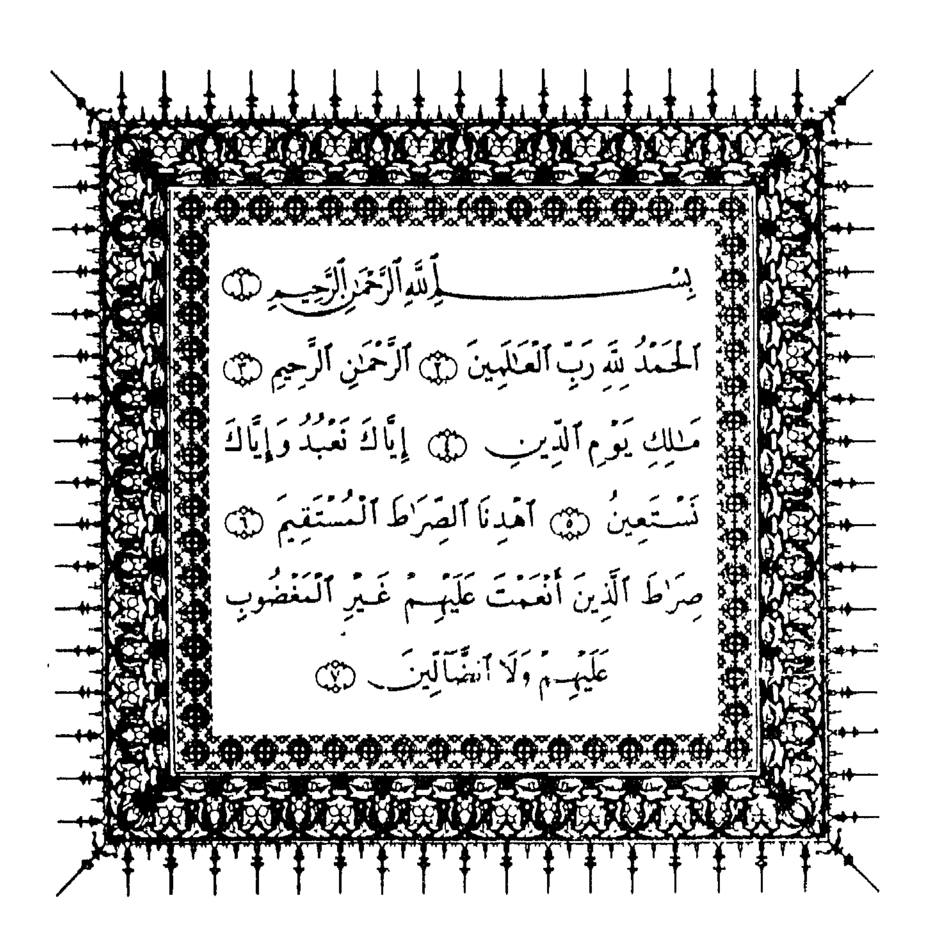
محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في
نقد روايات السيرة النبوية

الجزء الأول

الدكتور
أكرم ضياء العمري

مركز بحوث السنة والسيرة

١٤١١هـ
١٩٩١م



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾

مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾

صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ

عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

قل إن صلاتي ونسكي

ومحياي ومماتي

لله رب العالمين

قرآن کریم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بسم الله وحده ، ولا شيء معه دائماً وأبداً

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] . ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾

[الأحزاب : ٧٠ ، ٧١]

اللهم إياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد ، وعليك توكلنا ، وإليك أنبنا وإليك المصير ، اللهم إنا نبرأ من حولنا وقوتنا ونلوذ بحولك وقوتك ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك ، ونصلي ونسلم على صفوتك من خلقك ، وخاتم رسلك سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه ، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد ، ،

فإن مركز بحوث السيرة والسنة بجامعة قطر ، منذ إنشائه ، استجابة لتوجيه المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة ، في مطلع القرن الخامس عشر الهجري

(محرم سنة ١٤٠٠) ، وهو يضع نصب عينيه نشر الدراسات الجادة الأصيلة عن السيرة النبوية العطرة ، كما أشار إلى ذلك القرار الأميري ، وجعله من صلب أعمال المركز . .

حقيقة شغل المركز بالتفكير والتخطيط والإعداد لبناء الموسوعة الشاملة للحديث النبوي الشريف ، مدة الأعوام الماضية ، وقطع في ذلك شوطاً لا بأس به ، وتوّج هذه الجهود بإقامة الندوة العلمية المتخصصة التي انعقدت في رحاب جامعة قطر في سنة ١٤١٠هـ-١٩٩٠م تحت عنوان : (نحو موسوعة شاملة للحديث النبوي الشريف) .

ولما كان بناء الموسوعة الشاملة عملاً علمياً عملاقاً -كما ظهر من أطروحات الندوة- ؛ إذ هو في الواقع عبارة عن مركز كامل للمعلومات (بنك معلومات) عن السنة ، فقد تقرر إقامة اتحاد للمراكز والهيئات والجهات العاملة في خدمة السنة ، يساعد على التنسيق ، والتخطيط ، والتعاون ، ويؤدي إلى الاستفادة المثلى من كل الجهود .

وإذا كانت قد تأخرت إصدارات المركز عن السيرة العطرة -بسبب الانشغال بالموسوعة ، فإن كتاب السيرة النبوية الصحيحة الذي نقدمه اليوم فيه خير عوض عن هذا التأخر . فهذا الكتاب المبارك يقوم على دراسة أحداث ووقائع السيرة العطرة دراسة علمية أصيلة ،ملتزماً بمنهج المحدّثين، وجامعاً بينه ومنهج المؤرخين ، من حيث العناية بترتيب الأحداث ترتيباً زمنياً وموضوعياً ، متلافياً ما وقع في كتب بعض المعاصرين ، التي جاءت خلواً من نقد الروايات وفق قواعد مصطلح الحديث . فأساءت من حيث أرادت أن تحسن .

كما اهتم الكتاب بقضية المعجزات النبوية وإثبات جميع ما ثبت بالنقل الصحيح ، رافضاً لذلك المسلك الشائن، مسلك الخضوع والانصياع للفكر المادي والفلسفات الوضعية الذي أدى بأصحابه إلى نفي ما عدا القرآن الكريم من المعجزات النبوية .

كذلك عُني بالإشارة إلى الأحكام الفقهية ، وتاريخ تشريعها ، لأن التاريخ للسيرة ينبغي أن يُعنى بالجانب التشريعي الذي يحتكم إليه المجتمع ويوضح الضوابط الخلقية والقانونية التي تحكم حركة الأفراد والجماعات ، ولا يمكن الفصل بين الجانب السياسي والعسكري والجانب الخلقي والتشريعي .

هذا عن الكتاب ، أما المؤلف ، فهو الأخ الكريم الأستاذ الدكتور أكرم ضياء العمري ، فارس هذا الميدان بلا شك ، فقد كانت حياته العلمية -ومازالت مد الله في عمره- كلها في خدمة السيرة النبوية العطرة ، مدرّساً لها ، وباحثاً في جوانبها ، ومتأملاً في وقائعها وأحداثها ، وله بحوث ومنشورات عدة في هذا الميدان ، ويمتاز بأنه دائم المراجعة والتنقيح لما يكتب وينشر .

ثم هو قد أشرف على العديد من الرسائل الجامعية فوجهها إلى مجال خدمة السيرة ، ونقد مروياتها ، حتى صارت هذه الرسائل تمثل منهجاً ومدرسة لها حصادها وإنجازها ، الذي يُعين الباحثين على تقديم الدراسات التحليلية النافعة .

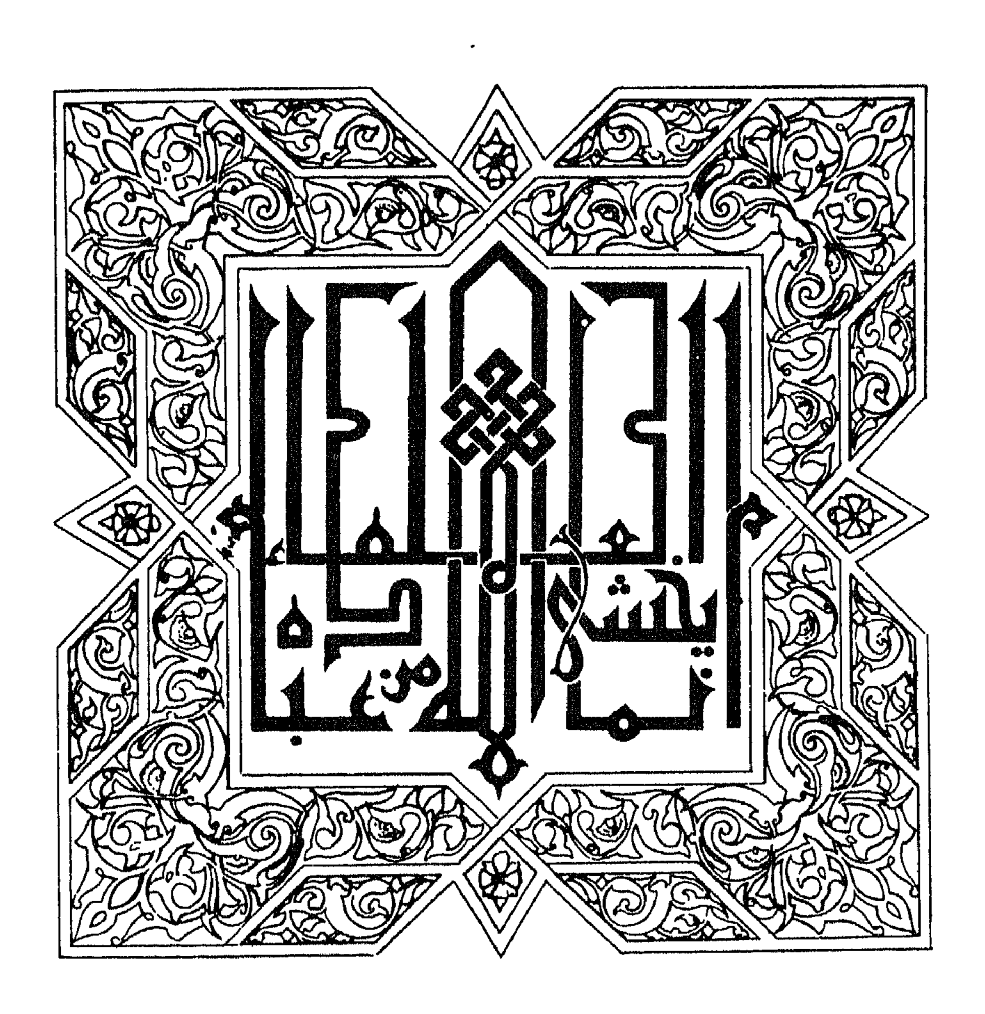
نعم . فالخطوة الأولى لدراسة السيرة ، بل التاريخ بصفة عامة ، هي تحرير المرويات وتدقيقها ، والتأكد من سلامتها وصدقها ، ثم ينفسح بعد ذلك المجال لتحليل وقائع السيرة وأحداثها ، واستلهام العبر والعظات منها ، وعسى أن يكون لنا في سلفنا الصالح أسوة ، حين قال قائلهم : « كنا نُعلِّم أبناءنا السيرة ومغازي رسول الله ﷺ ، كما نعلمهم السورة من القرآن » .

ونسأل الله سبحانه أن ينفع بهذا الكتاب مؤلفه ، وناشره ، وكل من بذل جهداً في سبيل إخراجه إنه سميع مجيب .

وكتب

أ . د . عبد العظيم محمود الديب

مدير المركز بالنيابة


انما يخشى الله من عباده العلماء

المقـدمـة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

إن الاهتمام بكتابة السيرة النبوية ظهر مبكراً في تاريخ الإسلام ، وقد تناولها بالتصنيف المؤرخون والمحدثون في القرون الأولى .

وتمتـاز كتـابـات المؤرخين مثل الواقدي والبلاذري بالعناية بمراعاة ترتيب الأحداث ترتيباً زمنياً وموضوعياً ، في حين تظهر التجزئة للأحداث في كتابات المحدثين الذين التزموا بقواعدالرواية وتمييز الأسانيد عن بعضها ، وربما قطّعوا الـرواية الـواحـدة فخـرَّجوا بعضها في مكان وبقيتها في مكان آخر لموضوعات (تراجم) مؤلفـاتهم ، كما يظهر ذلك جلياً في قسم المغازي الذي كتبه الإمام البخاري ضمن صحيحه ، ويظهر بصورة أخف في صحيح الإمام مسلم بسبب عنايته الخاصة بسرد المتون الطويلة وتحرير ألفاظها . لأنه أقل عناية من البخاري بتقطيع الرواية حسب تراجم كتابه .

وبعض المؤلفـين جمع بين صفتي المحـدث والمؤرخ مثـل محمد بن إسحق وخليفة بن خياط ، ويعقوب بن سفيان الفَسَوي ، ومحمد بن جرير الطبري ، وهؤلاء أفادوا من منهج المحدثين بالتزام سرد الأسانيد ومحاولة إكمال صورة الحادث عن طريق جمع الأسانيد أحياناً أو سرد الروايات التي تشكل وحدة موضوعية تحت عناوين دالّة .

ولكن سائـر الذين كتبوا في السيرة اهتموا بجمع ما أمكنهم من الروايات وتدوينها دون أن يشترطوا الصحة فيما يكتبونه ، وأحالوا القاريء على الأسانيد التي أوردوها ليعرف الصحيح من الضعيف ، ويشذ عن ذلك البخاري ومسلم حيث شرطا الصحة فيما روياه من روايات السيرة ضمن كتابيهما في الصحيح .

وكـان المتخصصـون في القرون الأولى يعرفون الرواة وأحوالهم والأسانيد وشروط صحتهـا ، فكـان بوسعهم الحكم على الروايات وتمييزها ، لكن هذه المعرفة بالرجال والأسانيد لم تعد من أسس الثقافة في القرون المتأخرة ، بل يندر أن تجد من يهتم بذلك من مثقفي هذا العصر ، لذلك جاءت كتابات المعاصرين من الكتاب والمؤرخين خلواً من تمييز الروايات وفق قواعد مصطلح الحديث ، ولكن كبار المؤرخين في عصرنا يترسمون مناهج (النقد التاريخي) الذي ظهر ونما في الغرب خلال القرنين الأخيرين ، وهم يتعاملون مع روايات السيرة من خلال هذه المناهج النقدية التي وضعت بعد استقراء الكتابات التاريخية الغربية ، ولم تكيف للتعامل مع الرواية التاريخية الإسلامية التي لها سماتها الخاصة والتي من أبرزها وجود سلاسل السند التي تتقدم الرواية عادة ، والتي يعتمد منهج المحدثين عليها بالدرجة الأولى في الحكم على الرواية بالصحة أو عدمها . مما أدى إلى ظهور مكتبة ضخمة مَعْنِيَّة بتراجم الرواة وبيان أحوالهم وإمكان التقائهم ببعضهم أو عدمه ، والحكم عليهم من خلال استقراء مروياتهم بالإضافة إلى رأي معاصريهم فيهم ، وهـذه الثـروة الهائلة من المعلومات والمكتبة النفيسة ظلت بمعزل عن الإفـادة منهـا في الـدراسـات التـاريخية المتعلقة بتاريخ الإسلام ومنها دراسات السيرة . وما أعظمها من خسارة أن نئد جهود المئات من كبار العلماء الذين قدموا لنا هذه الخدمة الخاصة بالتعامل مع « الرواية التاريخية الإسلامية » بسبب جهلنا بقيمتها والتزامنا الحرفي بمنهج النقد التاريخي الغربي (Historical Method) .

وهنا تلزم الإشارة إلى أن إهمال نقد الأسانيد في الرواية التاريخية الإسلامية والاكتفاء بنقد المتون يوقعنا في حيرة أمام الروايات الكثيرة المتعارضة عندما تكون متونها جميعاً متفقة مع المقاييس والقواعد النقدية العقلية ، وهذا يحدث مع كثير من تفاصيل الأحداث التاريخية ، وخاصة المتعلقة بتاريخ صدر الإسلام . إن ذلك يحتم على الباحث استعمال منهج المحدثين في نقد الأسانيد وإلا فإنه سيقف أمام العديد من المشاكل دون حل أو ترجيح .

إن هذا لا يعني غمط منهج النقد الغربي حقه ، والتعسف في الحكم عليه ، فلا شك أنه ثمرة عقول مفكرين كبار ، طوّروه من خلال التجربة والاستقراء ، فأضاف اللاحق منهم على السابق حتى وصل إلى ما وصل إليه من تكامل وشمول وعمق ، وهو يلتقي في كثير من جزئياته وقواعده وأصوله بمنهج العلماء المسلمين الذين سبقوا الغربيين في هذا الميدان بعدة قرون ، مما يدل على جذور التأثير الإسلامي في الفكر الأوروبي منذ أن حصل التماس بين الغرب وحضارة الإسلام في العصور الوسطى الأوروبية . خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن منهج البحث العلمي عند المسلمين لا يقتصر على معطيات مدرسة المحدثين ، فهناك معطيات أخرى يقدمها علماء أصول الفقه في منهجهم المنطقي العقلي وتتبلور في كتب أصول الفقه ، ومعطيات يقدمها علماء الطب والفلك والرياضيات المسلمون وتتمثل في منهج البحث التجريبي ، وهو المنهج الذي ارتبط في تاريخ الفكر الغربي باسم العالم روجر بيكون الذي عول في دراسته على كتب العرب وحدها كما يصرح غوستاف لوبون[1] ، وهو المنهج الذي يرجع إليه الفضل في بلوغ حضارة الغرب المادية إلى مستواها التقني الرائع . ولكن الذي يهم هذه المقدمة منهج المحدثين الذي يهتم مباشرة بالتعامل مع « الرواية الحديثية » وبالتالي يمكن سحبه إلى أقرب ميدان ليتعامل مع « الرواية التاريخية » وهو الذي يلتقي كثيراً مع « منهج البحث التاريخي » .

وقد استقر منهج المحدثين في كتب مصطلح الحديث منذ القرن الخامس للهجرة على يد الخطيب البغدادي ، ولم تلحق به إضافات أساسية ، وإن أعيدت الصياغة والترتيب لأغراض مدرسية على يد ابن الصلاح والقاضي عياض ، وجرت إضافات دقيقة نتيجة تطبيق الحافظ الذهبي والحافظ ابن كثير ومن بعدهما الحافظ ابن حجر لهذا المنهج في مؤلفاتهم ، ولكن المنهج لم يتعرض لتعديل

(١) غوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص ٢٦ .

جوهري ، بل تعتبر إضافات الذهبي وابن كثير وابن حجر في جزئيات القواعد العامة ، وهي إضافات مهمة تعطينا تصوراً لما كان يمكن أن يصل إليه هذا المنهج من الاكتمال لو استمرت الحركة الفكرية نشيطة في « عالم الإسلام » ولم يتوقف إبداعها ونموها في عصور التخلف الطويلة .

إن الجمع بين معطيات منهج المحدثين ومنهج النقد الغربي يعطي أمثل النتائج إذا حَكَمت الأخير معايير التصور الإسلامي ، ولا شك أن الدراسات التاريخية الإسلامية الحديثة ومنها دراسات السيرة النبوية مازالت في بداية الطريق ، وهي تحتاج إلى جهود هائلة للارتقاء بها إلى مستوى الدراسات التاريخية العالمية . ويكفي أن القاريء لدراسة حديثة في السيرة لا يكاد يحس فرقاً مهماً بينها وبين كتاب سيرة ابن هشام أو زاد المعاد على تباين أسلوب ومنهج الكتابين ، رغم التطور الهائل في الدراسات الاجتماعية في العصر الحديث . وما تقدمه العلوم الحديثة من معطيات ضخمة تخدم الدراسات الاجتماعية ، وللأسف فإننا نعيش على حافة العالم الحديث ولم نجرؤ على اقتحامه لنفيد من معطياته الثرية المتنوعة ، مع أن ما ورثناه من أسلافنا في حقل التأليف التاريخي أعظم بكثير مما ورثه المؤرخون الغربيون عن أسلافهم .

وإذا كان النقد التاريخي يبدو ضعيفاً في دراساتنا ، فإن التحليل للروايات والتعامل معها يبدو أكثر قصوراً ، بسبب النظرة التجزيئية للقضايا والسطحية في التعامل مع الروايات وعدم وضوح التصور الإسلامي لحركة التاريخ ودور الفرد والجماعة والعلاقة الجدلية بين القدر والحرية وقانون السببية والربط بين المقدمات والنتائج . فضلاً على أن الكتب التاريخية القديمة لا تمدنا بمنحى واضح في التحليل والتصور الكلي بسبب اعتمادها على سرد الروايات فقط ، إذ قلما يشير المؤرخ الإسلامي القديم للسنن والنواميس والقوانين الاجتماعية التي تحكم حركة التاريخ رغم أن القرآن الكريم لفت نظر المسلمين إلى ذلك كله بوضوح . بل إن أحداً من مؤرخي الإسلام لم يحاول إعادة صياغة النظرة القرآنية للتاريخ وتقديم

الـوقائع والتطبيقات والشواهد التاريخية عليها بشكل نظريات كلية حتى وقت متأخر عندما كتب ابن خلدون مقدمته ، رغم أن المفكرين المسلمين تعاملوا مع الفلسفة والمنطق منذ القرون الأولى وأفادوا منها في بناء علوم اللغة وأصول الفقه بوضوح وتصرفوا في ذلك بعقليتهم اليقظة التي تنفي ما يناقض المعتقد الإيماني والتصور الإسلامي ، ونجحوا في ذلك إلى حد كبير ، وكان نجاحهم في تخطي التجربة يرتبط بمدى وضوح العقيدة وصفائها في عقولهم .

ويرى العديد من الدارسين - وخاصة من المستشرقين - أن علماء المسلمين عنـوا بنقد أسانيد الروايات وأهملوا نقد متونها ، وقد يتصور البعض أن غياب العقلية النقـدية هو سبب إهمـال محاكمة المتن ، وهنا يلزم الانتباه إلى أن هذا الكلام ليس على إطلاقه ، فرغم توسع علماء المسلمين في نقد الأسانيد إلا أنهم لم يهملوا نقد المتون ومحاكمتها ، بل عنوا بذلك أيضاً ، ويصعب حصر الشواهد على ذلك لكثرتها ، ولكن لا بأس من الإشارة إلى بعض المحاكمات التاريخية التي استندت إلى نقد المتن .

لقـد رفض ابن حزم الـرقم الـذي ذكـرته المصادر الكثيرة عن عدد جند المسلمين في غزوة أُحد بناء على محاكمة المتن وفق أقيسة عقلية بحتة .

وقدَّم موسى بن عقبة غزوة بني المصطلق إلى السنة الرابعة مخالفاً معظم كتاب السيرة الذين يجعلونها في السنة السادسة ، وتابعه ابن القيم والذهبي بناء على نقد المتن ، حيث اشترك سعد بن معاذ بالغزوة وقد استشهد في أعقاب غزوة بني قريظة .

وقد وقع اختلاف في تاريخ غزوة ذات الرقاع بين قدامى المؤرخين بناء على محاكمة المتن ، فأخرها البخاري ، وتابعه ابن القيم وابن كثير وابن حجر إلى ما بعـد خيبر ، خلافـاً لرأي ابن إسحق والواقدي ، بناء على اشتراك أبي موسى الأشعري وأبي هريرة فيها ، وقد قدما على النبي ﷺ بعد فتح خيبر مباشرة .

وجرت مناقشات مستفيضة حول تاريخ تشريع صلاة الخوف ومعظمها مبني على محاكمة المتن .

وقد كشف الخطابي عن نسخ تحريم وادي وج بالطائف بناء على محاكمة المتن .

وهذه الموضوعات يمكن مراجعتها في مظانها من هذا الكتاب ، فهي نماذج مستقاة منه .

وهناك نماذج أخرى لا يتسع المقام لسردها ، ولكن لابد من الاعتراف بحقيقة تاريخية وهي أن القرون الثلاثة الأولى انصب فيها جهد المؤرخين على جمع الروايات وتدوينها وتصنيفها في الكتب ، مع قدر من الانتقاء ، يتضح من المقابلة بين المؤلفات ومصادرها الأقدم ، حيث يُسقط المتأخر مجموعة من روايات المتقدم ، كما فعل ابن هشام مع ابن إسحق ، والطبري مع مصادره الأولية .

ورغم أن الانتقاء نفسه يمثل عملاً نقدياً إلا أن الجهد الضخم الذي بذل في تثبيت الروايات وحفظها في الكتب استنفد طاقة الأوائل من المؤرخين ، وقام المتأخرون منهم بدور التلخيص لأعمال الأوائل والتذييل عليهم .

وتبرز في مؤلفات متأخرة محاكمات دقيقة للمتون كما يتضح ذلك بجلاء لمن يطلع على (البداية والنهاية) لابن كثير و (فتح الباري) للحافظ ابن حجر في شرحه لقسم المغازي من صحيح البخاري ، ولكن ذلك لا يعني أن نقد المتن تم بنفس التوسع الذي فازت به نصوص التاريخ الأوروبي في القرنين التاسع عشر والعشرين ، بعدما اكتملت مناهج النقد التاريخي ، ولكن هل من الإنصاف أن تُقَوَّمَ جهود القدامى بمقاييس حديثة هي من منجزات التقدم العلمي في كل ميدان عبر عدة قرون ؟ !

ومع ذلك فإن تقويم العقلية النقدية عند علماء المسلمين القدامي ينبغي ألا يتم من خلال الكتب التاريخية وحدها ، وإنما ينظر إلى جملة النتاج الفكري في الفقه والفقه المقارن (كتب أحاديث الأحكام) فلا شك أن كتب الفقه ركزت

على المتـون تركيزاً عظيماً تفسيراً وتوضيحاً وإعراباً واستنباطاً . ومن الواضح أن عمل المحدثين والفقهاء يتكامل ، فلا بد للمنصف أن يعترف بأن السنة النبوية نالت عناية عظيمة ومتوازنة من قبل العلماء المسلمين .

وتتضح في كتب أصول الفقه المحاكمات الدقيقة للمتون التي تكشف عن عقلية نقـدية فذة ، وإذا كان المؤرخون القدامى معظمهم له جهود في حقول العلوم الإسلامية الأخرى ، فإن الحكم عليهم ينبغي أن يكون من خلال تقويم جملة نتاجهم الفكري مع مراعاة عنصر الزمن حتى لا يغمطوا حقهم من التقويم .

وأيضاً لابد من توضيح أن الجانب النظري لنقد المتن كان متبلوراً إلى حد كبير منذ القرون الأولى في كتب مصطلح الحديث كما في أقسام المدرج والمعلل والمضطرب والشاذ والمنكر والموضوع وغيرها مما يدور الكلام فيها على نقد الأسانيد والمتون معاً ، ولكن القصور كان في تطبيق ذلك عملياً عند التعامل مع الرواية التاريخية التي لم تحظ بنفس القدر من النقد الذي حظيت به الأحاديث النبوية .

ولابد أيضاً من الإشارة إلى الموقف من المعجزات النبوية وإثباتها حيث إن للرسول ﷺ معجزات كثيرة وإن كان القرآن معجزته الدائمة الباقية .

إنَّ إثبـات المعجزة الخالدة (القرآن الكريم) ونفي بقية المعجزات الثابتة بالنقل الصحيح إنما هو في الحقيقة خضوع وانصياع للفكر المادي والفلسفات الوضعية ، ولا بد للمسلم من الاستعلاء والاعتزاز الذي يحقق له الاستقلال التام في النظر والبحث العلمي . ومن ثم فإن هذا البحث عُنِيَ بإثبات المعجزات جميعها عندما تثبت بالنقل الصحيح .

وقـد اهتم البحث بالإشـارة إلى الأحكام الفقهية وتاريخ تشريعها ، لأن التـاريخ للسـيرة ينبغي أن يعنى بالجانب التشريعي الذي يحتكم إليه المجتمع ويوضـح الضوابط الخلقية والقانونية التي تحكم حركة الأفراد والجماعات ، ولا يمكن الفصـل بين الجـانب السياسي والعسكري والجانب الخلقي والتشريعي

خاصة في القرون الأولى من تاريخ الإسلام حيث تتشابك العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية بالعقيدة والشريعة تشابكاً وثيقاً بحيث يصعب فهم حركة التاريخ في تلك المرحلة دون فهم روح الإسلام ومبادئه .

وقد لاحظ البحث إعطاء مساحة مناسبة لحركة الفرد إلى جانب الحركة الجماعية فمن خلال بعض الشخصيات تظهر ملامح وأبعاد الحركة التاريخية لقوة فاعليتهم وأثرهم في دفع عجلة التاريخ ، فليس من الصحيح إهمال أخبار الأبطال التاريخيين بحجة أنهم مجرد دمى في حركة المجتمع الواسعة . ولكن هؤلاء الأفراد لم يبرزوا لمجرد تفوقهم وامتيازهم على أقرانهم ووجود الاستعداد عندهم ، إذ ما كانت هذه السمات المميزة لتظهر لولا العقيدة التي مست شغاف قلوبهم وأوقدت وهجاً منيراً في عقولهم وبصيرة عميقة في نفوسهم ، فكان أن حدث التغيير الكبير في بناء الشخصية العربية ومقوماتها ، وهذا الفهم سيعطي الفضل الأكبر للعقيدة ويمنع الانزلاق نحو تمجيد « الفردية » والإغراق في غرس نزعة الاستعلاء والغرور . ويكفي أن الرسول ﷺ وهو بطل الأبطال كان ينحني لله تعالى ويخشع بالدعاء ويرد إليه الفضل أولاً وآخراً في كل نصر وفتح .

ولا يجد القاريء أي اهتمام بالرد على الشبهات التي أثارتها بعض الدراسات الحديثة في موضوعات السيرة وخاصة دراسات المستشرقين سواء كانت نتيجة تعسف في تفسير النصوص والأحداث بسبب الأهواء الدينية والعنصرية أو بسبب سوء الفهم للغة العربية أو للإسلام وأحكامه ونظمه ومقاصده ، وذلك لأن هذا المؤلَّف قصد إلى رسم معالم السيرة بصورة صحيحة ، وهو جانب إيجابي يستحق أن يُفْرَد فيه مصنف ، ولا يعني ذلك التقليل من أهمية تصحيح الأخطاء سواء كانت عفوية أم مقصودة ، وقد نهضت بهذا العبء دراسات أخرى في الموضوع ، وإن كنت أعتقد أن الاهتمام بالتاريخ الإسلامي ينبغي أن ينصب أولاً على إعادة البناء قبل تناول الشبهات .

إن هذه الدراسة التي أقدم لها لا تمثل طموحي ، ولكنها محاولة للإفادة من منهج المحدثين في نقد الرواية التاريخية ، ويظهر فيها التركيز على نقد الأسانيد والرواة إلى جانب نقد المتن ، وخاصة في عملية الانتقاء من مجموع الروايات الضخمة التي دونها القدامى في السيرة . إذ أن الاعتماد على الروايات التي صححها النقاد القدامى أحياناً ، أو الإفادة من منهجهم في تصحيح أو تضعيف ما لم يحكموا عليه من الروايات ، هو أهم ما تهدف إليه هذه الدراسة ، لينال البحث ثقة القاريء ، وليعطي أصدق صورة عن السيرة .

وقد تبرز معان خلقية ودينية مؤثرة في الروايات التي أهملتها ، لكنني لم أكترث لذلك ما دامت ضعيفة الثبوت ، وقد ظهر جلياً أن الاعتماد على صحيح الروايات وَحَسَنها يكفل توضيح الأبعاد التاريخية للسيرة النبوية دون حاجة إلى الضعيف من الروايات .

ويلاحظ القاريء أن الروايات الضعيفة من الناحية الحديثية لم تستبعد نهائياً بل تمت الإفادة منها في الموضوعات التي لا تتعلق بالعقيدة أو الشريعة ، حيثما لم نجد روايات صحيحة وفق معايير المحدثين ، حيث يمكن التعامل معها وفق معايير منهج النقد التاريخي .

ويلاحظ الاهتمام في هذه الدراسة بنقل الخبر عن شاهد عيان مشارك بالحادثة ، وهو منهج معتبر في الدراسات التاريخية المعاصرة ، كما أنه معتبر في الدراسات الحديثية في القرون الهجرية الأولى ، ونلحظ أن الإمام البخاري في صحيحه كثيراً ما يختار الرواية من طريق الصحابي المشارك بالحادثة ، كما فعل في نقل قصة الإفك عن عائشة رضى الله عنها ، وسبب نزول سورة المنافقين عن زيد ابن أرقم ، وسبب نزول سورة الجمعة عن جابر بن عبد الله الأنصاري ، وقصة نزول سورة التحريم عن عائشة ، إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة[1] . فشاهد

---

(١) عصام عبد المحسن الحميدان : أسباب النزول وأثرها في التفسير ٣٧ - ٣٩ (رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة مقدمة لقسم القرآن وعلومه بكلية أصول الدين بجامعة محمد بن سعود الإسلامية) .

العيان أدق رواية إذ تشترك الحواس العديدة من العين والسمع واللمس في ضبط الخبر . . . وهذا أقوى من النقل بواسطة السمع فقط كما يحدث عندما يغيب عن الرواية شاهد العيان .

إن هذه الدراسة لم تبن على انتقاء للروايات يرتبط بخدمة فكرة معينة ويهدف لتحقيق كسب (ايديولوجي) بل إنه انتقاء للقوي من الروايات سواء عومل بمعايير المحدثين أو بمعايير النقد التاريخي .

وبالتالي فإن الصورة التي ستعطيها الروايات هى أقرب الصور إلى الحقيقة التاريخية ، خاصة أن فهمها والاستنباط منها تم وفق أساليب العربية وقواعدها دون أي تعسف أو تمحل في التفسير .

وينبغي الانتباه إلى أن الانتقاء عندما يتم وفق قواعد صارمة ، فإنه يدع مجالاً لتفلت العديد من النصوص التاريخية التي يمكن التعامل معها وفق معايير أقل صرامة ، ومن ثم فإن قراءة نصوص الواقدي وفق منهج النقد التاريخي تتيح الفرصة لإضافات أخرى لمادة السيرة ، وهذا ينطبق على الروايات التي أوردها ابن إسحق دون إسناد ، كما ينطبق على روايات ابن سعد التي نقلها عن ابن الكلبي . . .

إن هؤلاء الرجال المتخصصين في فن السيرة قد عوملوا من قبل النقاد القدامى بتساهل كبير بغية الإفادة من رصيدهم التاريخي الهائل .

إن الأمور المتفق عليها بين هؤلاء الإخباريين يمكن أن تحتل مكانها في الدراسات التاريخية مالم تتعلق بالعقيدة أو الشريعة . .

أما بخصوص الآيات التي استشهدت بها في هذه الدراسة فقد راجعت الروايات المتعلقة بأسباب النزول وأثبت ما تبين أنه نزل في الحادثة التاريخية أو تعقيباً عليها .

وقد نبه الحافظ ابن حجر إلى أنه « يوجد كثير من أسباب النزول في كتب المغازي ، فما كان منها من رواية معتبر بن سليمان عن أبيه - يعني سليمان بن طرخان التيمي صاحب السيرة - أو من رواية إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة عن عمه موسى بن عقبة ، فهو أصلح مما فيها من كتاب محمد بن إسحاق ، وما كان من رواية ابن إسحق أمثل مما فيها من رواية الواقدي »[1] ..

ومعنى أسباب النزول ذكر الأحداث والأسئلة التي نزل بشأنها وقت وقوعها[2] أو بعده بيسير[3] . ولكن دراسة روايات أسباب النزول للإفادة منها تاريخياً تقف أمامها عوائق عديدة أهمها الاختلاف القديم حول سبب نزول العديد من الآيات . وخاصة عندما تتعارض الروايات الصحيحة في هذا المجال كما يحدث في كتاب التفسير من صحيح البخاري . وعندما يصار إلى محاولة الجمع بالقول بتعدد المرات التي نزلت فيها الآية الواحدة[4] فالقصص قد تتعدد ، والأحداث المتماثلة تتوالى في وقت متقارب ، مما يحتاج إلى جواب أو فتيا ، فتنزل الآية لتجيب أصحاب الوقائع عن حكم ما حدث لهم . لذلك قال ابن حجر : « لا مانع أن تتعدد القصص ويتعدد النزول »[5].

---

(١) ابن حجر : العجاب في بيان أسباب النزول ق والسيوطي : الدر المنثور ٨ / ٧٠٢ .

(٢) مثل سبب نزول (ويسألونك عن الروح) الإسراء ٨٥ فيما أخرجه البخاري ٨ / ٤٠١ حديث رقم ٤٧٢١ ومسلم حديث رقم ٢٧٩٤ .

(٣) مثل حادثة الإفك فإنها سبب نزول الآيات (صحيح البخاري حديث رقم ٤٧٥٠ وصحيح مسلم حديث رقم ١٧٩٧) .

(٤) ابن حجر : فتح الباري ٨ / ٢٣٣ ، ٢٨٢ ، ٤٥٠ .

(٥) فتح الباري ٨ / ٤٥٠ وانظر : عصام عبد المحسن الحميدان : أسباب النزول وأثرها في التفسير ٤٥ حيث أورد جميع ما ظهر فيه تعارض بين روايات البخاري في أسباب النزول .

وتجدر الإشارة إلى أن صحيح البخاري من أوسع كتب السنة التي استقصت روايات أسباب النزول إضافة إلى أنها في أعلى درجات الصحة[1] . وأن أوسع الصحابة رواية لأسباب النزول هو ابن عباس[2] . ويلي صحيح البخاري في كثرة العناية بأسباب النزول مستدرك الحاكم[3] ومعظم ما أورده الحاكم من حديث ابن عباس (٢٩ رواية) ويليه حديث عائشة (٧ روايات) .

أما أوسع كتب السنة رواية لأسباب النزول فهو مسند أحمد (٢٨ رواية) معظمها صحيح وقليل منها ضعيف ، حيث أورد معظم ما أورده البخاري وزاد عليه[4] .

وتبقى كتب التفسير التي تكفلت ببيان أسباب النزول سواء كانت الرواية مرفوعة أو موقوفة على الصحابة شاهدي العيان أم كانت موقوفة على التابعين فمن بعدهم ، وخاصة تفسير الطبري الذي احتوى على خمسمائة سبب نزول غير مكررة[5] وقد يخرج للآية الواحدة خمسة أسباب لكنه لا يلتزم صحة الروايات ، وأكثرها موقوف أو مقطوع[6]. والآيات التي وردت روايات صحيحة مسندة إلى الصحابة في أسباب نزولها لا تكاد تبلغ الثلاثمائة من عدد آي القرآن (٦٢٠٠ آية)[7] .

وقد اختصت بعض الكتب بحصر الروايات في أسباب النزول وهي : « أسباب النزول » للواحدي ، و « لباب النقول » للسيوطي ، و « العجاب في الأسباب » لابن حجر العسقلاني ، وهذه الكتب هي العمدة في هذا الفن ، وقد بلغت زيادات السيوطي على الواحدي ٣٧٠ رواية[8] .

* * *

---

(١) - (٨) عصام عبد المحسن : أسباب النزول ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٩٧ ، ٩٨ - ٩٩ ، ١٦٢ ، ١٩٢ حاشية ٢ .

لقد قمت بتدريس السيرة النبوية عشرين سنة في كلية الآداب بجامعة بغداد أولاً ثم في الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وقد دونت محاضراتي لطلبة الجامعتين ، ونقحتها مراراً ، ونشرت بعض الموضوعات منها[١] . على أمل أن أعيد النظر فيها لإعدادها للنشر كاملة ، ثم واتتني الفرصة لإعادة كتابة قسم السيرة منها بعد أن أشرفت على رسائل العديد من طلبة الدراسات العليا لمرحلتي الماجستير والدكتوراه في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وقد وجهت تلك الرسائل إلى نقد مرويات السيرة النبوية وتحكيم مناهج النقد عند المحدثين فيها . فكانت محاولة ضخمة طبقت فيها تلك القواعد على سائر الروايات التي أوردتها كتب الحديث والتاريخ والتراجم والأدب عن السيرة ، وتقع هذه الرسائل في أكثر من ستة آلاف صفحة (فولسكاب) وقد استغرق تنفيذ هذا المشروع أكثر من عشر سنوات (١٩٧٦ - ١٩٨٨) ، ويعتبر أعظم إنجاز في توثيق مرويات السيرة النبوية رغم ما يكتنف التجارب الأولى من قصور في العادة[٢] ، وأملي كبير في أن يتمكن الباحثون من تطوير هذا الإنجاز والإفادة منه

---

(١) منها (أول دستور أعلنه الإسلام) - دراسة في كتابه ﷺ بين المهاجرين والأنصار واليهود في المدينة) نشر في مجلة كلية الإمام الأعظم سنة ١٩٧٢م .
و (أهل الصفة) نشر في مجلة الدراسات الإسلامية ١٩٦٨م .
و (موسى بن عقبة ، أحد رواد المغازي الأوائل) نشر في مجلة كلية الدراسات الإسلامية ١٩٦٧م .
و (نظرة في مصادر السيرة النبوية) نشر في مجلة كلية الدراسات الإسلامية ببغداد ١٩٧٠م .

(٢) نوقش من هذه الرسائل ما يلي :
١ - مرويات غزوة بني المصطلق (رسالة ماجستير) للدكتور إبراهيم القريبي ، أعدها بإشرافي ، ونشرها المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .
٢ - مرويات غزوة حنين وفتح الطائف (أطروحة دكتوراه) أعدها بإشرافي الدكتور إبراهيم القريبي ، ويقوم المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية بنشرها حالياً .
٣ - مرويات غزوة أحد (رسالة ماجستير) أعدها بإشرافي الدكتور حسين الباكري .
٤ - مرويات فتح مكة (رسالة ماجستير) أعدها بإشرافي محسن الدوم - رحمه الله .
٥ - مرويات السيرة في العهد المكي إلى نهاية حادث الإسراء والمعراج (رسالة ماجستير) ، أعدها بإشرافي عادل عبد الغفور .
=

ليتم إعـادة تحليل السيرة وعرضها من جوانبها المختلفة بالاعتماد على الروايات المـوثقة ووفق التصور الإسلامي الصحيح للأحداث والدوافع والسمات . لقد أغنت هذه الـرسـائل الجامعية تجربتي في كتابة السنة ، ومكنتني من الاستقراء الشامل من جديد لسائر مرويات السيرة مع الموازنة بينها والتأمل فيها خلال عشر سنوات انصرمت . ومازال العديد من الرسائل يكتب في السيرة بإشرافي . وإنني آمل أن يفيد المعنيون بكتابة السيرة النبوية من هذه الرسائل الجامعية في تقديم دراسات تحليلية نافعة ، وهو الجانب الذي مازال بحاجة إلى عناية كبيرة من قبل الكتـاب المتمـرسـين وأصحاب الأقلام الراسخين والمفكرين الناضجين وذلك خدمـة للسـيرة النبوية وتعميقاً للمعاني السامية التي تحتاجها الأجيال الصاعدة

= ٦ - أمهات المؤمنين (أطروحه دكتوراه) ، أعدها بإشرافي الدكتور عبد العزيز آل عبد اللطيف .
٧ - مغازي موسى بن عقبة (رسالة ماجستير) ، أعدها محمد باقشيش بإشرافي .
٨ - مرويات تاريخ يهود المدينة (رسالة ماجستير) ، أعدها الدكتور أكرم حسين علي بإشرافي .
٩ - السرايا والبعوث في عصر السيرة النبوية (رسالة ماجستير) يعدها بريك محمد بإشرافي .
١٠ - مرويات صلح الحديبية ، (رسالة ماجستير) أعدها الدكتور حافظ محمد الحكمي ، بإشراف الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد .
١١ - مرويات غزوة بدر ، (رسـالـة ماجستير) أعدها الدكتور أحمد العليمي ، بإشراف الدكتور السيد الحكيم .
١٢ - مرويات غزوة خيبر ، (رسالة ماجستير) ، أعدها الدكتور عوض الشهري ، بإشراف الدكتور السيد الحكيم .
١٣ - أحاديث الهجرة (رسالة ماجستير) أعدها الدكتور سليمان السعود ، بإشراف الدكتور السيد الحكيم .
١٤ - مرويات غزوة تبوك ، (رسالة ماجستير) أعدها عبد القادر السندي ، بإشراف الدكتور محمد خليل هراس ، بجامعة أم القرى بمكة المكرمة .
١٥ - السـيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحق في العهد المكي (أطروحة دكتوراه) أعدها الدكتور سليمان العودة ، بإشراف الدكتور عبد الله بن يوسف الشبل ، بجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية .
١٦ - مرويات غزوة الخندق ، أعدها الدكتور إبراهيم محمد عمير ، بإشراف الشيخ عبد المحسن ابن حمد العباد .

بدرجة لا تقل عن الضرورات من وسائل المعيشة التي تسعى تكنولوجيا العصر إلى تهيئتها للإنسان ، إذ إنما يمتاز الإنسان بروحه وعقله وهما ينموان بالمعاني التي تغذيهما كما يغذي الطعام الجسد وإلا فإن إنسان الغد سيتحول إلى جسد بلا روح .

إن التخلف في مستوى النتاج الفكري الإسلامي لن يؤدي إلا إلى رضاع الأجيال من لبان العقول الغربية التي تشبعت عبر قرون طويلة بجفاف المادية القاتلة والبُعد عن الله تعالى والتمرد على القيم الروحية والانقياد للفكر الوضعي الحـائر . وإن ما صارت إليه المجتمعات الغربية المعاصرة من أخطار اجتماعية وخلقية هو نتاج الشجرة المسمومة التي غذتها الأفكار العلمانية فلابد أن يسعى مفكـرونـا لتجنيب أجيالنـا أن تمر في نفس الأطـوار الاجتـماعية التي مرت بها أوروبا . . وخير سلاح أن ترضع الأجيال المعاصرة من لبان الإسلام وفكره فهو خير سبيل للوقاية من أخطار المادية القاتلة .

وأملي كبير في نقد هذه التجربة وتقويمها من قبل العلماء المدققين والباحثين المعنيين بدراسات السيرة والتاريخ الإسلامي للإفادة من آرائهم في هذا الشأن إذ مازلنا في أول الطريق نحو تطبيق منهج المحدثين في نقد الروايات التاريخية في القـرون الأولى ، وهو أمر عسير يحتاج إلى استيعاب دقيق لمصطلح الحديث ، ومرونة في التعامل وفقه مع الرواية التاريخية .

لقد سبق أن نشرت المقدمة والبابين الأول والثاني من (السيرة الصحيحة) بعنوان (المجتمع المدني) ولكنني في هذه الطبعة الجامعة نقحت ما سبق نشره وضممت إليه فوائد جديدة .

والله أسأل أن يتقبل عملي ويجعله من حسناتي في حياتي وصدقاتي بعد مماتي إنه خير مأمول وأعظم مسئول ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أكرم ضياء العمري

المدينة المنورة



منهج كتابة تاريخ صدر الإسلام

ومصادر السيرة النبوية

منهج كتابة تاريخ صدر الإسلام

من الثغرات التي انتبه لها المفكرون المسلمون في بداية الستينات من هذا القرن قضية إعادة صياغة التاريخ الإسلامي وفق التصور الإسلامي لحركة التاريخ من ناحية التفسير التاريخي ، ووفق مناهج المحدثين من ناحية البحث في التاريخ الإسلامي . . . ولاشك أن تقديم المقترحات والملاحظات حول إعادة صياغة التاريخ الإسلامي خلال أربعة عشر قرناً في غاية الصعوبة ، لطول الفترة الزمنية من ناحية ، ولتنوع المصادر واختلافها من حيث التنظيم وطرق العرض واختلاف الجوانب التي تستحق التركيز عليها في كل حقبة ، وظهور انحراف عن الإسلام في الحياة السياسية منذ فترة مبكرة ، ثم انحرافات أخرى في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والتربوية في الفترات المتأخرة ، ثم انحراف أخطر عن العقيدة والشريعة في القرن العشرين ، مما يؤثر في تفسير دوافع حركة « التاريخ الإسلامي » .

ولذلك سأقصر كلامي على إعادة صياغة تاريخ صدر الإسلام ويشتمل على السيرة النبوية المطهرة وعصر الراشدين حيث يقوي تأثير العقيدة في دوافع سلوك المسلمين من ناحية ، كما أن المصادر تتشابه من ناحية التزامها بسوق الروايات تتقدمها الأسانيد على طريقة المحدثين في الغالب ، وكذلك لخطورة تاريخ صدر الإسلام حيث يمثل التطبيق الصحيح لتعاليم الإسلام الكاملة الشاملة ، فهو الصورة النموذجية والمثال الذي نسعى بمجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة للوصول إليه ، وسأتعرض لبعض ملامح التصور الإسلامي للتفسير التاريخي ، ثم أتعرض لمنهج البحث التاريخي وفق قواعد مصطلح الحديث مع تمهيد لذلك ببيان الحاجة إلى كتابة تاريخنا بأقلام إسلامية .

إن تاريخ الأمم الأخرى كتب بأقلام أبنائها وإن أسهم فيه غيرهم ، والأصل أن نحمل -نحن المسلمين- مسئولية كتابة تاريخنا بأيدينا ، وأن نعرف

بحضارتنا ومبادئنا وقيمنا وفق فهمنا لها ، وإن أسهم الآخرون في الكتابة معنا فإنها مشاركة محدودة وليست هي الأصل في تصورنا لتاريخنا ولا في عرضنا له أمام أنظار العالم .

إن ما حدث هو عكس ماينبغي ، حيث إن التخلف الحضاري للعالم الإسلامي ينعكس على تقويمه لتاريخه . إن البعض من المعنيين بالتاريخ ما بين ناكصين عن الإسلام كارهين لتاريخه معتقدين أنه سبب التأخر الحضاري في ديار الإسلام وهم يحملونه حتى مسئولية الهزائم العسكرية أمام يهود ، وهؤلاء يؤمنون بضرورة إحداث فجوة بين الماضي والحاضر وعزل الأجيال الإسلامية الجديدة عن الإسلام . وتراثه الأدبي ، أو كسالى احترفوا الكتابة التاريخية فهم يسودون الصحف البيضاء بما يترجمونه من كتب المستشرقين التي يجدون فيها مادة للتدريس والكتابة لا تكلفهم عناء البحث والتدقيق والتأليف ، ولا يبالون بعد ذلك بالسموم التي ينفثونها في المجتمع الإسلامي .

إن مما ساعد على ذلك تخلف الحركة الفكرية في العالم الإسلامي وعدم مواكبتها للحركة الفكرية العالمية ، وذلك مرتبط بما حدث من تباين حضاري بين الشرق والغرب منذ عهد النهضة في أوروبا ، فقلما تجد دراسة تاريخية جادة كتبت من قبل المسلمين في القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين ، فلا غرابة إذا ما كانت معظم الدراسات التاريخية التي قام بها المسلمون في تلك الفترة صدى وانعكاساً لآراء وأفكار المستشرقين .

أما المؤمنون بالإسلام ، العاملون على توثيق صلة الأجيال الجديدة به ، فهم يحملون عبئاً ضخماً ومسئولية كبيرة في هذا الميدان ، لأنهم وحدهم القادرون على التصور الصحيح للتاريخ الإسلامي والمجتمع الإسلامي ، ويتذوقون طعم الإيمان ويحسون بأثره على سلوكهم مما يمكنهم من فهم دوافع حركة الفرد المسلم والمجتمع المسلم وبالتالي حركة التاريخ الإسلامي .

إن التفسير الإسلامي منبثق من تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان ، فهـو يقوم على الإيمان بالله تعالى وكتبه ورسله ، وباليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى ، وهو لا يخرج عن دائرة المعتقدات الإسلامية ، وهو مبني على فهم دوافع السلوك في المجتمع الإسلامي الأول مما يجعل حركة التاريخ الإسلامي ذات طابع متميز عن حركة التاريخ العالمي لأثر الوحي الإلهي فيه . وهو ليس تفسيراً تبريرياً بل تبرز فيه خصائص الإيمان المستعلي على ما سواه . كما أنه ليس تفسيراً مادياً يحصر المؤثرات على حركة التاريخ البشري في العوامل المادية كتبـدل وسائل الإنتاج - كما في الفكر الماركسي ، أو التفسيرات المعتمدة على أثر البيئة الخارجية (من مناخ وجغرافية واقتصاد . . .) . كما في الفكر المادي الغربي ، بل هو يوضـح دور الإنسان ومسئوليته عن التغير الاجتماعي والتاريخي في إطار المشيئة الإلهية . وكذلك فإنه ليس عنصرياً يركز على دور شعب بعينه ، بل يقوم دور الشعـوب الإسلامية وفق حجمها وعطائها الحقيقي . كما أنه ليس طائفياً يوجه التاريخ لخدمة مذهب معين أو طائفة على حساب الحقائق التاريخية . وكل هذه الملامح تحتاج إلى تفصيل كثير لا مجال له في هذا الكتاب ، لكنني سأفصل بعض هذه الملامح فقط ، وأرجئ تفصيل بقية الملامح إلى وقت آخر إن شاء الله تعالى .

ملامح التصور الإسلامي
للتفسير التاريخي

١ - مراعاة الحقائق التي قررها القرآن الكريم : مثلاً (الأصل في عقائد البشر التوحيد لا الشرك) الأصل في عقيدة البشر التوحيد من لدن آدم عليه السلام ، ثم طرأ عليهم الشرك (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) أي كانوا أمة واحدة على التوحيد ، فلما تركوه وانحرفوا عنه أرسل الله تعالى الأنبياء ليردوهم إليه . هذا ما قرره القرآن الكريم ، فإذا راجعنا كتب التاريخ القديم ، وجدنا المؤرخ المنتسب للإسلام يقرر ما يخالف القرآن حيث يذكر أن الأصل عبادة الحيوان والكواكب والقوى الطبيعية ، ثم نتيجة ارتقاء العقل البشري وصل إلى التوحيد . . وهم يعتبرون الفرعون « اخناتون » أقدم الموحدين لأنه دعا إلى عبادة الشمس وحدها دون بقية المعبودات عند المصريين .

إن هذا التقرير يرجع إلى أمرين :

الأول : إنكار الوحي والنبوة حيث اعتبر ظهور العقائد الدينية وتطورها من تعدد الآلهة إلى التوحيد مجهوداً بشرياً نتيجة الارتقاء العقلي والثقافي .

الثاني : التأثر بنظرية داروين وتطبيق نظرية النشوء والارتقاء في مجال العقيدة الدينية .

على أن من الحق أن نذكر فكرة شاملة تتطابق مع النظرة القرآنية طرحها عالم الأجناس البشرية إيفار ليسسنر في كتابه (الإنسان والله والسحر) تقول : « إن أسلافنا البدائيين قد اعتقدوا بوجود إله واحد ، ثم انحطوا بالتدريج بسبب النفوذ الشرير لسحرة القبائل وساحراتها وتحولوا إلى عباد لآلهة متعددة »* .

إن المطلوب من المؤرخ المسلم أن يستوعب كليات التصور القرآني للتاريخ البشري ويلتزم به في الكتابة التاريخية ، ولو ظهرت بعض النظريات التي تخالف بعض هذه الكليات فليتهم هذه النظريات ما دامت لم تصبح حقائق قطعية ،

* اقتبسه كولن ولسن : الإنسان وقواه الخفية : ١٥٧ .

ومعظم استنتاجات التاريخ القديم ترتكز على علم الآثار والحفريات ، وهي تعطي معلومات مشتتة لا تكفي لتغطية الفجوات الكبيرة في التاريخ البشري القديم ، وإذا كان المؤرخ غير المسلم لا يستطيع التصور إلا من خلال الآثار المادية التي تزوده بالمعلومات . . فإن المؤرخ المسلم يستند إلى القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو الكتاب الإلهي الوحيد الذي لم ينله التحريف والتبديل وهي نعمة عظيمة أنعمها الله تعالى على المسلمين بحفظ كتابه يتلونه كما أنزل في كل عصر ، مطمئنة نفوسهم إلى أنه « كلام الله » مما له أعمق الأثر في نفوسهم وعقولهم وسلوكهم وشخصيتهم وطبيعة مجتمعهم وحضارتهم ، وهو أمر لم يتحقق لأمة أخرى غير الأمة الإسلامية .

٢ - تفسير دوافع السلوك عند المسلمين في صدر الإسلام : إن دوافع السلوك في المجتمع الإسلامي الذي تهيمن عليه العقيدة تتأثر كثيراً بالتطلع إلى ما عند الله . . . إلى الجزاء الأخروي ، وصفوة المؤمنين لا يشركون دوافع أخرى في سلوكهم ، إذ لا بد من إخلاص النية لله تعالى في كل أعمال المسلم سواء كانت جهاداً بالنفس أو نشاطاً اجتماعياً أو اقتصادياً أو سياسياً ، فنشاط المسلم في كل مجالات الحياة يدور حول محور - إرضاء الله تعالى - ويعرف المسلم أنه إذا أشرك في نيته فإنه يحبط عمله كما في الحديث الشريف « إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له وابتغى به وجهه » وإذا كان هذا التصور يتحكم في الكثير من المسلمين الواعين اليوم فكيف كان أثر ذلك في جيل الصحابة والتابعين والأتباع - وهم خير القرون - إذاً ؟ .

إن معرفة أثر الإسلام في تربية أتباعه في صدر الإسلام وتزكية أرواحهم وتثقيف عقولهم وإخلاص عقيدتهم وتوجههم إلى الله وحده بالعبادة والمجاهدة ، يجعل من البدهي التسليم بأن الدافع لهم في مشاركتهم في الفتوح ونشر الإسلام والتمكين له وتنظيم المناطق المفتوحة والاجتهاد في حل المشاكل والأقضية المستجدة وفق تعاليم الإسلام ، لم يكن دافعاً دنيوياً ولا رغبة في التسلط

والاستحواذ ولا طمعاً في خيرات البلاد المفتوحة ولا فراراً من شظف الحياة في الصحراء كما يقول كايتاني وغيره من المستشرقين .

روى الطبري خبر مفاوضة المغيرة بن شعبة لرستم ، وما رد به على عروض رستم المادية مقابل تخلي المسلمين عن القتال حيث أجابه المغيرة بقوله : « أتيناكم بأمر ربنا نجاهد في سبيله ، وننفذ لأمره ، وننجز موعوده ، وندعوكم إلى الإسلام وحكمه ، فإن أجبتمونا تركناكم ورجعنا وخلفنا فيكم كتاب الله ، وإن أبيتم لم يحل لنا إلا أن نعاطيكم القتال أو تفتدوا نفوسكم بالجزية فإن فعلتم وإلا فإن الله قد أورثنا أرضكم وأبناءكم وأموالكم . فاقبلوا نصيحتنا ، فوالله لإسلامك أحب إلينا من غنائمكم . . . »[1] .

وروى الطبري أن ربعي بن عامر دخل على رستم قائد الفرس في مجلسه فسأله : ما جاء بكم ؟ فقال : « الله ابتعثنا ، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد . . . إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه ، لندعوهم إليه » ، إن ما قاله كل من ربعي بن عامر والمغيرة بن شعبة للفرس لم يكن يعبر عن شعور فردي ، وإنما كان يمثل الفكرة المهيمنة على قيادة المسلمين ومعظم جندها المجاهدين ، ولا يمنع هذا القول من مشاركة بعض الأعراب في الجهاد ممن تحفزهم العوامل المادية إلى جانب الرغبة في الجهاد ، لكن هؤلاء لا يمثلون قيادة الحركة ولا روحها الموجهة ، وإنما أقرر ذلك لأن المجتمع المسلم مجتمع بشري فيه الصفوة الخيرة التي تلتزم المثل العليا وتخلص النية لله وتجعل كل همها كسب رضاه ، وفيه طبقات دونها تأخذ نفسها بالحد الأدنى الذي يحقق لها صفة الإسلام .

وينبغي أن يتقرر بوضوح كامل أن تفسير حركة التاريخ الإسلامي في صدر الإسلام لا يمكن أن يقوم به إلا المسلم الذي يردد كل يوم قول الحق تعالى لنبيه

---

(١) الطبري : تاريخ ٣/٥٢٠ ، ٥٢٨ .

﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت ﴾[1] . والذي تفاعل قلبه وشعوره مع القرآن والسنة وأحس بأثرهما في صياغة شخصيته وتحديد دوافع سلوكه . ومن هنا جاءت التفسيرات الغربية والاستشراقية قاصرة عن فهم دوافع السلوك عند المسلمين في صدر الإسلام ، فمثلاً عندما يعرض المستشرق الأب (لا مانس) لحادثة سقيفة بن ساعدة - وهي سابقة رائعة لتطبيق الشوري الإسلامية ، حيث اقتنعت الأكثرية برأي الأقلية - فإن صور المؤامرات في البلاط الفرنسي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر تشوه رؤيته لأحداث السقيفة ، فيطلع علينا بصورة مشوهة عندما يقرر تآمر أبي بكر وعمر وعثمان (رضى الله عنهم) واتفاقهم على انتزاع الخلافة والتعاقب عليها فيما بينهم في سقيفة بني ساعدة .

إن الدراسات الاستشراقية وهي كثيرة جداً ومتباينة من حيث المستوى والدقة العلمية والبعد عن التعصب الديني والقومي ، لكنها على العموم تصدر عن مفكرين عاشوا في بيئة بعيدة عن الإسلام لها حضارتها وفلسفاتها ومقاييسها وأذواقها ، فيصعب عليهم تذوق الإسلام وبالتالي يتعذر عليهم فهم دوافع سلوك المسلم في حركته الفردية والجماعية ، وهم يقيسون على التاريخ الأوروبي في تفسيرهم لحركة التاريخ الإسلامي رغم اختلاف طبيعة التاريخين ، ولا نغفل عن كون الأوروبيين عموماً ينظرون إلى العالم من خلال موقفهم المتفوق عسكرياً وتكنولوجيا ، فهم ينسبون كل مأثرة لأنفسهم وكل منقصة لسواهم . وعندما أرخ توينبي لحضارات العالم أعطى الحضارة الإسلامية مساحة ضيقة لا تتناسب مع حجمها ودورها الحقيقي في التاريخ العالمي .

إن أعظم قصور يواجه الدراسات الاستشراقية هو عجزها عن التصور السليم للإسلام وروحه وأثره في المجتمع الإسلامي وحركته التاريخية ، وهو

---

(١) الأنعام آية ١٦٢ - ١٦٣ .

قصـور كبـير يمنع إمكان الاعتماد على هذه الدراسات خاصة في عصر السيرة والراشدين حيث تتطابق النظرية الإسلامية مع الواقع التاريخي

٣ - تقويم الحضارة يرتبط بمدى ملاءمتها لعبادة الله : إن المؤرخ المسلم لا يحكم على المستوى الذي تبلغه أية حضارة من خلال منجزاتها المادية فقط ، وإنما ينظر إلى مدى تحقيقها للهدف الأساسي الذي وضعه « الخالق » عز وجل لـ « خلقه » ، قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ . فالحضارة السامية في نظر المسلم هي التي تهيىء الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والمادية الملائمة لتوجه الإنسان نحو توحيد الله وإفراده بالعبودية والتزام تعاليمه في كل ألوان النشاط الذي يمارسه ، دون أن تعيقه المؤسسات والأجهزة القائمة في المجتمع أو توقعه في التناقض بين « عقيدته » و « سلوكه » ودون أن تضغط عليه لتحرفه عن التزامه أمام رب العالمين . لذلك مهما تقدمت الحضارة في العلوم والمعارف والآداب والفنون ، ومهما تفننت في ريازة الدور والقصور وفي الأثاث واللباس والطعام . . وفي تيسير الحياة المادية الرخية للإنسان ، أقول مهما وصلت الحضارة في التقدم المادي فإنها تبقى في نظر المؤرخ المسلم « متخلفة » و « قاصرة » ما دامت لا تهيىء الظروف الملائمة لعبادة الله والوفاء بالالتزام بشرعه . والحضارة الإسلامية نفسها مرت بمراحل تاريخية مختلفة . . ولا شك أن التضخم في منجزاتها المادية لم يكن في صدر الإسلام بل كان في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، لذلك فإن المؤرخ الغربي آدم ميتز يري أن القرن الرابع الهجري يمثل أوج الحضارة الإسلامية في حين أن المؤرخ المسلم يري أن عصر صدر الإسلام يمثل أوج الحضارة لأنه أكثر ملاءمة لعبادة الله وتوحيده ، وسلوك المسلمين في صدر الإسلام أكثر التزاماً بتعاليم الشريعة من سلوك المسلمين في القرن الرابع الهجري ، وهذا ما أشار إليه الرسول الأعظم ﷺ في حديثه : « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » .

إن هذا المنطق والتصور يبدوان غريبين بالنسبة للمؤرخين غير المسلمين لأنهم يخضعون في مقاييسهم لقيم الحضارة الغربية ، أما المؤرخ المسلم فإن الأمر يبدو بدهياً أمامه لأنه تمكن من تمزيق طوق القيم والمقاييس والتصورات المنبثقة عن الحضارة المادية الغربية ولم يتم ذلك إلا بعد الوعي الإسلامي الذي ظهرت آثاره في العالم الإسلامي المعاصر . . ومن آثاره التفلت من كماشة الحضارة الغربية والاستعلاء بالإيمان والإسلام عليها والشعور بالذات والاستقلال الروحي والفكري . وهو أمر يمثل الخطوة الصحيحة على طريق الحضارة إن شاء الله

٤ - رفض منطق « التبرير » كأساس لتفسير تاريخ صدر الإسلام . إن هذا المنطق أثر للقهر النفسي والفكري الذي أحدثه الغزو الفكري في عقولنا ، ومن ذلك ، الأسلوب الاعتذاري الذي يستخدمه بعض المؤرخين المسلمين المعاصرين في الكلام عن الجهاد في الإسلام وحركة الفتوح الإسلامية واعتبارها دفاعاً عن حدود شبه جزيرة العرب أمام تحركات الفرس والروم ، بل إن غزوات الرسول ﷺ لم تسلم من هذا الأسلوب التبريري وجعلها دفاعاً عن دولة المدينة المنورة (دراسة العلامة محمد شلبي النعماني عن السيرة مثلاً فهو على فضله وقع في هذا الخطأ) . بل إن بعض المؤرخين المسلمين ذهب إلى نفي روايات صحيحة عندما عجز عن التبرير الذي يريده ، فقد نفى أحد الكتاب[1] روايات ابن إسحق حول قتل مقاتلة بني قريظة ، وهي ثابتة في كتب الحديث والسيرة والتاريخ . وكأنه يشك في عدالة قتلهم ، فالتفسير الإسلامي إذاً ليس دفاعياً تبريرياً بل ينطلق من اعتقاد أن الإسلام حق وما عداه باطل ، وأن ما شرعه الإسلام من الجهاد وغيره حق لا يحتاج إلى اعتذار أو تبرير ، حتى لو بدا ذلك غريباً أمام الذهنية المهيمنة على الناس في القرن العشرين ، لأننا لا نطوع « الإسلام وتاريخه » لأذواق الناس واتجاهاتهم الفكرية في « عصر معين » فما يحبذه

(١) د. وليد عرفات : في بحث قدمه في مؤتمر السنة والسيرة بقطر . وقبل ذلك في المؤتمر الدولي للتاريخ ببغداد .

الناس في عصر قد ينكرونه في عصر آخر ، وما يحسبه أبناء بلدة حسناً يراه سواهم منكراً ، والحكم لله ولشرعه وليس لأذواق الناس وأهوائهم والله غالب على أمره .

٥ - استعمال المصطلحات الشرعية في الكتابة التاريخية : إن استعمال المصطلحات الشرعية ضروري عند كتابة التاريخ الإسلامي من خلال التصور الإسلامي النابع من القرآن الكريم والسنة المطهرة ، لأن هذه المصطلحات ذات دلالة واضحة ومحددة ولأنها معايير شرعية لها قيمتها في وزن الأشخاص والأحداث . والقرآن الكريم قسم الناس إلى « المؤمن » و « الكافر » و « المنافق » ولكل من الثلاثة صفات محددة ثابتة ودقيقة لا تقبل التلاعب فيها . فما ينبغي أن نحيد عن هذا التقسيم إلى مصطلحات نبتت في أوساط غير إسلامية كوصف الإنسان بأنه « يميني » أو « يساري » أو غير ذلك من النعوت غير الشرعية التي ليست محددة بصورة دقيقة ثابتة ، وكذلك فإن الحكم على الأعمال والمنجزات الحضارية ينبغي أن تستخدم فيه المصطلحات الشرعية وهي « الخير » و « الشر » و « الحق » و « الباطل » و « العدل » و « الظلم » كما حددها الشرع ولا تستخدم معايير الفكر الغربي « كالتقدمية والرجعية » .

لقد انجرَّ بعض الكتاب المسلمين إلى استخدام مصطلحات وألفاظ ليست في « القاموس الإسلامي » وفي ذلك يكمن خطر الذوبان في الفكر الجاهلي والضياع وسط مصطلحاته الكثيرة التي تفقدنا ذاتيتنا المستقلة .

إن استعمال المصطلحات الشرعية عند إعادة صياغة التاريخ الإسلامي ضروري جداً للحفاظ على استقلال التصور والمنهج الإسلامي وإبراز هويته بالإضافة إلى أن المصطلحات الشرعية أوضح وأدق من المصطلحات الغربية .

والآن ما هو المقصود بالبحث في التاريخ الإسلامي وفق مناهج المحدثين ؟ .

المقصود أن للمحدثين مناهج وطرقاً في نقد الأحاديث ومعرفة الصحيح من الضعيف ، والمطلوب تطبيق هذه المناهج في نقد الروايات التاريخية المتعلقة

بتاريخ صدر الإسلام ، لأن هذه الروايات التاريخية تشبه الأحاديث من حيث وجود الأسانيد التي تتقدم المتون مما يمكن الناقد من معرفة الرواة المتعاقبين الذين نقلوا الخبر أو الرواية خلفاً عن سلف . وتستمد المعلومات عن الرواة من كتب علم الرجال التي تختص ببيان أحوال الرواة ، فمثلاً شرط الصحيح من الحديث هو أن يرويه العدل الضابط عن العدل الضابط إلى منتهاه من غير شذوذ ولا علة ، فشرط الرواية التاريخية الصحيحة أن كل رواتها المتعاقبين إلى - شاهد العيان - متدينون تديناً صحيحاً وعندهم ملكة الحفظ التي تمنع وقوعهم في الأوهام والتخليط وتؤدي إلى ضبطهم للرواية سواء في صدورهم أو كتبهم ، يضاف إلى ذلك أن تكون الرواية متفقة مع الروايات الأخرى التي يرويها رواة يتمتعون بتوثيق أكثر ، أما إذا خالفتها فهي شاذة مرجوحة ، وكذلك أن لا يكون في الرواية التاريخية علة خفية قادحة بصحتها كالتدليس الخفي أو الإرسال الخفي أو الاضطراب في معلومات المتن ، وإذا كانت الروايات التاريخية لا ترقى إلى درجة الصحة الحديثية وفق الشروط المتقدمة ، فإنه ينظر إلى تعدد طرقها بجمع ما يتعلق بالمسألة التاريخية الواحدة والنظر في اتفاقها أو اختلافها ، فإن تعددت مخارج الرواية الواحدة ، فإنها تقوي خاصة عند استحالة اجتماع الرواة الذين رووها واتفاقهم على الكذب .

ولكن ينبغي ملاحظة منهج المحدثين عند التعامل مع الرواية التاريخية ، فهم يتساهلون في رواية الأخبار التاريخية ، كما نلاحظ عند ثقات المؤرخين مثل محمد بن إسحق وخليفة بن خياط والطبري حيث يكثرون من الأخبار المرسلة والمنقطعة . كما أن الطبري يكثر النقل عن رواة في غاية الضعف مثل هشام بن الكلبي وسيف بن عمر التميمي ونصر بن مزاحم وغيرهم .

ولا شك أن عدم تمحيص المؤرخين للأخبار كما فعلوا في الحديث ، واكتفاءهم بإلقاء العهدة على الرواة المذكورين في أسانيد الروايات ألقى عبئاً كبيراً على « المؤرخ المعاصر المسلم » لأنه يحتاج إلى بذل جهد ضخم للوصول إلى

الروايات الصحيحة بعد فهم وتطبيق منهج المحدثين ، وهو أمر لم يعد سهلاً ميسوراً كما كان بالنسبة لخليفة بن خياط أو الطبري بسبب تضلعهم في مناهج المحدثين وطريق سبرهم للروايات وتمييزها ، وعلى أية حال فنحن لا نبخس قدامى المؤرخين حقهم وفضلهم فقد جمعوا لنا المادة الأولية بالأسانيد التي تمكننا من الحكم عليها ولو بعد جهد وعناء .

والآن ماذا بعد سبر الروايات وتمييز صحيحها من سقيمها ؟

المطلوب اعتماد الروايات الصحيحة وتقديمها ثم الحسنة ثم ما يعتضد من الضعيف لبناء الصورة التاريخية لأحداث المجتمع الإسلامي في عصر صدر الإسلام . . . وعند التعارض يقدم الأقوى دائماً . . أما الروايات الضعيفة التي لا تقوى أو تعتضد فيمكن الإفادة منها في إكمال الفراغ الذي لا تسده الروايات الصحيحة والحسنة على ألا تتعلق بجانب عقدي أو شرعي ، لأن القاعدة « التشدد فيما يتعلق بالعقيدة أو الشريعة » ولا يخفى أن عصر السيرة النبوية والخلافة الراشدة مليء بالسوابق الفقهية ، والخلفاء الراشدون كانوا يجتهدون في تسيير دفة الحياة وفق تعاليم الإسلام ، فهم موضع اقتداء ومتابعة فيما استنبطوا من أحكام ونظم لأقضية استجدت بعد توسع الدولة الإسلامية على أثر الفتوح .

أما الروايات التاريخية المتعلقة بالعمران كتخطيط المدن وريازة الأبنية وشق الترع . . أو المتعلقة بوصف ميادين القتال وأخبار المجاهدين الدالة على شجاعتهم وتضحيتهم فلا بأس من التساهل فيها .

وقد تعقب ابن حجر العسقلاني إنكار بعض النقاد لخبر غريب فقال : « في طرق هذه القصة القوي والضعيف ، ولا سبيل إلى رد الجميع فإنه ينادي على من أطلقه بقلة الاطلاع والإقدام على رد مالا يعلمه ، لكن الأولى أن ينظر إلى ما اختلفت فيه بالزيادة والنقص فيؤخذ بما اجتمعت عليه ويؤخذ من المختلف ما

قوي ويطرح ما ضعف وما اضطرب ، فإن الاضطراب إذا بَعُد به الجمع بين المختلف ، ولم يترجح شيء منه التحق بالضعيف المردود »[1] .

وما دمنا قد قبلنا هذا « المبدأ » فإنه يمكن الإفادة بصورة واسعة من كتب الحديث في دراسة عصر السيرة النبوية والخلافة الراشدة ، لأن كتب الحديث خُدمت أكثر من كتب السيرة والتاريخ من قبل النقاد ، فمثلاً قد تميز صحيحا البخاري ومسلم وعرف أن كل ما فيهما صحيح بعد الدراسات النقدية التي قام بها حفاظ كبار قدامى ودارسون معاصرون ، وحتى الأحرف اليسيرة المنتقدة فيهما صمدت أمام النقد لأن أصولها معروفة ولم ينفرد بها البخاري ومسلم . ومادام الأمر كذلك فيمكن إذاً اعتماد ما أورده البخاري ومسلم من روايات تتعلق بالسيرة والراشدين ، ثم النظر في روايات السنن الأربعة وموطأ مالك التي لقيت سبراً وتمحيصاً أيضاً رغم أنها لا ترقى إلى درجة الصحيحين ولا تخلو من الضعيف .

إن كتب الحديث تحوي قدراً كبيراً من أخبار السيرة وإن كانت لا تغطي كل أحداثها ، ومن هنا تبرز أهمية النقد الحديثي لروايات كتب السيرة والتاريخ . . . فكبار المحدثين أمثال الحافظ ابن سيد الناس في كتابه (عيون الأثر في المغازي والشمائل والسير) والحافظ الذهبي في كتابه (تاريخ الإسلام) عندما كتبا السيرة النبوية اعتمدا على الكتب الستة (البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة) لكنهما لم يتمكنا من الاستغناء عن كتب السيرة والتاريخ .

ولابـد هنـا من إيضاح حقيقة مهمة قد يؤدي إغفالها إلى شكنا في صحة تصورنا لسيرة النبي ﷺ وصحة معلوماتنا عن الخلفاء الراشدين المهديين . وهذه الحقيقة هي أن كتب الحديث تدعم ما أوردته كتب السيرة والتاريخ في معظم الجوانب المتعلقة بالسيرة ، وخاصة سيرتي محمد بن إسحق بن يسار (ت ١٥١ هـ) وموسى بن عقبة (ت ١٤٠ هـ) والأولى وصلت إلينا بعنوان سيرة ابن هشام الذي قام بتهذيبها . . وقد خصصتُ سيرة ابن إسحق لأن السيرة التي تقابلها هي

(١) العجاب في بيان الأسباب (مخطوطة) منها صورة في مكتبة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

مغازي الواقدي الذي رماه المحدثون بالوضع وضعفوه رغم تصريحهم بغزارة مادته في السيرة . . والحق أن الدراسة لمغازي الواقدي تكشف عن صحة ما يقوله المحدثون فكثير من الرواة الذين يسوق الواقدي الروايات بواسطتهم لا نجد لهم تراجم في كتب علم الرجال .

وهناك اتجاه خاطيء عند بعض المستشرقين تابعهم فيه بعض مؤرخينا يُعلي من شأن مغازي الواقدي ويقدمها على سيرة ابن إسحق . . والحق أن سيرة ابن إسحق أدق وأوثق وتتطابق معلوماتها مع معلومات كتب الحديث في كثير من الجوانب . إن الفرق بين كتب الحديث وكتب السيرة يتمثل في كون كتب السيرة تسوق كثيراً من الروايات بأسانيد مرسلة ومنقطعة ، وتوجد هذه الروايات في كتب الحديث متصلة مسندة مما يوثق معلومات كتب السيرة ، ولكن لاشك أنه ستتم الإضافات والتعديلات إذا اعتمدنا على كتب الحديث إلى جانب كتب السيرة والتاريخ ، وإذا طبقنا قواعد النقد الحديثية على « الرواية التاريخية » . وفيما يلي بعض النتائج التي سنحصل عليها بسبب تطبيق هذا المنهج ، والتي اتضحت لي من دراساتي الخاصة بهذا الموضوع .

١ - زيادة اليقين بصحة معلوماتنا عن سيرة النبي ﷺ التي تقدمها كتب السيرة المعتمدة وخاصة سيرة ابن إسحق .

وهذا من رحمة الله بعباده أن حفظ لهم سيرة نبيّه ليتمكنوا من الاقتداء به .

٢ - إضافة معلومات تكمل جوانب حياة الرسول ﷺ الشاملة لأمور الدين والدنيا ، وهذه الإضافات التي تقدمها كتب الحديث مهمة لأن كتب التاريخ والسيرة المختصة اقتصرت على المغازي دون تفاصيل النواحي الاجتماعية والاقتصادية والإدارية في عصر السيرة .

٣ - توضيح بعض الجوانب التي اختلف فيها المؤرخون والمحدثون ، مثلاً « غزوة بني المصطلق » يذكر البخاري في صحيحه أن الرسول ﷺ داهمهم على

غرة أما كتب السيرة فتذكر أنه أنذرهم وأنهم تأهبوا لقتاله وقاتلوه على ماء المريسيع .

ففي مثل هذه الحال نحتاج إلى فهم موقف الإسلام من إنذار العدو وسوف نطالع ثلاثة آراء للعلماء :

الأول : يقول بعدم الوجوب مطلقاً وهو رأي حكاه المازري والقاضي عياض .

الثاني : يقول بالوجوب مطلقاً . وإلى هذا الرأي ذهب الإمام مالك وآخرون .

الثالث : يقول بالوجوب بالنسبة لمن لم تبلغهم الدعوة وعدم الوجوب بالنسبة لمن بلغتهم . وإلى هذا الرأي ذهب الأئمة أبو حنيفة والشافعي وأحمد وأتباعهم وهو الراجح[١] .

وبما أن بني المصطلق ممن بلغتهم الدعوة فإن رواية الإمام البخاري في مهاجمة الرسول ﷺ لبني المصطلق على غرة منسجمة مع هذا الرأي الراجح ، ولا داعي إلى ترجيح رواية ابن إسحق وبقية كتاب السيرة عليها بحجة أنها أكمل وأن رواية البخاري تخالف النص القرآني ﴿ وإمّا تخافَنَّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء . . . ﴾[٢] .

٤ - التعديل في بعض الموضوعات المتعلقة بالسيرة التي لم تهضمها الدراسات المعاصرة المعتمدة على كتب السيرة والتواريخ فقط مثلاً « نظام المؤاخاة » و « الوثيقة التي كتبها النبي ﷺ كدستور للمدينة أول الهجرة » . . . ولكن ينبغي أن لا نبالغ في حجم التعديل الذي سيحدث في صورة السيرة كما تظهر عند كتّاب السيرة القدامى وكما عرفها المسلمون في خلال الأربعة عشر قرناً

---

(١) راجع نيل الأوطار للشوكاني ٧/٢٦٢ .

(٢) سورة الأنفال ٥٨ .

المـاضية ، فإن الدراسة والمقارنة تكشف عن التطابق بين كتب الحديث وكتب السيرة في كثير من الأسس والتفاصيل معاً ، وهذا من حفظ الله تعالى لسيرة نبيه لتبقى مناراً يقتدي بها المسلمون في كل عصر ومصر . فكان أن هيأ لها جهابذة المحدثين من طبقة التابعين وتلاميذهم لكتابتها في وقت مبكر مستقين أخبارها من الصحابة الذين كانوا شهود عيان ومشاركين في الأحداث ، فلم يقع انقطاع بين الأحـداث والتـدوين يؤدي إلى الضياع أو التحـريف أو التهـويل ، وعنـدمـا نستعرض أصحاب كتب السيرة نجد معظمهم من المحدثين وليسوا من الأدباء أو القصـاصـين ولـذلـك أهميتـه ، فهم معـروفون بالتوثيق ، ولهم مناهج نقدية واضحة . وأساليبهم جدية بعيدة عن المبالغة والحشو والخيال .

٥ - بيان أن علماء المسلمين حرصوا على جمع كل ما ورد عن رسول الله ﷺ من أحاديث وأخبار سيرته سواء كانت - في رأيهم - صحيحة أو مختلقة ، وأحياناً ضُم النوعان من الروايات في كتاب واحد ، مع البيان الصريح لحال الرواية من الصحة أو الضعف ، أو البيان الضمني لذلك بذكر السند الذي يحتوي على اسم الراوي المتهم .

وأحياناً أخرى يضم الكتاب الأخبار الصحيحة فقط كما هو شأن صحيحي البخاري ومسلم ، في حين ضمت بعض المؤلفات الأخبار الواهية والموضوعة فقط مثل العلل المتناهية للدار قطني ، واللآلىء المصنوعة للسيوطي وتنزيه الشريعة لابن عراق .

إن الحرص على جمع الصحيح والموضوع ينفي أن يكون المسلمون قد حجبوا بعض أخبار سيرة النبي ﷺ . بل إن القرآن أشار إلى اتهامات المشركين للرسول ﷺ وشبههم فكان أحياناً المصدر الوحيد للتعرف على وجهة نظر خصوم الإسلام[1] .

---

(١) النحل ١٠٣ ، الفرقان ٤ ، ٥ ، ٧ - ٨ ، ٤١ ، المؤمنون ٦٨ - ٧٠ ، الزخرف ٣١ .

ضرورة المرونة في تطبيق قواعد المحدثين في نطاق التاريخ الإسلامي العام

لا شك أن اشتراط الصحة الحديثية في كل رواية تاريخية نريد قبولها فيه تعسف ، لأن ما تنطبق عليه هذه الشروط لا يكفي لتغطية العصور المختلفة للتاريخ الإسلامي ، مما يولد فجوات في تاريخنا ، وإذا قارنا ذلك بتواريخ العالم فإنها كثيراً ما تعتمد على روايات مفردة أو مؤرخين مجهولين ، بالإضافة إلى ذلك فهي مليئة بالفجوات . . لذلك يكفي في الفترات اللاحقة التوثق من عدالة المؤرخ وضبطه لقبول ما يسجله مع استخدام قواعد النقد الحديثي في الترجيح عند التعارض بين المؤرخين .

إن اشتراط الأمانة والثقة والدين في المؤرخ ضروري لقبول شهادته على الرجال والأمم وتقويم دورهم التاريخي ، إن مراحل التاريخ الإسلامي كلها بحاجة إلى إعادة تقويمها من وجهة النظر الإسلامية ، وقد تبين مدى تغير الصورة التاريخية لفترة ما من تاريخنا عندما يتناولها بالبحث كتاب مسلمون منصفون كما حدث في إعادة تقويم الدولة العثمانية وفتح ملفها من جديد . ويبدو لي أن التغير الذي سيحدث في تصورنا للتاريخ الأموي والعباسي وما بعدهما من حلقات حتى تاريخنا المعاصر سيكون كبيراً جداً . . وسيكشف عن مدى الزيف والتحريف الذي أصاب تاريخنا . .

ولا يسعني إلا أن أدعو المؤرخين المسلمين إلى تقديم دراسات مفصلة تكشف عن ملامح التفسير الإسلامي للتاريخ وعن أبعاد المنهج النقدي الذي تعامل وفقه روايات التاريخ الإسلامي ، كما أحذر شبابنا من الاعتماد ي فهم أحداث التاريخ الإسلامي وتصور عظماء رجاله على روايات تسوقها كتب التاريخ

والأخبـار دون تمحيص ، مما يعطي صوراً مشوهة لأحداث التاريخ الإسلامي لتأثر الإخباريين الذي اعتمدهم الطبري وغيره من المؤرخين بالأهواء المختلفة والاتجاهات المذهبية والسياسية المتباينة التي طبعت رواياتهم عن عصر الراشدين ومـا بعـده من عصور الأمويين والعباسيين ، وأنه لابد من محاولة جادة لإعادة صياغـة التـاريخ الإسـلامي بأقـلام إسـلامية تؤمن بالله وبرسوله وتحس بدور الإسلام وأثره في تاريخنا وحاضرنا ومستقبلنا .

مصادر السيرة النبوية

تعتمد دراسة السيرة النبوية على مصادر متنوعة ، منها الأصلية ومنها التكميلية ، فمن المصادر الأصلية في دراسة السيرة القرآن الكريم والحديث الشريف وكتب الدلائل والشمائل وكتب السيرة المختصة والتواريخ العامة ، أما المصادر التكميلية فهي لا تختص بالسيرة أو التاريخ ، بل تتناول موضوعات أخرى لكنها تفيد في حقل دراسة السيرة ، مثل كتب الأدب ودواوين الشعر وكتب الرجال والتراجم وكتب الجعرافية التاريخية وكتب الفقه وكتب الأنساب ومعاجم اللغة . . إلخ .

ولا شك أن استيعاب هذه المصادر عند دراسة السيرة يعطي (أكمل صورة ممكنة) وهي صورة واضحة فيها كثير من التفاصيل .

وسأحاول إعطاء فكرة عن هذه المصادر وقيمتها وكيفية استعمالها ، وأول ما ينبغي أن يلتفت إليه الباحث أن هذه المصادر تتباين قوة وضعفاً وأصالة ووضعاً ، لذلك لا ينبغي أن توضع في مصاف واحد وتعامل على السواء ، فلا يمكن معارضة آية قرآنية أو حديث صحيح برواية من كتب التاريخ أو الأدب[1] ، فلابد إذاً من تقويم هذه المصادر ووضعها في الموضع الذي تستحق .

ويقف القرآن الكريم في مقدمة مصادر السيرة[2] ، والقرآن هو كلام الله تعالى المنزل على نبيه محمد ﷺ لفظاً ومعنى بطريق الوحي ، ويتضمن بيان العقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية ، وترد فيه آيات الأحكام ذات الأهمية

---

(١) ممن وقع في هذا الخطأ أبو رية في كتابه (أضواء على السنة المحمدية) وانظر التنبيه عليه في (مصطفى السباعي : السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص ٢٩٣ - ٢٩٤) .
وانتقد جواد علي كلا من المستشرقين شبرنكر وكايتاني لاعتمادهما على الشاذ والغريب والضعيف والروايات المتأخرة وتقديمهما ذلك على الروايات المعتبرة في دراستيهما للسيرة بغية اثارة التشكيك فيها (جواد على : تاريخ العرب في الإسلام ، السيرة النبوية ص ٩ - ١١) .

(٢) حلل محمد عزت دروزة الآيات القرآنية المتعلقة بالسيرة في كتابه « سيرة الرسول » .

الكبيرة في بيان النظم الإسلامية ونشأتها فهي تلقي ضوءاً على التشريعات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي عمل بمقتضاها النبي ﷺ في إدارة الدولة الإسلامية الأولى .

وفي القرآن الكريم ذكر لبعض الأحداث التاريخية في عصر السيرة مثل بدر ، أحد ، الخندق ، حنين[1] ، حيث يصور الظروف والأجواء العامة التي وقعت فيها الغزوات والأحداث الأخرى الهامة ، وخاصة الأبعاد النفسية مما لا نستطيع الحصول عليه - بالدقة والصدق التي ترد في القرآن الكريم - من المصادر الأخرى .

وكذلك نجد فيه تصويراً دقيقاً للصراع الفكري والمادي بين المسلمين واليهود في الحجاز[2] وبإشارة القرآن الكريم إلى الأمم الماضية وسّع النظرة التاريخية عند المسلمين فشملت دراساتهم التاريخية الأنبياء السابقين والأمم الماضية ، وبتطرقه إلى أحداث خارج شبه الجزيرة العربية كالصراع بين الروم والفرس جعلهم يهتمون بالتاريخ العالمي فيسجلون أخبار الروم والفرس والترك والأحباش وغيرها[3] .

ولكن ينبغي أن لا نتوقع ورود تفاصيل عن الأحداث التاريخية في القرآن الكريم لأنه ليس كتاباً في التاريخ بل هو دستور للحياة ، ثم إن هناك صعوبة في معرفة أسباب ووقت نزول كثير من الآيات ، إما لعدم ورود روايات في ذلك أو لتضارب الروايات الواردة[4] مما يحتاج إلى تحقيق لتمييز الروايات الصحيحة أولاً ثم إزالة التعارض إن وجد بعد ذلك .

---

(١) نجد تفصيلاً عن بدر في سورة الانفال ، وعن أحد في سورة آل عمران وعن الخندق في سورة الأحزاب ، وعن حنين في سورة التوبة ، كما أشارت آيات في سور أخرى إلى هذه الغزوات .

(٢) انظر عن الصراع الفكري سورة البقرة ، وعن الصراع المادي سورة الحشر والأحزاب مثلاً .

(٣) الدوري : نشأة علم التاريخ عند العرب ص ١٨ ، ٥١ .

(٤) صالح العلي : محاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام (فصل المصادر) .

وينبغي التفطن إلى أن الإفادة التامة من القرآن الكريم لا تتم إلا بالرجوع إلى كتب التفسير الموثقة ، وخاصة التفسير بالمأثور مثل تفسير الطبري وتفسير ابن كثير ، وينبغي أيضاً الرجوع إلى كتب الناسخ والمنسوخ ، وكتب أسباب النزول وغيرها مما يتصل بالقرآن وعلومه .

إن بعض المؤرخين المعاصرين يأنفون من الرجوع إلى هذه المؤلفات ، ويعتمدون على ذوقهم في فهم أساليب اللغة ومعانيها مما يؤدي بهم إلى وقوع في أخطاء كبيرة ، مثل تفسير المستشرقين لقوله تعالى : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ﴾ حيث ذهبوا إلى أن الأمية هنا تعني الجهل بالدين لا الكتابة ، في حين أن القرآن الكريم وصف النبي ﷺ بأنه ﴿ النبي الأمي ﴾ ولا يعقل أن يكون النبي جاهلاً بالدين[1] !!! .

إن النزاهة العلمية تقتضي الرجوع إلى كتب التفسير الموثقة وإعطاء النصوص القرآنية معانيها الصحيحة المرادة ، وليس تأويلها تبعاً للهوى رغبة في دعم رأي أو مذهب ، وقد حذر النبي ﷺ من ذلك بقوله : « من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار »[2] .

أما عن أهمية الحديث في دراسة السيرة المطهرة ، فإن الأحاديث توضح العقائد والآداب الإسلامية ، وتبين أحاديث الأحكام النواحي العبادية والتشريعية من صوم وصلاة وحج وزكاة ونظم سياسية ومالية وإدارية ، ولا يمكن تكامل تصور الإسلام إلا بمعرفة الحديث ، ولكل هذه الجوانب التي تناولتها الأحاديث صلة بالحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية في عصر النبي ﷺ ، وما تلاه ، لأن المسلمين التزموا - بتطبيق « السنة » في حياتهم إلى حد كبير .

---

(١) صبحي الصالح : علوم الحديث ص ١٥ - ١٦ .

(٢) مقدمة تفسير ابن كثير .

وكذلك فإن بعض مصنفات الحديث تخصص قسماً للمغازي والسير مثل صحيح البخاري[1] .

ولا شك أن مادة السيرة في كتب الحديث موثقة يجب الاعتماد عليها وتقديمها على روايات كتب المغازي والتواريخ العامة ، وخاصة إذا أوردتها كتب الحديث الصحيحة لأنها ثمرة جهود جبارة قدمها المحدثون عند تمحيص الحديث ونقده سنداً ومتناً ، وهذا التدقيق والنقد الذي حظى به الحديث لم تحظ به الكتب التاريخية ، ولكن ينبغي التفطن إلى أن كتب الحديث - بحكم عدم تخصصها - لا تورد تفاصيل المغازي وأحداث السيرة بل تقتصر على بعض ذلك ، مما ينضوي تحت شرط المؤلف أو وقعت له روايته ، ومن ثم فإنها لا تعطي صورة كاملة لما حدث وينبغي إكمال الصورة من كتب السيرة المختصة ، وإلا فقد يؤدي ذلك إلى لبس كبير[2] .

ولكن بسبب ترتيب الأحاديث في كتب الحديث إما على الرواة من الصحابة مثل كتب المسانيد ومن أجلها مسند الإمام أحمد بن حنبل أو على المواضيع مثل الكتب الستة ، دون مراعاة عنصر الزمن في كلا الترتيبين ، لذلك تبرز أمام الباحث صعوبة تحديد الأحاديث زمنياً على أن كتب السير والتاريخ المرتبة على السنين تسد هذا النقص في كثير من الحالات . إن أقدم كتب الحديث الشاملة التي وصلت إلينا هي موطأ مالك وصحيحا البخاري ومسلم وسنن أبي داود

---

(١) انظر كتاب المغازي في الجزء الخامس منه .

(٢) ورد في الصحيحين إن النبي (ﷺ) هاجم بني المصطلق وهم غارون (أي بغتة دون إنذار) وهو يخالف منهجه ﷺ المتمثل بالآية الكريمة ﴿ وإما تخافَنَّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ﴾ وكتب السيرة توضح أنه أنذر بني المصطلق ، فلو اقتصرنا على رواية الصحيحين دون أن نتبين حكم الإسلام في إنذار العدو لوقعنا في خطأ ولبس (أنظر محمد الغزالي فقه السيرة ، ط ٤ ص ١٠ ، ٣٠٨) .

والترمذي والنسائي وابن ماجه ومسند الدارمي ومسند أحمد بن حنبل[1] .

أما كتب الدلائل فهي تتناول المعجزات والدلائل التي تبين صدق النبي ﷺ .

ورغم أن كتب الحديث اشتملت على أبواب في علامات النبوة وآياتها ودلائلها[2] وخصائص الرسول ﷺ ، لكن أقدم من أفردها محمد بن يوسف الفريابي (ت ٢١٢ هـ) وهو محدث ثقة ثبت في كتابه (دلائل النبوة)* ثم علي ابن محمد المدائني (ت ٢٢٥ هـ) في كتابه (آيات النبي)[3] وداود بن علي الأصبهاني (ت ٢٧٠ هـ) في كتابه (أعلام النبوة) وابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) في مؤلفه (أعلام رسول الله) وابن أبي حاتم (ت ٣٢٧ هـ) في كتابه (أعلام النبوة) وأبو بكر بن أبي الدنيا (ت ٢٨١ هـ) وأبو عبد الله بن منده (ت ٣٩٥ هـ) وأبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصباني (ت ٤٣٠ هـ) وقد طبع مختصر منه ، وفيه روايات كثيرة ضعيفة . والقاضي عبد الجبار المعتزلي (ت ٤١٥ هـ) في كتابه (تثبيت دلائل النبوة) وهو مطبوع .

وأبو العباس جعفر بن محمد المستغفري (ت ٤٣٢ هـ) .

وأبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨ هـ) وكتابه مطبوع ، ويضم أحاديث صحيحة وحسنة وأخرى ضعيفة وموضوعة ، وقد امتدح الحافظ الذهبي هذا الكتاب[4] .

وأبو الحسن علي بن محمد الماوردي (ت ٤٥٠ هـ) وكتابه مطبوع .

---

(١) يعطي كتاب (مفتاح كنوز السنة) لفنسنك فكرة عن كمية الأحاديث المهمة المتعلقة بموضوعات السيرة كما يعين كتاب (المعجم المفهرس في ألفاظ الحديث النبوي) لفنسنك وجماعة من المستشرقين على تخريج أحاديث السيرة .

(٢) صحيح البخاري ٢/١٤٠ ط . بولاق ، وصحيح مسلم وغيرهما من الكتب .

(*) الألباني : فهرست مخطوطات الظاهرية ٣٧٣ .

(٣) ابن النديم : الفهرست ١١٣ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٦/١١٦ .

وأبو القاسم إسماعيل الأصفهاني (ت ٥٣٥ هـ) .

وعمر بن علي بن الملقن (ت ٨٠٤ هـ) في كتابه (خصائص أفضل المخلوقين) وأخيراً جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) في كتابه (الخصائص الكبرى) وهو مطبوع ويتناول السيرة والدلائل والشمائل . وكتب الخصائص كثيرة فاقتصرت على بعضها ، وليست هذه القائمة مشتملة على سائر ما أُلِّف فهناك مؤلفات أخرى في هذا الموضوع .

أما كتب الشمائل فتتناول أخلاق وآداب وصفات النبي ﷺ ، وأقدم من أفرادها : أبو البختري وهب بن وهب الأسدي (٢٠٠ هـ) في مؤلفه « صفة النبي » ثم أبو الحسن علي بن محمد المدائني (ت ٢٢٤ هـ) في كتابه « صفة النبي » . ثم داود بن علي الأصبهاني (ت ٢٧٠ هـ) في كتابه (صفة أخلاق النبي) كما ذكر ابن النديم[1] والحافظ الترمذي (ت ٢٧٩ هـ) في كتاب (الشمائل النبوية والخصائص المصطفوية) وهو مطبوع .

ثم أبو الشيخ عبد الله بن محمد بن حيان الأصبهاني (ت ٣٦٩ هـ) في كتابه (أخلاق النبي وآدابة) وهو مطبوع .

ثم أبو سعيد عبد الملك بن محمد النيسابوري (ت ٤٠٦ هـ) في كتاب (شرف المصطفى) . ثم أبو العباس المستغفري (ت ٤٣٢ هـ) في كتاب (شمائل النبي) .

ثم القاضي عياض (ت ٥٤٤ هـ) بعنوان (كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى) وهو مطبوع أيضاً ، وهو كتاب جامع .

وخرّج أحاديثه الحافظ السيوطي (ت ٩١١ هـ) في كتابه (مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا) . هو مطبوع .

وشرحه عدد من العلماء منهم على القاري (ت ١٠١٤ هـ) في (شرح

---

(١) الفهرست ٢٧٢ .

الشفا) مطبوع ، والخفاجي (ت ١٠٦٩ هـ) في كتابه (نسيم الرياض في شرح الشفا للقاضي عياض) ، ثم صنف الحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) كتابه (شمائل الرسول) وهو مطبوع .

أما كتب السيرة المختصة فإنها تلي من حيث الدقة القرآن الكريم والحديث الشريف ، ومما يعطيها قيمة علمية كبيرة أن أوائلها كتبت في وقت مبكر جداً ، وعلى وجه التحديد في جيل التابعين حيث كان الصحابة موجودين فلم ينكروا على كتاب السيرة مما يدل على إقرارهم لما كتبوه ، والصحابة على علم دقيق وواسع بالسيرة لأنهم عاشوا أحداثها وشاركوا فيها ، وكانت محبتهم للرسول ﷺ وتعلقهم به ورغبتهم في اتباعه وأخذهم بسنته في الأحكام سبباً في ذيوع أخبار السيرة ومذاكرتهم فيها وحفظهم لها ، فهي التطبيق العملي لتعاليم الإسلام . وقد اشتهر عدد من الصحابة باهتمامهم الكبير بموضوع السيرة منهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص والبراء بن عازب[1] .

وكذلك فإن التبكير في كتابة السيرة قلل إلى حد كبير من احتمال تعرضها للتحريف أو للمبالغة والتهويل أو للضياع .

ولقد كتبت عدة دراسات حديثة عن رواد كتابة السيرة من التابعين ومن تلاهم[2] ، ولكنها لم تهتم ببيان حالهم من الجرح والتعديل ولم تقوّم مؤلفاتهم من زاوية حديثية ووفق قواعد مصطلح الحديث وهم :

أبان بن عثمان بن عفان (ت ١٠١ - ١٠٥هـ) وهو محدث ثقة من التابعين .

---

(١) ابن سعد ٢٩٢/٥ ومسند أحمد ١٧٩/٢ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٢٢ .

(٢) من الدراسات الشاملة في تاريخ كتابة السيرة :

هوروفتس : المغازي الأولى ومؤلفوها .

مارغوليوس : دراسات عن المؤرخين العرب .

عبد العزيز الدوري : نشأة علم التاريخ عند العرب .

صالح العلي : فصل ضمن كتابه (محاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام) . =

عروة بن الزبير بن العوّام (ت ٩٤ هـ) وهو محدث ثقة من التابعين ، ويعد أحد الفقهاء السبعة المشهورين في المدينة[١] .

عامر بن شراحيل الشعبي (ت ١٠٣ هـ) . وهو محدث ثقة له كتاب المغازي[٢] . عاصم بن عمر بن قتادة (ت ١١٩ هـ) وهو محدث ثقة .

محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ) وهو من كبار المحدثين في عصره[٣] .

= جواد علي : فصل في بداية كتابه (تاريخ العرب في الإسلام ، السيرة النبوية) .
سيدة إسماعيل كاشف ، دراسة في مصادر التاريخ الإسلامي .
مارسدن جونس : مقدمته لكتاب (مغازي الواقدي) .
حسين نصار : نشاة التدوين التاريخي عند العرب .
وكتبت بحوث خاصة بواحد من رواد المغازي مثل مقال الدوري (دراسة في سيرة النبي (ﷺ) ومؤلفها ابن اسحق) ودراسة Fuck عن محمد بن إسحق (بالانكليزية) ومقال خالد العسلي عن علي المدائني ومقال أكرم العمري عن موسى بن عقبة ، والحاجة شديدة إلى القيام ببحوث دقيقة أخرى تتناول بقية رواد المغازي .

(١) تصرح رواية ابن سعد بأن أبان بن عثمان بن عفان كتب المغازي (الطبقات ٥/١٥٦) وتبيّن رواية أخرى أنه كتاب كبير وأنه يبرز فضائل الأنصار ، وأنه كتبه قبل سنة اثنتين من الهجرة (الموفقيات ٢٢٢ - ١٢٣) وانظر التفاصيل في دراسة الدكتور محمد مصطفى الأعظمي : (مغازي عروة بن الزبير ٢٧ - ٢٩) ويرى الأستاذ الدكتور بشار عواد معروف (تهذيب الكمال للمزي ١/١٩ حاشية ١) أن نسبة كتاب المغازي لأبان بن عثمان مجرد وهم والصواب أنه لأبان بن عثمان البجلي مولاهم المعروف بالأحمر ، حيث ينسب الصفدي إليه كتاب «المبتدأ والمبعث والمغازي والوفاة والسقيفة والردة» وهذا الذي ذهب إليه الدكتور الفاضل ترده روايتا ابن سعد والزبير بن بكار . وقد أخذ المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي المدني المغازي كتابة عن أبان بن عثمان بن عفان ، فكانت كثيراً ما تقرأ عليه ، وقبل وفاته أمر أولاده بتعليمها (ابن عساكر : تاريخ دمشق ١٧/ ق ٢٠٢ ترجمة المغيرة بن عبد الرحمن) .

(٢) جمع الأستاذ الدكتور محمد مصطفى الأعظمي مرويات عروة من رواية أبي الأسود عن عروة فقط ، ونشرت من قبل مكتب التربية العربي لدول الخليج . وقد نص على تأليف عروة في المغازي كل من ابن النديم (الفهرست ١٢٣) والذهبي : (سير أعلام النبلاء ٦/١٥٠) وابن حجر : (فتح الباري ٥/٣٣٣) والسخاوي : (الإعلان بالتوبيخ ٨٨) وحاجي خليفة (كشف الظنون ٢/١٧٤٧) .

(٣) الخطيب : تاريخ بغداد ١٢/ ٢٣٠ .

وثقه الجهابذة من علماء الجرح والتعديل ، وهو أول من استخدم طريقة جمع الأسانيد ليكتمل السياق وتتصل الأحداث دون أن تقطعها الأسانيد ، وقد انتقد الزهري لتلفيقه الحديث أحياناً عن عدد من شيوخه دون أن يفرد حديث كل واحد منهم عن الآخر ، لكن هذا الانتقاد الذي حكاه القاضي عياض عن القدامى ردّه كبار العلماء مثل النووي والعراقي ، حيث أوضحا أن عمله جائز مادام قد بيّن ذلك وما دام الجميع ثقات[1] .

شرحبيل بن سعد المدني (ت ١٢٣) وهو صدوق اختلط بآخرة ، مات وقد قارب المائة[2] . وقد خرّج ابن خزيمة وابن حبان حديثه في صحيحيهما ، وقال ابن عيينة : لم يكن أحد أعلم بالمغازي والبدريين منه[3] .

يزيد بن هارون الأسدي المدني (ت ١٣٠هـ) تابعي ثقة ، ألفّ في المغازي معتمداً على عروة والزهري ، يروي عنه ابن إسحق[4] .

عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم (ت ١٣٥ هـ) ، وهو محدث ثقة من التابعين .

موسى بن عقبة (ت ١٤٠ هـ) وهو محدث ثقة من تلاميذ الزهري ، وقد أثنى الإمام مالك على كتابه في المغازي وقال إنه أصح المغازي[5] . وقال يحيى ابن معين : « كتاب موسى بن عقبة عن الزهري من أصح هذه الكتب »[6] .

وقال الإمام الشافعي : « ليس في المغازي أصح من كتاب موسى بن عقبة مع صغره وخلوه من أكثر ما يذكر في كتب غيره »[7] .

---

(١) انظر النووي شرح صحيح مسلم ٥/٦٢٨ ، والعراقي : طرح التثريب ٨/٤٧ .
(٢) تقريب التهذيب / ٢٦٥ .
(٣) تهذيب التهذيب ٤/٣٢١ - ٣٢٢ .
(٤) ابن حجر : تهذيب التهذيب ٩/ ٢٢٥ .
(٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٦/ ١١٥ .
(٦) المصدر السابق ٦/١١٧ .
(٧) الخطيب : الجامع لأخلاق الراوي وآداب الجامع ٢٢٥ .

وقال الذهبي : « وأما مغازي موسى بن عقبة فهي في مجلد ليس بالكبير ، سمعناها وغالبها صحيح ومرسل جيد ، لكنها مختصرة تحتاج إلى زيادة بيان وتتمة »[1] .

وقد اطلع الحافظ ابن حجر علي مغازي موسى بن عقبة وتملك حق روايتها بالإجازة[2] . وكذلك سمعها علي بن عثمان بن الصيرفي (ت ٨٤٤ هـ) من حسن بن محمد بن القريشة[3] .

سليمان بن طرخان التيمي (ت ١٤٣ هـ) وهو محدث ثقة من التابعين ، ويعتبر من علماء الجرح والتعديل ، وقد اطلع الحافظ ابن حجر على سيرته[*]. له كتاب (السيرة الصحيحة) مفقود إلا قسما[4] .

معمر بن راشد (ت ١٥٣ هـ) وهو محدث من تلاميذ الزهري أيضاً .

« كان من أوعية العلم مع الصدق والتحري والورع والجلالة وحسن التصنيف »[5] .

محمد بن إسحق (ت ١٥١ هـ) من تلاميذ الزهري ، إمام في المغازي لكن مروياته لا ترقي إلى درجة الصحيح بل الحسن بشرط أن يصرح بالتحديث لأنه مدلس ، سيرته على الحسن والضعيف معاً ، وقد قال ابن عدى « وقد فتشت أحاديثه فلم أجد في أحاديثه ما يتهيأ أن يقطع عليه بالضعف ، وربما أخطأ أو يهم ، كما يخطيء غيره ، ولم يتخلف في الرواية عنه الثقات والأئمة وهو لا بأس به » .

---

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ١١٥/٦ - ١١٦ .

(٢) المعجم المفهرس ١٨٤/١ ، ٢٧/٢ ب .

(٣) معجم الشيوخ لابن فهد ١٧٥ .

(*) فتح الباري ٢٣/١ ، ٤٩٧/٧ ، ٧١١/٨ ويذكر أن الذي رواه هو محمد بن عبد الأعلى عن معمر بن سليمان عن أبيه وكان قد أطلع عليها من قبله ابن خير الأشبيلي وتملك حق روايتها (فهرست ٢٣١) ونقل منها السهيلي (الروض الأنف ٢٧١/١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٤٨/٢ ، ٥٣) .

(٤) نشره فون كريمر بالهند في آخر كتاب مغازي الواقدي وهو في ٧٧ صفحة .

(٥) سير أعلام النبلاء ٦/٧ .

وهذه الشهادة عظيمة الأهمية لا لمكانة ابن عدي ولتشدده في التوثيق فقط ، بل لأنها مبنية على سبر الروايات وليس على نقل أقوال النقاد القدامى فقط التي تدور حول اتهام ابن إسحق بالقدر وبالتشيع وبالتدليس[1] وبالتصحيف فقد انتقده يحيي بن سعيد الأموي بقوله : « ابن إسحق يصحف في الأسماء لأنه إنما أخذها من الديوان »[2] ومرة باحتمال كذبه في الرواية عن فاطمة زوجة هشام بن عروة بن الزبير ، ولم يثبت كذبه فقد رد على الاتهام عدد من الأئمة النقاد منهم الإمام أحمد بن حنبل ، وقال الحافظ الذهبي : « لا ريب أن ابن إسحق كثر وطول بانساب مستوفاة ، اختصارها أملح ، وبأشعار غير طائلة حذفها أرجح ، وبآثار لم تصحح ، مع أنه فاته شيء كثير من الصحيح لم يكن عنده ، فكتابه محتاج إلى تنقيح وتصحيح ورواية ما فاته »[3] .

وقال الذهبي : « ابن إسحق حجة في المغازي وله مناكير وعجائب »[4] .

وقد أجاد الحافظ الذهبي في بيان مرتبة حديثه فقال عنه : « وله ارتفاع بحسبه ، ولا سيما في السير ، وأما في أحاديث الأحكام فينحط حديثه فيها عن رتبة الصحة ، إلا فيما شذّ فيه فإنه يعدّ منكراً »[5] .

وقال الحافظ العراقي : « المشهور قبول حديث ابن إسحق إلا أنه مدلس فإذا صرّح بالتحديث كان حديثه مقبولاً »[6] .

وقال الحافظ الذهبي[7]: « والذي يظهر لي أن ابن إسحق حسن الحديث صالح الحال صدوق ، وما تفرّد ففيه نكارة ، فإن في حفظه شيئاً ، وقد احتج به الأئمة » .

---

(١) المصدر السابق ٧/١٣٩ .
(٢) العسكري : تصحيفات المحدثين ١/٢٦ .
(٣) المصدر السابق ٦/١١٦ .
(٤) العلو للعلي الغفار ٣٩ .
(٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٧/١٤١ .
(٦) العراقي : طرح التثريب شرح التقريب ٨/٧٢ .
(٧) الذهبي : ميزان الاعتدال ٣/٤٧٥ .

وقال أيضاً « كان أحد أوعية العلم حَبراً في معرفة المغازي والسير ، وليس بذلك المتقن ، فانحط حديثه عن رتبة الصحة ، وهو صدوق في نفسه مرضي »[1] .

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني : « ما ينفرد به وإن لم يبلغ الصحيح فهو في درجة الحسن إذا صرح بالتحديث . . . وإنما يصحح له من لا يفرق بين الصحيح والحسن ، ويجعل كل ما يصلح للحجة صحيحاً ، وهذه طريقة ابن حبان ومن ذكر معه »[2] . ولا يعني ذلك توثيق سائر مرويات كتابه في السيرة ، فقد أورد فيها روايات منكرة ومنقطعة كما قال عنه الحافظ الذهبي : « صالح الحديث ماله عندي ذنب إلا ما قد حشاه في السيرة من الأشياء المنكرة والمنقطعة »[3] .

وقد قام الحافظ ابن حجر بتخريج الأحاديث المنقطعة في سيرة ابن هشام في مصنف مستقل ، وللأسف فقد هذا المصنف[4] .

إن رواة السيرة عن ابن إسحق هم زياد بن عبد الله البكائي - ومن طريقه رواها ابن هشام - وبكر بن سليمان - ومن طريقه يروي خليفة بن خياط في التاريخ - وسلمة بن الفضل الأبرش - وفيه يقول الطبري : « ليس من لدن بغداد إلى أن يبلغ خراسان أثبت في ابن إسحق من سلمة بن الفضل »[5] .

ويونس بن بكير (ت ١٩٥ هـ) - ويرى ابن حجر أنه صدوق يخطيء[6] ،

---

(١) الذهبي : تذكرة الحفاظ ١/١٧٣ .

(٢) ابن حجر : فتح الباري ١١/١٦٣ .

(٣) الذهبي : ميزان الاعتدال ١١/٤٦٩ .

(٤) عنوان المجد ١/ ق ٥١ .

(٥) ابن حجر : تهذيب التهذيب ٤/١٥٤ .

(٦) ابن حجر : تقريب التهذيب ٢/٣٨٤ ، وسقطت منه كلمة «صدوق» لكنها مثبتة في الطبعة الباكستانية ص ٣٤٠ .
والذهبي : سير أعلام النبلاء ٩/٢٤٥ .

ويرى الذهبي بأنه حسن الحديث . وقد أخرج له مسلم في الشواهد لا في الأصول ، وذكره البخاري في الشواهد[1] . في حين أن ناقداً قديماً هو ابو داود السجستاني كان يصرح بأنه ليس بحجة وأنه كان يأخذ كلام ابن اسحق فيوصله بالأحاديث[2] . وإبراهيم بن سعد الزهري (ت ١٨٥ هـ) - ومن طريقه يروي أحمد بن محمد بن أيوب صاحب المغازي - وهي الرواية التي اقتبس بواسطتها الحاكم النيسابوري في المستدرك[3] . - وهارون بن أبي عيسى - حيث اعتمد ابن سعد على روايته - وعبد الله بن إدريس الأودي - ومن طريقه أخذ ابن سعد أيضاً .

وتوجد بعض الاختلافات بين هذه الروايات للسيرة ، مما يدل على أن ابن إسحق كان ينقح في سيرته مع الأيام .

ويبدو أن رواية يونس بن بكير من أقدم هذه الروايات ، وأن البكائي حمل نسخة كان ابن إسحق قد نقحها ، ومن ذلك أن عبد الله بن مسعود ذكره ابن إسحق -في رواية البكائي- في مهاجرة الحبشة الهجرة الثانية[4] . وفي رواية يونس ابن بكير عدّه في المهاجرين الأولين[5] .

كذلك فقد ورد في رواية البكائي أن جعفر بن أبي طالب هو الذي كلم النجاشي باسم المسلمين .

أما في رواية يونس بن بكير فإن عثمان بن عفان هو الذي كلم النجاشي ، وأن جعفر بن أبي طالب قام بعمل المترجم فقط ، ولكن ابن إسحق عقب على هذه الرواية بنفي صحتها[6] .

---

(١) ابن حجر : تهذيب التهذيب ١١/٤٣٤ - ٤٣٥ .
(٢) الذهبي : ميزان الاعتدال ٤/٤٧٨ .
(٣) الحاكم : المستدرك ٣/١٢٨ .
(٤) سيرة ابن هشام ١/٣٥٨ .
(٥) ابن إسحق : السير والمغازي ، تحقيق سهيل زكار ، ١٧٦ ، ٢٢٨ .
(٦) المصدر السابق ٢١٨ .

ومن هذه الاختلافات بين الروايات العديدة لسيرة ابن إسحق ما ذكره ابن إسحق في رواية يونس بن بكير من أن النبي ﷺ أرسل إلى النجاشي الأصحم كتاباً - في الوقت الذي أرسل فيه كتباً إلى ملوك الأرض - يدعوه إلى الإسلام[1] .

في حين لم يذكر (الأصحم) في رواية البكائي[2] .

مما يدل على تنقيح ابن إسحق لسيرته ، لأن النجاشي أصحمة أسلم فتكون الدعوة موجهة لنجاشي آخر بعده كما نص على ذلك الإمام مسلم[3] .

أبو معشر السندي (ت ١٧١ هـ) وهو بصير في المغازي ضعيف في الحديث ، لكن ضعفه نسبي يُكتب معه حديثه ، لاسيما حديثه عن محمد بن كعب ومحمد بن قيس تمشياً مع رأي الطبقة المتوسطة من النقاد ، لأن منهج المحدثين الأخذ بقول الطبقة المتوسطة في التجريح إذا تعارض مع قول الطبقة المتشددة[4] .

وعبد الملك بن محمد بن أبي بكر بن حزم المدني (ت ١٧٦ هـ) محدث ثقة في كتابه « المغازي »[5] .

يحيي بن سعيد الأموي (ت ١٩٤ هـ) محدث ثقة صنف المغازي .

الوليد بن مسلم الدمشقي (ت ١٩٦ هـ) محدث ثقة .

ويونس بن بكير (ت ١٩٩ هـ) وهو أحد رواة سيرة ابن إسحق وله زيادات على المغازي كما ذكر الحافظ ابن حجر[6] .

---

(١) سيرة ابن إسحق ، تحقيق محمد حميد الله ٢١٠ .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/ ٢٧٩ .

(٣) صحيح مسلم ٣/١٣٩٧ .

(٤) راجع ابن حبان : المجروحين ٣/ ٦٠ ، والتاريخ الكبير للبخاري ٨/ ١١٤ ، وتاريخ بغداد للخطيب ١٣/ ٤٢٧ ، والذهبي : سير أعلام النبلاء ٧/ ٤٣٥-٤٤٠ ، وابن حجر : تهذيب التهذيب ١٠/ ٤٢٠-٤٢١ .

(٥) ابن النديم : الفهرست ٢٨٢ .

(٦) الإصابة ١/ ٢٤٢ .

محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧ هـ) وهو ضعيف عند المحدثين[١] مع غزارة مادته العلمية ، ويقدم أحياناً إضافات على سيرة ابن إسحق ، ويبدي رأيه في الروايات ويرجح بينها[٢] . وكان يمتلك مكتبة كبيرة تضم ستمائة قمطر كتب ، واحتاج نقلها من الكرخ إلى الرصافة إلى عشرين ومائة وقر[٣] . ولم يقتصر على ما في الكتب بل تتبع مواضع الأحداث التاريخية بنفسه ووصفها[٣] ولا تصلح مروياته للاحتجاج بها فيما يتعلق بالعقيدة والشريعة ، ولكنها تنفع في وصف تفاصيل الأحداث مما لا يتصل بالعقيدة والشريعة ، خاصة إذا لم يخالف الأخبار الصحيحة ، فقد قال الحافظ ابن حجر - وهو الذي حكم على الواقدي بأنه متروك : « والواقدي إذا لم يخالف الأخبار الصحيحة ولا غيره من أهل المغازي فهو مقبول عند أصحابنا »[٤] . وقد انتقى الحافظ ابن حجر من مغازي الواقدي وقال إنه في نفسه مصدر عند أهل العلم وأركان معدي المغازي مما لم يخالف غيره فيه[٥] . والملاحظ في استقراء مغازيه أنه يسوق روايات كثيرة ، من طرق فيها رجال لا نجد لهم تراجم في كتب علم الرجال ، وأما الروايات التي ينقلها ابن سعد عن الواقدي فيبدو أنه انتقاها ، حيث نجد تراجم رجال الإسناد في كتب علم الرجال ، ومعنى ذلك أن أسانيد الواقدي فيها رجال ليست لهم رواية في الحديث ، لذلك لم تترجم لهم كتب الرجال ، أو أنهم مُخْتَلَقون وَضَعَ أسماءهم الواقدي أو بعض شيوخه . وقد قال الإمام أحمد : « الواقدي يركب الأسانيد »[٦] . ومن هنا يتضح سبب اتهام المحدثين النقاد له بالكذب والوضع

---

(١) الخطيب : تاريخ بغداد ٣/ ٢١ .

(٢) الدوري : نشأة علم التاريخ عند العرب ٣١ .
ومارسدن جونسن : مقدمة مغازي الواقدي ٣٤ .

(٣) الخطيب : تاريخ بغداد ٣/ ٥ - ٦ .

(٤) ابن حجر : التلخيص الحبير ٢/ ٢٩١ .

(٥) ابن حجر : منتقي من مغازي الواقدي ق ٨٣ ب .

(٦) الخطيب : تاريخ بغداد ٣/ ١٣ .

وحكمهم عليه بأنه متروك ، ولا شك أن جمع مرويات الراوي ودراستها والحكم عليه من خلالها كان منهج كثير من الأئمة النقاد في الحكم على الرواة المكثرين .

وقد لخص الحافظ الذهبي الحكم عليه بدقة بارعة فقال : « جمع فأوعى ، وخلط الغث بالسمين ، والخرز بالدر الثمين ، فاطّرحوه لذلك ، ومع هذا فلا يستغنى عنه في المغازي وأيام الصحابة وأخبارهم » . ثم قال : « وقد تقرر أن الواقدي ضعيف ، يحتاج إليه في الغزوات والتاريخ ، وتورد آثاره من غير احتجاج . أما في الفرائض فلا ينبغي أن يذكر ، فهذه الكتب الستة ومسند أحمد وعامة من جمع في الأحكام تراهم يترخصون في إخراج أحاديث أناس ضعفاء بل ومتروكين ، ومع هذا لا يخرجون لمحمد بن عمر شيئاً . مع أن وزنه عندي أنه ضعيف يكتب حديثه ويروي لأني لا أتهمه بالوضع ، وقول من أهدره فيه مجازفة من بعض الوجوه ، كما أنه لا عبرة بتوثيق من وثقه كيزيد وأبي عبيد والحربي ومعن ، إذ انعقد الإجماع اليوم على أنه ليس بحجة وأن حديثه في عداد الواهي »[1] .

وقد مال أبو داود السجستاني إلى أن الواقدي كان يفتعل الحديث ، وأضاف : « ليس ننظر للواقدي في كتاب إلا تبين أمره ، وروى في فتح اليمن وخبر العنسي أحاديث عن الزهري ليست من حديث الزهري »[2] .

وقال يحيي بن معين : « نظرنا في حديث الواقدي ، فوجدنا حديثه عن المدنيين عن شيوخ مجهولينَ أحاديث مناكير ، فقلنا يحتمل أن تكون تلك الأحاديث المناكير منه ، ويحتمل أن تكون منهم ، ثم نظرنا إلى حديثه عن ابن أبي ذئب ومعمر فإنه يضبط حديثهم ، فوجدناه قد حدث عنهما بالمناكير ، فعلمنا أنه منه فتركنا حديثه »[3] .

---

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٩/٤٥٤ ، ٤٦٩ .
(٢) الخطيب : تاريخ بغداد ٣/١٥ ، ١٦ .
(٣) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٨ / ٢٠ .

وقال ابن حبان : « كان يروي عن الثقات المقلوبات ، وعن الثقات المعضلات حتى ربما سبق إلى القلب أنه كان المعتمد لذلك »[1] .

وقال ابن عدي : « ومتون أخبار الواقدي غير محفوظة ، وهو بيّن الضعف ، والبلاء منه »[2] .

وقد دافع ابن سيد الناس عن الواقدي فقال : « إن سعة العلم مظنة لكثرة الإغراب ، وكثرة الإغراب مظنة للتهمة ، والواقدي غير مدفوع عن سعة العلم فكثرت غرائبه »[3] .

ومال إلى صدقه الحافظ ابن كثير فقال : « الواقدي عنده زيادات حسنة وتاريخ محرر غالباً ، فإنه من أئمة هذا الشأن الكبار ، وهو صدوق في نفسه مكثار »[4] .

محمد بن عائذ الدمشقي (ت ٢٣٤ هـ) محدث ثقة . سمع الحافظ الذهبي معظم كتاب المغازي له[5] . وقرأ الحافظ ابن حجر جزءاً منتقى من مغازيه[6] .

علي بن محمد المدائني (ت ٢٢٥ هـ) ذكر ابن عدى أنه ليس بالقوى في الحديث ، وترجم له العسقلاني في لسان الميزان - وهو كتاب يختص بتراجم الضعفاء - مما يدل على أنهم تكلموا فيه بالتضعيف في الحديث[7] . ولكن ورد في ترجمته ما يدل على صدقه في الأخبار . قال عنه الطبري : « كان عالما بأيام الناس صدوقاً في ذلك »[8] وقال عنه الحافظ الذهبي : « العلامة الحافظ الصادق . .

---

(١) ابن حبان : المجروحين ٢ / ٢٩٠ .

(٢) ابن عدي : الكامل ٦ / ٢٢٤٥ .

(٣) ابن سيد الناس : عيون الأثر ١/٢٦ وقد ذكر ابن المديني وابن معين إن الواقدي أغرب على رسول الله ﷺ عشرين ألف حديث (الخطيب : تاريخ بغداد ١٣/٣) .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٣٤/٣ .

(٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٦/١١ .

(٦) ابن حجر : المعجم المفهرس ق ٢٧ ب .

(٧) ابن حجر : لسان الميزان ٤ / ٢٥٣ .

(٨) المصدر السابق : ٤ / ٢٥٣ .

كان مصدقاً فيما ينقله عالي الإسناد »[1] .

ويمتاز المدائني بتناوله موضوعات من السيرة أفردها في مصنف ، وهي مهمة في دراسة الجوانب الاجتماعية والاقتصادية للسيرة ، ويعتبر فقدانها خسارة جسيمة لعلم التاريخ الإسلامي .

وصالح بن إسحق الجرمي النحوي (ت ٢٢٥ هـ) « كان جليلاً في الحديث والأخبار ، وله كتاب في السيرة عجيب »[2] .

وإسماعيل بن جميع (ت ٢٧٧ هـ) في كتابه (أخبار النبي ومغازيه وسراياه)[3] .

وأحمد بن الحارث الخرَّاز (ت ٢٥٨ هـ) في كتابه (مغازي النبي وسراياه وأزواجه) .

وعبد الملك بن محمد الرقاشي البصري (ت ٢٧٦ هـ) في كتابه (المغازي) وهو صدوق يخطيء .

وإبراهيم بن إسماعيل العنبري الطوسي (ت ٢٨٠ هـ) في كتابه (المغازي) .

وإسماعيل بن إسحق القاضى (ت ٢٨٢ هـ) في كتابه (المغازي) .

وقد ذكرت كتب التراجم أسماء عدد من التابعين وأتباعهم ومن تلاهم ووصفتهم بالعلم بالسيرة والاهتمام بها ، مثل عكرمة مولي ابن عباس الذي قال عنه الطحاوي « عكرمة مولي ابن عباس والزهري عليهما يدور أكثر أخبار المغازي »[4] أبي إسحق عمرو بن عبد الله السبيعي (ت ١٢٧ هـ) ويعقوب بن عتبة بن المغيرة المدني (ت ١٢٨ هـ) وداود بن الحسين الأموي (ت ١٣٥ هـ) ، وعبد الرحمن بن عبد العزيز الحنيفي (ت ١٦٢ هـ) .

---

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٠/٤٠٠ - ٤٠١ .
(٢) الخطيب : تاريخ بغداد ٩/٣١٤ .
(٣) الفهرست لابن النديم ١١٢ .
(٤) الطحاوي : شرح معاني الآثار ٣/٣١٢ .

ومحمد بن صالح بن دينار (ت ١٦٨ هـ) .

وعبد الله بن جعفر المخرمي المدني (ت ١٧٠ هـ) .

وهؤلاء لم تصرح المصادر بتأليفهم كتباً في السيرة بل أشارت إلى عنايتهم واهتمامهم بالتحديث بها[١] .

لذلك لم أثبتهم ضمن أسماء المؤلفين في السيرة واكتفيت بهذه الإشارة إليهم .

هؤلاء هم الرواد الأوائل في كتابة السيرة ، ويتضح من توثيق نقاد الحديث لأكثرهم ما تميزوا به من العدالة والضبط ، وهما شرطان عند العلماء لتوثيق الرواة ، فلئن كانوا قد وثقوا عند المحدثين رغم دقة شروطهم في التوثيق ، ورغم نظرتهم لهم على أنهم محدثون مادتهم الأحاديث وليسوا إخباريين مادتهم الأخبار ، والنقاد يتشددون في مادة الحديث كثيراً ويتساهلون في قبول الأخبار[٢] فإن هذا التوثيق يعطي كتاباتهم في السيرة قيمة علمية كبيرة .

لقد حفظ الله تعالى سيرة نبيه ﷺ من الضياع والتحريف والمبالغة والتهويل بأن هيأ لها جهابذة المحدثين ليعنوا بها ويدونوا أصولها الأولى قبل أن تتناولها أقلام المؤرخين والقصاصين ، وهذه ميزة لمصادر السيرة لم تتوافر لغيرها من كتب التاريخ والأخبار .

ميزة لكون المحدثين ثقات مأمونين في الرواية ، وميزة لكونهم علماء لهم مناهج واضحة في نقد الروايات سنداً ومتناً ، ولهم أسلوب يتسم بالجدية والبعد عن الحشو والمبالغة .

---

(١) انظر : تراجمهم في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢/٢٦٠ ، وتاريخ بغداد ١٢/٢٣٠ ، وتهذيب التهذيب ٨/٦٣ - ٦٧ ، و ٥/١٧٢ ، و٦/٣٨٨ ، و١١/٢٩٣ ، وتاريخ التراث العربي ٢/٤٥٦ .

(٢) أكرم العمري : مقدمة تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٤ - ٢٥ .

وحقاً فإن مصنفات هؤلاء الأعلام الذين ذكرتهم في السيرة معظمها مفقود ، لكن المصادر التالية التي وصلت إلينا اعتمدت على مصنفاتهم فنقلت عنها كثيراً بالأسانيد ، وقد ظلت مادة المصنفات الأولى هي الأساس في المصنفات المتأخرة ، ليس في المادة فقط بل في طريقة العرض أيضاً ، ومن أبرز المصادر التي وصلت إلينا في السيرة .

(سيرة ابن هشام) : وهي تهذيب لسيرة ابن إسحق ، حيث حذف ابن هشام منها كثيراً من الإسرائيليات والأشعار المنتحلة وأضاف إليها معلومات في اللغة والأنساب ، مما جعلها - بعد التهذيب - تنال رضا جمهور العلماء ، فليس من مؤلف بعده إلا كان عيالاً عليه . والحق أن الصورة التي تعطيها مغازيه عن حياة الرسول ﷺ تقترب إلى حد كبير مما أوردته كتب الحديث الصحيحة مما يعطي سيرته توثيقاً كبيراً . وقد شرح سيرة ابن هشام الحافظ السهيلي (ت ٥٨١ هـ) في كتابه « الروض الأنف » وهو مطبوع .

ومنها (الطبقات الكبرى) لمحمد بن سعد (ت ٢٣٠ هـ) حيث خصص المجلدين الأولين من كتابه للسيرة ، وابن سعد ثقة يتحرى في كثير من رواياته كما يقول الخطيب البغدادي والعسقلاني ، لكنه ينقل عن الضعفاء مثل الواقدي الذي أكثر من النقل عنه حتى اتهمه ابن النديم بسرقة مصنفاته ، لكن التدقيق يثبت أن ابن سعد مؤلف له منهجه وأنه يكثر النقل عن الواقدي كما يكثر عن شيوخ آخرين يبرز بينهم عفان بن مسلم وعبيد الله بن موسى والفضل بن دكين والثلاثة من ثقات المحدثين[1] . وقد ذكر الحافظ الذهبي : « ويقولون إن ماروواه عنه - أي الواقدي - كاتبه في الطبقات هو أمثل قليلاً في رواية الغير عنه »[2]

ومنها (تاريخ خليفة بن خياط) المتوفي ٢٤٠ هـ ، وهو محدث ثقة من شيوخ

---

(١) أكرم العمري : بحوث في تاريخ السنة المشرفة ص ٥٦ - ٥٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٩/٤٦٤ .

الإمام البخاري في « الصحيح » ، وكتابه تاريخ عام تناول في بدايته أحداث السيرة باقتضاب معتمداً على ابن إسحق بالدرجة الأولى[1] .

ومنها (أنساب الأشراف) لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩ هـ) وهو تاريخ عام مرتب على النسب ، وقد خصص البلاذري القسم الأول منه للسيرة ، وينظر المحدثون إلى البلاذري نظرة تضعيف ، فقد أورد العسقلاني ترجمته في كتابه عن الضعفاء (لسان الميزان) .

ومنها (تاريخ الرسل والملوك) لمحمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) حيث خصص قسماً من تاريخه للسيرة والطبري ثقة واعتمد على ابن إسحق بالدرجة الأولى ، ومنهج الطبري أنه لا يهتم بنقد الروايات التي يوردها من حيث الصحة والضعف بل يسوقها بأسانيدها تاركاً للقاريء مهمة التحقيق والترجيح[2] .

ومنها (الدرر في اختصار المغازي والسير) لابن عبد البر القرطبي (ت ٤٦٣ هـ) وهو من أعلام المحدثين في عصره ، وقد اعتمد على سيرة ابن إسحق وسيرة موسى بن عقبة وتاريخ ابن أبي خيثمة إضافة إلى كتب الحديث[3] ، ولم يصرح بالنقل عن الواقدي إلا في موضع واحد[4] ، لكنه أشار إلى روايته لمغازيه[5] ، وقد صرح بمتابعة ابن إسحق في البناء العام لكتابه[6] ، ولم يتقيد بذكر الإسناد كثيراً .

ومنها (جوامع السيرة) لابن حزم الظاهري (ت ٤٥٦ هـ) وقد تخلى عن

---

(١) أكرم العمري : مقدمة تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٦ - ٢٧ .
(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك (ط أبي الفضل إبراهيم) ١/ ٨ .
(٣) شوقي ضيف : مقدمة كتاب الدرر ص ٨ .
(٤) ابن عبد البر : الدرر ص ٣٩ .
(٥) المصدر السابق ص ٢٧٦ .
(٦) المصدر السابق ص ٢٩ وانظر شوقي ضيف : مقدمته للدرر ص ١٢ .

طريقة ذكر الأسانيد ، ولم يشر إلى مصادره[1] ، ورجح بين الروايات وأثبت في كتابه ما اختاره وحقق في تواريخ الأحداث[2] وغلبت عليه طريقة التلخيص فجرد السيرة من الأشعار والقصص[3] .

ومنها (الكامل في التاريخ) لأبن الأثير الجزري (ت ٦٣٢ هـ) ، وهو مؤرخ ثقة وكتابه تاريخ عام خصَص قسماً منه للسيرة .

ومنها (عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير) لابن سيد الناس (ت ٧٣٤ هـ) وهو محدث ثقة ، وثقه الذهبي وابن كثير ، وقد أكثر فيه النقل عن كتب الحديث إلى جانب كتب المغازي التي سبقته ، وقد ذكر مصادره في مقدمة كتابه .

ومنها (زاد المعاد في هدى خير العباد) لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) وهو من أعلام العلماء في عصره ، وكتابه نفيس في الشمائل والآداب والفقه والمغازي ، فهو مزيج من ذلك كله .

ومنها (السيرة النبوية) للحافظ الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) ، وهو مؤلف ثقة يمتلك عقلية ناقدة جيدة وخاصة في استخدام قواعد المحدثين التي يعتبر من أهل الاستقراء التام فيها ، وقد اقتصر على نقد بعض الروايات في كتابه هذا .

ومنها (البداية والنهاية) للحفاظ ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) وهو تاريخ عام خصص قسماً منه للسيرة ، وابن كثير من الأئمة الثقات المتحققين وثقه الذهبي والعسقلاني وابن العماد الحنبلي .

---

(١) لكنه صرح بالنقل عن خليفة بن خياط في ثلاثة مواضع ، وعن تاريخ أبي حسان الزيادي في ثلاثة مواضع أيضاً ، وعن الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر في موضع واحد ، ورأى محققو كتابه أنه نقل عن الدرر كثيراً بتصرف وقطع بذلك شوقي ضيف (راجع جوامع السيرة ، المقدمة ص ٨ والدرر ، المقدمة ص ١٥) .

(٢) جوامع السيرة ، مقدمة ص ١٠ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٣ .

ومنها (إمتاع الأسماع) للمقريزي ، وهو ثقة ، وقصد الاختصار وتخلى عن ذكر الإسناد ، وقال السخاوي عن (الإمتاع) : « فيه الكثير مما ينتقد »[1] .

ومنها (المواهب اللدنية بالمنح المحمدية) لأحمد بن محمد القسطلاني (ت ٩٢٣ هـ) .

ومنها (شرح المواهب اللدنية) لمحمد بن عبد الباقي الزرقاني (ت ١١٢٢ هـ) .

والمواهب وشرحه من الكتب الجامعة في الشمائل والسيرة .

ومنها (السيرة الحلبية) لبرهان الدين الحلبي (ت ٨٤١) فيه حشو وقصص إسرائيلي[2] . وقد حذف أسانيد الروايات واكتفى بذكر راوي الخبر وشرح بعض الغريب وإضافة تعليقات أخرى .

ومنها (سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد) لمحمد بن يوسف الدمشقي الشامي (ت ٩٤٢ هـ) انتخبها من أكثر من ٣٠٠ كتاب .

هذا أهم ما وصل إلينا من مصادر السيرة ، وهي كما ذكرت تلي من حيث الدقة القرآن الكريم والحديث الشريف ، ولكن هذا لا يعني أن كل ما أوردته كتب السيرة له نفس القيمة من حيث الصحة ، بل ولا يشترط أن يكون كله صحيحاً ، بل فيه الصحيح والضعيف ، وينبغي عند دراسة السيرة الاعتماد على الصحيح أولاً ثم استكمال الصورة بما هو حسن أو مقارب للحسن ، ولا يلجأ إلي الضعيف فيما له أثر في العقائد أو التشريع ، ولا بأس من الأخذ به – عندما لا نجد غيره من الروايات القوية – فيما سوى ذلك من أخبار تتعلق بالحث على مكارم الأخلاق أو وصف لعمران أو صناعات أو زرع ، أو ما شاكل ذلك .

وهذا المنهج اتبعه أهل الحديث أنفسهم ، قال عبد الرحمن بن مهدي (ت ١٩٧ هـ) « إذا روينا عن النبي ﷺ في الحلال والحرام والأحكام شدّدنا في

---

(١) السخاوي : الاعلان بالتوبيخ (ملحق علم التاريخ عند المسلمين) لروزنتال ص ٣٠ .

(٢) جواد علي تاريخ العرب قبل الإسلام ، السيرة النبوية ص ١٠ .

الأسانيد وانتقدنا في الرجال ، وإذا روينا في الفضائل والثواب والعقاب سهلنا في الأسانيد وتسامحنا في الرجال »[1] .

إن السيرة بحاجة إلى تمحيص أسانيدها ومتونها تبعاً لقواعد المحدثين في نقد الحديث ، ومما يعين على ذلك أن سائر مصادر السيرة المهمة قد أوردت الروايات تتقدمها الأسانيد ، وأن معظم رواة السيرة من المحدثين الذين ترجمت لهم كتب الرجال وأوضحت حالهم وبينت ما قيل فيهم من جرح وتعديل .

إن عدم استعمال البعض لهذا المنهج يرجع إلى ما في ذلك من صعوبة وجهد في معرفة الرجال وأحوالهم والتفتيش عنهم ، وفي اتقان علوم الحديث والتمرس على تطبيقها في النقد التاريخي ، لكن آخرين قد يتجاهلون هذا المنهج ويغمطونه حقه بالتقليل من جداوه والتشكيك من قيمته وتوسيع بعض المآخذ عليه .

إن هؤلاء - لا شك - يجهلون حقيقته - وقد أوضح أسد رستم - وهو رجل نصراني لا يتعصب لدين - قيمة مناهج المحدثين في النقد مثبتاً لهم سابقتهم وإبداعهم ، وذلك في كتابه (مصطلح التاريخ) ، إنه لابد من اتباع هذا المنهج في النقد عند دراسة السيرة ، بل دراسة التاريخ الإسلامي عامة ، فلئن كان التدقيق في حقل السيرة أهم وأولى لتعلقها بالعقيدة والشريعة وصياغة الشخصية الإسلامية ، فإن الحاجة إلى استعمال هذا المنهج في دراسة تاريخ الراشدين والأمويين والعباسيين شديدة لتأثير الأهواء على الإخباريين واختلاط الحق بالباطل اختلاطاً يصعب تمييزه إلا على المتضلعين بالرجال ومعرفة جرحهم وتعديلهم وميولهم وعقائدهم .. إن كتب التاريخ مزيج من مقتطفات أوردها إخباريون ذوو اتجاهات سياسية ومذهبية متباينة ، فلو أريد إعطاء صورة عن العصر الأموي مثلاً من خلال مرويات أبي مخنف فقط ، فإنها تكون مغايرة كثيراً للصورة التي تكونها مرويات عوانة بن الحكم أو أبي اليقظان النسابة وحدها .

---

(١) فتح المغيث ١/ ٢٨٤ .

مصادر أخرى تكميلية :

وتأتي المصادر التكميلية بعد القرآن الكريم والحديث الشريف وكتب السيرة المختصة من حيث الدقة والأهمية ، وهي تكمل معالم الصورة ، وتملأ بعض الثغرات التي ظلت باقية بعد استيفاء المصادر الأصلية .

فكتب الأدب تلقي ضوءاً على الحياة الثقافية ومستوى المعيشة وأنواع الملابس والأطعمة والعادات وغير ذلك من جوانب الحياة في عصر السيرة ، والشعر خاصة يعتبر وثيقة تأريخية مهمة حيث يعكس الحياة العقلية والاجتماعية ويصور المعارك ويبرز البطولات ، ويكفي هنا الإشارة إلى دور كل من حسان بن ثابت وكعب ابن مالك وعبد الله بن رواحة في تصوير بعض أحداث السيرة ، ولكن ينبغي الانتباه إلى أن كتب الأدب تُعنى بالشاذ والغريب والطريف فتدونه أكثر من عنايتها بأحداث الحياة الرتيبة ، ومن هنا نتبين خطورة تعميم ما فيها .

وكتب معرفة الصحابة تترجم للجيل الذي عاش أحداث السيرة ، فتقدم معلومات تاريخية موثقة ، وإن كانت مشتتة وقليلة ، بعضها يتناول أنسابهم وبعضها يتناول أخبارهم ، وبقية كتب التراجم والرجال (إضافة لكتب معرفة الصحابة) تفيد في التعريف برجال أسانيد كتب السيرة مما له أثر كبير في دراسة موارد تلك الكتب وفي التمكن من نقد أسانيدها .

وكتب الجغرافية التاريخية تلقي ضوءاً على تضاريس الجزيرة العربية التي دارت فيها أحداث السيرة وتبين مستوى المعيشة وحاصلاتها الزراعية وتحدد المسافات بين الأماكن وتوضح توزيع العشائر .

وهكذا ، فإن المصادر التكميلية تساعد على استكمال دراسة جوانب السيرة وإجلاء تفاصيلها ودقائقها .

(**وبعد**) : فهذه نظرة عجلى في مصادر السيرة ، ولا يسعني في الختام إلا الإشارة إلى حاجتنا إلى مناهج شاملة في النقد التاريخي والتفسير التاريخي ، حيث

ستظل الدراسات التاريخية الإسلامية قاصرة وعاجزة عن التعبير - بصدق وعلمية - عن مسيرة أمتنا التاريخية ما لم تتكامل مناهج النقد والتفسير التاريخيين .

لقد قدم الفكر الأوروبي مجموعة كبيرة من الدراسات عن طبيعة التاريخ ومناهج نقده وتفسيره ، بعضها مترجم إلى العربية[1] ، ولكن هذه الدراسات تعكس وجهة النظر الغربية وهي نابعة من فلسفة الحياة الأوروبية ، وطبيعة التاريخ الأوروبي ومشاكل دراسته ، كما أن تطبيقاتها مأخوذة منه ، ونحن بحاجة إلى دراسات - في مستواها - تنبع من عقديتنا وتتكيف لتاريخنا ولا تنظر إليه من خلال زاوية النظر الغربية .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض العرب المسلمين كتبوا دراسات أولية[2] ، وطرحوا تصورات مفيدة بهذا الصدد ، ولا شك أن توالي الجهود وتضافرها سينتهي إلى منهج كامل للبحث ونظرية شاملة لتفسير التاريخ الإسلامي من المنطلقات الإسلامية الصحيحة .

---

(١) مثل كولنوود : فكرة التاريخ .
ادورد كار : ما هو التاريخ ؟
أ . ل . رواس : التاريخ أثره وفائدته .
فردريك انجلز : التفسير الاشتراكي للتاريخ .
لا نجلوا وسينيبوس : النقد التاريخي .
آرنست كاسيرر : في المعرفة التاريخية .
جوزيف هورس : قيمة التاريخ .
ايمري نف : المؤرخون وروح الشعر .

(٢) سيد قطب : في التاريخ فكرة ومنهاج .
فتحي عثمان : أضواء على التاريخ الإسلامي .
عبد الرحمن الحجي : نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي .
عماد الدين خليل : التفسير الإسلامي للتاريخ .
عبد الحميد صديقي : تفسير التاريخ .

الفصل الأول

الرسول ﷺ في مكة

قبل البعثة

مكـــة[1] :

تقع مكة في بطن واد ، وتشرف عليها الجبال من جميع النواحي فإلى الشرق يمتد جبل أبو قبيس وإلى الغرب يحدها جبل قعيقعان . ويمتدان بشكل هلال فيحصران عمران مكة وتعرف المنطقة المنخفضة من الوادي بالبطحاء ويقع بها البيت العتيق ، وتحيط بها دور قريش ، أما المنطقة المرتفعة فتعرف بالمعلاة ، أما عند طرفي الهلال فتقوم دور ساذجة لقريش الظواهر وهم أعراب فقراء أصحاب قتال ، لكنهم دون قريش البطاح في التحضر والغنى والجاه ، وكانت صلات النسب بين قريش وكنانة – حيث إن قريشا تنتمي إلى كنانة – التي تسكن قريباً من مكة ، تعطي مكة عمقاً استراتيجياً ، وقد وثقت صلة النسب بالمحالفات أيضــاً ، وكان الأحابيش الذين يعيشون قريباً من مكة حلفاء لقريش أيضاً ، وكانوا يستخدمون في حراسة القوافل المكية . وامتدت الأحلاف لتشمل القبائل التي تقع على خطوط التجارة المكية إلى الشام والعراق واليمن ، وكانت قريش تدفع لهم جعالات معينة وتشرك زعماءهم في تجارتهاوسمي هذا بـ (الإيلاف) الذي أوجده هاشم بن عبد مناف . بل تمكن هاشم بن عبد مناف من الحصول على حق التجـارة داخـل أراضي الروم والفرس بالاتفاق مع حكامهم ، وعقد المعاهدات معهم ، وسلوك مسلك الحياد بين القوتين ، فارس والروم . واقتصاد مكة يقوم أساساً على التجارة أما الصناعة فكانت قليلة أبرزها صناعة الأسلحة من رمـاح وسيوف ودروع ونبال وسكاكين ثم صناعة الفخار والنجارة لصناعة الأسرة والأرائك ، كما أن الموارد الاقتصادية الأخرى مثل تربية الماشية والصيد كانت معروفة ، ولكن بقيت التجارة أساساً لاقتصاد مكة فكانت سياسة الإيلاف

(١) لخصت هذه النبذة من الجزء الرابع من كتاب (المفصل في تاريخ العرب) للدكتور جواد على ومن كتاب (مكة في عصر ما قبل الإسلام) للسيد أحمد أبو الفضل عوض الله ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز – ١٤٠١هـ (١٩٨١م) .

والمعاهدات سبباً في ازدهار مكة وتكاثر رءوس الأموال فيها بسبب الانتقال من التجارة المحلية إلى التجارة الدولية ، وساعد النزاع بين الفرس والروم على ازدهار طرق التجارة البحرية بدل الطريق البري بين العراق والشام فكانت البضائع تنقل من الهند إلى اليمن ثم مكة فالشام ، وصارت القوافل الكبيرة تموّل من قبل عدد كبير من المكيين بشكل أسهم تزيد وتنقص حسب قدراتهم المالية ، وهكذا ساعدت التجارة على تعميق أواصر المجتمع المكي إذ ربطته بالمصالح إلى جانب وشائج القربى . لكن هذه المشاركة لم تحل دون نشوء طبقة غنية متخمة وأخرى متوسطة وثالثة معدمة ، فرءوس الأموال الكبيرة بيد الأغنياء ، وهي تتعاظم بالتجارة وبالإقراض الربوي للمحتاجين ، وبالاستثمار في الزراعة في الطائف المجاورة . وهكذا كان من أغنياء مكة من يأكل بصحاف الذهب والفضة في حين كان أكثر أهل مكة فقراء .

وكانت تجارة مكة تسلك أحياناً الطرق البحرية إلى جانب الطرق البرية ، لكنها لم تكن تملك أسطولاً تجارياً بل تستخدم السفن الحبشية في العبور إلى الحبشة أما السفن الرومية فكانت تصل إلى ميناء الشعيبة قبل أن تأخذ مكانها جدة في خلافة عثمان (رض) . وكانت قريش تحصل من الحبشة على البخور والأطياب وريش النعام والعاج والجلود والتوابل والرقيق الأسود ، وتحصل من الشام على القمح والدقيق والزيت والخمر ، وتحصل من الهند على الذهب والقصدير والحجارة الكريمة والعاج وخشب الصندل والتوابل كالبهار والفلفل ونحوها والمنسوجات الحريرية والقطنية والكتانية والأرجوان والميعة والزعفران والآنية الفضية والنحاسية والحديدية . وكانت تحمل حاصلات بلاد العرب من الزيت والبلح والصوف والوبر والشعر والجلود والسمن .

والاقتصاد التجاري يحتاج إلى الأمن ، وقريش كانت تستعمل سياسة الحلم واللين وليس القوة للوصول إلى غاياتها التجارية وأمان طرقها الخارجية . ولم تدخل قريش في حروب قبل الإسلام سوى حروب الفجار الأربع التي هي

حروب صغيرة ومناوشات . وقد شهد الرسول ﷺ آخرها وهو الفجار الرابع وعمره عشرون سنة ، ولم تحرز قريش النصر على الأعراب في تلك المناوشات..
وقد ساعدها على تحقيق الأمن وجود الكعبة التي يحج إليها العرب من شتى الأصقاع حيث تحيط بها أصنامهم الستون والثلثمائة بعضها جلبها عمرو بن لحيّ الخزاعي - وهو أول من غير دين إبراهيم عليه السلام - من الشام مثل هبل وبعضها صنع محلياً وبعضها ليست مصنوعة بل هي حجارة مثل أساف ونائلة .
وكون مكة مركزاً لعبادة العرب يمنح قريشاً الاحترام ويحقق لها الإيلاف مع القبائل والحماية بالتالي لتجارتها . وحرمة مكة قديمة ترجع إلى إبراهيم عليه السلام وقد ظلت أرضاً مقدسة وحرماً آمناً حتى ظهور الإسلام الذي أكد على حرمتها وقدسيتها ، ولم يقتصر تقديس الكعبة على المكيين بل امتد إلى العرب في شبه الجزيرة ، ولم تتمكن بيوت الأوثان والأصنام من منافستها مثل بيت الأقيصر وبيت ذي الخلصة وبيت صنعاء وبيت رضاء وبيت نجران ، ولم تنجح محاولة أبرهة لتحويل الحج إلى القليس التي ابتناها في صنعاء بعد أن أخفقت حملته العسكرية على مكة سنة ٥٧٠ م . ورغم وجود أخبار عن سكان مكة القدامى وهم جرهم ثم خزاعة ثم قريش فإن معظم الأخبار تخص قريشاً ، وكثير من أخبارها تشعر بأنها صالحة للبحث التأريخي وليست أسطورية . وخاصة بعد أن جمع قصي بن كلاب عشائر قريش واستولى بها على مقاليد الأمور بمكة - وذلك في النصف الأول من القرن الخامس للميلاد ، وبذلك يتطابق التاريخ السياسي والأدبي لأن تاريخ الأدب الجاهلي لا يرقي إلى أكثر من ١٥٠ سنة قبل الإسلام - وكانت بيد خزاعة ووزع رباع مكة وخططها بين قريش ، فبدأت تبني دورها بالحجر داخل الحرم بعد أن كانت منطقة مشجرة خالية من البناء ، وكان الشجر مقدساً لا يقطع حتى قطعه قصى فتجرأ الناس على قطعه . ثم قام قصي بتنظيم مكة فقسم الوظائف والواجبات بين أولاده وهي الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة ، وكان قصى قد اتخذ لنفسه دار الندوة وجعل بابها إلى مسجد الكعبة ،

ففيهـا كانت قريش تتشـاور في أمـور السلم والحرب وفيها تجري عقود الزواج والمعـاملات فهي دار مشورة ودار حكومة يديرها (الملأ) الذين يمثلون زعماء الأسر وأصحاب الرأي في مكة ويندر أن يقل عمر أحدهم عن سن الأربعين ، ويتقيد الناس بأوامر الندوة عادة وعرفا ، فليس ثمة قانون مكتوب ، وليس ثمة رئيس أو حاكم أو مالك في مكة ، ولا يتم انتخاب أعضاء الندوة بالاقتراع بل يحددهم العرف ، ويمارس رئيس كل عشيرة صلاحياته على عشيرته . وقد فرض قصي العشر على التجار القادمين إلى مكة من غير أهلها ، فصار أحد مصادر الثروة في مكة . وصار أمر قصي في قريش كالدين المتبع اعترافاً بفضله وشرفه ويمنه .

وقـد اتسم (المـلأ) بالمحـافظة الشديدة على العقائد والتقاليد والأعراف السائدة لتأكيد حقوقهم الموروثة ومكانتهم الاجتماعية ومصالحهم الاقتصادية وكل ذلك يتحقق بالمحافظة على الأوضاع السائدة ووحدة أهل مكة ، مما يفسر شدة مقاومتهم للإسلام عند ظهوره ، فقد رأوا فيه تهديداً لوحدة قريش ، وأغاظهم جداً أن يهاجر المسلمون إلى الحبشة ثم المدينة .

لقـد قام أبناء قصي وأحفادهم بأعمال مهمة أدت إلى ازدهار مكة وبنفس الوقت أبرزت مكانتهم وفضلهم وشرفهم ومكنت لسيادتهم . وإذا استعرضنا ما انجـزوه ، فإن قصياً هو الـذي جمع قريشـاً ومكن لها في مكة ونظم شؤونها ، وأمسـك أبنـاؤه بزمـام وظـائفـه من بعده من السقاية والرفادة والحجابة واللواء والندوة ، وتمكن هاشم بن عبد مناف بن قصي من عقد الإيلاف وتوسيع نطاق التجارة المكية بإخراجها من الحدود المحلية إلى النطاق الدولي ، وقام بحفر عدة آبار لخدمة قريش والحجيج معاً ، وعرف المطلب أخو هاشم بالنسك والأمر بترك الظلم والبغي والحث على مكـارم الأخـلاق ، وعرف عبد المطلب بن هاشم بالفياض لجوده وبشيبة الحمد لكثرة حمد الناس له ، وقد اشتهر بحفر ماء زمزم التي طغت على مياه آبار مكة الأخرى لغزارتها ودوامها وأنها ألطف مذاقاً من مياه

آبار مكة الأخرى ، وكان أبناء قصي قبل حفرها يأتون بالمياه من آبار خارج مكة .

ولم يكن عبد المطلب أغنى رجل في قريش ولا زعيم مكة الوحيد ، لكن صلته بشؤون البيت العتيق وخدمة الحجيج جعلته من وجهاء مكة وهو الذي حادث أبرهة عندما غزا الأخير مكة .

وقبيل ظهور الإسلام تولى أبو طالب بن عبد المطلب الرفادة والسقاية ولم يكن له مال ينفقه في هذا السبيل فاستدان من أخيه العباس بن عبد المطلب عشرة آلاف درهم فأنفقها ، ولما لم يتمكن من رد المبلغ تنازل عن الرفادة والسقاية إلى العباس بن عبد المطلب . .

وهكذا فإن عشيرة الرسول ﷺ كانت تتبوأ مكانة اجتماعية خاصة في مكة عند ظهور الإسلام ، رغم أنهم كانوا وسطاء في الثراء ، وربما كانوا دون أوساط تجار مكة ، وكان الثراء قبيل الإسلام في بني عبد شمس وبني نوفل وبني مخزوم ، وقد نازعتهم العشائر القرشية الأخرى السيادة على مكة ، وكان النزاع على السيادة بين تلك العشائر القرشية قد بدأ بين أبناء قصي وأدي إلى انقسام العشائر إلى محورين هما المطيبون (بنو عبد مناف ومن حالفهم وهم بنو أسد بن عبد العزى وبنو زهرة وبنو تيم وبنو الحارث بن فهر) والأحلاف (بنو عبد الدار ومن حالفهم وهم سهم وجمح ومخزوم وعدي) ، كما حدثت منافرات ومنازعات داخل الأسرة الواحدة أحياناً ، كما حدث بين أمية بن عبد شمس وعمه هاشم بن عبد مناف ، ومن بعدهما بين ابنيهما حرب بن أمية وعبد المطلب بن هاشم . وقد ساعد الأمن والسلام الذي ساد مكة قبيل الإسلام على بقاء زعمائها خلافاً لزعماء المدينة الذين أفنتهم الحروب الداخلية ، وهذا أحد أسباب شدة المقاومة للدعوة الإسلامية من قبل قريش .

ومن أبرز رجالات مكة في عصر الرسالة الأسود بن المطلب والأسود بن عبد يغوث الزهري ، وكانا من أعز قريش في الجاهلية ، وكانا من المستهزئين بالرسول ﷺ وأصحابه .

ومن زعـماء مكـة آنـذاك أبو جهل والحارث وعمرو أبناء المغيرة بن هشام المخزومي ، وقد اشتهرت عداوة أبي جهل وعمرو للإسلام ، وصدهما الناس عن رسول الله ﷺ ، وقيام أبي جهل بتعذيب المستضعفين من المسلمين .

ومنهم حكيم بن حزام بن خويلد ، والحكم بن أبي العـاص بن أمية ، والوليد بن المغيرة المخزومي وكان عظيم الثراء ، متعالياً متغطرساً ، وكان أحد المستهزئين بالإسلام أنفة وغروراً واستكباراً .

ومنهم أبو أمية سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ، وكان عدواً على الإسلام محرضاً على المسلمين .

ومنهم عمرو بن عبد ود العامري ، وهو فارس مشهور .

وسهيل بن عمرو الذي مثل قريشا في عقد صلح الحديبية .

ومنهم الحارث بن قيس بن عدي السهمي أحد المستهزئين بالإسلام وأهله ومنهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس .

ومنهم أبو سفيان صخر بن حرب الذي اشتهر بقيادة تجارة قريش الخارجية ، بالإضـافة إلى قيادة مكة في الحرب ، وكان معانداً للإسلام ولعله أكثر الزعماء تصدياً للإسلام حتى إسلامه وقت فتح مكة .

ومنهم عبد العزى بن عبد المطلب من أغنياء مكة ووجهائها الذين وقفوا بقوة أمام الدعوة الإسلامية .

ومنهم أبـو لهب عم الـرسـول ﷺ ، وكان من وجهاء مكة عرف بمواقفه العدائية من الإسلام .

ولا شك أن هذا العدد الكبير من الزعماء الأقوياء الذين وقفوا أمام الدعوة الإسلامية وناصبوها العداء وأوقعوا باتباعها البلاء يوضح الظروف الصعبة التي واجهت الرسول ﷺ بمكة .

أما الزعماء الذين أسلموا أو وقفوا إلى جانب الإسلام في العهد المكي فهم أبو طالب وحمزة والعباس أبناء عبد المطلب وأبو بكر الصديق وعمـر بن الخطاب .

الحياة الدينية في مكة[1] :

كانت هاجر ورضيعها أول ساكنين بمكة ، ثم جاءت جرهم فاستقرت إلى جوار زمزم ، ثم ابتنى إبراهيم الكعبة وهي أول بيت لعبادة الله ، فإبراهيم كان رسولاً يدعو إلى عقيدة التوحيد ، فلابد أن جرهم اتبعت الإبراهيمية لتتم المحافظة على التوحيد في الأجيال الأولى بمكة التي أعقبت بناء الكعبة ، ويبدو أن عقيدة التوحيد في نفوس الناس أصابها انحراف نحو عبادة الأصنام والأوثان ، وتشير كتب الأخبار والتاريخ إلى أثر عمرو بن لحي الخزاعي في جلب هذه الأصنام من الشام إلى مكة وقيامه بالدعوة إلى عبادتها ، ويبدو أن تعاليم الإبراهيمية في زمن عمرو بن لحي كانت ضعيفة التأثير في نفوس الناس وربما كانت تفاصيل الديانة قد ضاعت ، ومن هنا ظهر استعداد الناس لقبول الشرك وما يتصل به من عقائد باطلة . وإذا كانت هذه الصورة مأخوذة من أقوال الأخباريين التي كثيراً ما تتضارب وتتعارض فإن من الثابت إن عمرو بن لُحَيّ الخزاعي قد ابتدع عادات ومعتقدات في مكة مخالفة للدين الحق وأن النبي ﷺ بَيَّنَ أنه رآه في المنام يجرّ قصبه في النار ، وأنه أول من سيّب السوائب[2] ، وهو تحريم ظَهر الأنعام فلا يحمل عليها شيء نذراً للأصنام فتسيب فلا تحبس عن مرعى ولا ماء ولا يركبها أحد ، وهذا تحريم لم يأذن به الله حتى لو لم يقترن بالنذر للأصنام ، وأما مع الاقتران فهو الشرك .

---

(١) لخصت هذه النبذة من (مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله أهل الجاهلية) لمحمد بن عبد الوهاب مع شرح محمود شكري الألوسي ، ومن الجزء السادس من كتاب (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) للدكتور جواد علي ، ومن كتاب (الميثولوجيا عند العرب) لمحمود سليم الحوت . والمصدران الأخيران يناقضان العقيدة الإسلامية بسبب تأثرهما بالدراسات الاستشراقية في قضايا الوحي والنبوة .

(٢) أخرجه البخاري كما في فتح الباري ٦ / ٥٤٧ و ٨ / ٢٨٣ .

وهذا التأكيد من الإخباريين على أثر عمرو بن لحي لابد أنه يستند إلى أصل تاريخي يثبت أن له أثراً في تحريف الإبراهيمية ونشر الشرك بين أهل مكة وخارجها .

إن أصدق مصدر يبين عقائد الجاهلية هو القرآن الكريم من خلال جدله الديني مع المشركين وتفنيد عقائدهم ، وقد بين الله تعالى في القرآن أن العرب المشركين كانوا يعبدون آلهة مزعومة لتقربهم إلى الله زلفى ولتشفع لهم عنده « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله »[1] فهم يعرفون الله لكنهم يستشفعون إليه بالآلهة المزعومة « أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى »[2] ، فيعبدون الأصنام والأوثان معتقدين أنها منازل الأرواح كما بين الأخباريون ، وقد اتصلت فيهم هذه الوثنية مع شعائرها وعاداتها واعتقاداتها عقوداً متتابعة بسبب التقليد فكل جيل جديد يرث عن أسلافه هذه الوثنية ، فترسخت على مر الأيام لما كانوا عليه من تعظيمهم الأسلاف « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون »[3] وقد أعماهم التقليد عن نقد تراثهم العقدي وتحكيم العقل والأخذ بالدليل الصحيح . واستتبع الانحراف في العقيدة انحراف في العبادة والسلوك والشعائر والشرائع ، فإذا بمناسك الحج تدخلها الوثنية ، حيث وضعت الأصنام حول الكعبة ، وجرى الطواف حولها مع التعري من الثياب أحياناً ، وأصبحت قريش أخيراً لا تخرج إلى عرفات بل تقف بمزدلفة خلافاً للناس « وكانوا لا يسلأون ولا يأقطون ولا يرتبطون عنزاً ولا بقرة ولا يغزلون صوفاً ولا وبراً ولا يدخلون بيتاً من الشعر والمدر ، وإنما يكتنّون بالقباب الحمر في الأشهر الحُرُم ، ثم فرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الحلّ إذا دخلوا الحرم ، وأن يتركوا ثياب الحلّ ويستبدلوها بثياب الحرم ، إما شراء

---

(١) يونس : ١٨ .

(٢) الأنعام : ١٩ .

(٣) الزخرف : ٢٢ .

وإما عارية وإما هبة ، فإن وجدوا ذلك فيها وإلا طافوا بالبيت عراياً ، وفرضوا على نساء العرب مثل ذلك ، غير أن المرأة كانت تطوف في درج مفرج القوائم والمآخير » ، وهكذا ابتدعوا وشرعوا ما لم يأذن به الله مع ادعائهم أنهم على شريعة أبيهم إبراهيم عليه السلام !!

وكان تصورهم لله فيه قصور ونقص ، فهم ينحرفون عن الحق في أسمائه وصفاته « وذروا الذين يلحدون في أسمائه »[1] فينكرون بعض صفاته ويسمونه بأسماء لا توقيف فيها أو بما يوهم معنى فاسداً ، وينسبون إليه النقائص كالولد والحاجة ، فزعموا أن الملائكة بنات الله ، وجعلوا الجن شركاء له سبحانه « وجعلوا لله شركاء الجن »[2] « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون »[3] ، وجحدوا القدر واحتجوا به على الله تعالى « لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حَرمنا من شيء »[4] . ومن معتقداتهم إنكار البعث « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت »[5] ، فعباداتهم لإله وتقربهم للأصنام بالقرابين والنذور ليس من أجل الآخرة بل لتحقيق مطالب دنيوية مثل زيادة الأموال ودفع الشر والضرر عنهم في هذه الدنيا إذ لا علمَ لهم بالآخرة . ويستثنى من عموم المنكرين للبعث عدد ممن كانوا يقولون بالبعث من الشعراء الجاهليين وغيرهم ، ولم تنقل الأخبار تصور هؤلاء لما يقع بعد البعث ، وكانوا ينسبون النوازل - ومنها الموت - إلى الدهر (وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر)[6] .

---

(١) الأعراف : ١٨٠ .
(٢) الأنعام : ١٠٠ .
(٣) النحل : ٥٧ .
(٤) الأنعام : ١٤٨ .
(٥) النحل : ٣٨ .
(٦) الجاثية : ٢٣ .

وأما العبادة فقد نقصوا منها وزادوا فيها تبعاً لأهوائهم ، فكانوا ينقصون من الحج الوقوف بعرفة قالت عائشة (رض) : « كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون الحُمس ، وكان سائر العرب يقفون بعرفات . فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ثم يقف بها . ثم يفيض منها ، فذلك قوله سبحانه (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس)[1] ، ومن ذلك أنهم كانوا يرون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض . ومما زادوه في العبادة المكاء والتصدية في المسجد الحرام ، وهما الصفير والتصفيق قال الله تعالى (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية)[2]وكذلك ذبحهم على النصب تعظيماً للأصنام ، كما كانوا يحلفون باللات والعزى ، ومن ذلك استسقاؤهم بالأنواء وأما أخلاقهم وأعرافهم وعاداتهم ، فمنها كثير هدمه الإسلام ، كالفخر بالأحساب والطعن بالأنساب ، قال النبي ﷺ « أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركوهن : الفخر في الأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم والنائحة »[3] ومن خصال الجاهلية تعييرهم لبعضهم بفعل الأمهات والآباء ، وافتخارهم بولاية المسجد الحرام قال تعالى (مستكبرين به سامراً تهجرون)[4] ، وتعظيمهم الدنيا والأموال وأصحابها كما تدل الآية (لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم)[5] ، وازدراؤهم الفقراء والضعفاء ، وقد شاعت فيهم العيافة والطّرق والطِيَرة والكهانة . وكانوا يتعوذون بالجن خوفاً منهم (وإنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً)[6] .

---

(١) رواه مسلم (صحيح مسلم ٨٩٣/٢ - ٨٩٤ حديث رقم ١٢١٩) ، والآية من سورة البقرة ١٩٩ .

(٢) الأنفال ٣٥ .

(٣) رواه البخاري (فتح الباري ١٥٦/٧) ومسلم واللفظ لمسلم (صحيح مسلم ٦٤٤/٢ حديث رقم ٩٣٤) .

(٤) المؤمنون ٦٦ .

(٥) الزخرف ٣١ .

(٦) الجن ٦ .

وقد حاول البعض استغلال التشابه في مناسك الحج بين الجاهلية والإسلام ، وبعض الشعائر التعبدية الأخرى ، لإثارة شبهات هي أن تعاليم الإسلام امتداد للعصر الجاهلي مع تغييرات يسيرة في الطقوس ، فعقيدة التوحيد نادي بها بعض شعراء العصر الجاهلي ، والحج إلى الكعبة كان موجوداً من قبل ، وكذلك تقديس الأشهر الحرم ، وظهور أفكار تتناول القضاء والقدر مع غلبة الجبر ، فضلاً عن التشابه في الدعوة إلى المروءة والصدق والكرم والشجاعة .

إن الفهم الصحيح لهذا التماثل لا يتحقق إلا بالاعتراف بالوحي والنبوة ، وإن الديانة الإبراهيمية تركت تعاليم وعبادات وقيما دينية في مكة وما حولها ، كما أن أنبياء آخرين بلغوا أدياناً صحيحة إلى الساميين في شبه جزيرة العرب خلال تاريخهم الطويل .

إن الفهم الشامل للإسلام يؤكد أن هذا الدين جاء نقيضاً للواقع الفكري والاجتماعي في الحقبة التي ظهر فيها وليس امتداداً لجهود سابقة ، وما هدمه من الواقع الجاهلي أعظم بكثير مما استبقاه .

وإن مراد القائلين[1] بأن الإسلام امتداد وتطور وانعكاس لبيئة فكرية واجتماعية بمكة التأكيد على بشرية القرآن وإنكار النبوة والوحي .

ولا شك أن المقاومة العنيفة التي واجهها الإسلام بمكة وأنحاء الجزيرة العربية عامة تجعل من الصعب قبول الأفكار التي تزعم بأن الإسلام جاء تحقيقاً

---

(١) حسين مروة (ت ١٩٨٧م) : النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ١/ ٣٨٠ حيث يقرر : « أن الإسلام كان استجابة موضوعية لما يقتضيه مجتمع الجاهلية آنذاك من تغيير تأريخي بسبب ما كان يعانيه من تناقضات مادية حادة » . وما كسيم رودنسون : حياة النبي والمشكلة الاجتماعية لأصول الإسلام ، نشر في مجلة ديوجين - باريس ١٩٥٧م (انظره بترجمة وتعليق د . زينب رضوان ، مجلة الفكر العربي ، العدد ٣٢ ، السنة الخامسة ، حزيران ١٩٨٣م ص ١٧ ، ١٨ ، ١٩ حيث يقول وهو يتحدث عن الإسلام : « والتجربة التاريخية على أنّ أيّ انقلاب إيديولوجي أراده فرد أو جماعة لا يمكنه النجاح إلا إذا كان يمثل إجابة لاحتياجات المجتمع في جملته » .

لطموح العرب وتطلعهم للوحدة والعدالة الاجتماعية ، إن الوعي بقضايا الوحدة والعدالة الاجتماعية مازال حتى يومنا ضئيلاً في عالم البشر في أكثر أرجاء المعمورة ، ومازال الاستئثار بالسلطة والظلم الاجتماعي وانتقاص كرامة وحقوق الإنسان تمثل مشكلة مستعصية ، فضلاً عن العرب الذين طغت عليهم البداوة والتشتت قبيل الإسلام . . فالحقوق التي نالها الإنسان مثل حق الحياة والتملك والشورى وحرية العقيدة وتكافؤ الفرص في الحقوق العامة والمساواة أمام الشرع والقضاء وحقوق المرأة لم تكن ثمرة نضال اجتماعي كما حدث في تاريخ الحضارة الغربية ، بل اكتسب الإنسان هذه الحقوق بواسطة الشرع من سلطة عليا مطلقة ، ولئن ضعفت المجتمعات الإسلامية بعد عصر الراشدين عن مواصلة السير على نهجهم بنفس المستوى بل ظهر النقص والعدوان على حقوق الإنسان فإن المسئولية تقع على الناس الذين لم يحافظوا على مستوى من الوعي يمكنهم من الحصول على حقوقهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ولا تقع على الإسلام نفسه .

صفة رسول اللّه صلى الله عليه وسلم :

كان رسول الله من أحسن الناس وجهاً ، أبيض اللون بياضاً مزهراً ، مستديرَ الوجه ، مليحَهُ ، واسعَ الفم ، طويلَ شِقّ العينين ، رَجِلَ الشعر – بين الجعودة والسَّبط – يصل إلى شحمة أذنيه ، وأحياناً بين أذنيه وعاتقه ، وقد يمتد حتى منكبيه أحياناً أخرى ، ولم يشب شعره الأسود إلاّ اليسير منه ، حيث قدر شيبه في أواخر عمره بعشرين شعرة موزعة في الرأس وتحت الفم والصدغين ، ويميل اللون إلى الحمرة في بعض شعره من أثر الطِّيب .

وكان متوسط القامة ، متوسط الوزن ، ليس بالنحيف ولا الجسيم ، عريض الصدر ضخم اليدين والقدمين ، مبسوط الكفين ، كفّاه لينتان ، قليل

لحم العقبين ، يحمل في أعلى كتفه اليسرى خاتم النبوة وهو شعرٌ مجتمعٌ كالزِّرِّ[1] .

وهذه الصفات الجسمية تدل على جمال المظهر ، واكتمال الجسم وقدرته على النهوض بالواجبات العظيمة التي انيطت به ، فلم ير اعداؤه في مظهره ما يعيبونه عليه أو يلقبونه به على سبيل الانتقاص . وإضافة لحسن خلقته الجبلية وسلامة حواسه وأعضائه ، فقد اعتنى بمظهره من النظافة وحسن الهيئة والتطيب بالطيب .

أما صفاته الخُلقية ، فقد وصفه القرآن الكريم ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[2] وقالت عائشة – رضي الله عنها – : « كان خلقه القرآن »[3] .

ومن دراسة سيرته وقراءة الأحاديث النبوية في صفاته الخُلُقيه تطالعنا صور التواضع المقترن بالمهابة ، والحياء المقترن بالشجاعة ، والكرم الصادق البعيد عن حب الظهور، والأمانة المشهورة بين الناس، والصدق في القول والعمل، والزهد في الدنيا عند إقبالها ، وعدم التطلع إليها عند أدبارها ، والاخلاص لله في كل ما يصدر عنه ، معٌ فصاحة اللسان وثبات الجنان ، وقوة العقل ، وحسن الفهم . والرحمة للكبير والصغير ، ولين الجانب ورقة المشاعر وحب الصفح والعفو عن المسيء والبعد عن الغلظة والجفاء والقسوة ، والصبر في مواطن الشدة ، والجرأة في قول الحق .

---

(١) سليمان العودة : السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحق ، دراسة مقارنة في العهد المكي (رسالة دكتوراة في قسم التاريخ بكلية العلوم الاجتماعية في جامعة محمد بن سعود الإسلامية للعام الجامعي ١٤٠٦/١٤٠٧هـ ص ١٤٣ – ١٤٥ وسائر الصفات نقلها عن صحيح البخاري ومسلم ، وقد لفقتُ بين الروايات في هذا الوصف . وقد أفدت في حصر الروايات من رسالة الماجستير التي يعدها عادل عبد الغفور والتي تناولت (مرويات السيرة في العهد المكي) . باشرافي ، وهي تتوقف بعدَ حادث الإسراء والمعراج مباشرة .

(٢) القلم ٤ .

(٣) مسلم الصحيح ١/٧٤٦ .

النبي المختار:

قال تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ فهذا اصطفاء النبوة ، وفي الحديث الصحيح : « إنَّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم »[1] فهذا اصطفاء النسب .

وفي حديث صحيح آخر : « بُعثْتُ من خير قرون بني آدم قرناً فقرن حتى كنت من القرن الذي كنت فيه »[2].

فهذا اصطفاء الزمن . . .

وقد أجمع النسابون على نسبه إلى عدنان ، وإن لم ينقل حديث صحيح بكامل نسبه ، ولكن صحت أحاديث ببعضه ، على أن من يعرف مدى اهتمام العرب بأنسابها في عصر النبوة وما قبله يدرك أن سلسلة نسبه إلى عدنان لا تحتاج إلى كبير توثيق ، مادام علماء النسب والأخبار متفقين عليها ، وما دامت من المعلوم بالضرورة في ذلك العصر .

ونسبه الذي يسوقه علماء النسب هو : « محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مُناف بن قُصَي بن كِلاب بن مُرَّة بن كَعْب بن لؤي بن غالب

---

(١) مسلم الصحيح ١٥/٢٦ (بشرح النووي)

(٢) البخاري : الصحيح ٦/٥٦٦ . وراجع حول القرن فتح الباري ٦/٥٧٤ ، وقد وردت أحاديث كثيرة حول طهارة نسبه وأنه لم يلتق له أبوان على سفاح من لدى آدم ، وكلها أحاديث واهية أو ضعيفة ضعفاً شديداً ، ولا حاجة بنا إليها إذ يكفي من الأحاديث الصحيحة الخالية من المبالغات .

(انظر بعضها في دلائل النبوة للبيهقي ١/١٧٤ - ١٧٥ والموضوعات لابن الجوزي ١/٢٨١ - ٢٨٢ وتاريخ دمشق (السيرة) ١/٢٠٢ - ٢٠٣ ، والمعجم الكبير للطبراني ٨/١٦٥ - ١٦٦) .

ابن فِهر بن مالك بن النَّضْر بن كِنانة بن خُزيمة بن مُدركة بن الياس بن مُضَر بن نِزار بن معدّ بن عدنان »[1] .

وأما أُمُّه آمنةُ بنت وَهْب فإنها من بني زُهرة .

وقد أقر أبو سفيان أمام هرقل بعلّو نسب النبي ﷺ حين سأله : « كيف نسبه فيكم ؟ فأجاب أبوسفيان : هو فينا ذو نسب . فقال هرقل : فكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها »[2] .

حفـر زمـزم :

وقد تعددت مآثر عشيرة النبي ﷺ في مكة ، فكان قُصي - جد هاشم ، وهاشم جد والد النبي عبد الله - ابرزَ رجالات قريش في عصره ، وهو الذي نظم إدارة مكـة عن طريق استحـداث دار النـدوة التي يعقـد فيهـا ملأ قريش اجتماعاتهم ، كما أنه وزع الرِّفادة والسِّقاية والحجِ واللواء بين عشائر قريش .

وقد حافظت العشيرة على مكانتها زمن عبد المطلـب الذي اشتهر بحفر بئر زمزم التي بقيت قروناً عديدة تمثل أهم عيون المياه بمكة ومصدر معلوماتنا عن قصة حفر زمزم هو الصحابي الجليل علي بن أبي طالب ، ويبدو أن الرواية كانت معروفة مشهورة لقرب العهد بها ، ولعل علياً سمعها من أبيه الذي سمعها بدوره من عبد المطلب ، وأما طريق نقل الرواية فهو سند حسن إلى علي (رضى الله عنه) من رواية ابن إسحاق مصرحاً بالسماع .

وخلاصة ما حكاه عبد المطلب أنه رأى رؤيا منامية في أربع ليال ، يأمره آتٍ بحفر البئر دون أن يحدد موقعها وفي المرة الرابعة حدّد له موقع البئر وصرح باسمها « زمـزم » . فحفـر عبد المطلب في موقعها وكشف عن الماء ، فنازعته قريش

---

(١) صحيح البخاري ٤/٢٣٨ في ترجمة باب مبعث النبي من كتاب مناقب الانصار بدون إسناد وخليفة بن خياط : الطبقات ٣ .

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ١/٣١ - ٣٢) كتاب بدء الوحي .

وطلبت اشراكها معه في الماء ، فلم يقبل ، فاحتكموا إلى كاهنة ، ولكن قبل وصولهم إليها حدث أن نفد الماء عند عبد المطلب ، ومن معه ، وأبت قريش أن تشركه بالماء الذي عندها ، حرصاً على الماء في الصحراء ، فلما أشرف عبد المطلب ومن معه على الهلاك وحفروا قبورهم انبجست عين ماء تحت حافر ناقة عبد المطلب ، فشرب القوم جميعاً واعتبروا ذلك علامة على أحقية عبد المطلب بماء زمزم فأسلموها إليه .

ولا شك أن الحادثة والسيطرة على الماء معاً عزَّزتا مكانة بني هاشم في مكة[1] . وأما الآثار التي زعم أنه عثر عليها في البئر كالغزال الذهبي والسيوف القلعية فلم تصح بها الرواية[2] .

ورغم ذلك فإن تعدد مخارج الخبر (سعيد بن المسيب + الزهري) ينهض لدعم الحدث التأريخي مادام لا يتعلق بالعقيدة أو الشريعة .

نذر عبد المطلب :

وقد صح النقل عن عبد الله بن عباس أنه قال : « . . . كان عبد المطلب ابن هاشم نذر إن تَوافى له عشرةُ رهطٍ أن ينحر أحدهم . فلما توافى له عشرة ،

---

(١) ابن هشام : السيرة ١/١٣١ - ١٣٤ وابن إسحق : السير والمغازي ٢٤ - ٢٥ والبيهقي : دلائل النبوة ١/٩٣ - ٩٥ والأزرقي : أخبار مكة ٢/٤٤ - ٤٦ وكلهم من طريق ابن إسحاق .

(٢) محمد بن حبيب : المنمق ٣٣٤ من طريق عبد الأعلى بن أبي المساور وهو متروك (تقريب التهذيب ٣٣٢) .
وعبد الرزاق : المصنف ٥/٣١٤ من طريق الزهري مرسلاً ، ومراسيله ضعيفة .
وابن سعد : الطبقات ١/٨٥ بإسناد فيه ضعف إلى أبي مجلز السدوسي (ت ١٠٩هـ) بسبب خالد بن خداش فإنه صدوق يخطيء مرسلاً ، ومن طريق هشام الكلبي وهو متروك .
وابن هشام : السيرة ١/١٣٤ - ١٣٦ من رواية ابن إسحاق بدون إسناد .
وأبو عبيد : غريب الحديث ٤/٢٦ بالحاشية بإسناد حسن إلى سعيد بن المسيب الذي لم يحدد سنده إلى عبد المطلب .

أقـرع بينهم أيهم ينحر ، فطارت القرعة على عبد الله بن عبد المطلب ، وكان أحب الناس إلى عبد المطلب ، فقال عبد المطلب : اللهم هو أو مائة من الإبل ثم أقرع بينه وبين الإبل ، فطارت القرعة على المائة من الإبل[1] . والرواية يبدو أنها كانت متداولة في أوساط العائلة . وقد بيَّنت روايتان مرسلتان عن الزهري وأبي مجلز أن النـذر وقـع عنـدمـا حفر عبد المطلب زمزم واشتدَّ عليه من قومه الأذى[2] . ومناسبة النَّذر وردت من طرق أخرى عديدة لكنها شديدة الضعف مدارها على الواقدي وابن أبي سَبْرة وأمثالهما .[3] .

ولم تحدد رواية صحيحة تأريخ عزم عبد المطلب على الوفاء بنذره بنحر عبد الله ابنه ، لكن رواية ضعيفة من طريق الواقدي تذكر أن ذلك قبل مولد النبي ﷺ بخمس سنين[4] . ولعل هذا يوافق ما ذكره موسى بن عقبة عن الصحابي حكيم بن حزام بن خويلد الأسـدي - ابن أخي خديجة - قال : ولدت قبل الفيل بثلاث عشرة سنة وأنا أعقل حين أراد عبد المطلب أن يذبح ابنه عبد الله[5] .

والحادث يوحي بما خطه القدر الإلهي من ميلاد الرسول ﷺ من أبيه عبد الله ابن عبد المطلب، فقد حفظ الله حياة عبد الله بما صرف عبد المطلب عن نحره.

---

(١) الـطبري : تاريخ ٢/٢٣٩ - ٢٤٠ بإسناد صحيح رجاله ثقات ، وابن أبي شيبة : المصنف ٤/١/٥٥ بإسناد آخر صحيح عن ابن عباس . وقد أخرج الإمام مالك في الموطأ شطراً متمماً للرواية يتعلق بفتوى ابن عباس في نذر مشابه بإسناد آخر عن ابن عباس مما يدعم رواية الطبري (الموطأ ٢/٤٧٦) .

(٢) مصنف عبد الرزاق ٥/٣١٦ - ٣١٧ ودلائل البيهقي ١/٨٧ كلاهما عن الزهري ، وطبقات ابن سعد ١/٨٤ - ٨٥ بإسناد حسن إلى أبي مجلز لكنه مرسل .

(٣) ابن سعد : الطبقات ١/٨٨ - ٨٩ .

(٤) الحـاكم : المستـدرك ٣/٤٨٢ - ٤٨٣ . والـطبري : تفسـير ٢٣/٨٥ وابن كثير : التفسير ٤/١٨ . وانظر الألباني : سلسلة الأحاديث الضعيفة ١/٣٣٧ .

(٥) ابن حجر : الإصابة ٢/١١٢ .

زواج عبد الله من آمنة :

ومن الثابت تاريخياً أن عبدِ الله بن عبد المطلب تزوج من آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وبنو زهرة عشيرة من قريش ، وكان عبد المطلب قد تزوج هالة بنت وهيب ، ووهيب عم آمنة وقد تربت في بيته ، وتفاصيل الزواج لم ترد من طريق صحيحة إذ مدراها على هشام الكلبي وعبد العزيز بن عمران والواقدي ، وكلهم متروك عند المحدثين[1] . ولكن موضوع الزواج والعلاقات النسبية مستفيض لا يحتاج إلى سند موثق .

وقد نسج بعض الكاذبين حكاية حول عبد الله أرادوا بها المبالغة بإضفاء طابع أسطوري على المولد النبوي ، فادعوا أن بغياً - ومرةً امرأة مستبضِعة ، وثالثة : كاهنة ، ورابعة : زوجة ثانية لعبد الله - دعت عبد الله إلى نفسها وقد رأت في عينيه نوراً ، ففارقها إلى آمنة زوجه ، ثم عاد إليها فامتنعت منه بحجة أن النور قد اختفى بعد لقائه آمنة ![2] .

---

(١) الطبراني : المعجم الكبير ٣/١٤٩ ، والحاكم : المستدرك ٢/٦٠١ ، وأبو نعيم : الدلائل ١/١٦١ من طريق عبد العزيز بن عمران .
وابن سعد : الطبقات الكبرى ١/٨٦ ، من طريق هشام الكلبي ، و١/٩٤ - ٩٥ من طريق الكلبي والواقدي .
وابن عساكر : السيرة ق ١/٣٣٨ - ٣٣٩ من طريق محمد بن عبد العزيز بن عمر وهو منكر الحديث (لسان الميزان ٥/٢٥٩ - ٢٦٠) .

(٢) الطبراني : المعجم الكبير٣/١٤٩ والحاكم : المستدرك ٢/٦٠١ وأبو نعيم : الدلائل ١/١٦١ من طريق عبد العزيز بن عمران .
وابن سعد : الطبقات الكبرى ١/٨٦ من طريق هشام الكلبي ، و ١/٩٤ - ٩٥ من طريق الكلبي والواقدي .
وابن عساكر : السيرة ق ١/٣٣٨ - ٣٣٩ من طريق محمد بن عبد العزيز بن عمر الزهري وهو منكر الحديث (لسان الميزان ٥/٢٥٩ - ٢٦٠) .

وهـذه الرواية منكرة سنداً ومتناً ، ومن يقرأ الروايات المختلفة عنها يدرك مدى الاختلاف والاضطراب في سوقها سواء في تعيين المرأة ، إذ مرة هي خثعمية وأخرى أسدية قرشية اسمها قتيلة ، وثالثة عدوية اسمها ليلى ، وكذلك في صفة عبد الله عندما التقته فمرة هو مطيّن الثياب وأخرى هو في زينته[1] !! ومثل هذا الاختلاق ينبغي أن يطرح من دراسات السيرة الجادة .

وفاة عبد الله :

ولم يرَ الرسـول ﷺ أباه ، فقد مات في المدينة عند أخواله بني عدي بن النجار ، وكان في مهمة تجارية فمرض عند العودة ومات فدفن هناك . ولم ترد رواية صحيحـة في حادثة وفاته ، إذ كل ما ورد عنها ضعيف ضعفاً شديداً أو مرسل ضعيف وأقوى ما ورد قول الزهري مرسلاً «بعثَ عبدُ المطلب عبدَ الله بن عبد المطلب يمتار له تمراً من يثرب ، فتوفي عبد الله بها ، وولدت آمنة رسول الله ﷺ فكان في حجر عبد المطلب »[2] .

ويتفق مع قول الزهري حديث يرويه قيس بن مخرمة وهو صحابي ذكر ولادة الرسول ﷺ فقال : « توفي أبوه وأمه حبلى به »[3] .

---

(١) ابن إسحاق : السير والمغازي ٤٤ مرسلاً وعنه البيهقي : دلائل ١/١٠٥ - ١٠٦ وابن سعد : الطبقات الكبرى ١/٩٥ - ٩٦ بواسطة الواقدي وهشام الكلبي وكلاهما متروك و ١/٩٧ بواسطة أبي يزيد المدني مرسلاً وإن صح السند إليه . والطبري : تاريخ ٢/٢٤٤ - ٢٤٦ بإسناد ضعيف فيه تدليس ابن جريج وتدليسه معيب ، وفيه محمد بن عمارة القرشي لم أقف له على ترجمة وفيه مسلم الزنجي صدوق كثير الأوهام .
وأبو نعيم ؛ الدلائل ١/١٠٧ - ١٠٨ بإسناد ضعيف لضعف رواية مسلمة بن علقمة عن داود ابن أبي هنـد ولأن عبد الباقي بن قانع كثير الأوهام يصر على الخطأ و ١/١٦٢ - ١٦٤ من طريقين مدارهما على (محمد بن عبد العزيز عن أبيه) ومحمد منكر الحديث ، وأبوه مجهول .

(٢) مصنف عبد الرزاق ٥/٣١٧ باسناد صحيح إلى الزهري لكن الخبر مرسل .

(٣) مستدرك الحاكم ٢/٦٠٥ وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي مع أن في إسناده صدقة بن سابق والمطلب بن عبد الله بن قيس بن مخرمة لم يخرج لهما مسلم شيئاً ولم يوثقهما سوى ابن حبان وهو متساهل في التوثيق .

وهـذا هو المشهـور الـذي رجحـه ابن إسحاق والواقدي وابن سعد[1] .
وخالفهم الكلبي وعوانة بن الحكم فزعما أن عبد الله لما توفي كان عمر النبي ﷺ ثمانية وعشرين شهراً ويقال سبعة أشهر[2] وانفرد الواقدي بتحديد سنّ عبد الله حين وفاته وأنه في الخامسة والعشرين من عمره[3] .

والمعروف المشهور أن النبي ﷺ ولد يتيم الأب . قال ابن كثير : « وهذا أبلغ اليتم وأعلى مراتبه »[4] .

وقد صحت الرواية في ذلك[5] ، وإليه ذهب الواقدي وابن سعد ووافقهما ابن كثير وآخرون ، لكن السهيلي قال : « وأكثر العلماء على أنه كان في المهد »[6] .

وما دامت الرواية الصحيحة قد أثبتت مولده ﷺ يتيماً ، فلا مندوحة عن الأخذ بها وإن خالفها الأكثرون .

وقد ذكر يتمه في القرآن : ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ .

مولده صلى الله عليه وسلم عام الفيل :

وقد صح أن مولد النبي ﷺ كان في يوم الإثنين[7] وتفيد أقوى الروايات التي وصلت إلينا أن مولده كان عام الفيل[8] .

---

(١) ابن اسحاق : السير والمغازي ٤٥ وابن سعد : الطبقات الكبرى ١/٩٩-١٠٠ .
(٢) طبقات ابن سعد ١/١٠٠ .
(٣) طبقات ابن سعد ١/٩٩ .
(٤) ابن كثير : السيرة ١/٢٦٠ .
(٥) صحيح مسلم ٣/١٣٩٢ .
(٦) الروض الأنف ٢/١٦٠ .
(٧) مسلم : الصحيح ٨/٥٢ وأبو داؤد : السنن ٢/٨٠٨-٨٠٩ وأحمد : المسند ٥/٢٩٧ ، ٢٩٩ .
(٨) الحاكم : المستدرك ٢/٦٠٣ باسناده إلى ابن عباس وفيه علة تدليس أبي إسحاق السبيعي وقد عنعن ، وابن هشام : السيرة ٢/١٥٥ بإسناده إلى قيس بن مخرمة وفيه المطلب بن عبد الله بن قيس بن مخرمة وهو مقبول يحتاج إلى متابعة تقوية ، وقد توبع ، فالروايتان تشدان بعضهما فترقيان إلى الحسن لغيره .

وقد ذكر خليفة أنه « المجتمع عليه »[1] . فكأنه لا يعتد بمن خالف ، والحق أن الروايات المخالفة كلها معلولة الأسانيد وهي تفيد أن مولده بعد الفيل بعشر سنوات أو ثلاث وعشرين سنة أو أربعين سنة[2] وقد ذهب معظم العلماء إلى القول بمولده عام الفيل ، وأيدتهم الدراسات الحديثة التي قام بها باحثون مسلمون ومستشرقون اعتبروا عام الفيل موافقاً للعام ٥٧٠ أو ٥٧١ الميلادي[3] .

إن حادثة الفيل ثابتة الوقوع بنص القرآن ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم في تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول ﴾ . فنص القرآن يقدم أدق تصوير لما حدث لجيش أبرهة ، ولا تكاد الروايات التأريخية تخرج عن الوصف القرآني إلا في تحديد جزئيات وتفصيلات يسيرة ، وهي روايات تقف عند ابن عباس وعبيد بن عمير من الصحابة ، أو عند قتادة (ت١١٧هـ) أو ابن إسحاق (ت١٥١هـ)[4] ولا شك أن بينهم وبين الأحداث نصف قرن على الأقل بالنسبة للصحابة الصغار ، ولعلهم استقوا المعلومات عمن بقوا أحياء ممن شاهد الحادث ، حيث تأخرت وفيات بعضهم ، فقد رأت عائشة (رضي الله عنها) قائد

---

(١) تاريخ خليفة ٥٣ .

(٢) دلائل البيهقي ١/٧٨-٧٩ وتاريخ دمشق لابن عساكر (السيرة ق ١/٥٤، ٦١) .

(٣) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٩/٤٤٣ ، ٤٧٨ .

(٤) ان تفاصيل قدوم أبرهة التي مصدرها عبيد بن عمير (ولد في عهد النبي ﷺ ؛ وهي أقدم ما وصل إلينا في ذلك وردت باسناد ضعيف فيه أبوسفيان طلحة بن نافع وهو مدلس وقد عنعن (ابن أبي شيبة : المصنف ١٤/٢٨٤ - ٢٨٥) وروي هذه التفاصيل الأعمش عن طلحة ، ومعروف عند المحدثين ان روايته عنه من صحيفة سمع بعضها فقط ، ولم يصرح في هذه الرواية بالسماع (ميزان الاعتدال للذهبي ٢/٢٢٤ وتهذيب التهذيب لابن حجر ٤/٢٢٤ وتعريف أهل التقديس ٣٣) ، وأما إسناد الطبري إلى قتادة فحسن لأن سماع يزيد بن زُريع من سعيد بن أبي عروبة قديم قبل اختلاط سعيد لكنه مرسل ضعيف (الطبري : تفسير ٣٠/٣٠٣ - ٣٠٤) وقد نقل قول قتادة بسند صحيح إليه من طريق محمد بن ثور عن معمر عن قتادة (الطبري ٣٠/٢٩٧ - ٢٩٩) أما بقية الروايات المسندة إلى ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير وآخرين فانها تتناول تفسير ألفاظ في سورة الفيل ، ولا تقدم صورة تفصيلية للحادث (الطبري : تفسير ٣٠/٢٩٦) .

الفيل وسائسه أعميين يستطعمان الناس بمكة[1] كما بين الصحابي قباث بن أشيم أن أمه أوقفته على بقايا روث فيل أبرهة وقد تغير لونها ، وكان يعقل حيث ولد قبل الفيل بسنوات يسيرة[2] .

إن القرائن التأريخية المحتفَّة بالروايات التي تفيد مولد النبي ﷺ عام الفيل قوية ، ويرى ابن القيم ويتابعه القسطلاني أن مولد النبي كان في عام الفيل بعد حادثة الفيل ، لأن قصة الفيل توطئة وارهاص لظهوره ، حيث دفع الله نصارى الحبشة عن الكعبة دون حولٍ من العرب المشركين تعظيماً لبيته[3] .

وقد اختلف المؤرخون في تاريخ يوم مولده وشهره فذهب ابن إسحاق إلى أنه ولد لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول[4] . وذهب الواقدي إلى أنه ولد لعشر ليال من شهر ربيع الأول[5] وذهب أبو معشر السندي إلى أنه ولد لليليتين خلتا من شهر ربيع الأول[6] . وابن إسحق أوثق الثلاثة .

صفة حمل آمنة بـه :

لقد رويت قصص وأخبار حول صفة حمل آمنة به ، وأنها لم تر أخفَّ ولا أيسرّ منه ، وأنها كانت تلبس التعاويذ من حديد فيتقطع ، وأنها رأت في منامها بشارة بجليل مقامه ، وأمرت بتسميته بمحمد ، ورأت عند استيقاظها صحيفة

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٥٧ وخليفة : التاريخ ٥٣ بسند حسن .

(٢) الترمذي : سنن ٥/٥٨٩ وقال : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن إسحاق » والحاكم : المستدرك ٢/٦٠٣ و٣/٤٥٦ وقال : « هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي ، مع أن في اسناده المطلب بن عبد الله «مقبول» فقط .

(٣) زاد المعاد ١/٧٦ وشرح المواهب اللدنية ١/١٣٠) .

(٤) ابن هشام : السيرة ١/١٧١ دون اسناد .

(٥) ابن سعد : الطبقات ١/١٠٠ - ١٠١ بإسناده إلي أبي جعفر محمد بن علي الباقر ، والواقدي عالم بالمغازي متروك في رواية الحديث .

(٦) ابن سعد : الطبقات ١/١٠١ وراجع حول الاختلاف شرح المواهب اللدنية ١/١٣٠ - ١٣١ وأبو معشر بصير في المغازي ضعيف في الحديث . -فيما يقول النقدة- .

من ذهب فيها أشعار لتدعو له بها ، ولم يثبت شيء من هذه الحكايات[1] .

كما وردت أخبـار ضعيفة تفيد أنه « وقع حين ولدته وقوعاً ما يقعه المولود معتمداً على يديه ، رافعاً رأسه إلى السماء[2] » وأنه وضع تحت قدر من حجر ، فانفلقت عنه ليبقىٰ بصره شاخصاً إلى السماء[3] ، وأنه ولد مختوناً[4] ، أو خَتَنَهُ

---

(١) ابن سعد : الطبقات ١/٩٨ - ٩٩ من طريق الواقدي والسيرة النبوية للذهبي ٢١ رغم حكمه على السند بأنه جيد لكنه فيه جهم بن أبي جهم جهله الذهبي نفسه (ميزان الاعتدال ١/٤٢٦) والسيوطي : الخصائص الكبرى ١/٤٢ وانظر شرح المواهب اللدنية ١/١٠٦ - ١٠٧ .

(٢) من حديث حليمة السعدية الطويل في قصة الرضاع الذي يرويه ابن اسحاق ، وإسناده صعيف وقواه بعضهم ، ولا تشده روايات الواقدي لأنه متروك (طبقات ابن سعد ١/١٠١ - ١٠٢) كما لا تقويه تلك المراسيل عن التابعين من الطبقة الرابعة وهم حسان بن عطية واسحاق بن عبد الله ومن بعدهم وهو داؤد بن أبي هند لاحتمال وحدة مصدرهم (طبقات ابن سعد ١/١٠٢ - ١٠٣ ، وأبو نعيم : دلائل النبوة ١/١٧٢).

(٣) الأحاديث إما مرسـلة كما في طبقات ابن سعد ١/١٠٢ بإسناد حسن إلى عكرمة ، وكما في دلائل البيهقي ١/١١٣ من مرسل أبي الحكم التنوخي وهو تابعي مجهول (الجرح والتعديل ٩/٣٠٨) وفي السند إليه عبد الله بن صالح كاتب الليث «صدوق كثير الغلط» وكما في الدلائل لأبي نعيم (١/١٧٢) بسند معضل .

(٤) الأحاديث في ذلك كلها معلولة بعلل قادحة بحيث لا تنهض مجتمعة للاحتجاج بها لأن معظمها لا يخلو من وضاع أو متهم ، وهي حديث العباس (ابن سعد : الطبقات ١/١٠٣) وفي إسناده يونس بن عطاء المكي يروي الموضوعات ولا يجوز الاحتجاج بخبره (الميزان ٤/٤٢٨) وحديث ابن عباس (الكامل لابن عدي ٢/٥٧٦) وفي إسناده جعفر بن عبد الواحد متهم بوضع الحديث (الميزان ١/٤١٢) وحديث أنس بن مالك (الطبراني : المعجم الصغير ٢/١٤٥ - ١٤٦) وفي إسناده سفيان بن محمد الفزاري ، واهٍ ، وفي طرقه عن الحسن بن عرفة مجهول هو أبو الفضل محمد عبد الله البرهاني أو نوح بن محمد قال الذهبي إن روايته عن ابن عرفه شبه الموضوع (ميزان الاعتـدال ٤/٢٧٩) وحديث أبي هريرة (ابن عساكر: تاريخ دمشق (السيرة) ق ١/٢١٠ في إسناده محمد بن كثير القرشي واه وإسماعيل بن مسلم المكي ضعيف مع علة الانقطاع بين الحسن البصري وأبي هريرة .

وحديث ابن عمر (ابن عساكر : السيرة ق ١/٢١٢) في إسناده عبد الرحمن ابن أيوب الحمصي وموسى بن أبي موسى المقدسي لا يعرفان إلا أن يكونا عبدُ الرحمن بن أيوب السكوني وموسى بن محمـد بن عطاء المقـدسي والأول تكلم فيه بجـرح شديد ، والثـاني متروك (ميزان الاعتـدال ٢/٥٤٩ ، ٤/٢١٩ - ٢٢٠ ولسان الميزان ٦/١٢٧ - ١٢٩) .

جبريل عليه السلام[1] ، أو خَتَنَهُ عبدُ المطلب يومَ سابعِهِ وجعل له مأدبة وسماه محمداً[2] ، ورغم ما في إسناد الرواية الأخيرة من ضعف شديد فقد قال الحافظ الذهبي « إنه أصح من حديث العباس أنه ولد مختوناً[3] » . فسرور عبد المطلب بالمولود الذكر وقيامه نحو اليتيم بالواجب من ختان ووليمة على عادة قومه لا يحتاج إلى أدلة . وقد وردت في ذلك روايات واهية[4] .

وكذلك وردت روايات موضوعة حول هواتف الجان في ليلة مولده وتبشيرها به وانتكاس بعض الأصنام في المعابد الوثنية بمكة[5] . وحول ارتجاس إيوان كسرى وسقوط شرفاته وخمود نيران المجوس وغَيض بحيرة ساوة ورؤيا الموبذان الخيل العربية تقطع دجلة وتنتشر في بلاد الفرس[6] .

---

(١) الطبراني : المعجم الأوسط ٢/ل ٥٧ ب بإسناد فيه عبد الرحمن بن عتيبة البصري ومسلمة بن محارب الزيادي مجهولان ، وإن وثقهما ابن حبان فإنه يوثق المجاهيل . (ثقات ابن حبان ٥/٤٥٢ و٧/٤٩٠ ومجمع الزوائد للهيثمي ٨/٢٢٤) .
وقال ابن كثير : «هذا غريب جداً» (السيرة النبوية ١/٢١٠)
وقال الذهبي : «هذا منكر» (السيرة النبوية ٨) .

(٢) ابن عبد البر : الاستيعاب (بحاشية الإصابة) ١/٢١ - ٢٢) وقال الحافظ العراقي : «وسنده غير صحيح (الشامي : سبل الهدى والرشاد ١/٤٢٠) وفيه إسناد ابن عبد البر محمد بن أبي السري له أوهام كثيرة (التقريب ٥٠٤) والوليد بن مسلم كثير التدليس والتسوية وقد عنعن .

(٣) السيرة النبوية ٨ . وانظر البيهقي : الدلائل ١/١١٣ حيث ساق مرسلاً ضعيفاً لأبي الحكم التنوخي بمعناه .

(٤) طبقات ابن سعد ١/١٠٣ من طريق الواقدي وهو متروك .
ودلائل النبوة للبيهقي ١/١١٣ مرسل ضعيف ، ودلائل النبوة لأبي نعيم ١/١٧٢ - ١٧٣ بإسناد واهٍ فيه محمد بن زكريا الغلابي ضعيف وشيخه الجحدري مجهول (راجع تهذيب التهذيب ٧/٣١٣)

(٥) أبو بكر الخرائطي : هواتف الجان رقم (١٧) و (٧) وفي إسنادهما وضاعان هما عبد الله بن محمد البلوي وعمارة بن زيد (ميزان الاعتدال ٢/٤٩١ و٣/١٧٧) .

(٦) الذهبي (السيرة النبوية ص١١ - ١٤) من طريق ابن أبي الدنيا وغيره والخبر مداره على أبي أيوب يعلي بن عمران البجلي ومخزوم بن هانئ المخزومي لم أقف لهما على ترجمة .
وقال الذهبي : هذا حديث منكر غريب والصالحي : سبل الهدى والرشاد ١/٤٢٩ - ٤٣٢ نقلا عن هواتف الجان للخرائطي وتاريخ الطبري ودلائل أبي نعيم والبيهقي .

كذلك وردت روايات ضعيفة عن إخبار يهود بليلة مولده[1] . وإخبار الراهب عيصا بمر الظهران بمولده[2] . وقول العباس عمه إنه رآه في المهد يُناغي القمر[3] .

ولكن ثمة أخباراً تَقوى ببعضها إلى الحسن احتفَّت بمولده منها ما يفيد أن آمنة رأت حين وضعته نوراً خرج منها أضاءت منه قصور بصرى من أرض الشام[4] .

---

(١) اخرجها الحاكم (المستدرك ٢/٦٠١ - ٦٠٢) وصححه وخالفه الذهبي وقال الحافظ في الفتح (٦/٥٨٣) إنه «بإسناد حسن» مع أن فيه ابن إسحاق مدلس ولم يصرح بالسماع (تعريف أهل التقديس ٥١) .
وله متابعة عند ابن سعد (الطبقات ١/١٦٢ - ١٦٣) وفي إسناده أبو عبيدة بن عبد الله لم أقف على ترجمته . وثمة رواية أخرى عن حسان بن ثابت في المدينة (سيرة ابن هشام ١/١٤٧ وفي إسناده «حدثني من شئت من رجال قومي» وهو مبهم وإن أوحى بالكثرة . ولرواية حسان طرق أخرى (دلائل النبوة لأبي نعيم ١/٨٦ - ٨٩) من طريق الواقدي وهو متروك . ولها شاهد من حديث ابن عباس من طريق الواقدي أيضاً (الطبقات الكبرى ١/١٥٩ - ١٦٠) .

(٢) ابن عساكر : تاريخ دمشق (السيرة) ق ١/٣٤٤ - ٣٤٦ وقال ابن كثير: «فيه غرابة» (السيرة النبوية لابن كثير ١/٢٢٣) وقال الذهبي : «هذا إسناد ساقط» (السيرة النبوية للذهبي ١/٦) وآفته من المسيب بن شريك فإنه متروك .

(٣) البيهقي : دلائل النبوة ٢/٤١ وقال : «تفرد به أحمد بن إبراهيم الحلبي وهو مجهول» وقال ابن أبي حاتم عن الحلبي : لا أعرفه ، وأحاديثه باطلة موضوعة كلها ليس لها أصول ، يدل على أنه كذاب (الجرح والتعديل ٢/٤٠) .
وقال ابن حجر : «وسنده واهٍ جداً» (الإصابة ٣/٢٣) .

(٤) أخرجه ابن إسحاق قال : «حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله قالوا : «وهذا إسناد حسن ، فقد صرح ابن إسحاق بالتحديث وهو صدوق ، وتدل الرواية عن الصحابة بصيغة الجمع على استفاضة الخبر في جبل الصحابة وكلهم عدول فلا تؤثر جهالة أسمائهم ، وقال ابن كثير عنه : «هذا اسناد جيد قوي» (السيرة النبوية ١/٢٢٩) وقد صححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرك ٢/٦٠٠) ولا حاجة للاحتراز في إرسال خالد بن معدان عن بعض الصحابة وهم معاذ وأبو عبيدة وأبو ذر وعائشة فقد لقي سبعين من الصحابة كما أخبر عن نفسه وهو ثقة (تهذيب التهذيب ٣/١١٩) .
ويشهد له حديث عرباض بن سارية الذي أخرجه أحمد في مسنده ٤/١٢٧ . والحاكم: =

مرضعـاته :

لقد صح أن ثويبة - مولاة أبي لهب - أرضعته[1] . وثبت أن عمه حمزة بن عبد المطلب أخوه من الرضاعة[2] . وأما خبر إرضاع حليمة السعدية له في ديار بني سعد ، وما ظهر عليه من البركة فهو خبر مستفيض في كتب السيرة قديمها وحديثها ، وأقدم من أورده من كتاب السيرة ابن إسحق (ت ١٥١هـ)[3] .

= المستدرك ٢/٤١٨ وصححه ووافقه الذهبي ، والطبراني : المعجم الكبير ١٨/٢٥٢ وأبو نعيم : الدلائل ١/٥٤ والطبري : تفسير ١/٥٦٦ وهو ضعيف الإسناد لأن مداره على علي عبد الأعلى ابن هلال السلمي وهو مجهول (الاكمال ٦٤ وراجع سلسلة الأحاديث الضعيفة رقم ٢٠٥٨) .
كما يشهد له حديث أبي أمامة باسناد فيه ضعف من قبل الفرج بن فضالة لكنه اسناد شامي فهو من أجود مرويات الفرج (مسند الطيالسي رقم ٢٣١٥ ومسند أحمد ٥/٢٦٢) وانظر عن الفرج التقريب ٤٤٤ والتهذيب ٨/٢٦٠ - ٢٦٢ .
وتوجد مراسيل ومنقطعات تؤيده لكنها لا تقوى على النهوض به إلى درجة الصحيح لاحتمال وحدة مصدرها (الطبقات لابن سعد ١/١٠٢) .

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ٩/١٤٣) .

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٩/١٤٠) وصحيح مسلم بشرح النووي ١٠/٢٣ ، ٢٤ .

(٣) سيرة ابن هشام ١/١٤٩ - ١٥٣ وأبو يعلي : المسند .
وابن حبـان : موارد الظمآن ٥١٢ - ٥١٣ والطبراني : المعجم الكبير ٢٤/٢١٢ - ٢١٥ وأبو نعيم : دلائل النبوة ١/١٩٣ - ١٩٦ ، والبوصيري : اتحاف الخيرة ٤/٣٦٨ - ٣٧٠ . وفي إسنـاده «جهم بن أبي الجهم عن عبد الله بن جعفر أو عمن حدثه عن عبد الله بن جعفر - بالشك » . وجهم لا يُعرف (ميزان الاعتدال للذهبي ١/٤٢٦) ولم يوثقه سوى ابن حبان وسماه جهم بن عبد الرحمن وهو مشهور بتوثيق المجاهيل (الثقات ٤/١١٤) ولم يصرح عبد الله بن جعفر بالسماع من حليمة إلا عند الطبراني ، لكنه صحابي فلا يضر إرساله أيضاً . ولكن الشك بين جهم وعبد الله بن جعفر يضعف السند خاصة وأنه لم يصرح بالسماع في سائر المصادر . وقد تساهل النقاد في تحسين الخبر رغم العلل في سنده فقال الذهبي : « هذا حديث جيد الإسناد » (السيرة النبوية ٨) وقال الحافظ ابن كثير : «وهذا الحديث قد روي من طرق أُخَرَا! وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازي (السيرة ١/٢٢٨) وكان ابن عبد البر قد ذكر شهرته أيضاً (الاستيعاب مع الاصابة) ١٢/٢٦١ .
وقـد وردت له شواهـد واهية من حديث ابن عباس (دلائل البيهقي ١/١٣٩ - ١٤٥) وابن عساكر : السيرة : ١/٣٨٤ - ٣٨٨ والمتهم به محمد بن زكريا الغلابي وفي المسند مجاهيل أيضاً .
وقال ابن عساكر: «هذا حديث غريب جداً وفيه ألفاظ ركيكة لا تشبه الصواب ، ويعقوب بن =

وإذا كان خبر حليمة الطويل المشتهر حول رضاعه لم يحظَ بتصحيح المحدثين لعلل إسنادية ، فإن رضاعه ﷺ في بني سعد من قبل حليمة السعدية ثابت من طرق أخرى[1] .

معجزة شـق الصـدر :

وقعت أحداث شق صدر النبي ﷺ وغسله ولأْمِهِ ، مرتين[2] ، الأولى عندما كان طفلاً في الرابعة من عمره[3] . ، يلعَبُ في بادية بني سعد ، وقد روى الإمام

= جعفر غير مشهور في الرواية والمحفوظ من حديث حليمة ما تقدم قبل من رواية عبد الله بن جعفر . وله شاهد من حديث أسلم العدوي (ابن سعد : الطبقات ١/١٥١ - ١٥٢) لكنه من طريق الواقدي وهو متروك .

(١) مسند أحمد ٤/١٨٤ - ١٨٥ من حديث عتبة بن عبد المسير وسنن الدارمي ١/٨ - ٩ ومستدرك الحاكم ٢/٦١٦ - ٦١٧ وتاريخ دمشق لابن عساكر (السيرة ق ١/٣٧٦ - ٣٧٧) وقد صححه الحاكم وأقره الذهبي ، كما صححه في تاريخ الإسلام (السيرة ١/٢١) وحسن الهيثمي إسناد أحمد (مجمع الزوائد ٨/٢٢٢) وحسن البوصيري سنده وقال : «وبقية ثقة وإن كان مدلسا فقد صرح بالتحديث في بعض طرقه كما رواه الإمام أحمد ، (إتحاف الخبرة ٤/٣٧٠ - ٣٧١) وقال الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٣٧٣ مثل قول البوصيري وأضاف : وللحديث شواهد كثيرة (انظر السلسلة الصحيحة ٤/٥٩) .

والحق أن السند من طريق بقية لا يقوى بتصريحه بالتحديث عن شيخه فقط ، بل يلزم أن يصرح بالسماع في سائر طبقات رجال السند لأنه معروف بتدليس التسوية ، ولم يصرح بقية في سائر الطرق بسماع بحير بن سعد من خالد بن معدان .

(٢) وردت روايات تفيد وقوع شق الصدر مرة ثالثة قبيل البعث ساقها أبو نعيم الأصبهاني (دلائل النبوة ص٦٩) والطيالسي (منحة المعبود في ترتيب مسند الطيالسي أبي داؤد ٢/٨٦) - ط١ سنة ١٣٧٢هـ ، المطبعة المنيرية - الأزهر - وفي إسنادها داؤد بن المحبر وهو متروك فروايته ساقطة لا يعوّل عليها ، كما ساق السيوطي روايتين تفيدان وقوع شق الصدر قبل البعثة في رؤيا منامية (الخصائص الكبرى ١/٢٣٢).

(٣) ذكر عمره ابن سعد : الطبقات ١/١١٢ وانظر دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني ص٤٩ .
وذهب الأموي ومن بعده ابن عبد البر إلى أنه كان في الخامسة ، وهذا قد روى عن ابن عباس أيضـاً (شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ١/١٥٠) ولكن عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل وأبا نعيم ساقا رواية أخرى تقول إنه كان في العاشرة وأشهر من عمره (مسند أحمد ٥/١٣٩) وإسناده فيه معاذ بن محمد بن معاذ عن أبيه ، وكلاهما مجهول كما قال ابن المديني .
(الذهبي : ميزان الاعتدال ٤/٤٤).

مسلم في صحيحه حادثة الشق الأولى عن أنس بن مالك « أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ وهـو يلعب مع الغلمان ، فأخـذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب ، فاستخرج منه علقةً فقال : هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه[1] ، ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه -يعني ظئره- فقالوا إن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون .

قال أنس : وقد كنت أرى أثر المخيط في صدره[2] .

ولا شك أن التطهير من حظ الشيطان هو إرهاص مبكر للنبوّة ، وإعداد للعصمة من الشر وعبادة غير الله . فلا يحل في قلبه شيء إلا التوحيد[3] وقد دّلت أحداث صباه على تحقق ذلك فلم يرتكب إثماً ولم يسجد لصنم[4] . رغم شيوع ذلك في قومه .

أما المرة الثانية التي وقع فيها شق صدره عليه الصلاة والسلام فكانت ليلة الإسراء[5] .

---

(١) جمعه وضم بعضه إلى بعض (شرح النووي على مسلم ٢/٢١٦)

(٢) صحيح مسلم ١/١٤٧ ، كتاب الإيمان ، باب ٧٤ الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وابن هشام : السيرة النبوية ١/١٦٦ بإسناد جيد قوي كما يقول الحافظ ابن كثير (السيرة النبوية ١/٢٢٩ بتحقيق مصطفى عبد الواحد) .

(٣) انظر اجتهاد العلماء في استجلاء الحكمة من الحادثة الروض الأنف للسهيلي ٢/١٧٣ وفتح الباري لابن حجر ٧/٢٠٥ .

(٤) زعم المستشرق نيكلسون NICHOLSON أن حديث شق صدر النبي ﷺ أسطورة نشأت عن تفسير الآية القرآنية ﴿ آلم نشرح لك صدرك ﴾ وأنه لو كان لها أصل فعلينا أن نخمن أنها تشير إلى نوع من الصرع . NICHOLSON, R. A., Aliterary History of the Arabs (Cambridge, 1966).
وهذا الذي زعمه نيكسون سبقه إليه المشركون القرشيون حين اتهموا رسول الله ﷺ بالجنون فنفى الله عنه ذلك «وما صاحبكم بمجنون» والمعلوم عن المصروع أنه يهذي ويزبد ويفقد وعيه ، أما رسول الله ﷺ فقد كان عند الوحي في أشد حالات التركيز الذهني حتى أمره الله تعالى بأن يخفف عن نفسه ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ﴾ ثم أنه كان ينطق بكلام مبين عُدَّ آية في البلاغة ، فأين هذيان المصروع من ذلك؟!!

(٥) انظر ص ١٨٠ .

لقد أدت هذه الحادثة إلى إعادة الرسول إلى أمه آمنة وجده عبد المطلب ، لأن حليمة خافت عليه[1] ورغبت في إنهاء مسئوليتها عنه رغم حبِّها له وتعلقها به .

وحكى الواقدي عن ابن عباس أنه كان في الخامسة من عمره عندما أعادته حليمة[2] .

وذكر غيره أنه رد إلى أمه وهو ابن أربع سنين ، وكان معها إلى أن بلغ ست سنين[3] . حيث توفيت أمه آمنة بالأبواء بين مكة والمدينة ، وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار ، فماتت وهي راجعة إلى مكة[4] .

ولم تثبت هذه الأخبار برواية صحيحة ، ولكنها مما يتساهل فيه عادة .

وقد ترك يُتم النبي في نفسه أعمق الأثر ، ففي طفولته فقد أمه وكان قد ولد يتيمَ الأب . وقد بينَّ الزُّهري أن جده عبد المطلب كفله ورعاه[5] . ويذكر الواقدي أن جدّه حين توفي - وكان عمره اثنتين وثمانين سنة - أوصى أبا طالب - عمَّه - به[6] .

---

(١) مسند أحمد ٤/١٨٤ - ١٨٥ وسنن الدارمي ١/٨ - ٩ ومستدرك الحاكم ٢/٦١٦ من حديث عتبة بن عبد السلمي ومداره على بقية بن الوليد وهو مدلس ولم يصرح بالسماع في سائر طبقات الإسناد ، بل عنعن في سائرها بين بحير بن سعد وخالد بن معدان ، ولو فعل لحسن الإسناد ، ويؤيده مرسل الزهري (المصنف لعبد الرزاق ٥/٣١٧ - ٣١٨) .

(٢) طبقات ابن سعد ١/١١٢ .

(٣) أبو نعيم : دلائل النبوة ١/١١٨ والسيرة الحلبية ١/١٢٣ مقتصراً على عمره بعد مكثه عند أمه ، ونقل ذلك عن الأموي .

(٤) هذا هو قول ابن إسحاق سمعه من عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم مرسلا وهو قول الواقدي أيضاً (سيرة ابن هشام ١/١٥٥ وطبقات ابن سعد ١/١١٦ - ١١٧).

(٥) مصنف عبد الرزاق ٥/٣١٨ من مرسل الزهري .

(٦) طبقات ابن سعد (١/١١٧ - ١١٩) والواقدي متروك .

وكان رسول الله في الثامنة من العمر[1] . ولا شك أن محمداً أحس بفقدان جده لما كان يَحبُوه به من العطف والرعاية[2].

وقد وردت روايات تفيد عطفَ أبي طالب عليه وتعلقه به[3] ، ومما يدل على شدة محبة أبي طالب إياه صحبته له في رحلته إلى الشام . ويبدو أنه في فترة حضانة أبي طالب له ساعده محمد ﷺ في رعي غنمه ، وقد ثبت أنه عمل على رعيها لأهل مكة مقابل قراريط[4] ، ولعل ضيق حال أبي طالب هو الذي دفعه إلى العمل لمساعدته ، ورعى الغنم فيه دربة لرسول الله ﷺ على رعاية البشر فيما بعد ، فقد ألف العمل والكفاح منذ طفولته ، واعتاد أن يهتم بما حوله ، ويبذل العون للآخرين ، وربما يذكرنا رعيه للغنم بأحاديثه التي تحث على الاحسان للحيوان .

قصة بحيرى الراهب :

لقد اصطحب أبو طالب النبي ﷺ في سفرة تجارية له إلى الشام ، وكان النبي في التاسعة أو العاشرة أو الثانية عشرة من عمره على اختلاف الروايات[5] وقد دعا راهب يدعى بحيري في مدينة بُصرى رجال القافلة االقرشية إلى طعام ،

---

(١) ابن إسحاق : السير والمغازي ٦٥ - ٦٦ بسند منقطع والبيهقي : دلائل النبوة ٢ /٢١ - ٢٢ والسيرة النبوية للذهبي ٢٥ - ٢٦ بإسناد ضعيف جداً إلى ابن عباس ، لضعف عبد الله بن شبيب الربعي (ميزان الاعتدال للذهبي ٢ /٢٣٨ - ٢٣٩) .

(٢) تشير إلى هذا المعنى روايات ضعيفة كما في طبقات ابن سعد ١ /١١٢ - ١١٣ ومستدرك الحاكم ٢ /٦٠٣ - ٦٠٤ وصحح الرواية ووافقه الذهبي ، لكن في الإسناد عباس بن عبد الرحمن مولى بني هاشم مستور الحال (تقريب التهذيب ٢٩٣) .

(٣) ابن سعد : الطبقات ١ /١٢٠ بأسانيد مرسلة صحيحة إلى مرسليها وهما عبد الله بن القبطية وعمرو بن سعيد القرشي . وأما ما ذكره ابن سعد من حلول البركة بطعام آل أبي طالب إذا حضره محمد فلم يثبت من طريق صحيح بل معظم الأسانيد من طريق الواقدي (راجع الاقتباسات عنه في تاريخ دمشق (السيرة) لابن عساكر ١ /٧١ - ٧٢ والخصائص الكبرى للسيوطي ١ /٨٣ .

(٤) صحيح البخاري (فتح الباري ٤ /١٤١ و ٦ /٤٣٨) وصحيح مسلم بشرح النووي ١٤ /٥ - ٦ .

(٥) ابن سيد الناس : عيون الأثر ٤٠ .

حيث تعرف على النبي من خلال صفاته وأحواله ؛ فعرف أنه يتيم ، وأنه يحمل خاتم النبوة بين كتفيه ، ورأى الغمامة تظله من الشمس وفيء الشجرة يميل عليه عندما ينام إليها . وتختم الرواية القصة بتحذير الراهب لأبي طالب على النبي من اليهود والروم .

إن أقوى طرق هذه القصة ورد عند الترمذي في جامعه[1] وقال عنه الترمذي : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » وصححه الحاكم[2] ، وتعقبه الذهبي قائلاً « أظنه موضوعاً وبعضه باطل »[3] وبيَّن اعتراضاته على سند الرواية ومتنها ووصفها بالنكارة ، بل يفهم من كلامه شكه في الرواية كلها[4] .

فأما انتقاده للسند فقد قال عن عبد الرحمن بن غزوان -راويها- « له مناكير » ثم قال : أنكر ماله حديثه عن يونس بن أبي اسحق في سفر النبي ﷺ وهو مراهق مع أبي طالب إلى الشام »[5] وأما انتقاده للمتن فقد قال : « وهو حديث منكر جداً ، وأين كان أبو بكر ؟ كان ابن عشر سنين ، فإنه أصغر من رسول الله ﷺ - بسنتين ونصف ، وأين كان بلال في هذا الوقت ؟ فإن أبا بكر لم يشتره إلا بعد المبعث ، ولم يكن ولد بعد ، وأيضاً فإذا كان عليه غمامة تظله كيف يتصور أن

---

(١) سنن الترمذي ٥/٥٩٠ - ٥٩١ بإسناده إلى قراد ، ومن طريق قراد أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١٤/٢٨٦ وابن أبي الدنيا في هواتف الجان ١٩٤ والحاكم : المستدرك ٢/٦١٥ والطبري : تاريخ ٢/٢٧٧ - ٢٧٨ والبيهقي : الدلائل ٢/٢٤ والخطيب : تاريخ بغداد ١٠/٢٥٢ .

وأخرجه من طرق معضلة ابن سعد : الطبقات الكبرى ١/١٢٠ ، ١٥٣ كما ورد عند ابن إسحاق من مرسل عبد الله بن أبي بكر (تاريخ الطبري ٢/٢٧٨) وفي سيرة ابن إسحاق من دون إسناد (سيرة ابن هشام ١/١٨٠).

(٢) الحاكم : المستدرك ٢/٦١٥ - ٦١٦ .

(٣) الذهبي : تلخيص المستدرك ٢/٦١٥ - ٦١٦ .

(٤) الذهبي : السيرة النبوية / ٢٨ .

(٥) الذهبي : ميزان الاعتدال ٢/٥٨١

يميل فيء الشجرة ؟ لأن ظل الغمامة يَعدم فيء الشجرة التي نزل تحتها ، ولم نرَ النبي ﷺ ذكَّر أبا طالب قط بقول الراهب ، ولا تذاكرته قريش ، ولا حكته أولئك الأشياخ مع توافر هممهم ودواعيهم على حكاية مثل ذلك ، فلو وقع لاشتهر بينهم أيما اشتهار ، ولبقي عنده ﷺ - حسٌّ من النبوَّة ، ولما أنكر مجيء الوحي إليه أولاً بغار حراء وأتى خديجة خائفاً على عقله ، ولما ذهب إلى شواهق الجبال ليرمي نفسه[1] ﷺ - وأيضاً فلو أثَّر هذا الخوف في أبي طالب ورده كيف كانت تطيب نفسه أن يمكنه من السفر إلى الشام تاجراً لخديجة ؟

وفي الحديث ألفاظ منكرة تشبه ألفاظ الطرقيَّة ، مع أن ابن عائذ قد روى معناه في مغازيه دون قوله : « وبعث معه أبو بكر بلالاً . . إلى آخره » . فقال حدثنا الوليد بن مسلم أخبرني أبو داؤد سليمان بن موسى فذكره بمعناه[2] .

وإنما سقت كلام الذهبي بتمامه لأنه أعلم من انتقد هذه الرواية ، فضلاً عما يكشفه كلامه من عناية بالغة بنقد المتون وعدم الاقتصار على نقد الأسانيد -كما يتهم البعض المحدثين- وكان ابن سيد الناس (ت ٧٣٤هـ) قد تعقب رواية الترمذي ونبّه على ما في متنها من نكارة ، لكنه حصر النكارة في ارسال أبي بكر مع النبي ﷺ بلالاً الذي ورد في آخر الرواية[3]. ولعل الحافظ الذهبي (ت ٧٤٨هـ) استفاد منه في نقده لمتن الرواية ، وكذلك فإن ابن القيِّم (ت ٧٥١هـ) أفاد منه فيما يبدو حين بيَّن أن ذكر بلال في الرواية خطأ فاحش[4] . بل يمكن اعتبار ابن اسحق أول من شكك بالرواية باستعماله صيغة التمريض (يزعمون) ثلاث مرات !!

---

(١) راجع هذه المسألة ص ١١٨ .
(٢) السيرة النبوية للذهبي ٢٨ .
(٣) عيون الاثر ١/٤٣ .
(٤) ابن القيم : زاد المعاد ١/١٧ .

وقال الحافظ ابن حجر بعد أن نقل توثيق النقاد لقراد : « وله عند الترمذي حديث من رواية أبي موسى الأشعري فيه ألفاظ منكرة »[1] .

وقال في التعقيب على ذكر أبي بكر وبلال « بأن هذه اللفظة مدرجة في هذا الحديث مقتطعة من حديث آخر . . وفي الجملة هي وهم من أحد رواته »[2] .

ومن هذا العرض يتبين أن نقد الأئمة لهذه الرواية ينصب على المتن ، وخاصة الفقرة الأخيرة من الرواية التي تذكر أبا بكر وبلالاً . وقد بين الألباني أن الجزري صحح الإسناد وقال : « وذكر أبي بكر وبلال فيه غير محفوظ » وعقب الألباني بذكر ما ورد في رواية البزار « وأرسل معه عمه رجلاً » مما يجعل احتمال التصحيف في عبارة حديث الترمذي قوياً بين « رجلاً » و « بلال »[3]. لكن تبقى صعوبةُ تصحيف «أبي بكر» إلى « عمه » وعلى أية حال فإن وجود النكارة في الفقرة الأخيرة لا يعني ضعف سائر الرواية . مادام السند صحيحاً ، وقول الذهبي في قراد « له مناكير » لا يؤثر في توثيقه لأن الثقة قد تقع في روايته المناكير ، ويحتمل منه ذلك إذا لم يُكثر منها ، وأما توسع الذهبي في رد سائر الرواية لمجرد احتمالات قابلة للنقاش ، ولا تصلح أدلة للطعن في سائر الرواية فلا مبرر له .

ويمكن أن تطمئن النفس إلى إثبات سفره ﷺ مع عمه إلى بُصرى ، وتحذير الراهب بحيرا لعمه من يهود والروم بالاعتماد على رواية الترمذي ، والاستئناس بالروايات الضعيفة الأخرى مثل رواية ابن اسحق عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري[4] (ت ١٣٥هـ) وهو من التابعين المعنيين بالسيرة ولكن إسناد ابن إسحاق هذا معضل ضعيف رغم اعتماد معظم المؤلفين

---

(١) هدي الساري /٤١٨ .

(٢) ابن حجر : الاصابة ١/١٧٧ .

(٣) الألباني : دفاع عن الحديث النبوي والسيرة ص ٦٦ - ٦٧ .

(٤) الطبري : تاريخ ٢/٢٧٧ وانظر مغازي ابن إسحاق ٥٢ بدون إسناد .

على هذه الـرواية في قصـة بحيرا[1]. وكذلك رواية أبي مِـجلز لاحق بن حميد (ت ١٠٦هـ) باسنـاد صحيح إليه لكنـه مرسل[2] . وكذلك مرسل الزهري[3] وكـذلـك فإن ثمـة روايتـين من طريق الـواقـدي أوردهمـا ابن سعد وأبو نعيم الأصبهاني[4] . ومثل الواقدي يُستأنس بمروياته إذا لم يخالف وإن كانت مروياته لا تنهض للاحتجاج ، بل ولا يعتبر بها في تقوية الضعيف عند علماء الحديث .

وقد حاول بعض المستشرقين أن يبني على هذه القصة اتهامات فيها مجازفة عملية حيث زعموا أن النبي تلقى علم التوراة عن بحيرا[5] إذ كيف يعقل أن يتلقى النبي في سن الثانية عشرة علم التوراة في ساعة الطعام التي التقى خلالها ببحيرا ، وهو أمي لا يحسن القراءة والكتابة ؟! فضلاً عن حاجز اللغة إذ لم يكن قد وجد في ذلك الوقت توراة ولا أنجيل باللغة العربية[6] . وإذا كان المقصود رد أصول الإسلام إلى التوراة ، فأين أثر تعاليم التوراة تلك في حياة الرسول ﷺ وما بين لقائه ببحيرا وبعثته ثمانية وعشرون سنة !!

أما بالنسبة لمعلوماتنا عن بحيرا فإن المصادر لا تكاد تتفق على شيء بشأنه ، بل هي متضاربة في اسمه فمرة جرجيس وأخرى جرجس وثالثة سرجيس ورابعة سرجس[7] . ومرة أنه مشتق من الآرامية معناه المنتخب ، وأخرى من السريانية

---

(١) الطبري : تاريخ ٢/٢٧٨ .
وابن كثير : البداية والنهاية ٢/٢٦٦ .
وأبو نعيم : دلائل النبوة ١٢٦ .
والبيهقي : دلائل النبوة ٢/٢٤ .
وابن الأثير : الكامل ٢/٢٣ .

(٢) الذهبي : السيرة النبوية ٢٩ .

(٣) أشار إليه الذهبي : السيرة النبوية ٢٩ .

(٤) طبقات ابن سعد ١/١٢٠ واعتمد عليه ابن الجوزي : صفة الصفوة ١/٢٢ ، ٢٣ . والسيوطي : الخصائص الكبرى ١/١٤١ .

(٥) غوستاف لوبون : حضارة العرب ١٠٢ ومنتكري واط : محمد في مكة ٧٥ .

(٦) دراز : مدخل إلى القرآن الكريم ١٣٥ .

(٧) الزرقاني : شرح المواهب اللدنية ١/١٩٤ والسهيلي : الروض الأنف ١/١١٨ والمسعودي : مروج الذهب ٢/٧٥ ودائرة المعارف الإسلامية ٢/٣٩٧ .

معناه العالم المتبحر[1] . ومرة ينسب لقبيلة عبد القيس فهو عبقسي[2] .
ومرة هو نصراني[3] وأخرى يهودي[4] .

شهوده حلف المطيبين :

ذهبت رواية الواقدي وابن إسحاق -بدون إسناد- إلى شهوده ﷺ حرب الفجار بين قريش وكنانة من ناحية وقيس عيلان من ناحية أخرى ، وهي حرب في إطار الأعراف والأحلاف الجاهلية ، ولم يثبت أن رسول الله ﷺ شهدها ، ولكن ثبت أنه أخبر عن شهوده حلف المطيبين وأثنى عليه قائلاً : « شهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام ، فما أحب أن لي حمر النعم وأني أنكثه[5] » .

وحلف المطيبين كان بين بني هاشم وبني أمية وبني زهرة وبني مخزوم[6] . وكان الحلف في دار عبد الله بني جدعان ، وهو تحالف على التناصر والأخذ للمظلوم

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٢/٣٩٧ ودائرة المعارف للبستاني ٥/٢١٨ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ١/٧٥ .

(٣) ابن إسحاق : سيرة ٥٢ .

(٤) ابن كثير : البداية النهاية ٢/٣١ ونسبه للزهري .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده ١/١٩٠ - ١٩٣ والبخاري : الأدب المفرد رقم ٥٦٧ (ط. الحوت) وابن المقرئ : المعجم ٢٤ أ بإسنادٍ حسن . والحاكم : المستدرك ٢/٢١٩ - ٢٢٠ وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي ثم صححه من المعاصرين الألباني (حاشية فقه السيرة ٧٥ . وله شاهد حسن من حديث أبي هريرة (موارد الظمآن ٥٠٤ رقم ٢٠٦٣ ودلائل النبوة للبيهقي ٢/٣٨ وراجع الألباني : السلسلة الصحيحة ٤/٥٢٤) وشاهد آخر يصلح للاعتبار من حديث ابن عباس (الطبراني : المعجم الكبير ١١/٢٩٣) . وشاهد آخر بسند حسن لكنه مرسل طلحة بن عبد الله بن عوف (سيرة ابن هشام ١/١٣٤ وانظر البيهقي : السنن الكبرى ٦/٣٦٧) .

(٦) البيهقي : السنن الكبرى ٦/٣٦٦ وقال : لا أدري هدا التفسير من قول أبي هريرة أم مَن دونَه .
أما ابن إسحاق فيذكر أنهم بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تميم (سيرة ابن هشام ١/١٣٣).
وأنظر تفاصيل حلف المطيبين في المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٤/٦٢ - ٦٣ .

من الظالم ورد الفضول على أهلها ، وقد سمي الحلف بحلف الفضول . وإنما ورد في الحديث باسم حلف المطيبين لأن العشائر التي عقدت حلف المطيبين هي التي عقدت حلف الفضول ، وحلف المطيبين جرى قديماً بعد وفاة قُصَيّ وتنازع بني عبد مناف مع بني عبد الدار على الرفادة والسقاية بمكة[1] .

ومما يدل على ذلك أن النبي ﷺ صرَّح في بعض هذه النصوص بأنه لم يشهد للمشركين سوى حلف واحد كما صرح بأنه كان غلاماً يناول النِبال لأعمامه .

ثم أن حلف المطيبين القديم لا يحمل من معاني الانتصار للعدالة مثل حلف الفضول الذي شارك فيه الرسول ﷺ ، وقد ذكر ابن ساحاق أن النبي ﷺ كان يومذاك في العشرين من عمره[2] .

ولا شك أن العدل قيمة مطلقة وليست نسبية ، وأن الرسول ﷺ يظهر اعتزازه بالمشاركة في تعزيز مبدأ العدل قبل بعثته بعقدين ، فالقيم الإيجابية تستحق الإشادة بها حتى لو صدرت من أهل الجاهلية .

زواجه من خديجة :

تشير روايات ضعيفة - بل معظمها واهٍ - إلى تفاصيل تتعلق بزواج الرسول من أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، وهي تحدِّد بداية التعارف بينهما عن طريق عمل الرسول ﷺ في تجارة خديجة ، التي كانت ثرية تضارب بأموالها وقد ذهب بتجارتها إلى جُرَش مرتين[3] - قرب خميس مشيط[4] وكانت تابعة لليمن

---

(١) البيهقي : السنن الكبرى ٦/٣٦٧ وانظر المعارف لابن قتيبة ٦٠٤ .

(٢) ذكر ذلك في تاريخ سنه عندما وقعت حرب الفجار بين كنانة (ومعها قريش) وقيس عيلان وكان حلف الفضول منصرف قريش من الفجار (سيرة ابن هشام ١/١٨٦ وانظر الذهبي : السيرة النبوية ٣٠) .

(٣) مستدرك الحاكم ٣/١٨٢ وصححه وأقره الذهبي ، وفيه تدليس أبي الزبير وقد عنعن فالسند ضعيف .

(٤) معجم المعالم الجغرافية في السيرة ٨١ - ٨٢ .

- أو حُباشة - سوق بتهامة من نواحي مكة[١] - أو الشام[٢] فربح بتجارتها ، وحكى لها غلامها ميسرة الذي صحبه عن أخلاقه وطباعه ، فأعجبت به ، وقد خطبها لأبيها خويلد بن أسد[٣] فزوجه منها ، ويذهب ابن اسحاق إلى أن خديجة كانت في الثامنة والعشرين من العمر[٤] ، في حين تذهب رواية الواقدي إلى أنها كانت في الأربعين[٥] ، وقد أنجبت خديجة من رسول الله ذكرين وأربع إناث مما يرجح رواية ابن اسحاق ، فالغالب أن المرأة تبلغ سن اليأس من الإنجاب قبل الخمسين .

ورغم أن هذه المعلومات لم تثبت حديثياً إلا أنها مشتهرة عند الاخباريين ، وقد سكن رسول ﷺ في بيت خديجة ، ففيه تزوج ، وولدت فيه خديجة أولادها جميعاً وفيه توفيت رضى الله عنها ، فلم يزل رسول الله ﷺ فيه ساكناً حتى خرج زمن الهجرة فأخذه عقيل بن أبي طالب فيما أخذ[٦] .

---

(١) عبد الرزاق : المصنف ٣١٩/٥ - ٣٢١ من مرسل الزهري وانظر معجم ما استعجم للبكري ٤١٨/٢ .

(٢) ابن اسحاق : سيرة ٥٩ بدون إسناد . وابن سعد : الطبقات ١٥٥/١ - ١٥٧ من رواية الواقدي ، وهو متروك ولا حاجة بعد سقوط السند من مناقشة ما في المتن من مبالغات كقول الراهب بحيري : «ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي» ، وكقوله : «هو آخر الأنبياء»!! وأن خديجة رأته حين دخل مكة «وهو راكب على بعيره وملكان يظلان عليه فأرته نساءها فعجبن لذلك» وراجع مناقشة متون وأسانيد هذه الروايات في كتاب أمهات المؤمنين ، دراسة حديثية للدكتور عبدالعزيز بن محمد العبد اللطيف وهي أطروحة دكتوراه كتبت باشرافي وحبذا لو نشرت .

(٣) هذا قول الزهري (المغازي النبوية للزهري ٤٢) وابن إسحاق (سيرة ابن هشام ٢٠٣/١) أما الواقدي فيرى أن عمها عمرو بن أسد زوجها لأن خويلد بن أسد مات قبل الفجار (طبقات ابن سعد ١٣٢/١ - ١٣٣) ولكن أخباريين آخرين يذكرون أن خويلد بن أسد كان زعيم قومه في حرب الفجار (البلاذري : أنساب الاشراف ١٠٢/١ ومحمد بن حبيب : المحبر ١٧).
ويؤيد ابن حجر أن أباها زوَّجها (فتح الباري ١٣٤/٧) .

(٤) مستدرك الحاكم ١٨٢/٣ من كلام ابن إسحاق دون إسناد .

(٥) طبقات ابن سعد ١٧/٨ .

(٦) الفاكهي : أخبار مكة ٧/٤ .

ولا يوجد من الروايات الصحيحة ما يوضح هذه الأحداث . ولكن الثابت في الروايات الصحيحة زواجُه ﷺ بخديجة رضى الله عنها . وثناءُ النبي عليها وإظهـارهُ محبتهـا وتأثُره عند ذكرها بعد وفاتها ، ومواقفُها في تطمينه عند نزول الوحي عليه ومسارعتها للإيمان به وهي مواقف مشهورة تدل على مكانة خديجة (رضى الله عنها) في الإسلام[1] . ومما اتفق عليه أهل العلم أن خديجة أولى أزواجه ﷺ[2] . وقد أنجبت منه ذكرين هما القاسم وعبد الله (الملقب بالطيِّب والطاهر) ، وثلاث بنات هن أم كلثوم ثم فاطمة ثم رقية[3] . فأما القاسم وعبد الله فماتا قبل الإسـلام ، وأدركت البنات الإسلام فأسلمن . وقد توفيت خديجة قبل هجرة النبي إلى المدينة بثلاث سنين[4] . وذلك قبل حادثة الإسراء والمعراج[5] .

صيانة الله له قبل البعثة (إرهاصات البعثة) :

أجمع العلماء على أن النبي ﷺ معصوم عن الكفر قبل الوحي وبعده ، وأما تعمـد الكبائر فهو معصوم عنها بعد الوحي ، وأما الصغائر فتجوز عمداً عند الجمهور بعد الوحي ويستفاد من كلامهم عدم امتناع صدور الكبائر عنه قبل الوحي[6] ، وهذه التقريرات العقدية يتجاوزها استقراء الروايات التاريخية التي تؤكد العصمة من الكفر والكبائر معاً قبل الوحي . فقد وردت روايات ضعيفة تفيد أن الله تعالى عصمه من سماع ومشاهدة الأعراس في صباه يوم أن كان يرعى

---

(١) راجع في فضلها صحيح البخاري ١/٣ بدء الوحي ، ٤/٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٦/١٥٨ وصحيح مسلم ١/١٤١ كتاب الإيمان ، باب بدء الوحي ٤/١٨٨٦ ، ١٨٨٨ ، ١٨٨٩ .

(٢) ابن قدامة : أنساب القرشيين ٥١ وابن حجر : فتح الباري ٧/١٣٤ .

(٣) الطبراني : المعجم الكبير ٢٢/٣٩٧ ومصعب الزبيري : نسب قريش ٢٣١ .

(٤) صحيح البخاري ٧/٢٢٤ كتاب مناقب الأنصار ، باب تزويج النبي عائشة من رواية عروة ، وظاهره الإرسال لكنه يحمل على أنه أخذ الرواية عن عائشة (فتح الباري ٧/٢٢٤) .

(٥) الفسوي : المعرفة والتاريخ ٣/٢٥٥ من مرسل عروة .

(٦) السفاريني : لوامع الأنوار البهية ٢/٣٠٥ .

الغنم[1] ، كما وردت روايات ضعيفة تفيد أن الله تعالى عصمه من العري وهو فتى ينقل مع أقرانه حجارة يلعبون بها وقد رفعوا أُزرَهم ، فأُمِر أن يشد عليه إزاره[2]. ولكن قد ثبت أنه نُهي عن رفع إزاره وهو رجل لما جددت قريش بناء الكعبة ، فقد اشترك مع عمه العباس في نقل الحجارة ، فاقترح عليه العباس أن يرفع إزاره ويجعله على رقبته ليقيه أثر الحجارة مادام بعيداً عن الناس فلما فعل سقط على الأرض مغشياً عليه ، فلما أفاق طلب أن يشدّوا عليه إزاره[3]. وكان عمره حين تجديد بناء الكعبة خمساً وثلاثين سنة[4]. ولم يكن التعري مستنكراً عند العرب في الجاهلية ، فقد كانوا يطوفون بالبيت العتيق عراة إلا الحُمُس (وهم قريش) ، كما أن التعري في الطواف استمر حتى منعهم الرسول ﷺ بأمره الذي بلَّغه أبو بكر الصديق في حج سنة ٩هـ عندما أعلن (ألاَّ يحج بعد العام مشرك ،

---

(١) ابن إسحاق : السير والمغازي ٧٩ - ٨٠ بسند فيه محمد بن عبد الله بن قيس بن مخرمة انفرد ابن حبان بتوثيقه ، وقال ابن حجر عنه : مقبول ، فيحتاج إلى متابعة . (انظر حاشية فقه السيرة للغزالي ٧٢ - ٧٣ من تعلقيات الألباني).

وانظر رواية أخرى في إسنادها مجاهيل ساقها الطبراني في معاجمه (المعجم الصغير ٢/١٣٨ رقم ٩٢١ ومجمع البحرين ٢/ل ٢٥أ).

(٢) ابن إسحاق : السير والمغازي ٧٨ وفي سنده مبهم .

(٣) أخرجه الشيخان (فتح الباري ١/٤٧٤ وصحيح مسلم بشرح النووي ٤/٣٣ - ٣٤) من حديث جابر بن عبد الله .

وراجع رواية العباس نفسه في السير والمغازي ٧٩ لابن إسحاق من زيادات يونس بن بكير عليه وإسناده فيه سماك بن حرب عن عكرمة وروايته عنه مضطربة مع تغير سماك بأخرة ، ولكن تابعه الحكم بن ابان كما قال ابن حجر (الفتح ٣/٤٤١) فالسند حسن لغيره . وقد أوضحت هذه الرواية أن تعري العباس والرسول كان بعيداً عن الناس . وسمّت رواية مسند أحمد ٥/٤٥٤- بسند صحيح أن النبي كان ينقل الحجارة من أجياد وأنه وضع النمرة على عاتقه لأنها ضاقت عليه (راجع حول تصحيحه مستدرك الحاكم ٤/١٧٩ والسيرة النبوية للذهبي ٤٠ لكن ابن حجر يرى أن عبد الله بن عثمان بن خثيم أحد رجال السند صدوق فقط -تقريب ٣١٣- وهو من رجال البخاري ومسلم) .

(٤) عبد الرزاق : المصنف ٥/١٠٢ - ١٠٤ باسناد صحيح كما حكم عليه الذهبي (السيرة النبوية ٣٩) وسيرة ابن هشام ١/٢٠٩ - ٢١٤ من كلام ابن إسحاق بدون إسناد .

ولا يطوف بالبيت عريان)[1]. لذلك علق ابن حجر على الحديث السابق بقوله : « وفي الحديث أنه ﷺ كان مصوناً عما يستقبح قبل البعثة وبعدها »[2].

إن حادثة تجديد بناء الكعبة قد كشفت عن مكانة النبي الأدبية في الوسط القرشي ، فقد اختلفت قريش فيمن يضع الحجر الأسود مكانه ، ثم اتفقوا على أن يحكموا أول داخل من باب بني شيبة فدخل رسول الله ، فأمر بثوب فأخذ الحجر ووضعه في وسطه ، ثم أمرهم برفعه جميعاً ثم أخذه فوضعه مكانه[3] . وقد ذكر عبد الله بن السائب المخزومي - وهو شاهد عيان اشترك في بناء الكعبة يومئذ - بأن قريشاً قالت لما دخل النبي من باب بني شيبة «أتاكم الأمين »[4]. مما يبرز مكانته في قومه قبيل البعثة .

ومما خالف فيه الرسول ﷺ قريشاً الوقوف بعرفة ، وكانت قريش تفيض من مزدلفة على حين يفيض بقية الناس من عرفة ، وتعلل قريش ذلك بأنها أهل الحرم ، فليس لها أن تخرج من الحرمة ، ولا تعظم غيرها كما تعظمها[5].

---

(١) البخاري : صحيح ٢/١٦٤ كتاب الحج ، باب لا يطوف بالبيت عريان ٢/١٧٥ كتاب الحج ، باب الوقوف بعرفة .

(٢) فتح الباري ١/٤٧٥ .

(٣) أحمد : المسند ٣/٤٢٥ والحاكم : المستدرك ٣/٤٥٨ من حديث عبد الله بن السائب المخزومي وصححه وأقره الذهبي ، لكن مداره على هلال بن خباب وهو صدوق تغير بأخرة ولا يُعلم إن كان الراويان عنه هنا وهما عباد وأبو زيد سمعا منه قبل تغيره أم بعده (تهذيب التهذيب ١١/٧٨ والكواكب النيرات ٤٣٤) وله شاهد من حديث علي رضى الله عنه (الطيالسي : مسند ١٨ والحاكم : المستدرك ١/٤٥٨ - ٤٥٩ وصححه الحاكم على شرط مسلم وأقره الذهبي ، مع أن خالد بن عرعرة -في إسناده- ليس من رجال مسلم ، بل وثقه العجلي وابن حبان وهما متساهلان ، وثمة علة أخرى في إسناده هي أن سماك بن حرب في سنده وقد تغير بأخرة ، ورغم تعدد الرواة عنه فإنهم جميعاً لم يذكروا فيمن رووا عنه قبل الاختلاط) . والحديث من رواية عبد الله بن السائب وعلي يرقى إلى الحسن لغيره . وله شواهد مرسلة تقوِّيه (مصنف عبد الرزاق ٥/٩٨ - ١٠٠ عن مجاهد ، ١٠٠ - ١٠١ عن الزهري) .

(٤) مسند أحمد ٣/٤٢٥ والحاكم : المستدرك ٣/٤٥٨ .

(٥) سيرة ابن هشام ١/٢١٦ .

أما رسول الله فكان يقف بعرفة ، فلما رآه جُبير بن مُطعِم واقفاً بعرفة قال : هذا والله من الحُمس فما شأنه هاهنا[1] !!

وهـذا من توفيق الله لرسـوله قبل البعثة ، فكان يستمسك بإرث إبراهيم وإسماعيل في حجهم ومناكحهم وبيوعهم[2] .

وكـان يطوف بالبيت العتيق ، وقد طاف معه مولاه زيد بن حارثة مرةً ، فلمس زيد بعض الأصنام فنهاه رسول الله ﷺ عن ذلك ، ثم عاد زيد للمسها ليتأكد من الأمر ، فنهاه ثانية فانتهى حتى كانت البعثة . وقد حلف زيد بن حارثة بأن رسول الله ما مسّ منها صنماً حتى أكرمه الله بالوحي[3] .

وقد التقى النبي بزيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بَلْدح قبل البعثة ، فقُدمت للنبي سفـرة فأبى زيد أن يأكل معه لأنه خشى أن يكون الطعام مما ذبح على النصب أو لم يذكر اسم الله عليه[4] .

وقد بين الشُّرَّاح بهذه المناسبة أن النبي ما كان يأكل ما يُذبح على النصب .

(١) صحيح البخاري ٧/١٧٥ وصحيح مسلم ٢/٨٩٤ .

(٢) البيهقي : دلائل ٢/٣٧ .

(٣) الـطبراني : المعجم الكبير ٥/٨٨ والبيهقي : دلائـل النبـوة ٢/٣٤ والحـاكم : المستـدرك ٣/٢١٦ - ٢١٧ وصححـه وأقـره الذهبي لكن الذهبي عاد فحسَّنه فقط في تاريخ الإسلام (السيرة النبوية للذهبي ٤٢) وهو الصحيح لأن في إسناده محمد بن عمرو بن علقمة صدوق له أوهام (التقريب ٤٩٩) .

(٤) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/١٤٢ ، ٩/٦٣٠) .

بشارات الأنبياء بمحمد ﷺ :

لقد بشر عيسى عليه السلام قومه بشارة صريحة ببعثة محمد ﷺ قال الله تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾[1] .

وقد وقع التحريف في نسخ التوراة والإنجيل وحذف منهما التصريح باسم محمد ﷺ إلا توراة السامرة وإنجيل برنابا الذي كان موجوداً قبل الإسلام وحرَّمت الكنيسة تداوله في آخر القرن الخامس الميلادي ، وقد أيدته المخطوطات التي عثر عليها في منطقة البحر الميت حديثاً ، فقد جاءت في إنجيل برنابا العباراتُ المصرحة باسم النبي محمد ﷺ مثل ما جاء في الإصحاح الحادي والأربعين منه ونص العبارة (٢٩ فاحتجب الله وطردهما الملاك ميخائيل من الفردوس ٣٠ فلما التفت آدم رأى مكتوباً فوق الباب : لا إله إلا الله محمد رسول الله) .

وفي موضع آخر منه هذه العبارة (١٦٣ : ٧ أجاب التلاميذ يا معلم من عسىٰ أن يكون ذلك الرجل الذي تتكلم عنه الذي سيأتي إلى العالم ، أجاب يسوع بابتهاجِ قلبٍ : إنه محمد رسول الله » .

وتتكرر مثل هذه البشارات في إنجيل برنابا في مواضع كثيرة -وهو مطبوع- .

وأما إنجيل لوقا فقد جاء فيه (٢ : ١٤) (الحمد لله في الأعالي ، وعلى الأرض إسلام ، وللناس أحمد) ، ولكن مترجميه إلى العربية لم يتوفقوا إلى الترجمة الصحيحة عن السريانية كما حقق ذلك الأستاذ عبد الأحد داؤد .

وجاء في إنجيل يوحنا في الإصحاح السادس عشر : (إن لم أنطلق لا يأتيكم الفار قليط) والفار قليط هو الحامد أو الحماد أو أحمد ونحوها[2] .

---

(١) الصـــف ٦ .

(٢) انظر حجازي : التوراة االسامرية ، وفاضل صالح السامرائي : نبوة محمد بين الشك واليقين .

وأما تبشير التوراة والإنجيل بالرسول محمد ﷺ بصفاته وعلاماته فقد بيَّن القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾[١] .

قال ابن تيمية : « والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمد ﷺ عندهم في الكتب المتقدمة متواترة عنهم »[٢] .

ثم قال : « ثم العلم بأن الأنبياء قبله بَشَّروا به يُعلم من وجوه : أحدها : ما في الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب .

الثاني : إخبار من وقف على تلك الكتب ممن أسلم وممن لم يسلم بما وجدوه من ذكره بها . وهذا مثل ما تواتر عن الأنصار أن جيرانهم من أهل الكتاب كانوا يُخبِرون بمبعثه وأنه رسول الله وأنه موجود عندهم ، وكانوا ينتظرونه ، وكان هذا من أعظم ما دعا الأنصار إلى الإيمان به لما دعاهم إلى الإسلام حتى آمن الأنصار به وبايعوه .

وقد أخبر الله بذلك عن أهل الكتاب في القرآن قال تعالى : ﴿ ولما جاءهم كتابٌ من عند الله مصدقٌ لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾[٣] .

ومثل ما تواتر عن إخبار النصارى بوجوده في كتبهم مثل إخبار هرقل ملك الروم والمقوقس ملك مصر والنجاشي ملك الحبشة .

والوجه الثالث : نفس إخباره بذلك في القرآن مرة بعد مرة ، واستشهاده بأهل الكتاب ، وإخباره بأنه مذكور في كتبهم مما يدل العاقل على أنه كان موجوداً

---

(١) الأعـراف ١٥٧ .

(٢) ابن تيمية : الجواب الصحيح ١/٣٤٠ .

(٣) البقـرة ٨٩ .

في كتبهم . . فلو لم يعلم ﷺ أنه مكتوب عندهم بل علم انتفاءَ ذلك لامتنع أن يخبر بذلك مرة بعد مرة ، ويُظهر ذلك لموافقيه ومخالفيه وأوليائه وأعدائه[1] .

ومن الثابت تأريخياً أن أهل الكتاب كانوا يستفتحون أي يطلبون من الله النصر على أعدائهم بالنبي المبعوث الذي يجدون صفته عندهم في التوراة .

وقد نصت التوراة المتداولة (ط. رجارد واطس. بلندن) على ظهور النبي ﷺ بمكة ونصها (جاء الرب من سيناء وأشرق لنا من ساعير استعلن من جبل فاران ومعه ألوف الاطهار في يمينه سِنَةُ نار) .

ومعنىٰ إن الله استعلن من جبل فاران أي من جبل مكة وهو جبل حراء ، وكان أصحابه ألوفا من الأطهار ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾[2].

وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله « قد رأيت أنا من نسخ الزبور ما فيه تصريح نبوة محمد ﷺ باسمه ، ورأيت نسخة أخرى بالزبور فلم أر ذلك فيها ، وحينئذ فلا يمتنع أن يكون في بعض النسخ من صفات النبي ﷺ ما ليس في أخرى »[3].

والحق أن نسخ الكتب السماوية التي كانت متداولة بين العلماء من أهل الكتاب خلال القرون الثمانية تعرضت لحذف اسم النبي ﷺ ، وحذف النصوص الواضحة الدلالة على صفاته كما يتضح ذلك من النقول التي أوردها العلماء المسلمون منها في كتبهم مثل ابن قتيبة والماوردي والقرافي وابن تيمية وابن القيم ، مما يشير إلى قيامهم بمحو ذلك من كتبهم على أثر المجادلات الدينية واحتجاج المسلمين بها عليهم . ومع ذلك فقد بقيت نصوص ذات دلالة صريحة مثل ما جاء في سِفر اشعيا في الإصحاح الحادي والعشرين ونصه : (١٣ وحي من جهة بلاد العرب في الوعر في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين ، ١٤ هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء وافوا الهارب بخبزه ، ١٥ فإنهم من أمام

---

(١) ابن تيمية : الجواب الصحيح ١/ ٣٤٠ .

(٢) التوبة ١٠٨ .

(٣) ابن تيمية : الجواب الصحيح ٢/ ٢٧

السيوف قد هربوا . من أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب ، ١٦ فإنه هكذا قال لي السيّد في مدة سنة كسنة الأجير يفني كل مجد قيدار وبقية عدد قسي أبطال بني قيدار تقل لأن الرب إله إسرائيل قد تكلم) .

وفيها تصريح بظهور الوحي في بلاد العرب والهجرة النبوية إلى المدينة المنورة بعد اجتماع المشركين على قتل رسول الله ﷺ ثم انتصاره على أبطال بني قيدار وهم العرب في موقعة بدر . - لأن قيدار هو ابن إسماعيل جد العرب - .

ولا شك أن الأدلة على صدق نبوة محمد ﷺ لا تتوقف على هذه البشارات ، فدلالات القرآن من الإعجاز البلاغي والتشريع الباهر ، ودلالات السنة النبوية الصحيحة على وقوع المعجزات الحسية ومشاهدة الألوف من المسلمين لها ، ودلالات سيرة المصطفى ﷺ في إيمانه ويقينه ، وعبادته ومجاهدته ، ودعوته وجهاده ، وعدله وصدقه ، وإيمان المقربين إليه العارفين به مثل زوجه خديجة وصديقه أبي بكر ومولاه زيد بن حارثة كل ذلك يقطع بصدق البعثة المحمدية . . وكفى بالقرآن معجزة ودلالة على اتصال رسالات الأنبياء واكتمالها برسالة محمد ﷺ ، وقد تكون حافزاً لإيمان أهل الكتاب وهم يقرأون التبشير ببعثته ﷺ في كتبهم المقدسة تصريحاً باسمه أو وصفاً لحاله وصفاته مما لا ينطبق على سواه .

بشارات علماء أهل الكتاب بنبوته :

لقد أخبر سلمان الفارسي في قصة إسلامه الطويلة أن راهب النصارى في عمورية عندما حضرته الوفاة طلب منه سلمان أن يوصيه ، فقال الراهب : أي بني والله ما أعلمه بقي أحد على مثل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه ، ولكنه قد أظلك زمان نبي يبعث من الحرم ، مهاجره بين حرتين إلى أرض سبخة ذات نخل ، وإن فيه علامات لا تخفي ، بين كتفيه خاتم النبوة ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة فإن استطعت أن تخلص إلى تلك البلاد فافعل فإنه قد أظلك زمانه » .

ثم قصَّ سلمان خبر قدومه إلى المدينة واسترقاقه ، ولقائه برسول الله حين الهجرة ، واهدائه له طعاماً على أنه صدقة فلم يأكل منه الرسول ، ثم اهدائه له طعاماً على أنه هدية وأكله منه ، ثم رؤيته خاتم النبوة بين كتفيه ، وإسلامه على أثر ذلك[1] .

وكذلك فإن يهود المدينة كانوا يعرفون أن زمان بعثة النبي قد أقترب ، وكانوا يزعمون أنه منهم ، ويتوعدون به العرب ، وقد بيَّن الله تعالى أنهم يعرفونه بصفاته التي ذكرت في كتبهم كما يعرفون أبناءهم ، وإنما أنكروا نبوته بعد ظهوره لما تبين لهم أنه من العرب فجحدوا نبوته .

قال تعالى : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾[2] .

وقد قال رجال من الأنصار : « إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى وهداه ، لما كنا نسمع من رجال يهود ، كنا أهل شرك أصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم »[3] .

---

(١) إسناده حسن (ابن إسحاق : السير والمغازي ٨٧ - ٩١) ومسند أحمد ٥/٤٤١ - ٤٤٤ وطبقات ابن سعد ٤/٧٥ - ٨٠ ومستدرك الحاكم ٢/١٦ وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، مع أن مسلماً لم يخرج لابن إسحاق إلا في المتابعات (ابن حجر : تهذيب التهذيب ٩/٤٥) .

(٢) البقرة ٨٩ وعن سبب النزول راجع سيرة ابن هشام ١/١٩٥ وابن إسحاق : السير والمغازي ٨٤ وتفسير الطبري ٢/٧٥ - ٧٦ وإسناد ابن إسحاق متصل صرّح فيه بالتحديث ، وصرح عاصم بن عمر بالتحديث من رواية يونس بن بكير وحكم له أحمد شاكر بالرفع لأنه في وقائع في عهد النبوة تبين سبب نزول آية ، وعاصم تابعي ثقة فالراجح أنه يروي عن الصحابة من قومه الأنصار (تفسير الطبري - تحقيق أحمد شاكر - ٢/٣٣٣ بالحاشية) .
وقد ساق الطبري له شواهد ضعيفة مرسلة (تفسير ١/٤١١) .

(٣) سيرة ابن هشام ١/٢٣١ باسناد حسن وأما روايات الواقدي في قصة تُبَّع وسفر باطا فواهية (طبقات ابن سعد ١/١٥٨ - ١٥٩) وكذلك خبر طلوع كوكب أحمد (الدلائل لابن نعيم ١/٨٨) .

وقال هرقل ملك الروم عندما استلم رسالة النبي ﷺ : « وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم »[1] .

إرهاصات نبوته :

ومن ارهاصات نبوته تسليم الحجر عليه قبل النبوة كما أخبر[2] . ومنها الرؤيا الصادقة وهي أول ما بديء به من الوحي فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح[3] .

وقد حبب إليه العزلة والتحنث (التعبد) فكان يعتزل قومه في غار حراء ، وهو في جبل حراء ، ويطل الغار على الكعبة[4] ، ويحتاج صعوده إلى جهد ويستغرق الصعود نصف ساعة ، فكان يمكث فيه الليالي ذوات العدد ، قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك ، حتى فجأه الحق وهو في غار حراء[5] .

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٦ بدء الوحي ، وصحيح مسلم ٣/ ١٣٩٥ كتاب الجهاد والسير باب كتاب النبي إلى هرقل .

(٢) صحيح مسلم ٤/ ١٧٨٢ وأما حديث تسليم الجبل والشجر عليه في سنن الترمذي ٥/ ٥٩٣ ففي إسناده عباد بن أبي يزيد مجهول (تقريب ٢٩١) والوليد بن عبد الله بن أبي ثور ضعيف (تقريب ٥٨٢)

(٣) صحيح البخاري ١/ ٣ وصحيح مسلم ١/ ١٣٩ .

(٤) قال ابن أبي جمرة . « الحكمة في تخصيصه بالتخلي فيه أن المقيم فيه كان يمكنه رؤية الكعبة ، فيحتمع لمن يخلو فيه ثلاث عبادات : الخلوة ، والتعبد ، والنظر إلى البيت » . وقال ابن حجر : « وكأنه مما بقي عندهم من أمور الشرع على سنن الاعتكاف » (فتح الباري ١٢/ ٣٥٥) وقد ذكر ابن إسحاق «أن ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية» (سيرة ابن هشام ١/ ٢٥٣) وقد ذكر ابن حجر -دون أن يذكر مصدراً- أن عبد المطلب كان يخلو في غار حراء (فتح الباري ١٢/ ٣٥٥) فالتحنث من بقايا الإبراهيمية .

(٥) صحيح البخاري ١/ ٣ وصحيح مسلم ١/ ١٤٠ .

البعثة المحمدية :

بعث رسـول الله وعمره أربعون سنة[1] . وقد شذت رواية تفيد أن عمره ثلاث وأربعون[2] . وقد سعى البيهقي للتوفيق بين القولين بالاعتماد على مرسل الشعبي « نزلت عليه النبـوة وهـو ابن أربعين سنة فقرن بنبوته اسرافيل ثلاث سنـين ، فكـان يعلمـه الكلمـة والشيء ، ولم ينزل القرآن على لسانه عشرين [سنة] »[3] . ولكن هذا المرسل لا يصلح للاحتجاج به لإرساله ، وتفرده ، ومثل هذا الخبر لابد أن يشتهر ويُعرف في جيل الصحابة ، ثم إن مفاجأة الوحي للنبي تدل على خلافه ، مما يؤيد رواية الصحيحين بأن البعثة المحمدية بدأت وعمره أربعون سنة .

وثبت أن الوحي نزل عليه أول ما نزل يوم الأثنين[4] .

والمشهور أن نزول القرآن بدأ في شهر رمضان[5] . والوحي المحمدي نظير الوحي الإلهي إلى الأنبياء السابقين قال تعالى : ﴿ إنا أوحينـا إليـك كمـا أوحينـا إلى نـوح والنبيـين مـن بعـده ﴾[6] .

---

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ٦/٥٦٤ ، ٧/١٦٢ ، ٢٢٧ ، ١٠/٣٥٦) وصحيح مسلم ٤/١٨٢٤ ، ١٨٢٧ . وسيرة ابن هشام ١/٢٥١ ، ٢٥٢ .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ٢/٢٩٢ ، ٣٨٤ وإنظر كلام النووي وابن حجر عن شذوذها رغم أن رجـال السنـد ثقـات وأن راويهـا هشام بن حسان هو الذي روى رواية الصحيحين (النووي : صحيح مسلم بشرحه ١٥/١٠٣ وابن حجر : فتح الباري ٧/٢٣٠) .
وقد ذهب سعيد بن المسيب إلى القول بأن نزول القرآن عليه وهو ابن ثلاث وأربعين (مصنف ابن أبي شيبة ١٤/٢٩٠) لكنه -وإن كان مرسلاً قوياً- مخالف للصحيح كما أن ابن عبد البر حكى عن سعيد أنه ممن قال بأن النبوة كانت سنة أربعين (الاستيعاب بحاشية الإصابة١/١٤) .

(٣) البيهقي : دلائل ٢/١٣٢ وليس فيه (سنة) واضفتها للتوضيح ، وانظر كلام ابن حجر (فتح الباري ١/٢٧) وكلام ابن كثير نقلا عن أبي شامة (السيرة النبوية ١/٣٨٨ - ٣٨٩) .

(٤) مسلم : الصحيح ٨/٥١ ، ٥٢ وأبو داؤد : السنن ٢/٨٠٨ - ٨٠٩ .

(٥) البقرة ١٨٥ وسيرة ابن هشام ١/٢٥٤ ، ٢٥٨ ، والسيرة النبوية لابن كثير ١/٣٩٢ .

(٦) النساء ١٦٣ .

الوحـــي :

كان رسول الله ﷺ يخلو في غار حراء ، ولا نعلم كيف كان تعبده في حراء قبل البعثة ، ولا نعلم متى حبّب إليه الخلاء بالغار على وجه التحديد ، ولكن ذلك كان قبيل البعثة وبعد أن بديء بالرؤيا الصادقة التي كانت تمهيداً للوحي ، ولم نذكر المصادر ما هي موضوعات الرؤى ، ولكنها كانت رؤى صالحة كما وصفتها الروايات الصحيحة ، وكان التحنث في الغار يستغرق ليالي عديدة حتى إذا نفد الزاد عاد إلى بيته فتزود لليالي أخرى . وفي نهار يوم الأثنين من شهر رمضان جاءه جبريل بغتة لأول مرة داخل غار حراء . قالت عائشة (رضي الله عنها) : « فجاءه الملَك فيه فقال : اقرأ ، فقال له النبي ﷺ : ما أنا بقاريء فأخذني فغطني[1] . حتى بلغ مني الجَهْدُ ، ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت ما أنا بقاريء ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ حتى بلغ ﴿ ما لم يعلم ﴾ فرجع بها ترجُفُ بوادره[2] . حتى دخل على خديجة فقال : زمّلوني زمّلوني ، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروعُ ، فقال : يا خديجة مالي ؟ وأخبرها الخبر . قال : قد خشيتُ على نفسي ، فقالت له : كلا أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصْدُق الحديث ، وتحمل الكلّ ، وتَقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقةَ بن نوفل بن أسد بن عبد العُزّى بن قُصيّ – وهو ابن عم خديجة أخو أبيها – وكان امرءاً تنصَّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربي فيكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عميَ ، فقالت له خديجة : اسمع من ابن أخيك . فقال ورقة : ابنَ أخي ماذا ترى ؟ فأخبره النبي ﷺ ما رأى ، فقال ورقة : هذا الناموس الذي

---

(١) ضمني وعصرني (فتح الباري ١/٢٤) .

(٢) بوادره : جمع بادِرَة وهي لحمة بين المنكب والعُنق .

أنـزل على موسى ، يا ليتني فيها جذعاً أكون حيّاً حين يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : أو مخرجيَّ هم ؟ فقال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عُودي ، وان يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزَّرا . ثم لم ينشب ورقةُ أن توفي ، وفتر الوحي فترةً حتى حزن النبي ﷺ - فيما بلغنا - حزنا غدا منه مرارا كي يتردّى من رءوس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يُلقي منه نفسه تبدَّى له جبريل فقال : يا محمد إنك رسول الله حقاً . فيسكن لذلك جأشه ، وتقرّ نفسه فيرجِعُ ، فإذا طالت عليه فترةُ الوحي غداً لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذَروةِ جبلٍ تبدَّى له جبريل ، فقال له مثل ذلك »[1] .

وقـد أوضـح هذا الحديث أن (اقرأ) هي أول ما نزل من القرآن ، وأن الرسول فوجيء بالوحي دون أن يتوقعه فراعه الموقف ، كما يوضح الحديث موقف خديجة رضى الله عنها في تطمينه ومساعدته على معرفة كُنَهِ الحَدَث ، كما تُبين قدر معلومات ورقة عن الأنبياء وتنبهه للأخطار التي ستحدق بالنبي ، لكن ورقة مات قبل تتابع الوحي ، وقد انقطع الوحي مدة ، ويوضح بلاغُ الزهري الأزمة التي تعرض لها الرسول لانقطاع الوحي ، وإنه كاد يتردَّى من شواهق الجبال ، وأن جبريل عليه السلام كان يظهر له في كل مرة ويبشره بأنه رسول الله ، ولكن بلاغ الزهري لا يصلح لاثبات الحادث لتعارضه مع عصمة النبي[2] . ثم إنه مرسل

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الحيل ، باب التعبير (٦٧/٨) ومواضع أخرى (انظر فتح البـاري لابن حجـر ٣٥١/١٢ - ٣٥٢ ، ٢٢/١ ، ٧١٥/٨ ، ٧٢٢ وأخـرجـه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب بدء الوحي ١٣٩/١) .

(٢) ساق البخاري الخبر بعد عبارة -فيما بلغنا- متخللة حديث بدء الوحي الذي رواه بسنده من طريق (معمر قال الزهري فأخبرني عروة عن عائشة) ولولا عبارة (فيما بلغنا) لصار خبر محاولة التردي من الشواهق صحيحاً ، ولكن ابن حجر ذهب إلى أنه بلاغ مرسل وليس موصولاً من رواية عروة عن عائشة (فتح الباري ٣٥٩/١٢ - ٣٦٠) ومراسيل الزهري ضعيفة . وقد أورد الطبري الخبر من مرسل الزهري (تاريخ الطبري ٣٠٥/٢) ويدل صنيع الذهبي في سوق سند حديث بدء الوحي مع اقتصاره على متن خبر محاولة التردي من شواهق الجبال على أنه يرى وصل الحديث (السيرة النبوية للذهبي ٦٤). كذلك وصله الطبري في تاريخه ٢٩٨/٢ - ٢٩٩ من =

ضعيف . ولا يُعلم على وجه التحديد كم دامت مدة انقطاع الوحي ، ولكن يبدو أنها لم تدم طويلاً[1] حيث اطمأنت نفس الرسول وتهيأ لاستقباله فتتابع الوحي وكثر . وأول ما نزل بعد فتوره ﴿ يأيها المدثر ﴾ إلى ﴿ والرجز فاهجر ﴾[2] وقد تكرر إبطاء الوحي في وقت آخر ليلتين أو ثلاثاً فقال المشركون : قد ودّع محمداً ربُّه ، فأنزل الله عز وجل ﴿ والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى ﴾[3] وقد اختلط الأمر على بعض الرواة فحسبوا أنها نزلت عقب فترة الوحي الطويلة التي أعقبت نزول ﴿ اقرأ ﴾[4] .

= رواية النعمان بن راشد الجزري عن الزهري ، والنعمان صدوق سيىء الحفظ كما في تقريب التهذيب ٥٦٤ وقد تفرد بزيادات ضعيفة في هذا الخبر وخاصة فيما يتعلق بأول ما نزل من القرآن بعد (اقرأ) .

ويذكر الألباني أن هذه الزيادة لها علتان ، الأولى تفرد معمر بها دون يونس وعقيل فهي شاذة ، الأخرى أنها مرسلة مفصلة ولم تأت من طريق موصولة يحتج بها . . . وهي زيادة منكرة من حيث المعنى لأنه لا يليق بالنبي ﷺ المعصوم أن يحاول قتل نفسه بالتردي من الجبل مهما كان الدافع له على ذلك .

(الألباني : دفاع عن الحديث النبوي والسيرة ٤١ وأحال أيضاً على سلسلة الأحاديث الضعيفة رقم ٤٨٥٨) .

(١) ورد أنها كانت سنتين ونصف سنة (الروض الأنف للسهيلي ٢/٤٣٣ - ٤٣٤) وورد عن ابن عباس أنها دامت أربعين يوماً . (شرح المواهب اللدنية ١/٢٣٦) .

(٢) متفق عليه (فتح الباري ٨/٦٧٨ - ٦٧٩ ، ٧١٥ ، ١/٢٧ ، ٦/٣١٤) وصحيح مسلم ١/١٤٣ .

(٣) صحيح مسلم ٣/١٤٢٢ وانظر تحديد المدة في صحيح البخاري . (فتح الباري ٣/٨ ، ٧٠١ ، ٩/٣) .

(٤) ابن كثير : السيرة النبوية ١/٤١٣ - ٤١٤ .

وابن حجر : فتح الباري ٨/٧١١ وانظر بعض الروايات الضعيفة في تفسير الطبري ٣٠/٢٣١ - ٢٣٢ وسيرة ابن هشام ١/٢٤١ط السقا وتاريخ الطبري ٢/٢٩٩ - ٣٠٠ بسند حسن لكنه مرسل عبد الله بن شداد بن الهاد ولد على عهد النبي ولم يسمع منه ، ومتنه مخالف للروايات الصحيحة .

وقد ذكر ابن إسحاق فترة ثالثة للوحي لكنها لا تصح[١] . وقد وردت روايات ضعيفة أو واهية السند ومنكرة المتن تفيد أن جبريل علَّمَ الرسول الوضوء أو أن خديجة تحققت من كون الذي يراه الرسول ملاكاً وليس شيطاناً[٢] . أو أن وقوع شق الصدر تكرر معه في بدء الوحي[٣] . أو أن أول مجيىء جبريل إليه كان وهو نائم بحراء[٤] ، أو أن أبا بكر هو الذي صحبه إلى ورقة[٥] . وهذا كلهُ لا يثبت .

وكان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة[٦] ، فكان جبينه يتفصَّدُ عَرَقاً في اليوم الشديد البرد ، وكان وجهه يتغيّر ويكرب[٧] وجسمه يثقل ، يقول زيد بن ثابت : « فأنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي فثقلت عليّ حتى خفت أن ترضَّ فخذي »[٨] . وكان يركّزُ ذهنَه بشدةٍ لحفظ القرآن ، فيحرِّك به لسانه وشفتيه ، فنزلت الآية ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجلَ به إنَّ علينا جمعَه وقرآنَه ﴾[٩] تخفيفاً عنه ﷺ ، كان شوقه إليه وحرصه عليه يدفعه إلى التعجل في تلقِّيه كما بينت

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٢١ - ٣٢٢ بلاغاً عن ابن عباس وتفسير الطبري ١٥/١٢٧ - ١٢٨ من طريق ابن إسحاق وفيه مبهم ، وفيها أنه ﷺ وعد المشركين بالإجابة عن أسئلتهم عن أصحاب الكهف والرجل الطوّاف والروح . ولم يستثن فتأخر عنه الوحي خمس عشرة ليلة .

(٢) راجع روايتي ابن إسحاق في سيرة ابن هشام ١/٢٣٨ - ٢٣٩ بسندين أولهما معضل وثانيهما مرسل ، ورواية أبي نعيم في دلائل النبوة ١/٢٨٣ - ٢٨٤ بسند فيه النضر بن سلمة كذبه غير واحد (ميزان الاعتدال للذهبي ٤/٢٥٦ - ٢٥٧).

(٣) مسند الطيالسي ٢١٥ - ٢١٦ بسند ضعيف فيه مبهم ومتنه منكر ، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/١٤٢ - ١٤٤ من مرسل الزهري ضعيف ، والخصائص الكبرى للسيوطي ١/٩٣ بسند مرسل وفيه ابن لهيعة ضعيف .

(٤) ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ١/٢٣٦ - ٢٣٨ وتاريخ الطبري ٢/٣٠٠ - ٣٠١ من مرسل عبيد بن عمير بن قتادة الليثي .

(٥) مصنف ابن أبي شيبة ١٤/٢٩٢ - ٢٩٣ بسند فيه عنعنة أبي إسحاق السبيعي وهو مدلس ، وفيه انقطاع فأبو ميسرة عمرو بن شرحبيل الهمداني ليس صحابياً .

(٦) صحيح مسلم ١/٣٣٠ .

(٧) صحيح مسلم ٤/١٨١٧ .

(٨) صحيح البخاري ٥/١٨٢ .

(٩) صحيح البخاري ٦/٧٦ وصحيح مسلم ١/٣٣٠ والآية من سورة القيامة ١٦ ، ١٧ .

ذلك الآية ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه ، وقل رب زدني علماً ﴾[1] وقد سئل رسول الله ﷺ :

كيف يأتيك الوحي ؟ فأجاب : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس - وهو أشدّه عليَّ - فيفصم عنّي وقد وَعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول[2] .

وكان الوحي يأتيه في اليقظة كما تدل الأحاديث الصحيحة[3] .

لقد استغرق نزول الوحي ثلاثاً وعشرين سنة ، منها ثلاثة عشر عاماً بمكة وهذا هو المشهور[4] وعشر سنين في المدينة وهو المتفق عليه[5] .

إن ظاهرة الوحي معجزة خارقة للسنن الطبيعية ، حيث تلقّى النبي ﷺ كلام الله (القرآن) بواسطة الملاك جبريل (عليه السلام) وبالتالي فلا صلة لظاهرة الوحي بالإلهام أو التأمل الباطني أو الاستشعار الداخلي ، بل إن الوحي يتم من خارج الذات المحمدية المتلقية له ، دون أن يكون لرسول الله أي أثر في

---

(١) طـه ١١٤ .

(٢) صحيح البخاري ١/٢ ، ٣ وصحيح مسلم ٤/١٨١٦ ، ١٨١٧ .

(٣) صحيح البخاري ١/٢ ، ٣ وصحيح مسلم ٤/١٨١٦ ، ١٨١٧ وقد ورد في مرسل عبيد بن عمير ومرسل الزهري أنه جاءه في المنام أولاً ثم باليقظة (السيرة النبوية لابن كثير ١/٣٨٧ وعيون الأثر لابن سيد الناس ١/٨٩) وهذه المراسيل واهية لا يثبت بها الخبر .

(٤) صحيح البخاري ٤/٢٣٨ وصحيح مسلم ٤/١٨٢٥ ، ١٨٢٦ كلاهما عن ابن عباس ومستدرك الحاكم ٣/٢ بإسناده إلى علي رضي الله عنه وصححه ووافقه الذهبي ووردت روايات صحيحة أخرى عن ابن عباس أنه أقام بمكة بعد البعثة عشر سنين ينزل عليه القرآن ، وورد خمس عشرة سنة (صحيح البخاري ٤/١٦٤ ، ١٦٥ وصحيح مسلم ٤/١٨٢٤ ، ١٨٢٥ ، ١٨٢٧) فإذا لاحظنا أن فتور الوحي دام قرابة ثلاث سنوات فربما يكون ابن عباس حذفها عندما قال عشر سنين .

وقد رجح ابن حجر رواية ابن عباس أنها ثلاث عشرة سنة على روايته خمس عشرة سنة وقال : « إن أقامته بمكة ثلاث عشرة هو قول الجمهور وهو المشهور ، ومن رُوى عنه ما يخالف ذلك جاء عنه المشهور ، وهم ابن عباس وعائشة وأنس ثم نقل الرأي المشهور عن معاوية ، وبه جزم بن المسيب والشعبي ومجاهد ، وقال أحمد : وهو الثبت عندنا . (فتح الباري ٨/١٥١) .

(٥) ابن سيد الناس : عيون الأثر ١/٨٩ .

الصياغة والمعنى ، بل تنحصر مهمته بحفظ الوحي وتبليغه . وأما بيانه وتفسيره فيتم بأسلوب النبي كما يظهر في أحاديثه المحفوظة . وهو أسلوب مغاير تماماً لأسلوب القرآن ، ان محاولة البعض تعليل اختلاف أسلوب القرآن عن أسلوب الحديث عن طريق علم النفس التحليلي بدعوى أن القرآن صدر عن منطقة اللاشعور في حالة ضعف الوعي الخارجي ونشاط العقل الباطن ، وأن الحديث صدر عن العقل الظاهر[1] تبدو متهافتة إذا تأملنا فيما صدر عن الحكماء والشعراء والبلغاء من آثار أدبية تتضح فيها الوحدة الأسلوبية رغم مرورهم بتجارب تأملية واستبطانية ، وصار مبدأ الأسلوب أساساً لتحديد السرقات الأدبية إلى جانب سرقة المعاني ، ولا شك أن الهروب من الاعتراف بالوحي هو الدافع إلى التفسيرات العديدة المتناقضة لظاهرة الوحي ، والتي قدمها المستشرقون وأتباعهم خلال القرنين التاسع عشر والعشرين .

إن ظاهرة الوحي ظلت تواجه المستشرقين فلا يتمكنون من اعطاء تفسير لها بل يقعون في الحيرة والتناقض ، ويلجأون إلى الاتهامات القديمة التي سبق أن قالها العرب الجاهليون في مكة عند نزول الإسلام مما ردّه القرآن . قال تعالى يحكي تلك الاتهامات ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ وقال ﴿ إنما هو إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ .

وفي القرن العشرين يقول المستشرقون إن الرسول ﷺ تعلّم من ورقة[2] بن نوفل ، ومرة يقولون من بحيرا الراهب ، وأحياناً يرددون أنه تعلم من يهود مكة !! ونحن نعلم أن مكة لم يكن فيها يهود . وإن لقاءه ببحيرا -لو ثبت- لا يعدو

---

(١) راجع كتاب (محمد في مكة) لمونتكمري واط .

(٢) يقول مونتكمري واط في كتابه محمد في مكة ٩٣

«من الأفضل الافتراض بأن محمداً كان قد عقد صلات مستمرة مع ورقة منذ وقت مبكر وتعلم أشياء كثيرة ، وقد تأثرت التعاليم الإسلامية اللاحقة كثيراً بأفكار ورقة ، وهذا يعود بنا إلى طرح مشكلة العلاقة بين الوحي الذي نزل على محمد والوحي السابق له» . مع العلم أن كتب السيرة لم تثبت سوى لقاء واحد مع ورقة !!

الساعة أو الساعتين وهو غلام في الثانية عشرة من عمره !! وأن التوراة والإنجيل لم يترجما إلى العربية إلا بعد قرون من عمر الرسالة ، ولو كانا قد ترجما فإن أميته تحول دون إفادته منهما[1] . نعم يوجد ثمة تشابه بين القصص الديني في القرآن وما ورد في التوراة (وشرحه التلمود) والإنجيل ، وهو تشابه مرجعه وحدة المصدر[2] الإلهي . كما أن ثمة اختلافاً جوهرياً في التصور النهائي للأنبياء وتنزيههم في أعمالهم وخصائصهم بين القرآن والكتب المنزلة السابقة عليه ، وهو اختلاف يرجع إلى ما تعرضت له تلك الكتب من تحريف وتبديل يجعلها لا تمثل بصدق (كلام الله) . ولكن الأهواء دفعت بعض الدارسين إلى القول بأن القرآن اقتبس تلك القصص من التوراة والإنجيل مغفلين عمداً حقيقة الاختلاف الجوهري بين القرآن وغيره .

لقد بين كاتبان نصرانيان هما سال Sale وتايلور أن الرسول ﷺ لم يجد نموذجاً أخلاقياً ودينياً لينقله أو يحتذيه في الإسلام ، بسبب انحراف اتباع الديانات القديمة وانحطاط تصوراتهم بل وتحريف أصولهم الدينية ، يقول سال : « إذا قرأنا التأريخ الكنسي بعناية ، فسنرى أن العالم المسيحي قد تعرَّض منذ القرن الثالث لمسخ صورته ، بسبب أطماع رجال الدين والانشقاق بينهم والخلافات على أتفه المسائل ، والمشاجرات التي لا تنتهي ، والتي كان الانقسام يتزايد بشأنها . وكان المسيحيون في تحفّزهم لارضاء شهواتهم واستخدام كل أنواع الخبث والحقد والقسوة قد انتهوا تقريباً إلى طرد المسيحية ذاتها من الوجود ، بسبب جدالهم المستمر حول طريقة فهمها ، وفي هذه العصور المظلمة بالذات ظهرت بل وثبتت أغلب أنواع الخرافات والفساد »[3] .

---

(١) محمد عبد الله دراز : مدخل إلى القرآن الكريم ص ١٤١ وحاشية رقم (١) .

(٢) راجع كتاب (الظاهرة القرآنية) لمالك بن نبي .

(٣) محمد عبد الله دراز : مدخل إلى القرآن الكريم ص١٣٦ نقلا عن مؤلّف سال (ملاحظات تاريخية ونقدية عن الإسلام) ص٦٨-٧١ .

أما تايلور فيقول : « ان ما قابله محمد وأتباعه في كل اتجاه لم يكن إلاّ خرافات منفّرة ووثنية منحطة ومخجلة ، ومذاهب كنسية مغرورة وطقوساً دينية منحلة وصبيانية »[1] .

ثم ان القرآن قد فند كثيراً من العقائد والتقاليد اليهودية والنصرانية فكيف ينقض النموذج الذي احتذاه - على حد مزاعمهم -[2] .

مرحلة الدعوة السرية :

بدأت الدعو ة الإسلامية بمكة سرية ، ويحدد ابن إسحاق والواقدي هذه المرحلة بثلاث سنين[3] ، وحددها البلاذري بأربع سنين[4] .

وكان المجتمع المكي - شأن سائر الجزيرة العربية - يعتمد في تنظيمه على القبيلة ، فهي الوحدة الاجتماعية والسياسية ويعتمد في تلاحمه على العصبية القبلية فهي التي تشدُّ أبناءها إلى بعضهم . ولما كانت مكة تخضع لقبيلة واحدة هي قريش بفروعها الأربعة عشر ، فقد بدت هذه الفروع (العشائر) وحدات ذات كيان خاص ، لكنها متحالفة داخل الكيان العام لقريش ، وكان المتوقع أن ينتشر الإسلام في العشيرة التي ينتسب إليها الرسول ثم في قريش التي ينتمي إليها أخيراً . ولكن يلاحظ أن انتشار الإسلام لم يرتبط بالعصبية القبلية ، ولا العشائرية ، فلم يكن نصيبه ، من أفراد بني هاشم أعظم من بقية عشائر قريش ، وإن كان بنو هاشم يتعاطفون معه أكثر من سواهم ، لكن هذا التعاطف لم يجرهم إلى الدخول في الإسلام ، بل مات كبيرهم وأقوى مناصريهم للرسول ﷺ وهو أبو طالب دون أن يدخل في الإسلام .

---

(١) المصدر السابق ١٣٧ نقلا عن مؤلف تايلور (المسيحية القديمة) ١/٢٦٦ .

(٢) راجع الفصل النفيس (البحث عن مصدر القرآن في الفترة المكية) ضمن كتاب (مدخل إلى القرآن الكريم) لمحمد عبد الله دراز .

(٣) سيرة ابن هشام ١/٢٦٢ بدون إسناد وطبقات ابن سعد ١/١٩٩ من طريق الواقدي وهو متروك وشيخه مجهول أيضاً .

(٤) أنساب الأشراف ١/١١٦ .

لقد انتشر الإسلام في المرحلة المكية في سائر فروع قريش بصورة متوازنة ، دون أن يكـون لاحدى عشائرها ثقل كبير في الدعوة الجديدة ، وهذه الظاهرة مخالفة لطبيعة الحياة القبلية آنذاك .

وهي إذا أفقدت الإسلام الاستفادة الكاملة من التكوين القبلي والعصبية القبلية لحماية الدعوة الجديدة ونشرها ، فإنها بنفس الوقت لم تؤلب عليه العشائر الأخرى بحجة أن الدعوة تحقق مصالح العشيرة التي انتمت إليها وتعلي من قدرها على حساب العشائر الأخرى .

ولعل هذا الانفتاح المتوازن على الجميع أعان في انتشار الإسلام في العشائر القرشية العديدة دون تحفظات متصلة بالعصبية فأبو بكر الصديق من « تيم » وعثمان بن عفان من « بني أمية » والزبير بن العوام من « بني أسد » ومصعب بن عمـير من « بني عبـد الـدار » وعلي بن أبي طالب « من بني هاشم » وعمر بن الخـطاب من « بني عدي » وعبد الرحمن بن عوف من « بني زهرة » وعثمان بن مظعون من « بني جمح » بل أن عدداً من المسلمين في هذه المرحلة لم يكونوا من قريش فعبد الله بن مسعود من هذيل ، وعتبة بن غزوان من مازن ، وعبد الله بن قيس من الأشعريين ، وعمار بن ياسر من عنس من مذحج ، وزيد بن حارثة من كلب ، والطفيل بن عمرو من دوس ، وأبو ذر من غفار ، وعمرو بن عبسة من سليم ، وعامر بن ربيعة من عنز بن وائل ، وصهيب النمري من بني النمر بن قاسط . لقد كان واضحاً منذ الوهلة الأولى أن الإسلام ليس خاصاً بمكة وقريش .

المسـلمون الأوائـل :

يدل حديث بدء الوحي على أن خديجة رضى الله عنها كانت أول من عرف خبر النبوة ونزول الوحي ، وأنها صدقت الرسول وآزرته وثبتته وخففت عنه . فلا

غرابة أن تكون أول من آمن كما يقول الزهري وابن إسحاق[1] .

وقد أسلم علي بن أبي طالب بعد خديجة في هذا الوقت المبكر فقد كان في حجر النبي ﷺ قبل[2] الإسلام . -معونةً من رسول الله لأبي طالب ورداً لجميله ، فقد كان قليل المال كثير العيال - فكان أول الذكور إسلاماً[3] . وقوى الحافظ ابن حجر أن يكون عمر علي رضى الله عنه حين المبعث عشر سنين[4] .

وقد كثرت الروايات الواهية والموضوعة ، حول تحديد يوم إسلامه وصلاته بيوم الثلاثاء بعد الرسول ﷺ وخديجة بيوم واحد ، وأنه صلى قبل المسلمين الآخرين سبع سنين[5] !! وفضائل علي رضى الله عنه الثابتة كثيرة فلا يحتاج إلى مثل هذا الكذب والمغالاة .

وأما أبو بكر رضى الله عنه فقد استنبط ابن كثير من حديث صحيح فيه « إن

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٢٤ بدون إسناد ومصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٧٤ من مرسل الزهري ومستدرك الحاكم ٣/ ١٨٤ بسند ضعيف من حديث حذيفة بن اليمان .

(٢) مسند أحمد ١/ ٣٣٠ - ٣٣١ ، ٣٧٣ بسند حسن من حديث ابن عباس وطبقات ابن سعد ٣/ ٢١ ومستدرك الحاكم ٣/ ١٣٢ وسيرة ابن هشام ١/ ٢٢٨ - ٢٢٩ بدون إسناد ، وعن كفالة النبي علياً بإسناد إلى مجاهد بن جبر فهو مرسل بالإضافة إلى عنعنة عبد الله بن أبي نجيح -رواية عن مجاهد- وهو مدلس (تعريف أهل التقديس ٣٩) .

(٣) الترمذي : الجامع ٥/ ٦٤٢ بإسناد صحيح ، وقد صححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرك ٣/ ١٣٦) وفي إسناده أبو حمزة رجل من الأنصار ، وهو طلحة بن يزيد الأيلي . (تقريب التهذيب ٢٨٣) .

(٤) فتح الباري ٧/ ١٧٤ .

(٥) مسند أحمد ١/ ٩٩ وكشف الأستار ٣/ ١٨٢ وفي إسناده يحيى بن سلمة بن كهيل شيعي متروك . (تقريب التهذيب ٥٩١) .

وسنن الترمذي ٥/ ٦٤٠ وفي إسناده مسلم بن كيسان مجمع على ضعفه ومسند أبي يعلي ١/ ٣٤٨ وفيه مسلم بن كيسان أيضاً إلى حبَّة بن جُوين وسليمان بن قرم وهما ضعيفان أيضاً .

وقد أورد الإمام أحمد رؤية الصحابي عفيف الكندي لصلاة النبي وخديجة وعلي في مكان واحد ، وأنهما أول المسلمين ، (مسند أحمد ١/ ٢٠٩ - ٢١٠ ومستدرك الحاكم ٣/ ١٨٣ وصححه وأقره الذهبي) لكن في إسناده إسماعيل بن إياس وهّاه ووهّىٰ أباه البخّاري (التاريخ الكبير ١/ ٣٤٥ ، ٤٤١) .

الله بعثني إليكم ، فقلتم : كذبت . وقال أبوبكر : صدق ، وواساني بنفسه وماله » إنه أول الناس إسلاماً[1] .

وقد أسلم أهل بيت أبي بكر بإسلامه ، قالت عائشة رضى الله عنها : « لم أعقل أبويّ إلا وهما يدينان الدين »[2] .

وذهب الزهري إلى أن أول الناس اسلاماً هو زيد بن حارثة[3] - مولى رسول الله - ونظراً لأقوال الزهري في أن أول من أسلم خديجة ، فلعله عني أن زيداً أول من أسلم من الرجال ويبدو أن الواقدي أول من حاول التوفيق بين قولي الزهري[4] .

وقد تتالت محاولات التوفيق والجمع بعده بين الروايات التي تحدد أسماء أول الناس إسلاماً .

وتدل رواية صحيحة على إسلام سعد بن أبي وقاص ، وأنه بقي أسبوعاً ثالث مسلم ثم أسلم آخرون[5] .

وقد نزل القرآن في خبر إسلامه كما أخبر عن نفسه قال : «حلفت أم سعد أنه لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه ولا تأكل ولا تشرب قالت : زعمتَ أن الله

---

(١) أخرجه البخاري (فتح الباري ١٨/٧) وانظر السيرة النبوية لابن كثير ٤٣٤/١ .

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٤٧٥/٤) .

(٣) عبد الرزاق : المصنف ٣٢٥/٥ من مرسل الزهري . وتشير رواية من مرسل أبي فزارة راشد بن كيسان العبسي ، وهو ثقة إلى شراء الرسول لزيد بأموال خديجة ، وإلى عتقه له بعد أن وهبته له وهو مخالف لرواية ابن إسحاق من كون حكيم بن حزام اشتراه ثم أعطاه لخديجة التي وهبته للنبي (مصنف ابن أبي شيبة ٣٢١/١٤) .
وتشير رواية ضعيفة إلى محاولة أخيه جبلة بن حارثة استرداده لكن زيداً أبى (سنن الترمذي ٦٧٦/٥ وفيه محمد بن عمر الرومي لين وقد تابعه عبد الغفار بن عبد الله بن الزبير الموصلي في مستدرك الحاكم (٢١٤/٣) وقد تفرد ابن حبان بتوثيق عبد الغفار (الثقات ٤٢١/٨) فيقوى الطريقان إلى الحسن لغيره .

(٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ٣١٦/٢ .

(٥) صحيح البخاري (الفتح ٨٣/٧ ، ١٧٠) وانظر فضائل الصحابة لأحمد ٧٤٩/٢ .

وصَّاك بوالديك ، وأنا أمّك وأنا آمرك بهذا . قال : مكثت ثلاثة أيام حتى غشي عليها من الجَهد . فقام ابن لها يقال له عمارة فسقاها ، فجعلت تدعو على سعد فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية : ﴿ ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك على أن تشرك بي ﴾ وفيها ﴿ وصاحبهما في الدنيا معروفا ﴾ قال : فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها بعصا ثم أوجروها »[1] .

والحادثة تدل على صلابة موقف المؤمنين الأوائل أمام الفتن المتنوعة التي تعرضوا لها ، كما تدل على أنماط المواجهة التي تجمع بين التأثير العاطفي والضغط النفسي حيناً وبين استخدام القهر والقوة أحياناً أخرى .

ولقد أسلم عثمان بن عفان رضى الله عنه في وقت مبكر ولكن لم يصح قوله عن نفسه أنه الرابع في الإسلام[2] . وأسلم طلحة بن عبيد الله ، لكن تفاصيل خبر إسلامه لا تصح[3] .

وأسلم الزبير بن العوام ، وتوحي روايات ابنه الصغير عروة - الذي لم يدرك الرواية عن أبيه مما جعل مروياته عنه مرسلة - بأن إسلامه تَمَّ وهو صغير ابن ثماني سنين[4] ، لكن حفيده هشام بن عروة يقول أنه كان ابن ست عشرة سنة[5] . وتشير رواية أبي الأسود المرسلة إلى تعذيب عم الزبير له بالنار بسبب إسلامه[6] .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/ ١٨٥ - ١٨٧ . وقد ساق الرواية بمعناها الواحدي في أسباب النزول ٣٩٥ بإسناد ضعيف فيه أحمد بن أيوب بن راشد مقبول ، تفرد بتوثيقه ابن حبان (تهذيب ١/ ١٧ وتقريب ٧٧) .
وساقها الواقدي بمعناها كما في في طبقات ابن سعد (٤/ ١٢٣ - ١٢٤) .

(٢) مصنف بن أبي شيبة ١٢/ ٥٣ من طريق ابن لهيعة وقد اختلط بعد احتراق كتبه وليس من رواية العبادلة عنه وهي أعدل الروايات .

(٣) طبقات ابن سعد ٣/ ٢١٤ - ٢١٥ من طريق الواقدي وهو متروك .

(٤) الطبراني : المعجم الكبير ١/ ٨١ - ٨٢ ومجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ١٥٢ وهو مرسل رجاله رجال الصحيح .

(٥) طبقات ابن سعد ٣/ ١٠٢ وهو مرسل رجاله رجال الصحيح .

(٦) مجمع الزوائد للهيثمي ٩/ ١٥١ .

ولعل مصدر هذا الخبر عائلي لأن أبا الأسود أحد رواة مغازي عروة عنه وقد حددت رواية الواقدي سنّه - حين أسلم - بسبع عشرة سنة[1] .

وممن بكر في الدخول في الإسلام خالد بن سعيد بن العاص ، لكن تفاصيل قصة إسلامه لم تثبت حيث تفرد بها الواقدي[2] .

وعبد الله بن مسعود حيث حكى خبر إسلامه قال : « كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط بمكة ، فأتى عليّ رسول الله ﷺ وأبو بكر وقد فرا من المشركين ، فقال : يا غلام هل عندك لبن تسقينا ؟ قلت : إني مؤتمن ولست بساقيكما . قالا : فهل عندك من جذعة لم ينزُ عليها الفحل بعد ؟ قلت : نعم . فأتيتهما بها ، فاعتقلها أبو بكر وأخذ رسول الله ﷺ الضرع فدعا ، فحفل الضرع ، وأتاه أبو بكر بصخرة منقعرة ، فحلب ثم شرب هو وأبو بكر ثم سقياني . ثم قال للضرع : اقلُصْ ، فقلص .

فلما كان بعد أتيت رسول الله ﷺ ، قلت : علّمني من هذا القول الطيب - يعني القرآن - ، فقال رسول الله ﷺ : « إنك غلام مُعَلَّم . فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد[3] » .

وقد ذكرت رواية الواقدي أن عبد الله بن مسعود أسلم قبل دخول رسول

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/١٣٩ ، والواقدي متروك لكن مثل هذا الخبر مما يتساهل فيه .

(٢) طبقات ابن سعد ٤/٩٤ - ٩٥ وانظر مستدرك الحاكم ٣/٢٤٩ وفي إسناده انقطاع فإن سعيد ابن عمرو بن سعيد لم يسمع من عمه خالد بن سعيد .

(٣) أحمد : المسند ١/٣٧٩ وابن أبي شيبة : (المصنف ١١/٥١٠ وابن سعد الطبقات ٣/١٥٠ - ١٥١ والفسوي : المعرفة والتاريخ ٢/٥٣٧ وإسناد الحديث حسن ، وقد صحح الذهبي إسناده في سير أعلام النبلاء ١/٤٦٥ وكذلك فعل الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/١٧ ولكن في الإسناد عاصم ابن أبي النجود . قال عنه ابن حجر «صدوق له أوهام وحديثه في الصحيحين مقرون » (تقريب ٢٨٥) وقال عنه الذهبي «هو حسن الحديث» (ميزان الاعتدال ٢/٣٥٧) .

الله ﷺ دار الأرقم[1] . وذكرت رواية ضعيفة أخرى أنه كان سادس مسلم[2] .

ولا شك في تقدم إسلام خباب بن الأرتّ ولكن لم يثبت ، أنه سادس ستة في الإسلام[3] ، كذلك تقدم إسلام بلال الحبشي[4] وكان رقيقاً ثم اشتراه أبو بكر واعتقه[5] .

وقد ثبت أن عمار بن ياسر أسلم مبكراً ، فقد قال عن نفسه : « رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر »[6] . وقال ابن مسعود : « أول من أظهر إسلامه سبعة رسول الله ﷺ ، وأبو بكر ، وعمار ، وأمه سُمَيَة ، وصُهيب ، وبلال ، والمقداد »[7] وكان عمرو بن عَبْسة السلمي يرى أنه رابع أربعة هم أول المسلمين . قال : فلقد رأيتني إذ ذاك ربع الإسلام[8] .

وأما عن بواعث إسلامه فقد قال : « كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة ، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان ، فسمعت برجل بمكة

---

(١) طبقات ابن سعد ١/١٥١ .

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ١٢/١١٤ - ١١٥ وكشف الأستار للهيثمي ٣/٢٤٨ والمعجم الكبير للطبراني ٩/٥٨ ومستدرك الحاكم ٣/٣١٣ وصحح إسناده وأقره الذهبي وفيه علل تتمثل في تدليس الأعمش وقد عنعن ، وفي كون راويه عبد الرحمن بن عبد الله لم يسمع من أبيه إلا شيئاً يسيرا وهو مدلس ولم يصرح بالتحديث .

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٢/١٤٩ بإسناد صحيح إلى مجاهد مرسلا و ١٣/٤٩ وهو مرسل وراويه كردوس مقبول حين يتابع (تقريب التهذيب ٤٦١) وقد انفرد بتوثيقه ابن حبان (الثقات ٥/٣٤٢) وهذه الرواية المرسلة انفردت بالقول بأنه سادس ستة .

(٤) فضائل الصحابة للإمام أحمد ١/١٨٢ ، ٢٣١ بأسانيد صحيحة وطبقات ابن سعد ٣/٢٣٣ ومستدرك الحاكم ٣/٢٨٤ وصححه ووافقه الذهبي .

(٥) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٩٩) .

(٦) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/١٨ ، ١٧٠) وقال ابن حجر : أما الأعبد فهم بلال وزيد بن حارثة وعامر بن فهيرة ، وأبو فكيهة ويحتمل أن الخامس هو شقران ، وأما المرأتان فخديجة وأم أيمن - أو سمية - .

(٧) مسند أحمد ١/٤٠٤ بإسناد حسن .

(٨) مسند أحمد ٤/١١٢ وطبقات ابن سعد ٤/٢١٥ .

وتاريخ الطبري ٢/٣١٥ بإسناد حسن ومستدرك الحاكم ٣/٦٥ ، ٦٦ وصحح إسناده ٢٨٥ .

يخبر أخباراً ، فقعدت على راحلتي فقدمت عليه ، فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً جراءٌ عليه قومـه ، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة ، فقلت له : ما أنت ؟ قال : أنا نبي . فقلت : وما نبي ؟ قال : أرسلني الله . فقلت : وبأي شيء أرسلك ؟ قال : أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان ، وأن يوحد الله لا يشرك به شيء . قلت له : فمن معك على هذا ؟ قال : حر وعبد . قال : ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به . فقلت : إني متبعك . قال : إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا ، ألا ترى حالي وحال الناس! ! ولكن ارجع إلى أهلك ، فإذا سمعت بي قد ظهرتُ فأتني ، قال فذهبت إلى أهلي ، وقدم رسول الله ﷺ المدينة ، وكنت في أهلي ، فجعلت أتخبر الأخبار وأسأل الناس حين قدم المدينة حتى قدم عليّ نفر من أهل يثرب ، من أهل المدينة ، فقلت : ما فعل الرجل الذي قدم المدينة ؟

فقالوا : الناس إليه سراع ، وقد أراد قومه قتله ، فلم يستطيعوا ذلك ، فقدمت المدينة ، فدخلت عليه . . . »[1] .

ويبدو أن رسول الله ﷺ لم يخبره بأسماء سائر من أسلم وإنما سمّى أبا بكر وبـلالاً فقـط حرصـا على سلامـة من أسلم من الأذى ، وربـما لأنه إنما أسلم بعد إجـابـة سؤالـه عمن أسلم يومئـذ وتعبـير عمرو بن عبسة «فلقد رأيتني إذ ذاك ربع الإسلام» إنما هو بحسب ما بدا له . وإلا فقد كان عدد المسلمين أكثر من ذلك في المـرحلة التي أظهـرت فيهـا قريش جرأتها على الإسلام وأذاها للمسلمين كما يدل قول الرسول : ألا ترى حالي وحال الناس ! !

(١) صحيح مسلم ٥٩٦/١ وقـارن برواية الآجـري : الشريعـة ٤٤٥ - ٤٤٦ بإسناد حسن فيه إسماعيل بن عياش صدوق في روايته عن الشاميين كما هو الحال في هذا السند ، وفيه عمرو بن عبد الله السيباني مقبول فقد توبع هنا من قبل أبي سلام الدمشقي .
وهي تدل على أن رجلاً من أهل الكتاب -في الجاهلية- أرشده إلى اتباع النبي الذي سيظهر بمكة .

ومما يدل على أن المسلمين كانوا متكتمين في أمر إسلامهم أن أبا ذر الغفاري - رضي الله عنه - كان يرى نفسه رابع الإسلام أيضاً[1] . وقد علل بعض الرواة تعارض كلام أبي ذر مع كلام عمرو بن عبسة فقال : « كلاهما لا يدري متى أسلم الآخر »[2] . مما يشير إلى أن مبدأ سرية الدعوة كان يراعى في بعض الحالات حتى في مرحلة الدعوة الجهرية تبعاً لما تقتضيه مصلحة الدعوة الناشئة .

إسلام الجن :

بعث محمد ﷺ لعالمي الإنس والجن ، والجن كائنات مستترة عن أنظار البشر في الأصل ، وإن كانت لهم قدرة على التجسم والظهور بأشكال مختلفة .

ويدل القرآن والسنة على أن نفراً من الجن ، رأوا رسول الله بنخلة عامداً إلى عكاظ - وقد حيل بين الجن وبين استراق السمع من السماء فكانوا يبحثون في أرجاء الأرض عن السبب - فاستمعوا إليه وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فآمنوا به ورجعوا إلى قومهم فقالوا : ﴿ يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾ فأنزل الله على نبيه ﴿ قل أوحي إليَّ ﴾ وإنما أوحي إليه قول الجن[3] ولم ير رسول الله الجن في هذه المرة ولم يقرأ عليهم وإنما

---

(1) الطبراني : المعجم الكبير ٢/ ١٥٥ والحاكم : المستدرك ٣/ ٣٤٢ وسكت عنه ، ولعل كلام الحاكم سقط من المطبوع فإن الذهبي ذكر تصحيحه على شرط مسلم ، ولا يُسلَّم له ، فإن الإمام مسلماً لم يروِ لمالك بن مرثد ولا لأبيه ، ومرثد فيه جهالة كما قال الذهبي (ميزان الاعتدال ٤/ ٨٧) وقال عنه ابن حجر : مقبول ، أي حيث يتابع وقد تابعه جبير ابن نفير عن أبي ذر (الطبري : تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٣١٥ بإسناد فيه صدقة بن عبد الله السمين وهو ضعيف (تقريب ٢٧٥) وقد تساهل الحاكم فصحح سنده ، وأقرَّه الذهبي (المستدرك ٣/ ٣٤١) وإنما هو حسن لغيره ويبدو أن الذهبي إنما لخص مستدرك الحاكم في شبابه قبل تمكنه من مناهج النقد الحديثية .

(2) الطبري : تاريخ ٢/ ٣١٥ بإسناد ضعيف إلى جبير بن نفير . ويؤيد ابن كثير وابن حجر أن سرية الدعوة هي السبب في تعارض دعاوي السبق إلى الإسلام ، إذ يخفي عليهم من سبقهم إلى الإسلام (السيرة النبوية لابن كثير ١/ ٤٤٣ وفتح الباري لابن حجر ٧/ ٨٤) .

(3) صحيح البخاري (فتح الباري ٢/ ٢٥٣ ، ٨/ ٦٦٩ - ٦٧٠) .
وصحيح مسلم بشرح النووي ٤/ ١٦٧ - ١٦٨ .
وسنن الترمذي ٥/ ٤٢٦ - ٤٢٧ وقال : هذا الحديث حسن صحيح .

آذنته بهم شجرة[1] . ثم أوحى إليه خبرهم[2] . وقد حددت رواية مرسلة عدد الجن وأنهم كانوا تسعة[3] . ولم تُثبت أنهم من جن نصبين[4] .

وبعد هذه الحادثة دعا الجن رسول الله مرةً - وهو معسكر بأصحابه خارج مكة - فذهب معهم وقرأ عليهم القرآن ثم أرى أصحابه آثارهم وآثار نيرانهم[5] . وقد بين الشعبي أنهم وفد جن نَصبين[6] .

بدء الدعوة الجهرية :

انقضت مرحلة الدعوة السرية بنزول الآية ﴿ وانذر عشيرتك الأقربين ﴾ فخرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف : يا صباحاه ، فاجتمعت إليه قريش ، فقال : « يا بني فلان ، يا بني عبد مناف ، يا بني عبد المطلب ، « أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقيَّ ؟ قالوا : ما جَّربنا عليك كذباً . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

---

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ١٧١/٧) وصحيح مسلم بشرح النووي ١٧١/٤ .

(٢) صحيح البخاري (الفتح ٢٥٣/٢) وصحيح مسلم بشرح النووي ١٦٧/٤ - ١٦٨ وأما ما في مسند أحمد ١٦٧/١ من كونهم استمعوا إليه في صلاة العشاء ، ففي إسناده انقطاع لأن عكرمة لم يسمع الزبير بن العوام كما قال أحمد شاكر في تحقيقه للمسند (٢١/٣ -٢٢) ولو ثبت فيمكن الجمع بينه وبين رواية الصحيح بأنه استمعوا إليه مرتين .

(٣) أخرجه الطبري من رواية محمد بن بشار والبزار من رواية أحمد بن إسحاق الأهوازي كلاهما عن أبي الزبيري مرسلاً وانفرد بوصله (عن عبد الله بن مسعود) أبو بكر بن أبي شيبة في المصنف كما في الإصابة (مع الاستيعاب) ٥٣٨/١ . وتابع أبا أحمد الزبيري كل من يحيى القطان ووكيع ويحيى بن اليمان فرَووهُ مرسلا (تفسير الطبري ٣١/٢٦ ، ٣٣ ودلائل النبوة ٤٦٤/٢) .

(٤) أقوى ما يُعَوّل عليه هو حديث جابر الجعفي وهو ضعيف (جامع البيان للطبري ٣٣/٢٦ ومجمع الزوائد ١٠٦/٧) وبقية الأحاديث في ذلك واهية (الطبري : جامع البيان ٣٠/٢٦ - ٣١ ، ٣٣ والطبراني : المعجم الكبير ٢٥٦/١١ وفي سندهما النضر أبو عمر متروك (مجمع الزوائد ١٠٦/٧) والمعجم الأوسط ٢/١أ وفي إسناده عفير بن معدان متروك (مجمع الزوائد ١٠٦/٧).

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ١٦٨/٤ - ١٧٠ .

(٦) المصدر السابق من مرسل الشعبي ، ويؤيده ما في صحيح البخاري (فتح الباري ١٧١/٧) من حديث أبي هريرة .

فقال أبو لهب : تباً لك ، أما جمعتنا إلا لهذا !! ثم قام .

فنزلت هذه السورة ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾[1]

وقد ذكرت روايات واهية أن رسول الله ﷺ جمع ثلاثين من أهل بيته على أثر نزول ﴿ وانذر عشيرتك الأقربين ﴾ فأكلوا وشربوا - وبعضها يشير إلى ظهور معجزة كفاية الطعام القليل للعدد الكبير - ثم سألهم : من يضمن عني دَيني ومواعيدي ويكون معي في الجنة ، وخليفتي في أهلي ؟ فسكتوا . فقال علي : أنا[2] . وفضائل علي رضى الله عنه كثيرة لكن هذه الرواية منكرة ، وسائر شواهدها

(١) متفق عليه (فتح الباري ٨/٧٣٧) وصحيح مسلم من حديث ابن عباس ١/١٩٤ وقارن بروايتي أبي هريرة وعائشة ١٩٢ وهي مراسيل صحابة لأن الثلاثة لم يشهدوا الحادث (فتح الباري ٨/٥٠٢) .

وحديث أبي هريرة مكمل لحديث ابن عباس في الخطبة حيث ساقها ابن عباس مقتصراً على بعضها وفيها يتكرر قوله «أنقذوا أنفسكم من النار» واقتصر أبو هريرة على بعضها الآخر (فتح الباري ٥/٣٨٢ وصحيح مسلم بشرح النووي ٣/٨١) وقارن برواية أبي موسى الأشعري في سنن الترمذي ٥/٣٣٩ - ٣٤٠ وعده الترمذي غريباً من حديث أبي موسى وأفاد أنه روى مرسلا . وهكذا أخرجه مرسلا الطبري في جامع البيان ١٩/١٢٠ وقارن برواية أبي يعلي الموصلي مسنده ٢/٤٠ - ٤١ بإسناد ضعيف فيه عبد الجبار بن عمر الأيلي ضعيف وعبد الله بن عطاء ضعيف (راجع عنهما تقريب التهذيب ٣٣٢ وتهذيب التهذيب ٦/١٠٣ - ١٠٤) .

(٢) مسند أحمد ١/١١١ وكشف الأستار ٣/١٨٣ بإسناد ضعيف ففي إسنادهما عباد بن عبد الله الأسدي ضعيف ، وفيه شريك سيء الحفظ ، وفيه عنعنة الأعمشي وهو مدلس .

وانظر شواهده التالفة عن ابن إسحاق : (السير والمغازي ١٤٥ - ١٤٦) وفي سنده عبد الغفار بن القاسم أبو مريم متروك كذاب شيعي (الطبري : تفسير ١٩/٧٤ ، ٧٥ وابن كثير : التفسير ٣/٣٥١) وراجع ترجمته في (الضعفاء للعقيلي ٣٠/١٠١) وابهمه ابن إسحاق في سنده ، وكشف عنه أحمد بن عبد الجبار العطاري راوية السيرة (البيهقي : دلائل النبوة ٢/١٧٨ - ١٨٠) وابن سعد : طبقات ١/١٨٧ وفي إسناده الواقدي ويزيد بن عياض متروكان . وابن أبي حاتم في تفسيره بإسناد فيه عبد الله بن عبد القدوس ، رافضي ضعيف (ابن كثير : تفسير ٣/٣٥١ - ٣٥٢ وابن تيمية : منهاج السنة ٤/٨١) والنسائي : خصائص على رقم ٦٦ والطبري : تاريخ ٢/٣٢١ كلاهما بإسناد ضعيف فيه ربيعة بن ناجد الأزدي الكوفي قال عنه الذهبي : «لا يكاد يُعرف ، وعنه أبو صادق بخبر منكر فيه على أخي ووارثي» (ميزان الاعتدال ٢/٤٥) وأما توثيق الحافظ ابن حجر له في التقريب ٢٠٨ فتابع فيه ابن حبان والعجلي وهما متساهلان (تهذيب التهذيب ٣/٢٦٣) .

واهية حبكها الكذابون وتخيلها القصاصون من أصحاب الأهواء . ويجعل الطبري نزول الآية « فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين » ايذانا بانتهاء مرحلة السرية ، والآية مكية ، وفيها ما يفيد الأمر بالجهر بالقرآن ، ويحتمل أن تكون نزلت لتنهي مرحلة السرية ، ولكن يصعب الجزم بذلك لضعف إسناد الرواية[١] .

« ومن الطبيعي أن يبدأ الرسول دعوته العلنية بإنذار عشيرته الأقربين ، إذ أن مكة بلد توغلت فيه الروح القبلية ، فبدء الدعوة بالعشيرة قد يعين على نصرته وتأييده وحمايته ، كما أن القيام بالدعوة في مكة لابد أن يكون له أثر خاص لما لهذا البلد من مركز ديني خطير ، فجلبها إلى حظيرة الإسلام لابد وأن يكون له وقع كبير على بقية القبائل . . على أن هذا لا يعني أن رسالة الإسلام كانت في أدوارها الأولى محدودة بقريش ، لأن الإسلام كما يتجلى من القرآن اتخذ الدعوة في قريش خطوة أولى لتحقيق رسالته العالمية ، والواقع أن كثيراً من الآيات المكية كانت تنص على أن القرآن ﴿ ما هو إلا ذكر للعالمين ﴾ الأمر الذي يدل على أن فكرة الدعوة العالمية كانت قائمة منذ هذا الوقت المبكر »[٢] .

وقد أسلم في مرحلة الدعوة العلنية أبو ذر الغفاري ، فقد استدل ابن حجر من قصة إسلام أبي ذر ورؤية علي له بأنها وقعت بعد المبعث بأكثر من سنتين بحيث يتهيأ لعلي أن يستقل بمخاطبة الغريب ويضيفه[٣] .

وقد وردت قصة إسلام أبي ذر من حديث صحابيين هما عبد الله بن عباس في صحيحي البخاري ومسلم ، وعبد الله بن الصامت في صحيح مسلم وحده ، وبينهما تعارض ، ويرى القرطبي أن الجمع بينهما فيه تكلف شديد ، في حين يرى

---

(١) تاريخ الطبري ٣١٨/٢ وتفسير الطبري ٦٨/١٤ وفي سنده موسى بن عبيدة ضعيف كما في التقريب .

(٢) عماد الدين خليل : دراسة في السيرة ٦٦ .

(٣) فتح الباري ١٧٤/٧ .

الحافظ ابن حجر أن بينهما مغايرة كثيرة ولكن الجمع بينهما ممكن[1] . وعلى أية حال فالقاعدة أن الأصح ما اتفق عليه البخاري ومسلم لذلك يلزم عند التعارض اعتماد رواية ابن عباس ، ويؤخذ من الروايات الصحيحة أن أبا ذر رضي الله عنه كان منكراً لحال الجاهلية ، يأبى عبادة الأصنام وينكر على من يشرك بالله ، وكان يصلي لله قبل إسلامه ، بثلاث سنوات دون أن يخص قبلة بعينها بالتوجه ، ويبدو أنه كان متأثراً بالأحناف ، ولما سمع بالنبي ﷺ قدم إلى مكة وكره أن يسأل عنه حتى أدركه الليل ، فاضطجع فرآه علي رضي الله عنه فعرف أنه غريب ، فاستضافة ولم يسأله عن شيء ، ثم غادره صباحاً إلى المسجد الحرام فمكث حتى أمسى ، فرآه علي فاستضافة لليلة ثانية ، وحدث مثل ذلك في الليلة الثالثة ثم سأله عن سبب قدومه ، فلما استوثق منه أبو ذر أخبره بأنه يريد مقابلة الرسول ﷺ ، فقال له علي : « فإنه حق وهو رسول الله فإذا أصبحت فاتَّبعني فإني أن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أريق الماء ، فإن مضيت فاتبعني ، فتبعه وقابل الرسول ﷺ واستمع إلى قوله فأسلم ، فقال له النبي ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري . فقال : والذي نفسي بيده لاصرخنَّ بها بين ظهرانَيهم ، فخرج حتى أتى المسجد ، فنادى بأعلى صوته ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وثار القوم فضربوه حتى أضجعوه » ، فأتى العباس بن عبد المطلب فحذرهم من انتقام غِفار والتعرض لتجارتهم التي تمر بديارهم إلى الشام . فأنقذه منهم[2] . وهذه الرواية تفيد وجود بعض الأحناف في البوادي ولعل ما بدا من حذر علي رضي الله عنه وما وقع من ضرب قريش لأبي ذر ومن وصف أنيس أخي أبي ذر الحالة في مكة عندما دخلها قبيل دخول أبي ذر فقال

---

(١) فتح الباري ٧/١٧٤ ، ١٧٥ .

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/١٧٣) وصحيح مسلم ٤/١٩٢٣ - ١٩٢٥) وأما رواية عبد الله بن الصامت ففي صحيح مسلم (٤/١٩١٩ - ١٩٢٣) وتذهب رواية ابن الصامت إلى أن اللقاء الأول بين أبي ذر والرسول ﷺ تم قرب الكعبة المشرفة بحضور أبي بكر ، ولا تذكر علياً .

لأخيه محذراً « وكن على حذر من أهل مكة فإنهم قد شَنِفوا له وتجهموا »[1] لعل في ذلك كله ما يؤكد أن إسلامه جرى بعد إعلان الدعوة وانتهاء المرحلة السرية .

لقد عاد أبو ذر إلى غفار فأسلم نصفهم ، وأسلم النصف الثاني بعد الهجرة النبوية .

كذلك يظهر من سياق قصة إسلام ضماد -من ازد شنوءة- أنه تم في بداية مرحلة الجهر بالدعوة ، وبعد أن جاهر الرسول ﷺ بتسفيه عقائد المشركين ، فردوا عليه بالدعاية الكاذبة واصفين إياه بالجنون ، فلما قدم ضماد مكة وسمع سفهاء مكة يتهمون النبي بالجنون ، وكان ضماد يرقى من مس الجنون ذهب إلى الرسول وعرض عليه أن يرقاه . فقال رسول الله : « إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أما بعد » فقال ضماد : أعد عليَّ كلماتك هؤلاء ، فأعادهنَّ عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، فقال ضماد : لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ، ثم أسلم وبايع عن نفسه وقومه[2] .

ان الكلمات النبوية تلمس شغاف قلوب البشر وتزيل الحجب بينهم وبين حقيقة توحيد الألوهية التي غابت عنهم آماداً طويلة فتنقلهم الكلمات بصدقها

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ١٩٢٣ وشنفوا له أي أبغضوه .

وقارن برواية الطبراني : المعجم الأوسط ١٥٦/١ أي بإسناد ضعيف فيه أبو طاهر مولى الحسن بن علي مجهول (الكني للبخاري ٤٦ والجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣٩٧/٩ وابن حبان : الثقات ٥/٥٧٥ - ٥٧٦) والحاكم : المستدرك ٣/٣٣٩ - ٣٤١ وفي إسناده عباد بن الريان مجهول الحال (الأسماء والكنى للدولابي ٢/١٨) .

وأما الواقدي فقد خالف الروايات الصحيحة فروى ما يشير إلى أن أبا ذر كان قاطع طريق ، وأنه أسلم بعد أبي بكر بيوم أو يومين ثم ناقضها برواية تقول أن أبا ذر كان متألها فما أعجب ما يروى الواقدي ! ! (طبقات ابن سعد ٤/٢٢٢ - ٢٢٤) .

(٢) صحيح مسلم ٢/٥٩٣ .

ومباشرتها وملامستها للفطرة إلى عالم الإسلام[1] .

وهناك قصة إسلام الطُّفيل بن عمرو الدوسي وكرامته لكنها ، لم يثبت منها إلا أنه دعا رسول الله ﷺ للالتجاء إلى حصن دوس المنيع فأبىَ الرسول ذلك[2]. ولابد أن الدعوة هذه جرت بعد اشتداد المقاومة القرشية .

وتشير رواية صحيحة إلى أن الطفيل دعا قومه إلى الإسلام ولقي منهم صدوداً حتى طلب الطفيل من رسول الله أن يدعو عليهم لكن الرسول دعا لهم بالهداية[3] . وكان الرسول آنئذ بالمدينة المنورة[4] .

أما عثمان بن مظعون فقد أسلم مبكراً لكن قصة إسلامه فيها ضعف[5] وقد أسلم حمزة في وقت اشتدت فيه جرأة قريش على رسول الله ولكن تفصيل قصة إسلامه لم تثبت من طريق صحيحة[6] .

---

(١) ابن عبد البر : الاستيعاب ٢/٢١٦ - ٢١٧ بإسناد غير محفوظ وفيه انقطاع لأن صالح بن كيسان لم يدرك الطفيل بن عمرو . والمحفوظ من رواية ابن إسحاق بدون إسناد (سيرة ابن هشام ٢/٢٢ - ٢٤) .
وقال ابن حجر : «ذكرها ابن إسحاق في سائر النسخ بدون إسناد» .
(الإصابة ومعها الاستيعاب ٢/٢١٦ - ٢١٧).

(٢) صحيح مسلم ١/١٠٩ وأخرجه كما في البداية والنهاية لابن كثير ٣/٩٨ وأبو يعلي : المسند ٤/١٢٦ .

(٣) صحيح البخاري (فتح الباري ٦/١٠٧) ومسند أحمد ٢/٢٤٣ ، ٤٤٨ ، ٥٠٢ .

(٤) ابن كثير : السيرة النبوية ٢/٧٦ .

(٥) مسند أحمد ١/٣١٨ وطبقات ابن سعد ١/١٧٤ - ١٧٥ بإسناد قال عنه ابن كثير : «إسناد جيد متصل حسن قد بين فيه السماع المتصل» (تفسير القرآن العظيم ٢/٥٨٣) لكن فيه شهر بن حوشب» صدوق كثير الارسال والأوهام (تقريب التهذيب ٢٦٩) فإن زالت علة الارسال بقيت علة كثرة الوهم ، فالسند فيه ضعف لا محالة .

(٦) وردت رواية من مرسل محمد بن كعب القرظي عند الطبراني وفي سندها إسماعيل الخفاف لم أقف له على ترجمة ومفادها ان إسلام حمزة كان حمية لرسول الله ﷺ بعد أن أخبر بشتم أبي جهل للرسول ، فمضى إلى الكعبة حيث ضرب أبا جهل بقوسه فشجه وأعلن إسلامه (المعجم الكبير ٣/١٥٢ - ١٥٣)
وساق الواقدي بسنده مرسل محمد بن كعب القرظي والواقدي متروك (طبقات ابن سعد ٣/٩) =

وممن كان يخفي إيمانه بمكة المقداد بن الأسود[1] .

أذى المشركين للرسول ﷺ :

لا شك أن الاستجابة للأمر الإلهي بإعلان الدعوة اقتضىٰ من المسلمين مواجهة المشركين بحقائق التوحيد وبفساد الشرك ، مما جعل المشركين يلحقون الأذى بالرسول ﷺ وأصحابه ، ففضلاً عن المعتقدات الباطلة التي عشعشت بعقولهم وتوارثوها خلفا عن سلف ، فإنهم كانوا مدركين لجدواها في تحقيق مصالحهم الاجتماعية والاقتصادية عندما تؤم القبائل العربية مكة حيث الأصنام الثلاثمائة والستون المحيطة بالكعبة ، وينجم عن ذلك حركة بيع وشراء تحقق الأرباح الوفيرة للملأ - سادة مكة - كما تؤمن - عبر الايلافات واحترام قريش دينياً - التجارة المكية نحو اليمن والشام .

واتخذ الأذى صوراً شتّى من السب العلني والضرر المادي وقد وردت رواية من طرق تعتضد ببعضها لإثبات الحدث تاريخياً تقول إنه لما نزلت ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾[2] أقبلت أم جميل بنت حرب ، امرأة أبي لهب ، وهي تنشد : مُذَمَّمٌ أبينا ، ودينه قَلَينا ، وأَمَرهُ عصينا ، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر رضي الله عنه ، فسألت أبا بكر إن كان النبي قد هجاها ، فنفى ذلك[3]

= وساق ابن إسحاق شاهداً وفي سنده مبهم مع الإرسال (السير والمغازي ١/٢٦٠ - ٢٦١) وساق الطبراني له شاهداً معضلاً مع تدليس ابن إسحاق وقد عنعن (المعجم الكبير ١٥٣/٣ - ١٥٤) وهكذا فإن الطرق بمجموعها لا تصلح للاحتجاج بها حديثياً .

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ١٨٧/١٢) معلقاً ووصله غيره (تعليق التعليق ٢٤٢/٥) .

(٢) المسد : ١ .

(٣) أخرجه الحميدي : المسند ١٥٣/١ - ١٥٤ وأبو يعلي : المسند ١٥٣/١ - ١٥٤ والحاكم : المستدرك ٣٦١/٢ وفي إسنادهم جميعاً أبو الزبير محمد بن مسلم بن تدرس عن أسماء بنت أبي بكر ، وقد عنعن عنها وهو مدلس ، ولكن تابعه كثير بن عبيد عن أسماء -وهو مقبول إذا توبع- (البيهقي : دلائل ١٩٦/٢ فالحديث حسن لغيره ، وتعضده شواهد من حديث ابن عباس (مسند أبي يعلي ٣٣/١ - ٣٤ ، وكشف الأستار ٨٣/٣ وفي إسنادهما عطاء بن السائب اختلط والراوي عنه عبد السلام بن حرب لم يصرّح بأنه ممن روى عنه قبل الاختلاط . =

وكان رسول الله ﷺ يفرح لأن المشركين يسبون مذمما يقول : « ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم ، يشتمون مذمماً ويلعنون مذمماً وأنا محمد »[1] .

ويحكي شاهد عيان هو عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « بينما رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة ، وجمعٌ من قريش في مجالسهم إذ قال قائل منهم : ألا تنظرون إلى هذا المرائي ؟ أيكم يقوم إلى جزور آل فلان ، فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها ، فيجيء به ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه ؟ فانبعث أشقاهم ، فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه . وثبت النبي ﷺ ساجداً ، فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك . فانطلق منطلق إلى فاطمة عليها السلام - وهي جويرية - فأقبلت تسعى ، وثبت النبي ﷺ حتى ألقته عنه . وأقبلت عليهم تسبهم . فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال : اللهم عليك بقريش ، اللهم عليك بقريش ، اللهم عليك بقريش .

ثم تسمّى : اللهم عليك بعمرو بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط وعمارة بن الوليد ، قال عبد الله بن مسعود : فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر ، ثم سحبوا إلى القليب[2] - قليب بدر - ثم قال رسول الله ﷺ : وأتبع أصحاب القليب لعنة »[3] .

وقد بينت الروايات الصحيحة الأخرى أن الذي رمي الفرث عليه هو عقبة

وله شاهد آخر من حديث زيد بن أرقم (مستدرك الحاكم ٢/٥٢٦ - ٥٢٧) وصحح إسناده مع أنه نبه على إرساله بسوقه من طريق يزيد بن زيد مرسلاً كذلك فإن إسحاق بن محمد الهاشمي شيخ الحاكم روى عنه الحاكم واتهمه (ميزان الاعتدال ١/١٩٩ ولسان الميزان ١/٣٧٤ - ٣٧٥) .

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ٦/٥٥٤ - ٥٥٥) .

(٢) القليب : البئر المفتوحة .

(٣) رواه البخاري (فتح الباري ١/٥٩٤) ومسلم الصحيح ٣/١٤١٨ - ١٤٢٠).

ابن أبي معيط ، وأن الذي حرضه هو أبو جهل[1] ، وأن المشركين تأثروا لدعوة الرسول ، وشق عليهم الأمر ، لأنهم يرون أن الدعوة بمكة مستجابة[2] .

وقد ثبت أن النبي ﷺ دعا على قريش لما كذبوه واستعصوا عليه فقال : « اللهم أعني عليهم بسبعٍ كسبع يوسف فأخذتهم سنة فحصَّت كل شيء حتى أكلوا الميتة والجلود ، وجعل الرجل يرى بينه وبين السماء دخاناً من الجوع .

فأتى أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : إنك تأمر بطاعة الله ، وبصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا فأدع الله لهم . وقد أثبت القرآن هذا الحادث فقال تعالى ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ إلى قوله ﴿ عائدون ﴾[3] فلما دعا ربه لهم آملاً توبتهم عادوا إلى كفرهم ونسوا ما حكاه القرآن على لسانهم ﴿ قالوا : ربنا اكشف عنا العذابَ إنا مؤمنون ﴾[4] .

ويرى الحافظ الدمياطي أن ابتداء دعاء النبي على قريش بذلك كان عقب طرحهم على ظهره سلا الجزور[5] . ولكن من المهم أن نلاحظ أن دعوته عليهم كانت بسبب تكذيبهم إياه واستعصائهم على الإيمان ، وليس بسبب إيذائهم له ،

---

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ٦/٢٨٣ ، ٧/١٦٥) وصحيح مسلم ٣/١٤٢٠ .

(٢) فتح الباري ١/٣٤٩ وقد زاد الأجلح بن عبد الله الكندي زيادة تفرد بها عن أبي إسحاق السبيعي ولم ينقلها الحفاظ الكبار من تلاميذ أبي إسحاق ممن أتقنوا حديثه مثل شعبة وسفيان الثوري وإسرائيل وغيرهم . والأجلح صدوق عند ابن حجر (تقريب ٩٦) وإنما يقبل النقاد زيادات الثقات ، أما من الناحية التأريخية فيمكن التساهل في قبول هذه الرواية مادامت لا تعارض روايات الثقات ، ولأن المؤرخين يبنون على ما هو أدنى منها من الأخبار .
وخلاصة الرواية ، أن النبي ﷺ غادر المسجد بعد هذه الحادثة فلقيه أبو البَختري فسأله عن شأنه وألحّ عليه فأخبره بما فعل أبو جهل ، فمضى أبو البختري إلى أبي جهل فسأله عما فعل فاعترف فضربه بالسوط على وجهه ، ووقع تلاحٍ بين الرجال في المسجد .
(انظر كشف الأستار ٣/١٢٦ - ١٢٧ وفتح الباري ١/١٥٣ وعزاه لابن إسحاق في المغازي) .

(٣) صحيح البخاري ٢/١٥ ، ١٩ ، ٦/٣٢ ، ١٩ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، وصحيح مسلم ٤/٢١٥٥ - ٢١٥٧ .

(٤) صحيح البخاري ٦/٣٩ ، ٤٠ ، وصحيح مسلم ٤/٢١٥٧ .

(٥) ابن حجر : فتح الباري ٢/٥١١ .

فطالما احتمل أذاهم ولم يدعُ عليهم ، بل دعا لهم بالهداية مما يصلح مثلاً أعلى في الصبر على الدعوة واحتمال المدعوين وإن آذوا أصحاب الدعوة في أموالهم ومصالحهم وأنفسهم .

وكان المشركون إذا سمعوا القرآن يجهر به الرسول وهو يصلي بأصحابه مستخفياً يسبّون القرآن ومن أنزله وَمن جاء به ، فأمره الله تعالى أن يتوسط بالقراءة بحيث يسمعه اتباعه دون المشركين قال تعالى ﴿ ولا تَجهر بصلاتك ولا تُخافت بها وابتغِ بين ذلك سبيلا ﴾[1] .

إن حرص الرسول ﷺ على الصلاة في المسجد الحرام أدى إلى الاحتكاك بالمشركين مراراً ، ولعله حرص على إظهار شعائر الإسلام ، واحترام الكعبة ، ولقاء الناس لأغراض الدعوة .

ومن هنا حاول المشركون تفويت هذه الأغراض عليه بمضايقته وإيذائه دون التورع عن ذلك حتى وهو يسجد لله في صلاته ! !

إن التهديد بالأذى وبالقتل على لسان زعماء المشركين لم يكن ينقطع في مرحلة الدعوة العلنية ، بل كان يتصاعد ويشتد مع الأيام . فمرةً « قال أبو جهل : هل يعفِّر محمد وجهَه بين أظهركم ؟

فقيل : نعم .

فقال : واللات والعزّى ، لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنّ على رقبته أو لأعفرنّ وجهه في التراب .

فأتى رسول الله ﷺ ، وهو يصلي ، زعم ليطأ على رقبته . فما فجئهم منه إلا وهو ينكُص على عَقِبيه ويتّقي بيديه فقيل له : مالك ؟

فقال : إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة .

---

(١) الآية من سورة الاسراء ١١٠ والحديث أخرجه البخاري (فتح ١٠/١٩) وصحيح مسلم ١/٣٢٩ .

فقال رسول الله ﷺ : لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً[1] .

لقد خلّد القرآن هذا الحَدَث فقال تعالى : ﴿ كلا إنَّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى . إن إلى ربك الرُّجعى . أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلّى . أرأيت إن كان على الهدى . أو أمر بالتقوى أرأيت إن كذب وتولّى ﴾[2] . ولعله في هذه المرة نفسها جاءه أبو جهل فقال : ألم أنهك عن هذا ؟ ألم أنهك عن هذا ؟ فانصرف النبي ﷺ بعد أن نهر أبا جهل وغلظ له القول ، فقال أبو جهل : إنك لتعلم ما بها نادٍ أكثر مني . فأنزل الله ﴿ فليدع ناديه . سندع الزبانية ﴾[3] .

وقد سأل عروةُ بن الزبير عبدَ الله بن عمرو بن العاص : « أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ ؟

قال : بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي مُعَيط ، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه ، فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله ﷺ وقال : ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾[4] . وكان عمرو بن العاص والد عبد الله شاهدَ عيانٍ للحادثة ، والغالب أنه سمع الخبر منه[5] .

---

(١) صحيح مسلم ٤/٢١٥٤ من حديث أبي هريرة . وله شاهد من حديث ابن عباس مختصراً أخرجه البخاري (فتح الباري ٨/٧٢٤) . وأما تكملة الخبر في مستدرك الحاكم ٣/٣٢٥ ومسند البزار (كشف الأستار ٣/١٣٠) ففي سنده عبد الله بن أبي فروة متروك .

(٢) العلق . وثمة احتمال أن يكون الخبر عن سبب نزول الآية من حديث أبي هريرة متصلاً (صحيح مسلم ٤/٢١٥٤ ومسند أحمد ٢/٣٧٠) ويقوى بشواهده كما في سنن الترمذي ٥/٤٤٣ - ٤٤٤ وتفسير الطبري ٣/٢٥٦ .

(٣) سنن الترمذي ٥/٤٤٣ - ٤٤٤ وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب صحيح والآيتان من سورة العلق ١٨ .

وانظر الألباني : السلسلة الصحيحة رقم ٢٧٥ حيث قال «إسناده صحيح على شرط مسلم » .

(٤) صحيح البخاري (فتح الباري ٨/٥٥٤ ، ٧/٢٢ ، ١٦٥) وابن إسحاق : السير والمغازي ٢٢٩ - ٢٣٠ بإسناد حسن مطولاً . والآية من غافر ٢٨ .

(٥) مصنف ابن أبي شيبة ١٤/٢٩٧ بإسناد حسن ، وتفسير النسائي رقم ٤٧٧ وتغليق التعليق ٤/٨٧ . =

وثمة رواية ضعيفة تفيد أن المشركين ضربوا الرسول ﷺ حتى خضبوه بالدماء ، وأن جبريل واساهُ ببيان معجزة له حيث دعا الرسول شجرة فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه[1] . وكانت السخرية والاستهزاء من الرسول ﷺ ودعوته أحد الأساليب التي اتبعها المشركون في الحرب الكلامية لصرف الناس عن الدعوة ، فكان أبو جهل يقول ساخراً : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم !! فنزلت الآية ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام . . . ﴾[2] .

كما وردت رواية في سبب نزول الآية ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾[3] ومفادها أن الوليد بن المغيرة ، والأسود بن عبد يغوث الزهري ، والأسود بن المطلب أبو زمعة - من بني أسد بن عبد العُزَّي ، والحارث بن عيطل السهمي ، والعاص بن وائل ، كانوا يستهزئون برسول الله ﷺ فشكاهم إلى جبريل ، فعاقبهم الله في أبدانهم عقوبات شديدة . لكن الرواية لم تثبت من طريق صحيحة[4] .

وقارن برواية أنس بن مالك في مسند أبي يعلي ٦/٣٦٢ بإسناد فيه عنعنة الأعمش وهو مدلس .
وبرواية أسماء بنت أبي بكر في مسند أبي يعلي ١/٥٢ بإسناد فيه أبو الزبير محمد بن مسلم بن تدرس وهو مدلس وقد عنعنه ، وقد حسن الحافظ ابن حجر إسناده (فتح الباري ٧/١٦٩) .

(١) سنن ابن ماجة ٢/١٣٣٦ ومسند أحمد ٣/١١٣ ومصنف ابن أبي شيبة ١١/٤٧٨ - ٤٧٩ وسنن الدارمي ١/١٢ - ١٣ بإسناد فيه عنعنة الأعمش وهو مدلس .

(٢) صحيح البخاري ٥/١٩٩ كتاب التفسير باب قوله ﴿ وإذ قالوا اللهم . . . ﴾ وباب قوله ﴿ وما كان الله ليعذبهم ﴾ وصحيح مسلم ٤/٢١٥ . والآيات من سورة الأنفال ٣٣ .

(٣) الحجر ٩٥ .

(٤) نعم صحح الذهبي الحديث (السيرة النبوية ١٤٣) ولكنه لم يسق إلا أعلىٰ السند وهو صحيح كما قال .
ونحن لا نعلم من أسانيدها الكاملة إلا ما ساقه البيهقي في الدلائل ٢/٣١٦ - ٣١٨ وفي سنده أحمد بن يوسف السلمي لم أقف على ترجمته ولولاه لكان السند لا بأس به .
وقد ساق الطبراني الرواية في الأوسط (مجمع البحرين ٢/١٨ب) وفي سنده محمد بن عبد الحكيم النيسابوري قال الهيثمي : لم أعرفه (مجمع الزوائد ٧/٤٧) ولم أقف على ترجمته .

وثمة روايات ضعيفة أخرى تشير إلى تغليظ رسول الله الكلام على المشركين مثل تقبيح وجوههم وهم جمعٌ في المسجد الحرام[1] ، أو محاولتهم أذاه وامتناعه عليهم ووقوع العمى فيهم ثم زواله عنهم بدعائه ﷺ[2] ، أو منع الله لهم من أذاه بحجب رؤيتهم[3] له .

وقد ختم المشركون أذاهم لرسول الله ﷺ بمحاولة قتله في أواخر المرحلة المكية مما كان سبباً مباشراً للهجرة .

قال ابن عباس : « إن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر ، فتعاهدوا باللاَّت والعُزَّى ومناة الثالثة الأخرى لو قد رأينا محمداً قمنا إليه قيامَ واحدٍ ، فلم نفارقه حتى نقتله .

فأقبلت فاطمة تبكي حتى دخلت على أبيها . فقالت : هؤلاء الملأ من قومك في الحجر قد تعاهدوا أن لو قد رأوك قاموا إليك فقتلوك ، فليسْ منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك .

قال : يابنية أدني وَضوءاً . فتوضأ ، ثم دخل عليهم المسجد ، فلما رأوه قالوا هذا هو ، فخفضوا أبصارهم ، وعَقِروا في مجالسهم فلم يرفعوا إليه أبصارهم ، ولم يقم منهم رجل .

فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رءوسهم ، فأخذ قبضة من تراب فحصبهم بها وقال : شاهت الوجوه .

---

(١) كشف الأستار ٣/١٣٠ - ١٣١ بإسناد فيه علي بن شبيب مجهول ومحمد بن الضحاك بن عثمان انفرد ابن حبان بتوثيقه (ثقات ابن حبان ٩/٥٩) .

(٢) أبو نعيم : دلائل النبوة ١/٢٥٦ - ٢٥٧ وفي إسناده النضر بن عبد الرحمن الخزاز متروك .

(٣) الطبراني : المعجم الكبير ٣/٢٣٩ - ٢٤٠ في إسناده مجاهيل الحكم بن أبي الحكم الأموي قال ابن عبد البر مجهول (الاستيعاب مع الإصابة ١/٣١٦) وبنت الحكم قال الهيثمي : لا أعرفها (مجمع الزوائد ٨/٢٢٧) .

قال : فما أصابت رجلاً منهم حصاة إلا قد قتل يوم بدر كافراً[1] . وهذه الحادثة قد تكررت ليلة الهجرة وكان رسول الله يذكر مالاقاه من أذى قريش - قبل أن ينال الأذى أحداً من أتباعه - يقول : « لقد أُخفتُ في الله عز وجل وما يُخاف أحد ، ولقد أوذيت في الله وما يؤذي أحد ، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولا لبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال[2] .

اضطهاد قريش للمسلمين :

لم يقتصر أذى قريش على الاتهام الباطل ، والتكذيب السافر والسخرية المرة ، والأذى لرسول الله ﷺ ، بل تصاعد إلى ذروة العنف وخاصة في معاملة المستضعفين من المسلمين . فنكلت بهم لتفتنهم عن دينهم ، ولتجعلهم عبرة لشواهم ، ولتنفس عن غضبها بما تصبه عليهم من العذاب .

قال عبد الله بن مسعود - وهو شاهد عيان - : « أول من أظهر إسلامه سبعة ، رسول الله ﷺ ، وأبو بكر ، وعمار ، وأمه سُميَّه ، وصهيب ، وبلال ، والمقداد .

فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب . وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه .

وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد ، وصهروهم في الشمس ، فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلال ، فإنه هانت عليه

---

(١) مسند أحمد ١/٣٠٣ ، ٣٦٨ بإسنادين صحيحين كما قال أحمد شاكر في حاشية مسند أحمد ٤/٢٦٩ ، ٥/١٦٣ وانظر مستدرك الحاكم ٣/١٥٧ .

(٢) مسند أحمد ٣/٢٨٦ وسنن الترمذي ٤/٦٤٥ وقال : هذا حديث حسن غريب ، وفي تحفة الأشراف ١/١٢٣ وتحفة الأحوذي ٣/٣٠٩ قال : حسن صحيح . وصحح الألباني : صحيح الجامع ٥٠٠١ ومشكاة المصابيح ٣/١٤٤٦ .
وأما حديثه ﷺ مع وفد ثقيف عن أذى قريش له في مسند أحمد ٤/٣٤٣ فإسناده ضعيف فيه عثمان بن عبد الله بن أوس انفرد ابن حبان بتوثيقه وقال ابن حجر : مقبول (تقريب ٣٨٤) وفيه عبد الله بن عبد الرحمن الطائفي فيه ضعف ويعتبر بحديثه (تهذيب التهذيب ٥/٢٩٩) .

نفسُه في الله وهان على قومه ، فأعطوه الولدان وأخذوا يطوفون به شعاب مكة وهو يقول : أحَدٌ أَحَد »[1] .

ثم اشترى أبو بكر بلالاً فأعتقه[2] .

ويذكر عروة بن الزبير- إمام أهل المغازي - « اعتق أبو بكر - رضى الله عنه - ممن كان يعذَّبُ في الله سبعة : عامر بن فُهيرة ، وبلال ، ونُذيرة ، وأم عُبيس ، والنَّهدية ، وأختها ، وجارية بني عمرو بن مؤمل »[3] .

ومما ذكره عروة بن الزبير عن عذاب المستضعفين : أن أبا بكر مرَّ بالنَّهدية ومولاتها تعذبها ، تقول : والله لا أعتقك حتى تعتقك حياتك . فقال أبو بكر فبكم ؟ قالت : بكذا وكذا ، فقال : قد أخذتها وأعتقتها . ثم قال للنهدية : ردي عليها طحينها .

قالت : دعني أطحنه لها[4] !!

ويذكر عروة أيضاً : ذهب بصر زنيرة ، وكانت ممن تعذب في الله عز وجل على الإسلام ، فتأبى إلا الإسلام ، فقال المشركون : ما أصاب بصرها إلا

---

(١) أحمد : المسند ١/٤٠٤ بإسناد حسن ، وقد صححه الحاكم ووافقه الذهبي (المستدرك ٣/٢٨٤) وصححه الذهبي في السيرة النبوية ١٣٧ وفيه عاصم بن أبي النجود صدوق له أوهام (تقريب ٢٨٥) وله شاهد صحيح السند من مرسل مجاهد (مصنف ابن أبي شيبة ١٣/٤٧-٤٩) .

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٩٩) وابن أبي شيبة : المصنف ١٤/٣١٢ بإسناد صحيح لكنه من مرسل قيس بن أبي حازم ويقول : « اشترى أبو بكر بلالا بخمس أواقٍ وهو مدفون بالحجارة .

قالوا : لو أبيت إلا أوقية لبعنا ، فقال : لو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته » .

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٢/١٠ بإسناد صحيح إلى عروة لكنه مرسل والطبراني : المعجم الكبير ١/٣١٨ - ٣١٩ وانفرد الحاكم بوصله عن عائشة في المستدرك ٣/٢٨٤ وصححه ووافقه الذهبي .

(٤) ابن إسحاق : السير والمغازي ١٩١ من مرسل عروة . والغالب أن أخبار أبي بكر (رض) إنما أخذها عروة عن خالته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها .

اللات والعزى . فقالت : كذا !؟ والله ماهو كذلك . فرد الله عليها بصرها[1] .

وكان أبو بكر رضى الله عنه يعتق المستضعفين من الرقيق المسلم فقال له أبوه أبو قحافة : لو أنك أُعتقت رجالاً جلداً يمنعونك ؟ فبين له أبو بكر إنه يريد بذلك وجهَ الله لا المَنَعة . فنزلت الآية ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى﴾ إلى قوله ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزي إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى[2] ﴾[3] .

وقد وردت روايات كثيرة في ألوان العذاب التي لقيها عمار بن ياسر وأهله ، وهي تكفي لإثبات وقوع الحادث تاريخياً[4] ، وقد ذكر المفسرون أن الآية ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾[5] نزلت في عمار[6] .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) الليل ٥ - ٢١ .

(٣) الحاكم : المستدرك ٢/٥٢٥ - ٥٢٦ بإسناد حسن ، لأن محمد بن عبد الله بن عتيق مقبول وقد تابعه مصعب بن ثابت بن عامر (تفسير الطبري ٣٠/٢٢٨) ومصعب مقبول في المتابعات (تقريب التهذيب ٤٩٠ ، ٥٣٣) .

(٤) أما حديث (أبشروا آل عمار فإن موعدكم الجنة) فأخرجه ابن سعد : الطبقات ٣/٢٤٩ بسند صحيح إلى أبي الزبير لكنه مرسل . ووصله الحاكم عن جابر ، ولا يصح وصله لضعف شيخ الحاكم ولوصح سنده لبقي الضعف في السند لتدليس أبي الزبير لأنه ليس من طريق الليث عن أبي الزبير (المستدرك ٣/٣٨٨ - ٣٨٩) .
ورواه الحارث بن أبي أسامة بسند منقطع لأن سالم بن أبي الجعد (ت ٩٧ هـ) لم يسمع من عثمان بن عفان وفي إسناده عبد العزيز بن أبان ضعيف (بغية الباحث في زوائد مسند الحارث حديث رقم ٩٩٤) . وقد تابعه عبد الصمد بن عبد الوارث ، في مسند أحمد ١/٦٢ وأخرجه أبو أحمد الحاكم من طريق عُقَيل عن الزهري عن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر عن أبيه (الإصابة ٦/٦٣٩) ويتوقف تصحيح الحديث على حال سنده عنده إلى عقيل ، ولكنه يعْضد بالروايات التي تفيد سبب نزول الآية .

(٥) النحل ١٠٦ .

(٦) الطبري : تفسير ١٤/١٨٢ بسند حسن من مرسل أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر (ت ٩٧ هـ) ووصله الحاكم عن أبيه ولا يصح (مستدرك ٣/٣٨٨) لأن شيخ الحاكم العلاء =

وممن ناله الأذى في سبيل الله خبّاب بن الأرتّ حتى سأل رسول الله أن يدعو الله ليخفف عن المستضعفين .

قال : « أتيت النبي ﷺ ، وهو متوسدٌ بُردة ، وهو في ظل الكعبة ، وقد لقينا من المشركين شدّة .

فقلت : يارسول الله ألا تدعو لنا ؟

فقعد - وهو محمرٌ وجهه - فقال : لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد مادون عظامه من لحمٍ أو عَصَب ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله »[1] .

وكان خبّاب يعمل حداداً ، فعمل للعاص بن وائل سيفاً ، فأجتمع له عنده مال ، فذهب يتقاضاه . فقال العاص : لا أقضيك حتى تكفر بمحمد . فردَّ عليه خباب : حتى تموت ثم تبعث . فقال العاص ساخراً بأنه سيقضيه يوم القيامة من ماله !! فنزلت الآية ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتينَّ مالا وولدا﴾[2] [3] .

مما يدل على مالحق المستضعفين من ظلم وغصب لأموالهم فضلاً عن أذى أبدانهم . كما يدل على نقض قريش لحلف الفضول الذي عقدته قبل الإسلام بعقدين فقط !!

= ابن هلال فيه لين (تقريب ٤٣٦) وكذلك ووصله الطبراني بإسناد فيه إبراهيم بن عبد العزيز المقوم وقد انفرد ابن حبان بتوثيقه (المعجم الأوسط ٣٠٤ - ٣٠٥) والمحفوظ أنه مرسل وذكر سبب النزول قتادة وأبو مالك النضر بن أنس بن مالك البصري وهو ثقة مات سنة بضع ومائة (تقريب ٥٦١) .

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ١٦٥/٧ ، ٦١٩/٦) .

(٢) مريم ٧٧ - ٨٠ .

(٣) صحيح البخاري (فتح الباري ٤٥٢/٤ ، ٧٧/٥ ، ٤٣٠/٨ ، ٤٣١) .
وصحيح مسلم ٢١٥٣/٤ .

ولا شك أن المسلمين - على ضعفهم - كانوا يرغبون في الدفاع عن أنفسهم ويبدو أن الموقف السلمي أغاظ بعضهم وخاصة الشباب منهم . وقد أتى عبد الرحمن بن عوف وأصحابه إلى النبي بمكة فقالوا : يانبي الله ، كنا في عزة ونحن مشركون ، فلما آمنا صرنا أذلة ! قال : إني أُمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم - فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا ، فأنزل الله ﴿ ألم تَرَ إلى الذين قيل لهم كُفُّوا أيديكم﴾[1][2] .

وتجمل عبارات لعائشة رضى الله عنها ولعبد الله بن عمر رضى الله عنه الحال التي كان عليها المسلمون بمكة في تلك المرحلة . . قالت عائشة - وقد سئلت عن الهجرة - : « لا هجرة اليوم ، كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ مخافة أن يفتن عليه ، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام ، واليوم يعبُدُ ربَّه حيث شاء »[3] .

وقال عبد الله بن عمر : « . . . كان الإسلام قليلاً ، فكان الرجل يفتن في دينه ، إما قتلوه ، وإما يعذبوه ، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة !! »[4] .

وقد بقيت المأساة التي يعيشها المستضعفون حاضرة في نفس رسول الله ﷺ فكان يدعو لمن بقى منهم بمكة بالنجاة من المشركين وذلك بعد هجرته إلى المدينة[5] .

---

(١) النساء ٧٧ . والآية مدنية تشير إلى ما حدث بمكة من الأمر بالكف عن القتال .

(٢) الطبري : تفسير ٥/ ١٧٠ - ١٧١ والحاكم : المستدرك ٢/ ٣٠٧ وقال : هذا حديث صحيح على شرط البخاري واقره الذهبي .
والصحيح أنه على شرط مسلم فقط لأن البخاري أخرج للحسين بن واقد تعليقاً فقط . وانظر أيضاً تفسير ابن كثير ١/ ٤٥١ .

(٣) صحيح البخاري ٤/ ٢٥٣ ، كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة .

(٤) صحيح البخاري ٥/ ١٥٧ ، ٢٠٠ كتاب التفسير .

(٥) صحيح ألبخاري ٢/ ١٥ وصحيح مسلم ١/ ٤٦٦ .

وقد أمر الرسول ﷺ أصحابه بضبط النفس والتحلي بالصبر ، وعدم مقارعة القوة بالقوة ، والعدوان بالعدوان ، حرصاً على حياتهم ونظراً لمستقبل الدعوة ، وإمساكاً بزمام الدعوة الوليدة أن يئدها الشر وهي لا تزال غضَّة طرية ، ولعل المشركين كانوا يحرصون على مواجهة حاسمة مع الدعوة تُنهي أمرها ، لكن الحكمة الإسلامية فوتت عليهم الفرصة .

وكان الرسول ﷺ يربي أصحابه على عينه ، ويوجههم نحو توثيق الصلة بالله ، والتقرب إليه بالعبادة ، ثم نزلت هذه الآيات في المرحلة المكية ﴿ياأيها المزمل قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أوزد عليه ورتل القرآن ترتيلاً . إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً أن ناشئة الليل هي أشد وطـأً وأقوم قليلاً﴾ .

تأمر النبي ﷺ أن يخصص شطراً من الليل للصلاة ، وقد خيَّره الله تعالى أن يقوم للصلاة نصف الليل أو يزيد عليه أو ينقص منه ، فقام النبي ﷺ وأصحابه معه قريباً من عام حتى ورمت أقدامهم ، فنزل التخفيف عنهم بعد أن علم الله منهم اجتهادَهم في طلب رضاه ، وتشميرهم لتنفيذ أمره ومبتغاه ، فرحمهم ربهم فخفف عنهم فقال ﴿فاقرءوا ماتيسَّر من القرآن﴾[1] . ولا شك في إن امتحانهم في هجر الفرش ومقاومة النوم ومألوفات النفس لتربيتهم على المجاهدة ، وتحريرهم من الخضوع لأهواء النفس ، تمهيداً لحمل زمام القيادة والتوجيه في عالمهم ، إذ لابد من إعداد روحي عالٍ لهم ، وقد اختارهم الله تعالى لحمل رسالته ، وائتمنهم على دعوته ، واتخذ منهم شهداء على الناس ، فالعشرات من المؤمنين في هذه المرحلة التاريخية كانت أمامهم المهمات الجسيمة في تعديل مسار البشرية ، وإنقاذها من الانحرافات الخطيرة ، وتسديدها نحو توحيد الله وطاعته . وهي مهمة عظيمة لا يضطلع بها إلا أولئك الذين ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾ . وقد وصف القرآن الكريم قيام الليل والصلاة فيه وقراءة القرآن ترتيلاً أي مع البيان والتؤدة - بأنه ﴿أشد وطـأً وأقوم

(١) المزمل ٢٠ وانظر الرواية في سنن أبي داود ٢ / ٧٢ حديث رقم ١٣٠٥ وتفسير الطبري ٢٩ / ٧٩ .

قبلاً﴾ فهو أثبت أثراً في النفس مع سكون الليل وهدأة الخلق ، حيث تخلو من شواغلها وتفرغ للذكر والمناجاة بعيداً عن علائق الدنيا وشواغل النهار . وبذلك يتحقق الاستعداد اللازم لتلقى الوحي الإلهي (إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً) والقول الثقيل هو القرآن الكريم ،وقد ظهر أثر هذا الإعداد الدقيق للمسلمين الأوائل في قدرتهم على تحمل أعباء الجهاد وإنشاء الدولة بالمدينة ، وفي إخلاصهم العميق للإسلام وتضحيتهم من أجل تطبيقه في واقع الحياة ونشره بين العالمين .

لجوء قريش إلى المفاوضات :

وقد لجأت قريش إلى مفاوضة أبي طالب عم الرسول ليكفه عن دعوته .

قال عقيل بن أبي طالب - وهو شاهد عيان مشارك في الحدث : « جاءت قريش إلى أبي طالب ، فقالوا : إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا فانهه عنا . فقال : ياعقيل ، انطلق فائتنى بمحمد - ﷺ - فانطلقت إليه ، فاستخرجته من كبسٍ[1] - بيت صغير- فجاء به في الظهيرة في شدة الحر ، فجعل يطلب ألفيء يمشي فيه من شدة الحر الرحض . فلما أتاهم قال أبو طالب : إن بني عمك هؤلاء قد زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم فانته عن أذاهم . فحلّق رسول الله - ﷺ - ببصره إلى السماء فقال : أترون هذه الشمس ؟ قالوا : نعم . قال : فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة .

فقال أبو طالب : والله ما كذبنا ابن أخي فارجعوا[2] .

وقد اشتد الضغط على الرسول ﷺ وأتباعه بعد فشل هذه المفاوضات .

(١) في الأصل « خيسي » وصوبته من النهاية ٤/١٤٣ .

(٢) ابن إسحاق : السير والمغازي ١٥٥ من زيادات يونس بن بكير عليه وليونس متابع ثقة هو عبد الواحد بن زياد عند الحاكم : المستدرك ٣/٥٧٧ وقد صحح الألباني الحديث (السلسلة الصحيحة ١/١٤٧) .

وقارن برواية ابن إسحاق : السير والمغازي ١٥٤ بإسناد معضل (الألباني : السلسلة الضعيفة ٢/٣١١ لأن يعقوب بن عتبة من أتباع التابعين وقد أرسله) .

لجوء المشركين إلى المطالبة بالمعجزات لإثبات النبوة :

أخـذ عنـاد المشركين يقوي ولجاجتهم تشتد ، وقد أرادوا إخراج الرسول وتحديه بمطالبته بالإتيان بمعجزات تثبت نبوته .

قال عبد الله بن عباس : « قالت قريش للنبي : ادعُ لنا ربك أن يجعل لنا الصفـا ذهبـاً ونؤمن بك . قال : وتفعلون ؟ قالوا : نعم . قال : فدعا فأتاه جبريل فقال : إن ربك عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول : إن شئت أصبح لهم الصفـا ذهبـاً . فمن كفر بعد ذلك منهم عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة ؟

قال : بل باب التوبة والرحمة »[1] .

قال ابن عبـاس : « فأنـزل الله عز وجل هذه الآية ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذَّب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة ﴾[2] »[3] .

فكما أن معجزة هود لم تنفع في جلب ثمود إلى الإيمان ، فإن المشركين من قريش لن تنفعهم قياساً على ما وقع من عِبَر التاريخ الغابرة .

ولكن أمام إلحاح المشركين وعنادهم استجاب لهم - وقد سألوه آية - فأراهم القمر شقتين ، حتى رأوا جبل حراء بينهما[4] .

---

(١) مسند أحمد ٢٤٢/١ ، ٣٤٥ وكشف الأستار ٥٥/٣ مستدرك الحاكم ٥٣/١ - ٥٤ وقال : « هذا حديث صحيح محفوظ من حديث الثوري عن سلمة بن كهيل » . والطبراني : المعجم الكبير ١٥٢/١٢ قال الهيثمي : « رجاله رجال الصحيح » (مجمع الزوائد ٥٠/٧) . وقال ابن كثير : إسناده جيد (السيرة النبوية ٣٦٢/١) وللحديث سند آخر عن ابن عباس (مسند أحمد ٢٥٨/١) وفيه تدليس الأعمش لكنه يعتضد بالطريق الأول ، لذلك صححه الحاكم والذهبي (المستدرك ٣٦٢/٢ والسيرة النبوية للذهبي ١٣٥ وقال ابن كثير بعد أن عزاه للنسائي : إسناده جيد (السيرة النبوية لابن كثير ٤٨٣/١) .

(٢) الإسراء ٥٩ .

(٣) مسند أحمد ٢٥٨/١ بإسناد جيد كما في حاشية (١) منه .

(٤) صحيح البخاري (فتح الباري ١٨٢/٧ و٦١٧/٨) وصحيح مسلم ٢١٥٨/٤ ، ٢١٥٩ .

وقد شاهد الصحابي عبد الله بن مسعود حادثة انشقاق القمر بمكة[1] . وقد خلّد القرآن هذه المعجزة فقال تعالى ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾[2] .

وهكذا عللوا رؤيتهم لانشقاق القمر بالسحر ، وكانوا يتّهمون به الرسول ﷺ . وتحققت فيهم سُنة السابقين مع المعجزات الحسيَّة كما أخبر القرآن .

ولم يثبت من طريق صحيحة أن عتبة بن ربيعة أو الوليد بن المغيرة عرضا على رسول الله ﷺ عروضاً من الرئاسة والمال والزواج والتطبب[3] وإن اشتهر هذا بين الناس ، ولا يعني ذلك نفي وقوع الأمر تاريخياً بل عدم ثبوته فقط وما أكثر الأحداث التاريخية التي وقعت ثم لا يمكن إقامة الأدلة الصحيحة عليها .

---

(١) السيوطي : الدر المنثور ٧/ ٦٧٠ ، واصله في الصحيحين عن ابن مسعود مختصراً (فتح الباري ٦٣١/٦ وصحيح مسلم بشرح النووي ١٧/ ١٤٣ - ١٤٤ .

(٢) القمر ١ - ٢ ومستمر : ذاهب ، وعن سبب النزول راجع سنن الترمذي ٥/ ٣٩٧ - ٣٩٨ وقال : هذا حديث حسن صحيح . وقد وردت روايات واهية تفصل الخبر (راجع دلائل النبوة لأبي نعيم ١/ ٣٦٨ وفي سنده موسى بن عبد الرحمن الثقفي واهٍ ميزان الاعتدال ٤/ ٢١١ - ٢١٢ - ويسند آخر في ١/ ٣٦٩ فيه بشر بن الزبير الأصبهاني واه ميزان الاعتدال ١/ ٣١٥ - ٣١٦) .

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٢٩٥ - ٢٩٧ ومسند عبد بن حميد من طريق بن أبي شيبة (تفسير ابن كثير ٤/ ٨٢) ومسند أبي يعلي ٣/ ٣٤٩ ودلائل البيهقي ٢/ ٢٠٢ - ٢٠٤ بإسناد فيه الذيال بن حرملة مجهول الحال انفرد ابن حبان بتوثيقه (الثقات ٤/ ٢٢٢ - ٢٢٣) وفيه الأجلح وقد ضُعِّف بعض الشيء (ابن كثير : تفسير ٤/ ٩٠ - ٩١) ومدار الروايات المسندة المعتبرة عليهما .
ودلائل النبوة لأبي نعيم ١/ ٣٠٤ - ٣٠٥ وفي إسناده المثنى بن زرعة مجهول (الجرح والتعديل لأبن أبي حاتم ٨/ ٣٢٧) وقال ابن كثير هذا حديث غريب جداً من هذا الوجه (السيرة النبوية لابن كثير ١/ ٥٠٥) .
والسير والمغازي لابن إسحاق ١٣١ - ١٣٢ - ط . حميد الله - وفي سنده محمد بن أبي محمد مجهول (تقريب ٥٠٥) وسيرة ابن هشام ١/ ٢٩٣ بسند حسن مرسل . ويرى ابن كثير أن سياقه أشبه من غيره (تفسير ٤/ ٨٣) .
وثمة روايات أخرى تالفة (المعجم الكبير للطبراني ١١/ ١٢٥ بسند فيه إبراهيم الخوزي متروك ، ومجمع الزوائد للهيثمي ٧/ ١٣١ وفي سند البزار والطبراني معلّي بن عبد الرحمن كذاب (مجمع الزوائد ٧/ ١٣٠ وراجع كشف الاستار ٣/ ٧٣) .

كما لم يثبت أن قريشاً عرضت عليه أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة[1] .

كما لا يصح أن أبا جهل اعترف بأن المنافسة بين عشيرته وبين عبد مناف هي التي دفعت بني عبد مناف إلى ادعاء النبوة ابتغاء الشرف عليهم[2] .

مجادلة قريش :

وقد سلك المشركون طريقة الجدال لدحض الحق ، فقد قال لهم رسول الله ﷺ : « يامعشر قريش ، إنه ليس أحد يُعبد من دون الله فيه خير - وقد علمت قريش أن النصاري تعبد عيسى بن مريم وما يقول محمد[3] - فقالوا : يامحمد الست تزعم إن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً ؟ فلئن كنت صادقاً فإن آلهتهم لكما تقولون[4] .

فأنزل الله عزوجل ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾[5] .

---

(١) تاريخ الطبري ٢/٣٣٧ وتفسير ٣٠/٣٣١ من مرسل سعيد بن مينا فعلّتُهُ الإرسال .
ووصله بإسناد آخر فيه محمد بن موسى الحرشي ضعيف ، وفيه عبد الله بن عيسى بن خالد في روايته عن داود بن أبي هند مالا يوافقه عليه الثقات (تهذيب التهذيب ٥/٣٥٣) .

(٢) ابن إسحاق : السير والمغازي ١٨٩ - ١٩٠ ، ٢١٠ بإسنادين منقطعين .

(٣) في الأصل « وما تقول في محمد » والتصويب من مجمع الزوائد ٧/١٠٤ يعني أن ما تعلمه قريش وما يقوله محمد واحد ، فهما متفقان على المقدمة .

(٤) يعني أن نتيجة كلام الرسول أن عيسى ما فيه خيرٌ لأنه يُعبد من دون الله .

(٥) الزخرف ٥٧ والرواية في مسند أحمد ١/٣١٧ - ٣١٨ والمعجم الكبير للطبراني ١٢/١٥٣ - ١٥٤ كلاهما من حديث ابن عباس وإسنادهما حسن ، عاصم بن بهدلة حسّن الذهبي حديثه (ميزان الاعتدال ٢/٣٥٧) وثمة رواية ضعيفة تتضمن مجادلة حول الملائكة وعزير وعيسى وتذكر نزول آية أخرى (مستدرك الحاكم ٢/٣٨٤ - ٣٨٥ وصحح إسناده وأقره الذهبي ، وفي إسناده محمد بن موسى القاشاني ضعيف) .
وانظر : تفسير ابن كثير ٣/١٩٨ من رواية ابن مردويه وشيخه محمد بن علي بن سهل ضعيف (ميزان الاعتدال ٣/٦٥٢ - ٦٥٣) .
وتفسير الطبراني ١٧/٩٧ بسند فيه عطاء بن السائب اختلط ولم يُذكر أن يحيى بن المهلب روى عنه قبل الاختلاط .
وانظر رواية البزار بإسناد ضعيف (كشف الاستار ٣/٥٩) لأن فيه شرحبيل بن سعد انفرد ابن حبان بتوثيقة .
ورواية ابن أبي حاتم في تفسيره بسند فيه مبهم (تفسير ابن كثير ٣/١٩٨) .

وهـذا القياس الفـاسد من قريش ، من تشبيه الأنبياء المكرمين بالأصنام المعبودة غير العاقلة اقتضى الرد عليه فقال الله تعالى مبيناً عبودية عيسى لله : ﴿إن هو إلا عبـد أنعمنا عليه﴾ وإنه لم يد عُ إلى عبادة نفسه بل دعا إلى عبادة الله وحده : ﴿إن الله هو ربي وربكم فأعبدوه﴾ وسمَّى القرآن احتجاج قريش بالجدل ﴿ماضربوه لك إلا جدلا﴾ . وهو المِراء الباطل حيث كانوا عرباً فصحاء لا يخفي عليهم أن الآية ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾[1] هي خطاب لقريش ، وهم يعبدون أصناماً لا تعقل ، وليست خطاباً للنصاري ، فلا يرد اعتراضهم على الآية أصلاً - وهي لما لا يعقل - بدعوى اشتمالها للمسيح (عليه السلام) .

ومن المجالات التي آثارها المشركون سؤالهم عن الروح قالت قريش لليهود : أعـطونـا شيئـاً نسـأل عنـه هذا الـرجل ، فقالوا : سلوه عن الروح . فنزلت ﴿ ويسـألونك عن الروح . قل الروح من أمر ربي . وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾[2] قالوا : نحن لم نؤتَ من العلم إلا قليلاً ، وقد أوتينا التوراة ومن أوتيَ التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً !! فنزلت ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً ﴾[3] .

وسورة الإسراء كلها مكية[4] ، ويحتمل إعادة نزولها عندما آثار اليهود الجدل حول الروح مرة أخرى في المدينة[5] .

---

(1) الزخرف ٥٧ - ٦٤ وتفسير ابن كثير ٤/١١٧ - ١١٨ ط . خليل الميس .

(2) الآية من سورة الإسراء ٨٥ .

(3) الآية من سورة الكهف ١٠٩ والرواية في سنن الترمذي ٥/٣٠٤ وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه . ومسند أحمد ١/٢٥٥ ومستدرك الحاكم ٢/٥٣١ وصحح إسناده وأقره الذهبي وصححه أيضاً في السيرة النبوية ١٣٤ وصححه الحافظ ابن حجر على شرط مسلم في الفتح ٨/٤٠١ وفي السَنَد عكرمة أخرج له مسلم مقروناً (تهذيب التهذيب ٧/٢٧٢) .

(4) ابن كثير تفسير ٣/٦٠ وحكى الزركشي الاتفاق على ذلك (البرهان ١/٣٠) .

(5) صحيح البخـاري (فتح ١٠/١٥ ، ٨/٤٠١) وصحيح مسلم ٤/٢١٥٢ وسنن الترمذي ٥/٣٠٤ . وهذا الجمع بين الروايات أولى من ترجيح نزول الآية في المدينة .

لقد ورد في القرآن أن مشركي قريش اتهموا رسول الله ﷺ بأخذ العلم من مصادر أعجمية ، قال تعالى ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾[1] .

وقد بيَّن الصحابي عبد الله بن مسلم الحضرمي أنه كان لهم صبيَّان عبدان يصقلان السيوف ، يقرآن التوراة ، هما يَسار وخير ، فمر بهما رسول الله ﷺ وهما يقرآن كتاباً لهما ، فقال المشركون إنما يتعلم منهما فأنزل الله تعالى هذه الآية[2] .

وكانا يقرآن التوراة بلسانهما ، وأصلهما من أهل نجران[1] ، في حين تذهب رواية إلى أنهما من عين[3] التمر . وتذهب روايات أخرى ضعيفة أيضاً إلى أن اسم القين الأعجمي بلعام[4] . أو يعيش[5] . إن الرواية الصحيحة تثبيت إن الرسول ﷺ مر به مرة واحدة ، وتفيد أنهما طفلان ، وكانا يقرآن التوراة بلسانهما أي بغير العربية والغالب إنها العبرانية كما هو معروف عن يهود الحجاز .

---

(١) النحل ١٠٣ .

(٢) بحشل : تاريخ واسط ٤٩ بإسناد صحيح ، وسماع خالد الطحان من حصين قبل الاختلاط (الكواكب النيرات ١٤٠) وسماع حصين من عبد الله بن مسلم صحيح (الإصابة ٤/ ٤١٩) .

وقارن براوية الطبري : تفسير ١٤/ ١٧٩ وفيها (وكان رسول الله ربما جلس إليهما) وفيه « جبر » بدل « خير » .

وقارن برواية ابن أبي حاتم (السيوطي : لباب النقول ١٣٤)

وبرواية الحاكم (المستدرك ٢/ ٣٥٧) بإسناد ضعيف لضعف عبد الرحمن بن الحسن الأسدي شيخ الحاكم .

ابن حجر : الإصابة ٤/٤١٨ - ٤١٩ نقلاً عن البغوي وصحح سنده والواحدي : أسباب النزول ١٦١ - ١٦٢ (ط . دار الكتب العلمية) .

(٣) بحشل : تاريخ واسط ٩٩ وفي سنده محمد بن خالد الطحان ضعيف وأسباب النزول للواحدي ١٦١ - ١٦٢ عن طريق ابن فضيل التي أخرجها البغوي وفيها إنهما من نجران .

(٤) الطبري : تفسير ١٤/ ١٧٧ بإسناد ضعفه السيوطي (لباب النقول ١٣٤) فيه مسلم بن عبد الله الملائي وهو ضعيف (تقريب ٥٣٠) وقد رفعه إلى ابن عباس والمحفوظ أنه مرسل مجاهد كما في تفسير الطبري ١٤/ ١٧٩ .

(٥) الطبري : تنفسير ١٤/ ١٧٨ .

ولو افترضنا أنه جلس إليهما عدة مرات كما في الروايات الضعيفة ، فمن أين لغلامين يصقلان السيوف أن يعلما رسول الله نظاماً شاملاً للحياة ينبثق عن عقيدة مغايرة للنصرانية ؟! ثم لماذا انفرد الرسول ﷺ بمعرفة ما عندهما من العلم ، وأينْ مالكهما ابن الحضرمي من ذلك ، وقد آمن برسالة محمد ﷺ وعنه نقل الخبر الصحيح بشأن غلاميه النصرانيين . وغنيٌّ عن القول أن لا علاقة للغلامين الأعجميين ببلاغة القرآن المعجزة ، وهي حجة الله على العرب الفصحاء ، وعلى من عرف أسرار لغتهم وتذوق حلاوتها إلى يوم الدين . فكيف يكونُ مصدرها أعجميين ؟ !

وكذلك جادل المشركون في نزول القرآن منجماً قائلين : ﴿ لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ وقد بين الله تعالى علة ذلك بقوله : ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ﴾[1] .

وقد خاصم المشركون رسول الله ﷺ في القَدَر - وهو إثبات ما قدره الله وقضاه وسبق به علمه وكتبه على عباده فكل ما يقع لهم إنما هو مقدر في الأزل معلوم لله مراد له - فنزلت الآية ﴿يوم يسحبون في النار على وجههم . ذوقوا مسَّ سقر . إنا كل شيء خلقناه بقدر[2]﴾[3] .

ولقد منعت الأنفة والكبر المشركين من الاستماع إلى الرسول بحضور المستضعفين من المؤمنين مثل عبد الله بن مسعود وبلال الحبشي فطلبوا من الرسول أن يطردهم ، فنزلت ﴿ولا تطردِ الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾[4] .

---

(١) الفرقان ٣٢ . وانظر الرواية في مستدرك الحاكم ٢/٢٢٢ وقال : هذا حديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .
وانظر فتح القدير للشوكاني ٤/٧٥ (ط . دار المعرفة) .

(٢) القمر ٤٨ - ٤٩ .

(٣) صحيح مسلم ٤/٢٠٤٦ وسنن الترمذي ٤/٤٥٩ وقال : صحيح .

(٤) الأنعام ٥٢ . والحديث في صحيح مسلم ٤/١٨٧٨ حديث رقم ٢٤١٣ وقد ذكرت رواية =

بل قد عاتب الله تعالى رسوله عندما أعرض عن ابن أمِّ مكتوم وهو يسأله عن شيء ورسول الله منصرف إلى الكلام مع أبي بن خلف فنزلت ﴿عبس وتولَّى أن جاءه الأعمى﴾[1] .

إنــه لا مجال للامتيازات في دعـوة الحق بسبب الحسب والنسب أو المـال والجـاه ، فهي إنما جاءت لتأصيل النظرة إلى الإنسان وبيان وحدة الأصل وما تقتضيه من المساواة والتكافؤ ، من هنا يمكن تعليل شدة أسلوب العتاب الذي وجهـه الله تعـالى لرسـوله ﷺ للاهتمام الكبير الذي أظهره لأُبيّ بن خلف على حساب استقباله لابن أم مكتوم الضعيف ، فابن أم مكتوم يرجح في ميزان الحق على المئات من أمثال أبيّ بن خلف .

وقد جادل المشركون في عقيدة البعث فأكثروا فيها الجدل ، فإن عقليتهم لم تتسع إلى تصور الحياة بعد الموت - كما حكى القرآن على لسانهم ، ولكن هذا لا ينطبق على البعض منهم مثل أمية بن أبي الصلت حيث يدل شعره على إيمانه بالبعث والآخرة ﴿ أئـذا متنا وكنا تراباً وعظـاماً أئنا لمبعثـون ﴾[2] . حتى جاء العاص بن وائل بعظم بالٍ إلى رسول الله ﷺ ، فتساءل ساخراً إن كان الله يبعث ذلك العظم البالي !! فقال له رسول الله : « نعم ، يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم » . فنزلت الآيات ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من

ضعيفة أسماء الذين طلب الملأ طردهم وهم سعد وعبد الله بن مسعود وصهيب وعمار والمقداد وبلال .

(ابن ماجـة : السنن ٢/١٣٨٣ بإسناد فيه قيس بن الربيع صدوق اختلط لما كبر (تقريب التهذيب ٤٥٧) .

(١) عبس ١ . والحديث في سنن الترمذي ٤/٢٠٩ بإسناد رجاله رجال الصحيح وصححه الحاكم على شرطهما لكن الذهبي رجح فيه الإرسال (المستدرك ٢/٥١٤) .

(٢) الصافات ١٦ .

(ابن ماجـة : السنن ٢/١٣٨٣ بإسناد فيه قيس بن الربيع صدوق اختلط لما كبر (تقريب التهذيب ٤٥٧) .

نطفة ، فإذا هو خصيم مبين ﴾[1] إلى آخر السورة[2] .

ولم يكن أهل مكة يعترفون بعقيدة النبوة نفسها - إلا الحنفاء الموحدين ، وهم قلة قليلة ، لذلك كانت مواجهتهم لنبوة محمد ﷺ ساخرة مليئة بالريبة كما في الآية ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً ﴾[3] .

وقد تجادل ثلاثة من المشركين بينهم عند البيت الحرام حول إحدى صفات الله وهي السمع ، فمنهم من أثبتها ومنهم من أنكرها فنزلت الآية « وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم »[4] . أي أنهم ما كانوا يخفون عن حواسهم وأعضائهم المعاصي التي يرتكبون لاعتقادهم إن الله لا يعلم جميع ما يفعلون .

ولما نزلت الآية ﴿ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾[5] . وقعت مجادلة بين أبي بكر والمشركين حول الحرب بين الروم والفرس ، وكان المسلمون يحبون أن ينتصر الروم لأنهم نصاري ، وكان عاطفة المشركين مع الفرس لأنهم مجوس وأهل أوثان ، فراهن أبو بكر على انتصار الروم خلال خمس سنوات برهان ،وذلك قبل تحريم الرهان في الإسلام[6] . ويؤيد

---

(١) يس ٧٧ .

(٢) الحاكم : المستدرك ٢/٤٢٩ وصححه ووافقه الذهبي . وأما رواية الطبري التي تقول : إن السائل هو عبد الله بن أبي بن سلول فضعيفة الإسناد من طريق عطية العوفي ولأن السورة مكية .
تفسير ابن كثير ٣/٥٨١ (ط . دار الشعب) نقلاً عن ابن أبي حاتم .

(٣) الإسراء ٩٤ .

(٤) فصّلت ٢٢ . والرواية في الصحيحين (فتح الباري ٨/٥٦٢ وصحيح مسلم بشرح النووي ١٧/١٢٢ . وانظر تفسير ابن كثير ٤/٨٧ (ط . خليل الميس) .

(٥) الروم ١ - ٤ .

(٦) والرواية في سنن الترمذي ٥/٣٤٣ - ٣٤٤ وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب ، وصححه الحاكم (المستدرك ٢/٤١٠ ووافقه الذهبي)
وانظر الفتح الرياني ١٨/٢٢٨ والمعجم الكبير للطبراني ١٢/٢٩ وتفسير الطبري ٢١/١٢ ودلائل النبوة للبيهقي ٢/٣٣٠ .

حساب السنين أن الرهان جرى في بداية مرحلة الجهر بالدعوة .

ولابد أن فرحة المؤمنين بانتصار الروم كانت كبيرة لما فيها من تأييد القرآن وخذلان المشركين فضلاً عن انتصار أهل الكتاب على المجوس ، بل قد أسلم ناس كثير على أثر ذلك(1) .

إن مراقبة الأوضاع خارج الجزيرة العربية مهمة لبلد تجاري كمكة ، وخاصة الصراع بين أقوى دول العالم يومئذ : الفرس والروم . كما أن نبوءة القرآن كانت تشعر المؤمنين بأهمية متابعة التطورات السياسية خارج بلادهم ، بل وفيها ما يرمز إلى وحدة موقف المؤمنين بالله أمام الوثنية والإلحاد منذ أن كان المؤمنين قلة مستضعفة بمكة .

إن الجدل الساخن يوضح جانباً آخر من العلاقات بين المسلمين والمشركين ، وقد تصاعد العنف مع الأيام ، فأصبح المسلمون في حالة انفصام تام عن المجتمع المكي تحيط بهم النظرات الغاضبة والألسن الشاتمة والأيدي المعتدية بأنواع العذاب ، لذلك صار مقام المسلمين في مكة غاية في الصعوبة ومن هنا جاء التفكير بمكان آمن يهاجرون إليه ، وكان توجههم الأول نحو الحبشة .

الهجرة إلى الحبشة :-

من الثابت أن المسلمين هاجروا إلى الحبشة مرتين(2) ، وكانت الهجرة الأولى في شهر رجب من سنة خمس من المبعث ، وهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة

---

(1) سنن الترمذي ٥/٣٤٤ - ٣٤٥ وقال : هذا حديث صحيح حسن غريب وحسنه الألباني (سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤/)

وقارن برواية ابن أبي حاتم (تفسير ابن كثير ٦/٣٠٥ - ٣٠٦ ط الشعب - وفي ط . بيروت ٣/٤٢٣ وفيه خطأ) . بإسناد فيه مؤمل بن إسماعيل صدوق سيئ الحفظ (تقريب ٥٥٥) وفيه عنعنة أبي إسحاق السبيعي وهو مدلس .

وقارن أيضاً برواية الطبري : تفسير ٢١/١٩ بإسناد منقطع لأن عامر الشعبي لم يسمع ابن مسعود ، ورجح ابن كثير فيه الإرسال (تفسير ٣/٤٢٣) .

(2) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/١٨٧) .

خرجوا مشاة إلى البحر فاستأجروا سفينة بنصف دينار[١] .

وقد صورت أم سلمة (زوج النبي ﷺ) - وهي ممن هاجر إلى الحبشة الهجرة الأولى - الظروف التي أحاطت بهذه الهجرة قالت : « لماضاقت علينا مكة - وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم ، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم . وكان رسول الله ﷺ في مَنَعة من قومه وعمه ، لايصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه . فقال لهم رسول الله ﷺ : (إن بأرض الحبشة ملكاً لايُظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه) ، فخرجنا إليها أرسالاً حتى اجتمعنا بها ، فنزلنا بخير دار إلى خير جار آمناً على ديننا ولم نخشَ منه ظلماً »[٢] .

وممن خرج مهاجراً إلى الحبشة أبو بكر الصديق رضي الله عنه حتى إذا بلغ بَرْك الغِمَاد[٣] لقيه ابن الدَغِنَّة - وهو سيد القارة[٤] - فقال : أين تريد ياأبا بكر ؟

فقال أبو بكر : أخرجني قومي فأنا أريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي . قال ابن الدغنة : إن مثلك لا يَخرج ولا يُخرج ، فإنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحملُ الكَلَّ ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق[٥] ، وأنا لك جارٌ فارجع فاعبد ربك ببلادك . فرجع أبو بكر مع ابن الدَغِنة الذي أعلن في قريش جواره له . فوافقت قريش على أن يعبد أبو بكر ربه في داره ولا يستعلن ،

---

(١) فتح الباري ١٨٧/٧ - ١٨٨ (وهو قول الواقدي وإن لم يصرح الحافظ باسمه كما في طبقات ابن سعد ٢٠٤/١) ويذكر ابن إسحاق أنهم عشرة رجال وأربع نسوة (سيرة ابن هشام ٣٤٤/١) .

(٢) فتح الباري ١٨٩/٧ وسيرة ابن إسحاق ١٩٤ وسيرة ابن هشام ٣٣٤/١ بإسناد حسن فرواية يونس بن بكير توبعت برواية البكائي وابن إسحاق صرح بالتحديث .

(٣) موضع على خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن .
(فتح الباري ٢٣٢/٧) .

(٤) حلفاء بني زهرة من قريش (الفتح ٢٣٣/٧) .

(٥) يبدو أن هذه العبارة محفوظة عند الناس يقولونها في الثناء على صاحب المروءة ، لذلك فقد وردت على لسان خديجة رضي الله عنها في وصف رسول الله ﷺ في حديث بدء الوحي .

فمضى وقت على ذلك ثم أخذ أبو بكر يجهر بقراءة القرآن في فناء داره فيجتمع نساء وأبناء المشركين يعجبون وينظرون إليه « وكان رجلاً بَكَّاء لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن » فأفزع ذلك قريشاً ، وطلبوا من ابن الدغنة أن يكفه ، فخيره ابن الدغنة بين الإسرار بعبادته أو أن يرد عليه جواره ، فردَّ أبو بكر عليه جواره قائلاً : إني أرد إليه جوارك وأرضى بجوار الله[1] .

وهكذا بقي أبو بكر بمكة إلى جوار رسول الله ﷺ يحتمل أذى المشركين بعد أن كان رسول الله قد أذن له بالهجرة إلى الحبشة[2] .

وفي أعقاب الهجرة الأولى إلى الحبشة حدث أن صلى رسول الله ﷺ في المسجد الحرام ، فقرأ سورة النجم فسجد في موضع السجود وسجد كل من كان حاضراً إلا اثنين من المستكبرين ، فشاع أن قريشاً قد أسلمت[3] .

وقد ذهبت روايات مرسلة صحيحة السند إلى مرسليها وهم سعيد بن جبير وأبو بكر بن عبد الرحمن وأبو العالية إلى أن الشيطان ألقى على لسان الرسول ﷺ في قراءته في صلاته تلك عبارة (تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجي) ، كما ذهبت روايات مرسلة أخرى ضعيفة الأسانيد إلى مرسليها إلى أن العبارة قالها الشيطان وسمعها المشركون دون المسلمين ، فسجد المشركون بسجود المسلمين[4] . وما قالته المراسيل المعتبرة يصطدم مع عصمة النبوة في قضية الوحي ويعارض التوحيد وهو أصل العقيدة الإسلامية ؛ لذلك فإنها مرفوضة متناً حتى لو ثبت تعدد مخارجها ، ولم يأخذها الثلاثة التابعون عن شيخ واحد .

---

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ٤/ ٤٧٥ - ٤٧٦) .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ٢/ ٣٧٢ - ٣٧٤ بإسناد حسن .

(٣) صحيح البخاري كما في فتح الباري ٢/ ٥٥١ ، ٥٥٣ ، ٥٥٧ ، ٥٦٠ ، ٥٦٥ ، ٨/ ٦١٤ وصحيح مسلم ١/ ٤٠٥ وراجع الألباني : نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق .

(٤) المصادر السابقة .

لقد بينّ فوك أن بعض المستشرقين صدق القصة وبعضهم كذبها حسب الهوى[٢] ، وأما زعم واط أن القصة صحيحة لأنها في غاية الغرابة فلابد أن تكون حقيقية في جوهرها إذ لا يُتصور أن يكون أحد اختلق قصة مثلها ثم اقنع جماعة ضخمة من المسلمين أن تقبلها[٣] .

والحق أن تصحيح واط لها لأنها وافقت هواه ، فمتى كانت الغرابة مقياساً لتصحيح الروايات ، ولماذا لا يبين رفض كثير من علماء المسلمين لها .

ولعل سجود المشركين مع الرسول ﷺ لما اعتراهم من خوف ودهشة وهم يستعمون إلى أخبار هلاك الأمم السالفة[١]

الهجرة الثانية إلى الحبشة :

ثم بلغ المسلمين وهم بأرض الحبشة « أن أهل مكة أسلموا ، فرجع ناس منهم عثمان بن مظعون إلى مكة فلم يجدوا ما أُخبروا به صحيحاً ، فرجعوا ، وسار معهم جماعة إلى الحبشة ، وهي الهجرة الثانية وسرد ابن إسحاق أسماء أهل الهجرة الثانية وهم زيادة على ثمانين رجلاً . وقال ابن جرير : كانوا اثنين وثمانين رجلاً سوى نسائهم وأبنائهم . . وقيل إن عدة نسائهم كانت ثماني عشرة امرأة »[٢] .

لقد ذكر ابن إسحاق دوافع الهجرة الثانية فقال : « فلما اشتد البلاء وعظمت الفتنة تواثبوا على أصحاب رسول الله ﷺ ، وكانت الفتنة الآخرة التي أخرجت من كان هاجر من المسلمين بعد الذين كانوا خرجوا قبلهم إلى أرض الحبشة »[٣] .

(2) Fueck, J., The Role of Traditionalism in Islam in Swarts, M. (ed & transl) , Studies on Islam, Oxford, 1983. p. 112.

(3) Watt, M.Mohammad, Propht and States man p. 61.

(١) الألوسي : روح المعاني ١٧/١٧٨ ط المنيرية .

(٢) فتح الباري ٧/١٨٩ .

(٣) السير والمغازي لابن إسحاق ص ٢١٣ - تحقيق سهيل زكار .

لقد أرسلت قريش عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة يحملان الهدايا إلى النجاشي وبطارقته ، فقابلا النجاشي طالبين إليه إعادة من هاجر من المسلمين ، فأرسل النجاشي إلى المسلمين فسألهم عن دينهم ، فقال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه : « أيها الملك كنا قوماً على الشرك ، نعبد الأوثان ونأكل الميتة ، ونسيء الجوار ، ونستحل المحارم ، بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها ، لانحل شيئاً ولا نحرمه . فبعث الله إلينا نبياً من أنفسنا نعرف وفاءه. وصدقه وأمانته ، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له ، ونصل الرحم ، ونحسن الجوار ، ونصلي ونصوم ، ولا نعبد غيره » .

فقال : هل معك شيء مما جاء به - وقد دعا اساقفته فأمرهم فنشروا المصاحف حوله .

فقال جعفر : نعم .

قال : هَلُمَّ فاتلُ عليَّ ما جاء به .

فقرأ عليه صدراً من كهيعص[1] ، فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم .

ثم قال : إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها موسى انطلِقوا راشدين .

ولما أخفقت محاولة وفد قريش في استعادتهم ، أثار عمرو بن العاص في اليوم التالي موقف المسلمين من عيسى عليه السلام ، فقال للنجاشي : أيها الملك إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً .

فأرسل النجاشي إليهم فسألهم فقال له جعفر : نقول هو عبد الله ورسوله وكلمته وروحه ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

فقال النجاشي : ماعدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العود .

---

(١) يعني سورة مريم .

وأعطى النجاشي الأمان للمسلمين ، فأقاموا مع خير جار في خير دار - كما تقول أم سلمة رضى الله عنها[1] .

ونذكر رواية صحيحة أن القسيسين والرهبان الذين حضروا مجلس النجاشي وسمعوا القرآن انحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق فأنزل الله : ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾[2] .

إن مبادرة قريش لإرسال وفد لاستعادة المسلمين المهاجرين إلى الحبشة تدل على إدراكها لخطورة الموقف إذا ما حصل المسلمون على مأوى لهم يأمنون فيه ،

---

(١) ابن إسحاق : السير والمغازي ٢١٣ - ٢١٧ وسيرة ابن هشام ١ / ٢٨٩ - ٢٩٣ بإسناد حسن إلى أم سلمة رضى الله عنها ولعل عائشة رضى الله عنها التي حكت خبر النجاشي مع عمّه سمعت ذلك من أم سلمة (ابن إسحق : سيرة ١٩٧ - ١٩٩) .

وأما رواية أحمد في مسنده ١ / ٤٦١ من حديث ابن مسعود فسنده ضعيف فيه حديج بن معاوية يصلح حديثة للاعتبار فقط وفيه عنعنة أبي إسحاق وهو مدلس ، ومتنه مضطرب يجمع أخباراً تتصل بالهجرة الثانية فيجعلها في الهجرة الأولى . وظاهره أن أبا موسى هاجر من مكة إلى الحبشة مما يخالف ما في الصحيحين .

وقد حسّن ابن كثير وابن حجر إسناد هذا الحديث . (السيرة النبوية لابن كثير ٢ / ١١ وفتح الباري لابن حجر ٧ / ١٨٩) وكذلك فإن سياق حديث أبي موسى الأشعري في مصنف ابن أبي شيبة ١٤ / ٣٤٦ - ٣٤٨ إسناده ضعيف لعنعنة أبي إسحاق السبيعي وإن صححه الحاكم والذهبي والبيهقي (المستدرك ٢ / ٣٠٩ - ٣١٠ ودلائل البيهقي ٢ / ٢٩٩ - ٣٠٠) وهو مخالف لما في الصحيحين ظاهره يدل على هجرة أبي موسى الأشعري من مكة في الهجرة الأولى إلى الحبشة . وقد بيّن ابن كثير غرابة كلام ابن إسحاق وأنه لا يُلتفت إليه (ابن كثير : السيرة النبوية ٢ / ٩ ، ١ / ٢٤٨) . وقد سبقه إلى ذلك ابن حزم (جوامع السيرة ٨٥) وابن سيد الناس (عيون الأثر ١ / ١١٨) ولعل الواقدي هو أول من انتبه لهذا الأمر (زاد المعاد ٣ / ٢٨ والدرر لابن عبد البر ٥٢ . ط شوقي) .

(٢) المائدة ٨٢ - ٨٣ . وأنظر الرواية في تفسير الطبري ٧ / ٣ بإسناد صحيح وقارن براوية البزار في كشف الاستار ٢ / ٢٩٧ بإسناد ضعيف فيه عمير بن إسحق مقبول ، وفيه إسلام عمرو بن العاص بالحبشة مبكراً وهو مخالف للمحفوظ .

والحبشة نصرانية ، وملكها عرف بالعدل ، وهي قريبة من مكة ، وكل ذلك يشكل خطراً على قريش في المستقبل .

ومما يبعث على العجب والإكبار لموقف المهاجرين بيانهم لعقيدتهم في عيسي عليه السلام بصراحة ووضوح ، رغم مخالفتها للنصرانية السائدة في الحبشة . فلم يلجأوا إلى مجاملة الأساقفة الحاضرين خوفاً من تسليمهم لقريش . فأحسن الله عاقبتهم وآمنهم في دار هجرتهم[1] . ولكن لا يخفي أن هجرة الوطن تصعب على المرء ، وهو لا يفعل ذلك إلا مضطراً ، وقد كان المسلمون المهاجرون عرباً يعيشون في وسط غريب لا تربطهم به وشائج رحم ولا لغة ، فضلاً عن كونه وسطاً نصرانياً يخالفهم في المعتقد إلا النجاشي فإنه أسلم وورّى باسلامه أمام قومه[2] . وهذا يتضح من مجادلة أسماء بنت عميس - إحدي المهاجرات إلى الحبشة قدمت مع جعفر إلى المدينة - مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقد قال لها : سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم . فقالت : كلا والله كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم ، وكنا في دار البعداء البغضاء في الحبشة وذلك في الله وفي رسوله . . . ونحن كنا نؤذي ونُخاف . . لقد فصَل رسول الله ﷺ الأمر بينهما بقوله : « ليس باحق بي منكم ، وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم انتم أهل السفينة هجرتان . فعظم الفرح بين مهاجرة الحبشة[3] .

(١) ذكر الطبراني في المعجم الكبير ٢/١٠٩ - ١١١ والذهبي في السيرة النبوية ١٢١ - ٢٢٢ من حديث جعفر بن أبي طالب أن النجاشي سأل المسلمين : « أيؤذيكم أحد ؟ قالوا : نعم . فأمر منادياً فنادى : من آذى أحداً منهم فأغرموه أربعة دراهم ، ثم قال : يكفيكم ؟ فقلنا : لا ، فأضعفها » . وإسناده ضعيف لأن مداره على أسد بن عمرو الكوفي عن مجالد بن سعيد وكلاهما ضعيف وقد وثقا (مجمع الزوائد ٦/٣٠) .

(٢) لقد أرسل النبي ﷺ رسالة إلى النجاشي في عام إرساله الكتب إلى ملوك الأرض يدعوه إلى الإسلام ، وقد بين حديث صحيح أنه غير النجاشي المسلم أصحمة) صحيح مسلم ٣/١٣٩٧ .

(٣) صحيح البخاري (فتح الباري ٦/٢٣٧ ، ٧/١٨٨ ، ٤٨٤ ، ٤٨٧) وصحيح مسلم بشرح النووي ١٦/٦٤ - ٦٦ .

لقد توفي عبيد الله بن جحش[1] زوج أم حبيبة بنت أبي سفيان فخطبها رسول الله وتزوجها وهي بالحبشة ، زوجه أياها النجاشي ومَهَرها أربعة آلاف ، ثم جهزها من عنده ، وبعث بها مع شرحبيل بن حسنه ، وجهازها كله من عند النجاشي ، ولم يرسل إليها رسول الله ﷺ بشيء ، وكانت مهور أزواج النبي ﷺ أربعمائه درهم[2] .

وقد هاجر معظم مهاجرة الحبشة إلى المدينة بعد استقرار الإسلام فيها وتأخر جعفر بن أبي طالب ومن معه[3] إلى فتح خيبر سنة ٧ هـ .

لقد انضم إلى المسلمين في الحبشة أبو موسى الأشعري مع جمع من قومه بلغوا ثلاثة وخمسين رجلاً ، وكانو قد ركبوا سفينة يريدون الهجرة إلى المدينة حين بلغهم استقرار الوضع فيها لصالح الإسلام ، فألقتهم الرياح إلى الحبشة ، فألتحقوا بالمسلمين ومكثوا معهم إلى أن عادوا جميعاً إلى المدينة حين افتتح المسلمون خيبر[4] .

---

(١) المشهور عند أهل المغازي أنه تنصَّر قبل وفاته (ابن إسحق : كتاب السير والمغازي ٢٥٩ والواقدي كما في طبقات ابن سعد ١ /٢٠٨) وقد ورد أنه حين حضرته الوفاة أوصى إلى رسول الله ﷺ . (موارد الظمآن ٣١٢ بإسناد حسن لكن عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمي صدوق (تقريب ٣٣٩) خالف بزيادته هذه معمراً ويونس عن الزهري وهما أوثق منه ويرى النسائي أن رواية ابن مسافر عن الزهري في طبقة رواية ابن أبي ذئب عن الزهري التي قيل إنها عرض وقيل منولة دون سماع لذلك فإن مسألة الوصية لا تثبت .
(تهذيب التهذيب ٩/٣٠٥) .

(٢) مسند أحمد ٦/٤٢٧ وسنن أبي داؤد ٢/٥٣٨ ، ٥٦٩ بإسناد صحيح وسنن النسائي ٦/١١٩ ومستدرك الحاكم ٢/١٨١ وصححه وأقره الذهبي .

(٣) فتح الباري (٧/٢٣٤) .

(٤) صحيح البخاري (فتح الباري ٦/٢٣٧ و٧/١٨٨ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٧) .
وصحيح مسلم بشرح النووي ١٦/٦٤ - ٦٦ .

إسلام عمر بن الخطاب :

لم تصح رواية في تحديد وقت إسلام عمر بن الخطاب بدقة ، ولكن ابن إسحاق جعل إسلام عمر بعد هجرة الحبشة وذكر من وجه آخر إنه عقب هجرة الحبشة الأولى[1] ، وتحدد رواية الواقدي إسلامه في ذي الحجة السنة السادسة من البعثة وهو ابن ست وعشرين سنة ، كما تحدد روايات الواقدي أن عدد المسلمين كان أربعين أو خمسين أو ست وخمسين منهم عشر نسوة أو إحدى عشرة[2] .

وكان عمر رجلاً قوياً مهيباً ، وكان يؤذي المسلمين ويشتدّ عليهم ، قال سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل - وهو ابن ابن عم عمر ، وزوج أخته فاطمة بنت الخطاب - : « والله لقد رأيتني وإن عمر لموثقي على الإسلام قبل أن يسلم »[3] .

وهكذا ربط عمر سعيداً بسبب إسلامه ليصده عن دينه . ولكن شدته الظاهرة تكمن خلفها رحْمة ورقة ، فقد أخبرت أم عبد الله بنت أبي حثمة - وهي من مهاجرة الحبشة - قالت : « والله إنا لنترحَّل إلى أرض الحبشة ، وقد ذهب عامر في بعض حاجاتنا ، إذ أقبل عمر بن الخطاب ، حتى وقف عليّ - وهو على شركه ، وكنا نلقي منه البلاء أذىً لنا وشدة علينا - فقال : إنه للانطلاق يا أم عبد الله ؟ فقلت : نعم والله ، لنخرجنَّ في أرض الله ، آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله مخرجاً .

فقال : صحبكم الله ، ورأيت له رقَّةً لم أكن أراها . ثم انصرف وقد أحزنه - فيما أرى - خروجُنا .

قالت : فجاء عامر بحاجته تلك ، فقلت له : ياأبا عبد الله لو رأيت عمر

---

(١) ابن حجر : فتح الباري ١٨٣/٧ وانظر سيرة ابن هشام ٣٤٢/١ .

(٢) طبقات ابن سعد ٢٦٩/٣ - ٢٧٠ والواقدي متروك - وهو راوي الخبر - ويؤيده أن عُمُرَ عبد الله بن عمر - وقد عقل قصة إسلام والده ورواها - كان ابن خمس سنين ، وكان يوم أُحد ابن أربع عشرة سنة ، وذلك بعد المبعث بست عشرة سنة ، فيكون مولده بعد المبعث بسنتين ، فلا يتقدم إسلام عمر على سنة ست أو سبع (فتح الباري ١٧٨/٧) .

(٣) صحيح البخاري (فتح الباري ١٧٦/٧) .

آنفا ورقته وحزنه علينا . قال : أطمعتِ في إسلامه ؟ قلت : نعم . قال : فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمارُ الخطاب . قالت : يأساً منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام[1] .

ويبدو أن حدس المرأة كان أقوى ، فقد كان رسول الله ﷺ يدعو الله أن ينصر دينه به[2] .

فاستجاب الله دعاءه فأسلم عمر ، فاعتز به الإسلام وصلى المسلمون بالبيت العتيق دون أن يتعرض لهم المشركون .

قال ابن مسعود : « مازلنا أعزَّةً منذ أسلم عمر »[3] .

وقال أيضاً : « لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر ، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا نصلي »[4] .

وقال : « إن إسلامه كان نصراً »[5] .

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٤٢ بإسناد فيه عبد الرحمن بن الحارث صدوق له أوهام ، وعبد العزيز بن عبد الله بن عامر تابعي كبير ، ترجم له البخاري وابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً . (التاريخ الكبير ٦/١٣ والجرح والتعديل ٥/٣٨٥ وتعجيل المنفعة ٢٦١ وانفرد ابن حبان بتوثيقه (الثقات ٧/ ١١٠) وهو يروي الخبر عن أمه وهي شاهدة عيان .

(٢) سنن الترمذي ٥/٦١٧ وقال : « هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر » . بإسناد فيه خارجة بن عبد الله صدوق فيه مقال (فتح الباري ٧/٤٨) .
وله شواهد من حديث ابن عباس (الطبراني : المعجم الأوسط ١/٣٤٤) بإسناد فيه مبارك بن فضالة صدوق مدلس ويسوّي وقد صرّح بالسماع من شيخه فقط (انظر : تقريب التهذيب ٥١٩) .
وله شواهد آخر من حديث ابن مسعود (الطبراني : المعجم الكبير ١٠/١٩٦ - ١٩٧) بإسناد فيه مجالد بن سعيد تغير بأُخَرة ، وفيه محمد بن الحسن الأسدي صدوق فيه لين (تقريب ٤١٧ ، ٥٢٠) حديث عائشة (سنن ابن ماجة ١/٣٩) بإسناد فيه ضعف بسبب رواية محمد بن عبيد وعبد الملك بن الماجشون ومسلم بن خالد الزنجي . فالحديث صحيح لغيره .

(٣) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٤١ ، ١٧٧) .

(٤) طبقات ابن سعد ٣/ ٢٧٠ بإسناد صحيح ، ومحمد بن عبيد ثقة زيادته صحيحة .

(٥) المعجم الكبير للطبراني ٩/١٨١ بإسناد حسن .

وقال عبد الله بن عباس لعمر حين طُعن : « فلما أسلمتَ كان إسلامك عزاً وأظهر الله بك الإسلام ورسولَ الله وأصحابَه »[1] .

وقد ذكر عبد الله بن عمر - وهو شاهد عيان - ما حدث من رد فعل قريش حين أسلم عمر بن الخطاب قال : « لما أسلم أبي عمر قال : أيُّ قريش أنقل للحديث ؟ فقيل له : جميل بن معمر الجمحي .

قال : فغدا عليه .

قال عبد الله بن عمر : « فغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل وأنا غلام أعقل كل ما رأيت ، حتى جاءه . فقال له : أعلمت ياجميل أني قد أسلمت ودخلت في دين محمد ؟

قال : فوالله ماراجعه حتى قام يجر رداءه وأتبعه عمر وأتبعت أبي . حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يامعشر قريش - وهم في أنديتهم حول الكعبة - ألا إن عمر قد صبأ .

قال : ويقول عمر من خلفه : كذب ، ولكني قد أسلمتُ وشهدتُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

وثاروا إليه ، فما برِح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رءوسهم ، وطلح[2] فقعد ، وقاموا على رأسه وهو يقول : أفعلوا مابدا لكم ، فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا . قال : فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة وقميص هوشيٌّ حتى وقف عليهم فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صبأ عمر . فقال : فمه ، رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون ؟ أترون بني عدي بن كعب يُسلمون لكم صاحبهم هكذا ؟ خَلّوا عن الرجل .

---

(١) المعجم الأوسط للطبراني ١/٣٣٤ بإسناد حسن .

(٢) أعيا (النهاية لابن الأثير ٣/١٣١) .

قال : فوالله لكأنما كانوا ثوباً كشط عنه » .

وقد عرف ابن عمر - فيما بعد - من أبيه أن الذي أجاره هو العاص بن وائل السهمي[1] .

لقد كان رد فعل قريش عنيفاً أمام حادثة إسلام عمر حتى سال بهم الوادي يريدون قتله لولا إجارة العاص له[2] .

أما قصة استماعه القرآن يتلوه الرسول ﷺ في صلاته قرب الكعبة وعمر مستخفٍ بأستارها[3] ، وكذلك قصته مع أخته فاطمة حين لطمها لإسلامها وضرب زوجها سعيد بن زيد ، ثم اطلاعه على صحيفة فيها آيات وإسلامه[4] ، فلم يثبت شيء من هذه القصص من طريق صحيحة .

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٢٩٨ - ٢٩٩ وسيرة ابن إسحاق ١٨٤ - ١٨٥ بإسناد حسن ، وقال ابن كثير : هذا إسناد جيد قوي .
(السيرة النبوية لابن كثير ٢/٣٨ - ٣٩) . وقد روى البخاري قصة إجارة العاص بن وائل لعمر في صحيحه (فتح الباري ٧/١٧٧) .

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/١٧٧) .

(٣) مسند أحمد ١/١٧ - ١٨ بسند صحيح إلى شريح بن عبيد لكنه مرسل ضعيف لأن شريحاً لم يدرك عمر (مجمع الزوائد ٩/٦٢) .
ومصنف ابن أبي شيبة ١٤/١٠٣ وفي إسناده عنعنة أبي الزبير وهو مدلس والسياق يختلف ، ولولا ذلك لاعتضد المرسلان لاختلاف مخرجهما . وأحاديث أبي الزبير منها ما صرح فيها بالسماع فهي صحيحة ، ومنها ما عنعن في سائر طرقها عنه فهذه إن كانت من رواية الليث عنه فهي صحيحة وإن كانت من رواية غير الليث فهي ضعيفة لأن أبا الزبير مدلس فيحتمل أن تكون واسطته ضعيفة .

(٤) طبقات ابن أسعد ٣/٢٦٧ - ٢٦٩ ودلائل النبوة للبيهقي ٢/٢١٩ كلاهما بإسناد فيه القاسم بن عثمان البصري ضعيف ومتنه منكر جداً .
(ميزان الاعتدال ٣/٣٧٥) وفضائل الصحابة لأحمد ١/٢٨٥ - ٢٨٨ من زيادة عبد الله بإسناد فيه إسحاق بن إبراهيم الحنيني وأسامة ابن زيد بن أسلم ، وكلاهما ضعيف (تقريب التهذيب ٩٨ ، ٩٩) .
ومتنهما يتعارض ، ففي رواية ابن سعد قرأ في الصحيفة آيات من سورة طه ، وأما رواية عبد الله بن أحمد ففيها أن الآيات من سورة الحديد .

ولكن الحافظ ابن حجر ذكر بأن الباعث له على دخوله في الإسلام ماسمع في بيت أخته فاطمة من القرآن[1] .

ولا شك أن القرآن ببيانه الساحر وروعة تصويره لمشاهد القيامة وصفة الجنة والنار ، كان له تأثير كبير في اجتذاب عمر إلى صف المسلمين ، لأن عمر كان يتذوق الكلام البليغ ويعجب به . وعدم ثبوت الروايات حديثياً لا يعني حتمية عدم وقوعها تأريخياً .

دخول المسلمين شعب أبي طالب :

لقد حدد رسول الله ﷺ المكان الذي تقاسمت فيه قريش على الكفر - يعني تحالفها على مقاطعة بني هاشم - فذكر أنه خَيف بني كنانة[2] ، وقد ورد الخبر مفصلاً من مرسل أبي الأسود ومرسل الزهري[3] ، كما ورد من مرسل عروة بن الزبير[4] ، ونظراً لأن الزهري وأباً الأسود من تلاميذ عروة ، فإن ثمة احتمالاً قوياً أنهما يرويان هذا الخبر عنه ، مما يجعل المرسل[5] لا يقوي بالتعدد لوحدة مخرجه .

وإذا لم تثبت رواية في تفاصيل دخول المسلمين شعب أبي طالب ، فإن أصل الحادث ثابت[6] ، كما أن ذلك لا يعني عدم وقوع تفاصيل الحادث تأريخياً ، فإن

---

(١) ابن حجر : فتح الباري ١٧٦/٧ .

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ١٩٢/٧ ، ١٤/٨) . قال النووي والمحّصب والأبطحّ والبيطحاء وخيف بني كنانة اسم لشيء واحد .
(شرح صحيح مسلم ٥٩/٩) .

(٣) بإسناد حسن إلى أبي الأسود والزهري (دلائل البيهقي ٣١١/٢ - ٣١٤ والدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر ٢٧ - ٣٠) .

(٤) بإسناد ضعيف إليه فيه محمد بن عمرو بن خالد الحراني لم أقف له على ترجمة وابن لهيعة ضعيف (الدلائل لابي نعيم ٣٥٧/١ - ٣٦٢ والدلائل للبيهقي ٣١٤/٢) .

(٥) يعني مرسَلي أبي الأسود والزهري ، إذ هما أقوى سنداً إليهما من مرسل عروة الذي لم يثبت عنه من طريق صحيحة .

(٦) قال ابن حجر : « ولما لم يثبت عند البخاري شيء من هذه القصة اكتفى بإيراد حديث أبي هريرة لأن فيه دلالة على أصل القصة لأن الذي أورده أهل المغازي من ذلك كالشرح لقوله في الحديث « تقاسموا على الكفر » . (فتح الباري ١٩٣/٧) .

عروة رائد مدرسة المغازي ، وهو إنما يروي عن الصحابة في الغالب . وخلاصة رواية عروة أن حصار الشعب وقع بعد فشل قريش في استعادة المسلمين المهاجرين إلى الحبشة ، حيث أهاجها الأمر واشتد البلاء على المسلمين ، وعزمت قريش أن تقتل رسول الله ﷺ ، فأجمع بنو عبد المطلب أمرهم على أن يدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم ويحموه فيه ، فدخلوا الشعب جميعاً مسلمهم وكافرهم ، وأجمع المشركون أمرهم على أن لا يجالسوهم ولا يخالطوهم ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله للقتل ، وكتبوا في ذلك صحيفة فلبث بنوهاشم في شعبهم ثلاث سنين ، واشتدَّ عليهم البلاء والجهد والجوع ، فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم رجال من قريش على ما حدث وأجمعوا على نقض الصحيفة ، وقد أعلمهم الرسول بأنه لم يبقَ سوى كلمات الشرك والظلم[1] . وهكذا انتهت المقاطعة .

أما رواية موسى بن عقبة فتذهب إلى أن المشركين أخرجوا بني هاشم من مكة إلى الشِعب ، فأمر رسول الله المسلمين أن يخرجوا إلى أرض الحبشة . فيكون حصار الشِعب والهجرة إلى الحبشة قد وقعا في وقت متقارب .

وقد ذكر الزهري أن عُمُرَ الرسول ﷺ كان - حين الخروج من الشِعب - تسعا وأربعين سنة ، وكان خروجهم في السنة العاشرة ، وأنهم مكثوا في الشِعب سنتين[2] ، ويقال : إن رجوع من كان مهاجراً بالحبشة إلى مكة كان بعد الخروج

---

(١) ذكر ابن هشام أنهم وجدوا الأرضة قد أكلت جميع ما في الصحيفة إلا اسم الله تعالى ، وقال ابن إسحاق وموسى بن عقبة وعروة عكس ذلك أن الأرضة لم تدع اسماً لله تعالى إلا أكلته ، وبقى ما فيها من الظلم والقطيعة (فتح الباري ١٩٢/٧) .
وانظر مغازي موسى بن عقبة (جمع محمد باقشيش) ١٢٦/١ - ١٢٧ وسيرة ابن هشام ٣٧٧/١ .

(٢) وقيل كان ابتداء حصرهم في المحرم سنة سبع من المبعث قال ابن إسحاق : فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً ، وجزم موسى بن عقبة بأنها كانت ثلاث سنين (فتح الباري ١٩٢/٧) .

من الشِعب[1] . وعلى ذلك يكون حصار الشعب قد بدأ في آخر العام السابع من البعثة .

لقد دعا رسول الله على قريش فحدثت فيهم مجاعة حتى أكلوا الميتة والجلود ، فجاء أبو سفيان يسأل رسول الله أن يدعوا لهم ويناشده الرحم ، فقرأ الآية ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ إلى قوله ﴿عائدون﴾ ، وكان الرجل يرى ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان . فدعا رسول الله ﷺ ربه فكشف عنهم العذاب ، فعادوا إلى الكفر[2] .

وفاة أبي طالب وخديجة رضي الله عنها :

ما أن غادر بنو هاشم شعب أبي طالب حتى أصيب رسول الله ﷺ بوفاة عمه أبي طالب – واسمه عبد مناف – وذلك في آخر السنة العاشرة من المبعث[3] ، وقد كان أبو طالب « يحوط النبي ويغضب له »[4] و « ينصره »[5] ، وكانت قريش تحترمه ، وقد جاء زعماؤها حين حضرته الوفاة ، فحرضوا أبا طالب على الاستمساك بدينه وعدم الدخول في الإسلام قائلين : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ وعرض عليه رسول الله الإسلام قائلاً : قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة . فقال أبو طالب : لولا أن تعيرني بها قريش يقولون إنما حمله عليها

---

(١) المقريزي : إمتاع الاسماع ٢٦ عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب مرسلاً .
(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٥١١/٨ ، ٥٤٧ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، و ٥١٠/٢ ، ٤٩٣) وصحيح مسلم بشرح النووي ١٤٠/١٧ - ١٤٢ .
والآيات من سورة الدخان ١٠ - ١٥ .
(٣) فتح الباري ١٩٤/٧ .
(٤) صحيح البخاري (فتح الباري ١٩٣/٧) .
(٥) صحيح مسلم ١٩٥/١ .

الجزع ، لا قررتُ بها عينَك ، فأنزل الله ﴿إنك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء﴾[1][2] .

لقد كانت أفكار الجاهلية راسخة في عقل أبي طالب ، ولم يتمكن من تغييرها ، فهو شيخ كبير يصعب عليه تغيير فكره وما ألفه عن آبائه ، وكان أقرانه حاضرين وقت احتضاره فأثّروا عليه خوفاً من شيوع خبر إسلامه وتأثير ذلك على قومه .

وأما ما نقله ابن إسحاق من أن العباس نظر إلى أبي طالب يحرك شفتيه ، فقال لرسول الله : يا بن أخي والله لقد قال أخيْ الكلمة التي أمرته أن يقولها ، فقال رسول الله ﷺ : لم أسمع . فهو خبر لا يصح[3] .

وعلى آية حال فإن موته أفقد رسول الله ﷺ سنداً كبيراً ، فلم يعد بنو هاشم مستعدين بعده لتقديم نفس القدر من الحماية لما يصيبهم من أضرار مادية ونفسية ، كما تبين من حادثة المقاطعة[4] .

وقد تجلى ذلك في رحلة النبي إلى الطائف طلباً للنصرة ثم في استمراره في طلب النصرة من القبائل الأخرى بعد إخفاق محاولة الطائف .

---

(١) القصص ٥٦ .

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٨/٥٠٦) وصحيح مسلم بشرح النووي ١/٢١٣ - ٢١٦ .
وقد لفقت بين الروايتين الصحيحتين .
أما رواية ابن إسحاق التي تفيد إسلام أبي طالب ففي سنده مبهم فهي رواية ضعيفة (سيرة ابن هشام ٢/٤٦ - ٤٧) .
وانظر عن تخفيف العذاب عن أبي طالب صحيح البخاري (فتح الباري ١٠/٥٩٢) وصحيح مسلم بشرح النووي ٣/٨٤ ، ٨٥ .

(٣) سيرة ابن هشام ١/٤١٧ بسند ضعيف فيه مبهم فضلاً عن مخالفته لما في الصحيحين . مع أن العباس لم يكن قد أسلم آنذاك ، فلا يصح اداؤه ، وكان يسأل رسول الله : هل نفعت أبا طالب بشيء ؟ فلو عنده علم باسلامه لما تساءل (فتح الباري ٧/١٩٤) .

(٤) صالح العلي : محاضرات ١/٣٧٥ - ٣٧٦ .

وقد وعد رسول الله أبا طالب بأن يستغفر له الله مالم يُنهَ عن ذلك ، فنهاه الله تعالى بعد حين في أواخر العهد المدني عن الاستغفار للمشركين ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ماتبينّ لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ [1] .

أما خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقد توفيت قبل الهجرة النبوية إلى المدينة بثلاث سنين[2] في نفس عام وفاة أبي طالب .

رحلته إلى الطائف :

إن الرحلة إلى الطائف كانت على أثر اشتداد مقاومة قريش للدعوة عقب وفاة أبي طالب ، فسعى رسول الله ﷺ لإيجاد مركز جديد للدعوة ، وطلب النصرة من ثقيف ، لكنها لم تستجب له وأغرت به صبيانها فرشقوه بالحجارة . وفي طريق عودته من الطائف التقي بعداس الذي كان نصرانياً فأسلم . وأرَّخَ الواقدي الرحلة في شوال سنة عشر من المبعث بعد موت أبي طالب وخديجة ، وذكر أن مدة إقامته بالطائف كانت عشرة أيام[3] .

وسائر هذه التفاصيل أوردها كُتَّاب المغازي[4] ، ولكن لم ترد رواية صحيحة فيها سوى أن عائشة رضى الله عنها سألت رسول الله : هل أتى عليك يوم كان

---

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ١٩٣/٧ ، ٣٤١/٨ حديث رقم ٤٦٧٥ وأخرجه مسلم في صحيحه ٥٤/١ وأحمد في مسنده كما في الفتح الرباني ١٦٥/١٨ وقد دعا رسول الله ﷺ للمشركين في أحد بالمغفرة (اللهم أغفر لقومي فإنهم لا يعلمون) كما في صحيح مسلم ١٤١٧/٣ حديث رقم ١٧٩٢ ودعا لعبد الله بن أبي بن سلول المنافق حين موته كما في صحيح البخاري (الفتح ٣٣٣/٨) وصحيح مسلم ٨٦٥/٤ ومسند أحمد (الفتح الرباني ٥٠٦/٨) .

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٢٢٤/٧) .

(٣) طبقات ابن سعد ٢٢١/١ والواقدي متروك الحديث .

(٤) سيرة ابن هشام ٤١٩/١ - ٤٢٢ بإسناد صحيح لكنه مرسل محمد بن كعب القرظي ، وهو المصدر الرئيسي عنده لمعلومات رحلة الطائف .

أشد من يوم أُحد ؟ فقال : « لقد لقيت من قومك ، وكان أشد مالقيتُ منهم يوم العقبة[1] ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال[2] ، فلم يجبني إلى ما أردتُ ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم استفق إلا بقرن الثعالب[3] ، فرفعت رأسي فإ ذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني فقال : إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك ، ومارَدّوا عليك ، وقد بعث إليك مَلَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم .

قال : فناداني ملك الجبال وسلّم عليّ ، ثم قال : يامحمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك ، فما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ؟[4] .

فقال له رسول الله ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً »[5] .

وهـذه الـرواية تكفي لإثبات الحادث من حيث وقوع الرحلة ، ورد أهل الـطائف عليه بشـدة ومـا عرض عليه من عقـوبتهم ، ورحمتـه بهم ورغبتـه باستبقائهم ، وأخيراً ذكرى الرحلة الأليمة في نفسه رغم مرور السنوات .

وأما دعاؤه على ثقيف بقوله (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي . . . . إلخ) ولقاؤه بعداس فلم يثبت من طريق صحيحة[6] .

---

(١) المقصود عقبة بالطائف وليست عقبة منى التي اجتمع بها مع الأنصار (الزرقاني : شرح المواهب ٢٩٨/١) .

(٢) من أكابر أهل الطائف من ثقيف (فتح الباري ٣١٥/٦) .

(٣) قرن الثعالب هو قرن المنازل ميقات أهل نجد تلقاء مكة على بعد عن مكة (معجم البلدان لياقوت ٣٣٢/٤) .

(٤) جبلان بمكة .

(٥) صحيح البخاري (فتح الباري ٣١٢/٦ - ٣١٣) وصحيح مسلم ١٤٢٠/٣ واللفظ لمسلم .

(٦) أخـرجه ابن إسحاق بسند صحيح لكنه مرسل محمد بن كعب القرظي ، والمرسل من أنواع الضعيف لا يحتـج به إلا مع قرائن . والحـديث (اللهم إليك أشكو) ساقه بدون إسناد ، وكذلك قصة عداس ساقها بدون إسناد . =

أسانيد قصة عدّاس

البيهقي

:　　　　　　　　　　الزهري (مرسلا)

:　　　　　　　　　　موسى بن عقبة (مرسلا) -

محمد بن إسحق (مرسلا)

وهـذه المـراسيل لا تقوى ببعضها إذ الظاهر أن مخرجها واحد لأن ابن إسحق وموسى بن عقبة تلميذان للزهري .

الإســراء والمعــراج :

بعد رحلة الطائف الأليمة ، وقع حادث الإسراء والمعراج ، فكان مواساة لرسول ﷺ . وقد أرّخ الزهري ذلك قبل خروجه إلى المدينة بسنة[1] . وحادث الإسراء والمعراج ثابت بنص القرآن قال تعالى : ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾[2] .

وقد صحت الروايات في قيام جبريل عليه السلام بشق صدر الرسول ﷺ وغسله من ماء زمزم ، وإفراغ الحكمة والإيمان في صدره .

ففي الصحيحين عن أنس قال : « كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال : « فُرج سقف بيتي وأنا بمكة ، فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمةً وإيماناً ، فأفرغه في صدري ثم أطبقه ، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا . . . »[3] .

وأخرج الزهري وموسى بن عقبة قصة عداس مرسلاً (الخصائص الكبرى للسيوطي ١/ ٣٠٠) والمراسيل إنما تتقوى ببعضها إذا تعددت مخارجها ، ولا تعدد هنا فابن إسحاق وموسى بن عتبة تلميذان للزهري ، فيقوي أن يكونا أخذا عنه .

(سيرة ابن هشام ١/ ٤١٩ - ٤٢١ وتاريخ الطبري ٢/ ٣٤٤ - ٣٤٦ ، وقد ساق الطبراني الحديث (الهم إليك أشكو) من حديث عبد الله بن جعفر ، لكن إسناده « فيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة وبقية رجاله ثقات » (الهيثمي : مجمع الزوائد ٦/ ٣٥) ولم أقف عليه في معجم الطبراني الكبير المطبوع لأنه ناقص .

(١) البيهقي : دلائل النبوة ٢/ ٣٥٤ والذهبي : تاريخ الإسلام ١/ ١٤١ . وهو قول لعروة أيضاً (ابن كثير : البداية والنهاية ٣/ ١٠٧) وأرّخه ابن إسحاق بعد البعثة بنحو من عشر سنين ، قبل وفاة أبي طالب وخديجة (سيرة ابن هشام ١/ ٣٩٦ والبداية والنهاية لابن كثير٣/ ١٠٧) . أما إسماعيل السدي فذكر أن الإسراء قبل مهاجره بستة عشر شهراً . وأما البخاري فقد ذكر الإسراء بعد موت أبي طالب (فتح الباري ٧/ ١٩٦) .

(٢) الإســـراء ١ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الصلاة ، باب (١) كيف فرضت الصلوات في الإسراء (الفتح ١/ ٤٥٨) وكتاب الحج باب (٧٦) ما جاء في زمزم (الفتح ٣/ ٤٩٢) وكتاب الأنبياء باب ٥ ذكر إدريس عليه السلام (الفتح ٦/ ٣٧٤) =

وقد وردت روايات أخرى صحيحة تفيد أن الرسول ﷺ كان في المسجد الحرام ، أو في الحطيم أو الحجر بالذات من المسجد الحرام حين شق صدره وغسل قلبه[1] ، ويمكن الجمع بأنه كان في بيته ثم جاء به جبريل إلى المسجد الحرام[2] . فالرواية التي سقتها تفيد بأن الغسل تمَّ بماء زمزم ، وهو في المسجد الحرام وقد تبين الشرَّاح أن الحكمة في شق الصدر وملء قلبه إيماناً وحكمةً استعداداً للإسراء به تظهر في عدم تأثر جسمه بالشق وإخراج القلب مما يؤمنه من جميع المخاوف العادية الأخرى . ومثل هذه الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته ، لمقدرة الله تعالى التي لا يستحيل عليها شيء[3] .

وقد أنكر ابن حزم الظاهري والقاضي عياض وقوع الشق ليلة الإسراء وادعي أن ذلك تخليط من شريك - في إسناد البخاري - وليس كذلك ، فقد ثبت وقوع شق الصدر في الإسراء والمعراج في الصحيحين من غير طريق شريك[4] .

= وصحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب (٧٤) الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات ١/١٤٨ (ط . محمد فؤاد عبد الباقي) وأما رواية أبي ذر عند البزار (كشف الاستار ٣/١١٥ - ١١٦) ففيه « وأنا ببعض بطحاء مكة » فهو شاذ ، والسند ضعيف فيه انقطاع حيث لم يسمع عروة من أبي ذر وقد تفرد به عروة كما صرَّح البزار .

(١) صحيح مسلم ١/١٥٠ ، كتاب الإيمان ، باب ٧٤ الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات . والبخاري : كتاب بدء الخلق باب (٦) ذكر الملائكة (الفتح ٦/٣٠٢) وكتاب مناقب الأنصار ، باب (٤٢) المعراج (فتح الباري ٧/٢٠١) وكتاب التوحيد باب (٣٧) ما جاء في قوله عز وجل (وكلّم الله موسى تكليماً) (فتح ١٣/٤٧٨) .

(٢) ابن حجر : فتح الباري ٧/٢٠٤ .

(٣) فتح الباري ٧/٢٠٥ .

(٤) صحيح البخاري ، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء ١/٩١ وباب ما جاء في زمزم ٢/١٦٧ وباب المعراج ٤/٢٨٤ وصحيح مسلم ١/١٤٩-١٥٠ ، وراجع حول إنكار ابن حزم والقاضي عياض (شرح الشفا لملا علي القاري ١/٤١٤ وشرح الزرقاني على المواهب ٦/٢٣) .

وبعد أن فرغ الملكان من شق صدره وغسله ولأمه أسرى به إلى بيت المقدس على البراق[1] حيث صلَّى بالأنبياء فيه ، ووصف هيآتهم[2] . ثم عرج به إلى السماء السابعة ماراً ببقية السموات الست ملتقياً بالأنبياء آدم ويوسف وإدريس وعيسى ويحيى بن زكريا وهارون وموسى وإبراهيم .

وقد سمع صريف أقلام الملائكة ، وفرضت عليه الصلاة خمسين صلاة ثم خففت إلى خمس صلوات[3] .

وقد وصف سدرة المنتهى بأن نبقها مثل الجرار ، وورقها مثل آذان الفيلة[4] .

ووصف البيت المعمور في السماء السابعة وما يدخله من الملائكة [5] .

ووصف نهر الكوثر في الجنة وأن حافتيه قباب اللؤلؤ مجوف وطينه مسك أذفر[6] .

وقد سئل رسول الله ﷺ إن كان قد رأى ربه فقال : نور أنى أراه[7] .

ووصف مارآه من أنهار الجنة وهي أربعة أنهار ؛ اثنان باطنان في الجنة ، واثنان ظاهران وهما النيل والفرات[8] .

ووصف رؤيته لجبريل لما دنا منه وإن له ستمائة جناح وإليه تشير الآية ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ إلى قوله ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾[9] .

---

(١) دابة دون البغل وفوق الحمار أبيض (صحيح البخاري كما في فتح الباري ٢٠١/٧ - ٢٠٢) .

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٤٧٧/٦ وصحيح مسلم ١٥١/١ - ١٥٧) .

(٣) صحيح البخاري (فتح الباري ٤٥٨/١ ، ٤٩٢/٣ ، ٣٧٤/٦ ، ٢٠١/٧ - ٢٠٢) وصحيح مسلم ١٤٨/١ . وقد لفقت بين الروايات الصحيحة .

(٤) مسند أحمد ١٢٨/٣ بإسناد صحيح ، فإن أحاديث حميد الطويل عن أنس بن مالك أما سمعها منه أو بواسطة ثابت البناني وهو ثقة (تعريف أهل التقديس ٣٨) .

(٥) صحيح مسلم ١٤٦/١ .

(٦) صحيح البخاري (فتح الباري ٧٣١/٨) .

(٧) صحيح مسلم ١٦١/١ وأنظر صحيح البخاري (فتح الباري ٣١٣/٦) .

(٨) صحيح البخاري (فتح الباري ٢٠١/٧ - ٢٠٢) .

(٩) صحيح البخاري (فتح الباري ٦١٠/٨ ، ٦١١ ، ٣١٣/٦) . وصحيح مسلم ١٥٨/١ ، ١٦٠ والآيات من سورة النجم ٩ - ١٨ .

ورأى في المعراج عذاب الذين يغتابون الناس فإذا لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدروهم[1] .

وقد أتاه جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل ، فأخذ اللبن ، فقال جبريل : هي الفطرة[2] .

وقد وردت قصة الإسراء والمعراج مفصلة طويلة من طريق ضعيفة متونها تشبه أخبار القصاص[3] .

وعندما أخبر رسول الله قومه بما وقع معه من الإسراء والمعراج صدقه المؤمنون وكذبه المشركون ، قال رسول الله ﷺ : « لقد رأيتني في الحجر ، وقريش تسألني عن مسراي ، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها ، فكربت كربة ما كربت مثله قط .

قال : « فرفعه الله لي أنظر إليه ما يسألوني عن شيء إلا نبأتهم به »[4] ، لقد افتتن المشركون فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً ، ولكنهم

---

(١) مسند أحمد ٣/٢٢٤ وسنن أبي داؤد ٥/١٩٤ بإسناد صحيح كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ٢/٦٠ .

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٢٠١ - ٢٠٢) وتدل رواية البخاري ومسلم أن اختياره الاناء تمَّ في بيت المقدس قبل المعراج (صحيح البخاري كما في فتح الباري ٨/٣٩١ وصحيح مسلم ١/١٤٥ ، ٥/١٥٠ - ١٥١) .

(٣) تفسير الطبري ١٥/١١ - ١٤ ومستدرك الحاكم ٢/٥٧١ بإسناد فيه أبو هارون العبدي وهو متروك (تقريب ٤٠٨) وقال الذهبي : هذا حديث عجيب غريب » (السيرة النبوية للذهبي ١٧٨ - ١٨١) .

وثمة رواية أخرى في تفسير الطبري ١٥/٦ - ١١ وفي إسناده أبو جعفر الرازي وهو عيسى بن أبي عيسى صدوق سيئ الحفظ .

(تقريب ٦٢٩) وقد ضعف البيهقي هذا الحديث (دلائل النبوة ٢/٣٩٦ - ٤٠٣) وقال الذهبي « تفرد به أبو جعفر الرازي ، وليس هو بالقوى ، والحديث يشبه كلام القصاص ، إنما أوردته للمعرفة لا للحجة » (السيرة النبوية للذهبي ١٨٢) .

وقال ابن كثير : في ألفاظه غرابة ونكارة شديدة » (تفسير ابن كثير ٣/٢١) .

(٤) صحيح البخاري (فتح الباري ٨/٣٩١) . صحيح مسلم ١/١٥٦ ، ١٥٧ .

اضطروا للاعتراف بصحة وصفه لمسجد بيت المقدس[1] .

وقد صح أن بعض المسلمين ارتدوا ، وأن أبا بكر رضى الله عنه قال للمشركين عندما أخبروه بخبر الإسراء والمعراج : لئن قال ذلك لقد صدق . قالوا : أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ فقال : نعم . إني لأصدقه بما هو أبعد من ذلك ، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة ، فلذلك سُمي أبو بكر بالصديق[2] .

ويمكن القول بأن حادثة الإسراء كانت تطميناً ومواساةً لرسول الله ، وفتنة للكافرين الذين زاد عنادهم وكفرهم ، ولبعض ضعفاء الإيمان ممن زلزل الحادث إيمانهم ، فكفروا ولم يعودوا إلى حظيرة الإيمان حتى قتلوا[3] .

وقد تأول البعض حادث الإسراء والمعراج فزعم أنه رؤيا منامية ، ومنهم من زعم إنه بالروح وليس بالجسد ، والصواب كما ثبت عن ابن عباس أنه رؤيا عين بالروح والجسد . قال تعالى ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾[4] .

وهذا هو رأي جمهور العلماء أن الإسراء كان يقظة بروحه وجسده ، مرة واحدة[5] . وأن الإسراء والمعراج كانا في ليلة واحدة[6] .

---

(١) مسند أحمد ١/٣٠٩ بإسناد صحيح وقد صححه السيوطي والهيثمي (الدر المنثور ٤/١٥٥ ومجمع الزوائد ١/٦٤ - ٦٥) .

(٢) مستدرك الحاكم ٣/٦٢ - ٦٣ ، ٧٦ - ٧٧ وصححه ووافقه الذهبي وفي إسناده محمد بن كثير الصنعاني صدوق كثير الغلط (التقريب ٥٠٤) وقد توبع (انظر الألباني : السلسلة الصحيحة ١/٥٥٢) .

(٣) مسند أحمد ١/٣٤٩ بإسناد صححه ابن كثير (تفسير ابن كثير ٣/١٥) وفي إسناده هلال بن خباب صدوق عند الحافظ ابن حجر (تقريب ٥٧٥) .

(٤) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٢٠٢ - ٢٠٣) والآية من سورة الإسراء ٦٠ . وأنظر تفسير الطبري ١٥/١١٠ حول نفي سفيان بن عيينة أن تكون رؤيا بالمنام .

(٥) تفسير الطبري ١٥/١٣ ، ١٤ وزاد المعاد لابن القيم ١/٩٩ ، ٣/٣٤ ، ٤٠ .

(٦) فتح الباري ٧/١٩٧ .

الطواف على القبائل طلباً للنصرة :

لم يدع رسول الله ﷺ فرصة للاجتماع بالناس وتبليغهم الدعوة - تفوته ، وخاصة في موسم الحج عندما تقبل القبائل إلى مكة ، قال ربيعة بن عباد الدُؤَلي - وهو شاهد عيان - : « رأيت رسول الله ﷺ بذى المجاز يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله عز وجل ، ووراءه رجل أحول تقِد وجنتاه وهو يقول : « أيها الناس ، لا يغرنَّكم هذا من دينكم ودين آبائكم . قلت : من هو؟ قالوا هذا أبو لهب »[1] .

ومما خاطب به الناس في ذي المجاز : (يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) وكان الناس يزدحمون عليه غير أنهم لا يقولون شيئاً ، وهو لا يسكت بل يكرر دعوتهم . وأبو لهب يصيح : إنه صابيء كاذب[2] يريد لتتركوا آلهتكم وتتركوا اللات والعزى[3] .

ومما خاطب به رسول الله ﷺ الناس في الموقف : هل من رجل يحملني إلى قومه فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل ؟؟ فأتاه رجل من همدان . فقال : من أنت ؟ فقال الرجل : من همدان .

---

(١) مسند أحمد ٤٩٢/٣ من زوائد عبد الله بإسنادين حسنين يقويان ببعضهما إلى الصحيح لغيره ، والمعجم الكبير للطبراني ٥٦/٥ ومستدرك الحاكم ١٥/١ ويذكر «منى» بدل «ذي المجاز » . وصححه وأقره الذهبي ، لكن سعيد بن سلمة ليس على شرط البخاري كما قالا بل روى عنه شاهداً .
وفي رواية أخرى في مسند أحمد ٤٩٢/٣ بإسناد صحيح من زوائد عبد الله أيضاً قال « عكاظ » وهي قريب عرفات وذو المجاز بعرفة أيضاً فلا تعارض . وانظر الرواية من حديث طارق بن عبد الله المحاربي في اتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة قسم ١ م ٤/ق ٩٢ - أ - ب نقلا عن مسند ابن أبي شيبة ٥١ ب (مصورة الجامعة) وأبي يعلي الموصلي في المسند الكبير بإسناد صحيح كما في مصباح الزجاجة ٣٤٧/٢ ط . توفيق عفيفي ، القاهرة .

(٢) مسند أحمد ٣٤١/٤ ، ٣٤٢ ومستدرك الحاكم ١٥/١ والمعجم الكبير للطبراني ٥٥/٥ - ٥٦ بإسناد حسن لأنه من رواية عبد الرحمن بن أبي الزناد بالمدينة وإنما تغير حفظه لما قدم بغداد (تهذيب التهذيب ١٧١/٦ - ١٧٢) .

(٣) مسند أحمد ٦٣/٤ بإسناد صحيح .

قال : فهل عند قومك من منعة ؟

قال : نعم .

ثم إن الرجل خشي أن يخفره قومه . فأتى رسول الله ﷺ فقال : آتيهم فأخبرهم ، ثم آتيك من عام قابل .

قال : نعم .

فانطلق . وجاء وفد الأنصار في رجب[1] .

وهذا يدل على أن الحادثة جرت في العام الحادي عشر من البعثة فإن الأنصار قدموا في العام الحادي عشر من البعثة حيث جرت بيعة العقبة الأولى ، ثم في العام الثاني عشر حيث جرت بيعة العقبة الثانية ، ثم كانت الهجرة إلى المدينة .

الاتصال بالأنصار ودعوتهم :

يذكر جابر بن عبد الله الأنصاري : « مكث رسول الله ﷺ بمكه عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بُعكاظ ومجنَّة وفي المواسم بمنى يقول : من يؤويني ؟ من ينصرني حتى أبلّغ رسالة ربي وله الجنة ؟ حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر - كذا قال - فيأتيه قومه فيقولون : أحذر غلام قريش لا يفتنك ، ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع ، حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدقناه ، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن ، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه ، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام »[2] .

---

(١) مسند أحمد ٣/٣٩٠ بإسناد صحيح وقال الذهبي : « أخرجه أبو داؤد عن محمد بن كثير عن إسرائيل وهو على شرط البخاري » : (السيرة النبوية ١٨٥) . وسنن الترمذي ٥/١٨٤ وقال : « هذا حديث غريب صحيح » . ومستدرك الحاكم ٢/٦١٢ - ٦١٣ وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

وعثمان بن المغيرة إنما روى له البخاري دون مسلم .

(٢) مسند أحمد ٣/٣٢٢ - ٣٢٣ ، ٣٣٩ - ٣٤٠ بإسناد حسن كما يقول الحافظ ابن حجر (فتح الباري ٧/٢٢٢) .

=

وكـانت الاتصالات الأولى بالأنصار في مواسم الحج والعمر[1] فقد « قدم سويد بن الصامت الأنصاري مكة حاجاً أو معتمراً ، فتصدَّى له رسول الله ﷺ حين سمع به فدعاه إلى الإسلام فقال له سويد : فلعل الذي معك مثل الذي معي ؟

فقال له رسول الله ﷺ : وما الذي معك ؟

قال : مجلة لقمان - يعني حكمة لقمان .

فقال له رسول الله ﷺ : اعرضها عليّ ، فعرضها عليه . فقال له : إنَّ هذا الكلام حسن ، والذي معي أفضل من هذا ؛ قرآن أنزله الله تعالى عليّ ، وهو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ، ودعاه إلى الإسلام . فلم يبعد منه وقال : إن هذا القول حسن . ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتله الخزرج ، فإن كان رجال من قومه ليقولون : إنا لنراه قد قتل وهو مسلم وكان قتله يوم بُعاث »[2] . وعلى آية حال فلا توجد دلائل على قيام سويد ابن الصامت بالدعوة إلى الإسلام وسط قومه .

وقبل يوم بُعاث بيسير - وهو اليوم الذي جرت فيه وقعة بين الأوس والخزرج انتصر فيها الأوس بعد قتل الكثير من الطرفين وفيهم من أكابرهم ، وذلك قبل الهجرة بخمس سنين[3] . سعى الأوس لمحالفة قريش على الخزرج الذين كانوا أكثر منهم عدداً ، فقدم أبو الحيسر أنس بن رافع في وفد من بني عبد الأشهل لهذا الغرض ، فسمع بهم الرسول ﷺ ، فجاءهم ودعاهم إلى الإسلام وتلا عليهم

= ومستدرك الحاكم ٢/ ٦٢٤ - ٦٢٥ وصححه وأقره الذهبي .
والسيرة النبوية لابن كثير ٢/ ١٩٦ وقال : « هذا إسناد جيد على شرط مسلم ولم يخرجوه » .

(١) أما قصة إسلام رفاعة بن رافع الزرقي ومعاذ بن عفراء بمكة قبل قدوم الستة من الأنصار فإسنادها فيه يحيى بن محمد الشجري ضعيف وكان ضريراً يتلقن (مستدرك الحاكم ٤/ ١٤٩ وللسيوطي : الخصائص الكبرى ١/ ٣٠٠) .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٤ بإسناد حسن من رواية عاصم بن عمر بن قتادة ثقة (ت ١٢٠ هـ) يرويه عن أشياخ من قومه الأنصار .

(٣) فتح الباري ٧/ ١١١ أرخ ابن سعد الوقعة بثلاث سنين قبل الهجرة (الطبقات ١/ ٢١٩) .

القرآن . فقال أحدهم وهو إياس بن معاذ - وكان غلاماً حدثاً - : « أي قوم ! هذا والله خير مما جئتم له . فانتهره أبو الحيسر فصمت ، وقام رسول الله ﷺ عنهم ، ورجعوا إلى المدينة ، وجرت الحرب بين الأوس والخزرج يوم بعاث ، ثم مات إياس بن معاذ ، وكان قومه يسمعونه يهلل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات ، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلماً ، فقد استشعر الإسلام في لقائه مع رسول الله ﷺ في ذلك المجلس[1] .

وإذا كان الرجلان من الأوس اللذان استشعرا الإسلام لم تذكر المصادر قيامهما بالدعوة في وسط قومهما ، فإن البداية المثمرة للاتصال بالأنصار كانت مع وفد من الخزرج في موسم الحج عند عقبة منى .

قال لهم رسول الله ﷺ : من أنتم ؟

قالوا : نفر من الخزرج .

قال : أمن موالي يهود ؟

قالوا : نعم .

قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟

قالوا : بلى . فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن . .[2] .

وذكر ابن إسحاق إسلامهم وقيامهم بالدعوة في المدينة[3] ولعل استشعار الأنصار لحاجتهم إلى عقيدة تربط بينهم بعد التمزق والعداوة التي خلفتها وقعة

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٣٦ ، ٣٧ بإسناد حسن ، وقال ابن حجر إنه من صحيح حديث ابن إسحاق (الإصابة ١/١٤٦) ومسند أحمد ٥/٤٢٧ من طريق ابن إسحاق أيضاً .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/٣٧ - ٣٩ بإسناد حسن .
ولم تذكر المصادر وقوع البيعة منهم ، ومع ذلك فقد عدَّها بيعة من ذكر وقوع ثلاث بيعات عند عقبة مني وهم ابن عبد البر (الدرر ٦٧) وابن سيد الناس (عيون الأثر ١/١٥٦) والصالحي (٣/٢٦٧) . أما ابن إسحاق وابن سعد والطبري فلم يعدوها بيعة .

(٣) المصدر السابق بدون إسناد . .

بعـاث قبـل سنتـين فقط من هذا اللقاء ، لعل ذلك كان سبباً هيأه الله تعالى لإسلامهم ، وكذلك فإن مقتل رؤسائهم في بعاث خفف من التزاحم على الزعامة والأنفـة من الـدخول في الإسلام خوف فقدان السلطان والزعامة وكذلك فإن الأنصار كانوا يجاورون يهود وهم أهل كتاب ، فكانوا يعرفون قضايا الوحي والنبوة والبعث والجنة والنار فلا شك أن أذهانهم كانت مهيئة لفهم الإسلام أكثر من سواهم .

بيعة العقبة الأولى :

وقد جرت بيعة العقبة الأولى في العام التالي على لقاء وفد الخزرج ، حيث حضر اثنا عشر رجلاً ؛ عشرة من الخزرج واثنان من الأوس ، مما يشير إلى أن نشـاط وفـد الخـزرج الذين أسلموا في العام الماضي تركـز على وسطهم القبلي بالدرجة الأولى لكنهم تمكنوا بنفس الوقت من اجتذاب رجال من الأوس ، وكان ذلك بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام .

إن مصدر المعلومات الصحيحة الرئيسي عن بيعة العقبة الأولى هو عبادة بن الصـامت الخزرجي - وهو شاهد عيان مشارك بالبيعة - وقد جاءت روايته في الصحيحين : وسيرة ابن إسحاق ، لكنها عند ابن إسحاق أوضح وأكمل ونصها كما يلي .

قال عبـادة بن الصـامت : « كنتُ فيمن حضر العقبـة الأولى ، وكنـا اثنى عشر رجلاً ، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء - وذلك قبل أن يفترض علينا الحرب : على أن لا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفترته من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف ، فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء غفر وإن شاء عذب »[1] .

(١) سيرة ابن هشام ٢/٤١ ، ٤٢ بإسناد صحيح لغيره فإن حديث عبادة بن الصامت في صحيح البخاري قريسب من سياق ابن إسحاق (فتح الباري ١/٦٦ وصحيح مسلم ٣/١٣٣٣ .

والمقصود أنهم بايعوا على وفق بيعة النساء التي نزلت بها الآية ﴿ يأيها النبي إذا جاءك النساء يبايعنك ﴾[1] بعد صلح الحديبية[2] . حيث لم يرد في بيعة العقبة الأولى ذكر القتال .

ومعنى ذلك أن عبادة حدّث بهذا النص بعد نزول الآية فشبّه بيعة العقبة الأولى ببيعة النساء . ويلاحظ أن نص البيعة يكل معاقبة الجرائم إلى الله تعالى في الآخرة لعدم تشريع الحدود الإسلامية مما يؤكد قدم النص وأنه يَخص بيعة العقبة الأولى .

ولما انجزت بيعة العقبة الأولى ، وعاد الأنصار إلى المدينة بعث رسول الله معهم مصعب بن عمير ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين . فقام بمهمته خير قيام وانتشر على يديه الإسلام ، ورجع إلى مكة قبل بيعة العقبة الثانية[3] .

بيعة العقبة الثانية :

ولما انتشر الإسلام في المدينة ، واطمأن المسلمون المهاجرون بين إخوانهم الأنصار ، وبقي رسول الله ﷺ في مكة يلاقي عنت قريش وأذاها الذي كان يشتد على مر الأيام ، قدم وفد الأنصار في موسم الحج فبايعوا بيعة العقبة الثانية .

قال جابر بن عبد الله الأنصاري : « فقلنا : حتى متى نترك رسول الله ﷺ يُطرد في جبال مكة ويُخاف ، فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم ، فواعدناه شعب العقبة فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين حتى توافينا ، فقلنا : يارسول الله نبايعك .

(١) المتحنة ١٢ .

(٢) ابن حجر : فتح الباري ٦٦/١ ، ١٩٧/١٢ ويلاحظ أن الحافظ - رحمه الله - خلط بين نصوص بيعتي العقبة الأولى والثانية مما جعل كلامه متداخلاً ومضطرباً . وانظر تراجعه في ٢٢٢/٧ (انظر سليمان العودة : السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحق ٣٤٦) .
ولا يعيب هذا الحافظ ابن حجر فكثيراً ما حل لنا المشكلات العويصة في السيرة .

(٣) سيرة ابن هشام ٤٣٨/١ .

قال : تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم ، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، ولكم الجنة .

قال : فقمنا إليه فبايعناه . وأخذ بيده أسعد بن زُرارة - وهو من أصغرهم - فقال : رويداً ياأهل يثرب ، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ ، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة ، وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف . فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله ، وإما أنتم تخافون منْ أنفسكم جبينة فبينوا ذلك فهو عذر لكم عند الله .

قالو : أمط عنا يا أسعد ، فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً ولا نُسلبها .

قال : فقمنا إليه فبايعناه ، فأخذ علينا وشرط ، ويعطينا على ذلك الجنة .

« وقد نظر العباس في وجوه وفد الأنصار ثم قال : هؤلاء قوم لا أعرفهم ، هؤلاء أحداث . مما يدل على غلبة الشباب على الوفد[1] .

وهكـذا بايع الأنصـار رسول الله ﷺ على الطاعة والنصرة والحرب لذلك سماها عبادة بن الصامت بيعة الحرب[2] .

وتقِّدم رواية الصحابي كعب بن مالك الأنصاري - وهو أحد المبايعين في العقبة الثانية - تفاصيل مهمة ؛ قال : « خرجنا في حجاج قومنا من المشركين ، وقد صلينا وفقهنا . . . ثم خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق . . . وكنا نكتم من معنا من المشركين أمرنا . . . فنمنا تلك

---

(١) مسند أحمد ٣/٣٢٢ - ٣٢٣ ، ٣٣٩ - ٣٤٠ بإسناد حسن ومستدرك الحاكم ٢/٦٢٤ - ٦٢٥ وصححه واقره الذهبي .
والسيرة النبوية لابن كثير ٢/١٩٦ وصححه على شرط مسلم ويرى ابن حجر أن فيه علة تدليس أبي الزبير وقد عنعن . ويقول : فلعل تصحيحه أو تحسينه بالنظر لشواهده (فتح الباري ٧/١٧٧) .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/٦٣ ومسند أحمد ٢/٦٣ بإسناد صحيح لغيره .

الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ، نتسلل تسلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ، ومعنا امرأتان من نسائنا : نُسيبة بنت كعب . . ، وأسماء بنت عمرو . . . فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب - وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحبّ أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له - فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب » فبين أن الرسول في منعة من قومه بني هاشم ولكنه يريد الهجرة إلى المدينة ، ولذلك فإن العباس يريد التأكد من حماية الأنصار له وإلا فليدعوه . فطلب الأنصار أن يتكلم رسول الله فيأخذ لنفسه ولربه ما يحب من الشروط .

« فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ورغّب في الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق ، لنمنعنّك مما نمنع منه أُزرنا فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله أهل الحرب ، وأهل الحلقة ، ورثناها كابراً عن كابر » فقاطعه أبو الهيثم بن التيهان متسائلاً : « يارسول الله إن بيننا وبين القوم حبالاً وإنا قاطعوها (يعني اليهود) فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : بل الدم بالدم والهدم بالهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم » .

ثم قال : أخْرِجوا إليَّ منكم اثنى عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم .

فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس »

وقد طلب الرسول ﷺ منهم الانصراف إلى رحالهم ، وقد سمعوا الشيطان يصرخ منذراً قريشاً ، فقال العباس بن عبادة بن نضلة : والله الذي بعثك بالحق ، إن شئت لنميلنَّ على أهل مني غداً بأسيافنا .

فقال رسول الله ﷺ : لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم » .

فرجعوا إلى رحالهم ، وفي الصباح جاءهم جمع من كبار قريش ، يسألونهم عما بلغهم من بيعتهم للنبي ودعوتهم له للهجرة ، فحلف المشركون من الخزرج والأوس بأنهم لم يفعلوا والمسلمون ينظرون إلى بعضهم ![1] .

وهكذا مرت البيعة بسلام وعاد الأنصار إلى المدينة .

ينتظرون هجرة النبي ﷺ إليهم بتلهف كبير .

الهجرة إلى المدينة المنورة :

تدل النصوص الصحيحة على أن اختيار المدينة مهاجراً لرسول الله ﷺ كان بوحي إلهي كما في الحديث : « رأيتُ في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل ، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر ، فإذا هي المدينة يثرب »[2] .

والحديث « إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين »[3] .

و « كأن النبي أرى دار الهجرة بصفة تجمع المدينة وغيرها ، ثم أرى الصفة المختصة بالمدينة فتعيَّنت »[4] .

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٤٣٩ - ٤٤٣ ، ٤٤٧ - ٤٤٨ بإسناد حسن ، وقد صححه ابن حبان كما في فتح الباري ٧/٢٢١ .
وأخرجه أحمد في مسنده ٣/٤٦٠ من طريق ابن إسحق أيضاً وفي فضائل الصحابة ٢/٩٢٣ مختصراً .
ووقع في سند ابن إسحاق مرة ذكر الزهري واسطةً لتحمله عن معبد بن كعب ، وهو وهم سلك فيه الراوي الجادة (سيرة ابن هشام تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ٢/٤٧ ووقع في ط . السقا بالاستناد إلى أصلين دون ذكر الزهري (سيرة ابن هشام ١/٤٤٧) وكذلك في فتح الباري ٧/٢٢١ ، وابن إسحاق يروي مباشرة عن معبد بن كعب ولا يحتاج إلى واسطة .

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٢٢٦ وصحيح مسلم ٤/١٧٧٩ . وأما حديث « إن الله أوحى إلى أي هؤلاء البلاد الثلاث نزلت فهي دار هجرتك ، المدينة أو البحرين أو قنسرين » . (سنن الترمذي ٥/٧٢١ وقال : غريب) فهو منكر كما قال ابن حبان في الثقات ٧/٣١١ والذهبي (الميزان ٣/٣٣٨) وقال ابن حجر : في ثبوته نظر لأنه مخالف لما في الصحيح (فتح الباري ٧/٢٢٨) .

(٣) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٢٣١ وبيَّن الزهري أن اللابتين هما الحرتان) فتح الباري ٧/٢٣٤) .

(٤) ابن حجر : فتح الباري ٧/٢٣٤ نقلاً عن ابن التين وهو أحد شراح صحيح البخاري .

أوائل المهاجرين :

ويتفق موسى بن عقبة وابن إسحاق على أن أبا سلمة بن عبد الأسد هو أول من هاجر من مكة إلى المدينة بعد أن آذته قريش إثر عودته من هجرة الحبشة . فتوجَّه إلى المدينة قبل بيعة العقبة بسنة[1] .

وكذلك فإن مصعب بن عمير وابن أم مكتوم كانا من أوائل المهاجرين حيث كانا يقرئان الناس القرآن[2] . وقد تتابع المهاجرون فقدم المدينة بلال بن رباح وسعد بن أبي وقاص وعمار بن ياسر ثم عمر بن الخطاب في عشرين من الصحابة[3] .

وقد سعت قريش بشتى الطرق إلى عرقلة الهجرة إلى المدينة ، وإثارة المشاكل أمام المهاجرين ، مرة بحجز أموالهم ومنعهم من حملها ، ومرة بحجز زوجاتهم وأطفالهم ، وثالثةً بالاحتيال لاعادتهم إلى مكة . لكن شيئاً من ذلك كله لم يعق موكب الهجرة ، فالمهاجرون كانوا على أتم الاستعداد للانخلاع عن أموالهم وأهليهم ودنياهم كلها تلبية لداعي العقيدة .

قالت أم المؤمنين أم سلمة[4] رضى الله عنها : « لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيره ، ثم حملني عليه ، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري ، ثم خرج بي يقود بعيره . فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتَنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه علاَم نتركك تسير بها في البلاد ؟

---

(١) سيرة ابن هشام ٤٦٨/١ من طريق ابن إسحاق بدون إسناد وابن حجر : فتح الباري ٢٦١/٧ . لذلك قالت أم سلمة رضى الله عنها إن أبا سلمة أول بيت هاجر إلى رسول الله (صحيح مسلم ٦٣٢/٢) .

(٢) و(٣) صحيح البخاري (فتح الباري ٢٦٠/٧) من حديث البراء بن عازب .

(٤) هند بنت أبي أمية ، هاجرت إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، ولما مات زوجها أبو سلمة بن عبد الأسد تزوجها رسول الله ﷺ (الإصابة لابن حجر ١٥٠/٨) وقد ذكر الواقدي أن عمرها حين وفاتها ٨٤ سنة ، وبينت الروايات الصحيحة أنها كانت حية في أيام ثورة ابن الزبير علي يزيد ابن معاوية ، ولعل وفاتها كانت سنة ٦١ هـ كما قال محمد بن حبيب (المحبر ٨٥) فتكون سنها حين الهجرة ٢٣ سنة وحين زواجها من رسول الله ﷺ ٢٧ سنة .

قالت : فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه .

قالت : وغضب عند ذلك بنوعبد الأسد رهط أبي سلمة .

قالوا : لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا .

قالت : فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده . وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة .

قالت : فُفرق بيني وبين زوجي وبين ابني .

قالت : فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح ، فما أزال أبكي حتى أمسي ، سنةً أو قريباً منها . حتى مرّ بي رجل من بني عمي - أحد بني المغيرة - فرأى مابي ، فرحمني ، فقال لبني المغيرة : ألا تخرجون هذه المسكينة فرَّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها ؟

قالت : فقالوا لي : الحقي بزوجك إن شئت .

قالت : وردَّ بنو عبد الأسد اليَّ عند ذلك ابني .

قالت : فارتحلت بعيري ، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري ، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة . وما معي أحد من خلق الله .

قالت فقلت : أتبلغُ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي . حتى إذا كنتُ بالتنعيم لقيتُ عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار ، فقال لي : إلى أين يابنت أبي أُميَّة ؟

قالت فقلت : أريد زوجي بالمدينة .

قال : أو ما معك أحد ؟

قالت فقلت : لا والله إلا الله وبنيَّ هذا .

قال : والله مالك من مترك .

فأخذ بخطام البعير . فانطلق معي يهوي بي ، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ، ثم استأجر عني ، حتى إذا نزلت عنه استأخر ببعيري فحط عنه ، ثم قيَّده في الشجرة ، ثم

تنحىّ إلى الشجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله .

ثم استأخر عني فقال : اركبي ، فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه ، فقاد بي حتى ينزل بي ، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة .

فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال : زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة بها نازلاً - فادخليها على بركة الله . ثم انصرف راجعاً إلى مكة .

قال فكانت تقول : والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة . وما رأيت صاحباً قط أكرم من عثمان بن طلحة »[(١)] .

وقد سقت الخبر بطوله لما فيه من دلالة على الصعوبات التي واجهها المهاجرون ، وهي تشير إلى أثر العصبية في اتخاذ العشائر القرشية مواقفها من الأحداث . فقد انحاز قوم أبي سلمة إليه رغم مخالفتهم له في العقيدة ، ثم إن الخبر يكشف عن صورة من صور المروءة التي عرفها المجتمع القرشي قبل الإسلام تتمثل في موقف عثمان بن طلحة وتطوعه في مصاحبة المرأة وإحسان معاملتها مما يدل على سلامة الفطرة التي قادته أخيراً إلى الإسلام بعد صلح الحديبية ، ولعل إضاءة قلبه بدأت منذ تلك الرحلة مع المرأة المسلمة .

وثمة صورة تاريخية لحدث آخر هو هجرة عمر بن الخطاب كما حدَّث بها بنفسه قال : « اتعدت لما أردنا الهجرة إلى المدينة أنا وعيَّاش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاص بن وائل السهمي ، التناضِب من إضاءة بني غفار فوق سرف[(٢)] ،

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٤٦٩ - ٤٧٠ من رواية ابن إسحاق بإسناد صالح للاعتبار فيه سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة مقبول ، ولم أجد له متابعاً ، وقد تفرد بتوثيقه ابن حبان (البخاري : التاريخ الكبير ٤/ ٨٠ وابن أبي حاتم : الجرح والتعديل ٤/ ١٦٦ وابن حبان : الثقات ٦/ ٣٩٩ وابن حجر : تهذيب التهذيب ٤/ ١٤٨ - ١٤٩ وتقريب التهذيب ٢٤٨) .
وعلى أية حال فهو خبر تاريخي لا يتعلق بالعقيدة أو الشريعة ورد من طريق صالحة لإثبات الحدث تاريخياً .

(٢) التناضب : ضرب من الشجر ، وأضاءة بني غفار على عشرة أميال من مكة ، والأضاءة : الغدير (الروض الأنف للسهيلي ٤/ ١٨٨ - ١٩٠) وسرف : وادٍ من أودية مكة دخل في العمران حالياً .

وقلنا أينا (لا)[1] يصبح عندها فقد حُبس ، فليمض صاحباه .

قال : فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب ، وحبس عنها هشام ، وفُتِنَ فافتَتَن .

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء ، وخرج أبو جهل بن هشام ، والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة - وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما - حتى قدما علينا المدينة - ورسول الله ﷺ بمكة - فكلماه وقالا : إن أمك قد نذرت ألا يمسَّ رأسها مشط حتى تراك ، فرقَّ لها .

فقلت له : ياعيَّاش إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم . . .

فقال : أبَرُّ قسم أمي ، ولي هناك مال فآخذه .

فقلت : والله إنك لتعلمُ أني لمن أكثر قريش مالاً ، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما .

فأبي عليّ إلا أن يخرج معهما .

فلما أبى إلا ذلك قلت : أما إذا قد فعلتَ ما فعلتَ فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول . فالزم ظهرها ، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها ، فخرج عليها معهما .

حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل : والله ياأخي لقد استغلظت بعيري هذا ، أفلا تعقبني على ناقتك هذه ؟

قال : بلى .

قال : فأناخ وأناخ ليتحول عليها ، فلما استووا بالأرض عَدَوا عليه فأوثقاه وربطاه ، ثم دخلا به مكة وفتناه فافتتن .

قال : فكنا نقول : ما الله بقابل ممن افتَتَن صرفاً ولا عدلاً ولا توبةً ؛ قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم .

---

(١) الزيادة يقتضيها السياق .

قال : وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفي قولنا وقولهم لأنفسهم ﴿ ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقطنوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون . واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتةً وأنتم لا تشعرون ﴾[1] .

قال عمر بن الخطاب : فكتبتها بيدي في صحيفة ، وبعثت بها إلى هشام ابن العاص .

قال فقال هشام : فلما أتتني جعلت أقرؤها بذي طوى[2] أصعِّدُ بها فيه وأصوِّبُ ولا أفهمها . حتى قلت : اللهم فهمنيها .

قال : فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أنزلت فينا وفيما كنا نقول لأنفسنا ويقال فينا .

قال : فرجعت إلى بعيري فجلست عليه فلحقت برسول الله ﷺ .[3] .

وأما ما روي من إعلان عمر لهجرته وتهديده من يلحق به بثكل أمه فلم يصح[4] .

---

(١) الزمر ٥٣ - ٥٥ .

(٢) ذوطَوى : وادٍ بمكة .

(٣) سيرة ابن هشام ١/٤٧٤ بإسناد حسن لذاته حيث صرّح ابن إسحاق بالتحديث ، ومن طريق ابن إسحاق أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٤٣٥ وقال : حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الذهبي .
وقال الهيثمي : رواه البزار ورجاله ثقات (مجمع الزوائد ٦/٦١) .
وانظر روايات أخرى للواقدي في الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/٢٧١ وكأنه اختصار لمتن ابن إسحاق وفيها « وكنا إنما نخرج سراً » .

(٤) ابن الأثير : أسد الغابة ٤/٥٢ بإسناد فيه مجاهيل ثلاثة (الألباني : دفاع عن الحديث النبوي والسيرة ١٤٣ . وانظر شرح المواهب اللدنية ١/٣١٩ والسيرة الشامية للصالحي ٣/٣١٥ . وفي إسنادهما المجاهيل الثلاثة .

لقد نزل كثير من المهاجرين في قباء في مكان يسمى (العُصبَة) قبل مقدم رسول الله ﷺ ، وكان سالم بن معقل مولى أبي حذيفة يؤمهم في مسجد قباء ، لكونه أكثرهم قرآناً[1] . لقد أرخ الزهري لهجرة المصطفى ﷺ .

قال الزهري : « مكث رسول الله ﷺ بعد الحج بقية ذي الحجة ، والمحرم وصفر ثم إن مشركي قريش اجتمعوا » -يعني على قتله- وقال الحاكم : « تواترت الأخبار أن خروجه كان يوم الاثنين ودخوله المدينة كان يوم الاثنين »[2] وقد أذن الله تعالى لرسوله بالهجرة إلى المدينة ، وكان يتردد على بيت أبي بكر كل يوم صباحاً ومساء ، لا يكاد يدع ذلك[3] ، فلما إذن له بالهجرة جاءهم ظهراً على غير عادته وهو متقنع ، فأخبر أبا بكر بذلك . واختيارُهُ وقت الظهر لأن الناس تأوي إلى بيوتها للقيلولة فراراً من الحر ، وتقنُعُهُ يفيد شعوره بالخطر من حوله ، فقد اعتزمت قريش قتله ، ولابد أنها ستعمد إلى رصد تحركه . قال تعالى : ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾[4] . وقد بينت رواية ضعيفة - بسبب الإرسال - قصة اجتماع المشركين على باب الرسول ﷺ وذره التراب على رءوسهم[5] . كما بيَّن ابن عباس حصار المشركين لبيته ابتغاء قتله ، ومبيت علي على فراشه ، ولحاقه ﷺ بالغار ، ولما علم المشركون ذلك في الصباح اقتصوا أثره إلى الغار فرأوا على بابه نسيج العنكبوت فتركوه . ولكن هذه الرواية لا تصلح للاحتجاج بها وهي « أجود ما روى في قصة نسيج العنكبوت على فم الغار »[6] .

---

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ٢/١٨٤ ، ١٣/١٦٧) .
(٢) فتح الباري ٧/٢٣٦ .
(٣) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٢٣٠) .
(٤) الانفال ٣٠ .
(٥) سيرة ابن هشام ١/٤٨٣ بسند صحيح إلى محمد بن كعب القرظي لكنه مرسل .
(٦) مسند أحمد ١/٣٤٨ بإسناد ضعيف لكنه صالح للاعتبار ، وقد حسنه ابن كثير (البداية والنهاية ٣/١٧٩ وقال : وهو أجود ما روى في قصة نسج العنكبوب على فم الغار) . وحسنه ابن حجر

وقد ورد حديث ضعيف جداً يفيد أن الرسول ﷺ لما بات في غار ثور أمر الله شجرةً ، فنبتت في وجه الغار ، وأمر حمامتين وحشيتين ، فوقعتا بفم الغار . وأن ذلك سبب صدود المشركين عن الغار . ومثل هذه الأساطير تسربت إلى مصادر كثيرة في الحديث والسيرة[1] .

وعلى أية حال فإن ائتمار المشركين لقتله ثابت بنص الآية فلا يبعد أن يحاصروا بيته .

قالت عائشة رضى الله عنها : « فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة ، قال قائل لأبي بكر : هذا رسول الله ﷺ متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها .

فقال أبو بكر : فداء له أبي وأمي ، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر .

قالت : فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له ، فدخل . فقال النبي ﷺ لأبي بكر : أخرج من عندك .

فقال أبو بكر : إنما هم أهلك[2] بأبي أنت يارسول الله .

قال : فإني قد أذن لي في الخروج .

فقال أبو بكر : الصحابة بأبي أنت يارسول الله .

= (الفتح ٧/٢٣٦) وحسنه الزرقاني (شرح المواهب ١/٣٢٣) وفي السند عثمان بن عمرو بن ساج الجزري فيه ضعف (ابن حجر : تقريب ٣٨٦) تفرد بتوثيقه ابن حبان ، وحديثه صالح للاعتبار (تهذيب التهذيب ٧/١٤٥) قال الإلباني : واعلم أنه لا يصح حديث في العنكبوت والحمامتين (سلسلة الأحاديث الضعيفة ٣/٣٣٩) .

(١) أخرجه ابن سعد : ١/٢٢٩ وفي سنده أبو مصعب المكي مجهول وعوين بن عمرو منكر الحديث وسماه (عون) وأخرجه البزار كما في مسنده ٢/ق ٢٣٢ وأنظر كشف الاستار ٢/٢٩٩ - ٣٠٠ وفي إسناده عوين بن عمرو ، وهو منكر الحديث لاشيء ، وقد تفرد به ، وشيخه أبو مصعب مجهول ، وقد تسرب الحديث إلى المعجم الكبير للطبراني ٢٠/٤٤٣ ودلائل النبوة لأبي نعيم ٦/٢٦٩ - ٢٧٠ ودلائل النبوة للبيهقي ٢/٢١٣ - ٢١٤ والبداية والنهاية لابن كثير ٣/١٨١ وقال : غريب جداً من هذا الوجه .
وشرح المواهب اللدنية للزرقاني ١/٣٣١ وسبل الهدى والرشاد ٣/٣٣٩ - ٣٤٠ .

(٢) وكان قد زوّجه عائشة رضى الله عنها .

قال رسول الله ﷺ : نعم .

قال أبو بكر : فخذ - بأبي أنت يارسول الله - إحدى راحلتي هاتين .

قال رسول الله ﷺ : بالثمن .

قالت عائشة : فجهزنا هما أحث الجهاز ، وضعنا لهم سفرة في جراب فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها ، فربطت به على فم الجراب . وبذلك سميت ذات النطاق .

قالت : ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور ، فكمنا ثلاث ليال ، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر - وهو غلام شاب ثقف لقن - فيدلج من عندهما بسحر ، فيصبح من قريش بمكة كبائت ، فلا يسمع أمراً يُكتادان به إلا وعاه ، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، ويرعى عليهما عامر بن فُهَيرة - مولي أبي بكر - منحة من غنم ، فيريحها عليهما حتى تذهب ساعة من العشاء ، فيبيتان في رسل - وهو لبن منحتِهما ورضيفهِما - حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس ، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث .

وأستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل وهو من بني عدي بن عدي - هادياً خرِّيتاً[1] قد غمس حلفاً في العاص بن وائل السهمي - وهو على دين الكفار - فدفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبحَ ثلاث »[2] .

وتشير رواية صحيحة أخرى إلى أن رسول الله وأبا بكر « ركباً فانطلقا حتى أتيا الغار وهو بثور »[3] .

---

(١) قال الزهري : والخريت الماهر بالهداية (فتح الباري ٧/٢٣٨) وقد سماه ابن إسحاق « عبد الله بن أرقط » .

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٢٣١ - ٢٣٢) .

(٣) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٣٨٩) .

وثمة رواية حسنة تفيد أن رسول الله ﷺ انطلق إلى الغار من بيته ، حيث حاصره المشركـون يريدون قتله ، فلبس علي رضى الله عنه ثوبه ونام مكانه ، واخترق رسول الله ﷺ حصار المشركين دون أن يروه ، بعد أن أوصى عليا بأن يخبر أبا بكر أن يلحق به ، فجاء أبو بكر وعليّ نائم ، وأبو بكر يحسب أنه نبي الله . قال فقال : يانبي الله .

فقال له علي : إن نبي الله ﷺ قد انطلق نحو بئر ميمون[1] فأدركه .

قال : فانطلق أبو بكر فدخل معه الغار .

قال : وجعل علي يُرمي بالحجارة ، كما كان يُرمي نبي الله وهو يتضور ، قد لفَّ رأسه في الثوب لا يخرجه ، حتى أصبح[2] .

ثم كشف عن رأسه ، فقالوا : إنك للئيم ! . كان صاحبك نرميه فلا يتضوَّر وأنت تتضوَّر وقد استنكرنا ذلك[3] .

---

(١) تقع في سبيل الست في طريق منى .

(٢) تشير رواية ضعيفة إلى كسر الرسول ﷺ وعلى رضى الله عنه لصنم نحاسي كان في أعلى الكعبة ، وذلك في الليلة التي بات فيها علي في فراشه ﷺ ، ومدار الرواية على نعيم بن حكيم وهو صدوق له أوهام ، ومثله لا يحتج بما تفرد به ، وقد تفرد بهذه الرواية(مصنف ابن أبي شيبة ١٤/٤٨٨ - ٤٨٩ ومسند أحمد ١/٨٤ والنسائي : الخصائص ١١٧ ، ١٢٢ وتهذيب الآثار ٣/٢٣٧ ومستدرك الحاكم ٣/٥ وشيخ الحاكم هنا هو أبو بكر محمد بن إسحق القطيعي ، ٢/٣٦٦ - ٣٦٧ وقال الذهبي : إسناد نظيف والمتن منكر . وتاريخ بغداد ١٣/٣٠٢ ، وموضع أوهام الجمع والتفريق ٢/٤٣٢ . والبوصيري : اتحاف المهرة الخيرة ٩٣ أ .

(٣) مسند أحمد ٥/٢٦ - ٢٧ (ط : أحمد محمد شاكر) من حديث ابن عباس بإسناد حسن فيه أبو بلج صدوق . وقد صحح الشيخ أحمد محمد شاكر سنده ، وقال الهيثمي : رجال أحمد رجال الصحيح غير أبي بَلْج الفزاري وهو ثقة وفيه لين (مجمع الزوائد ٩/١١٩ - ١٢٠) وقال ابن حجر : « أبو بلج صدوق ربما أخطأ » (تقريب ٦٢٥) .

وقد انفرد بهذا الحديث وقد قال ابن حبان : « أرى أن لا يحتج بما انفرد به من الرواية (المجروحين ٣/١١٢) .

لقد كان غار ثور قد تحدد منطلقاً للهجرة ، وضُرب الموعد مع الدليل في ذلك المكان ، وكان خروج المصطفى والصديق إلى الغار ليلاً[1] .

ولا تقوى هذه الرواية على معارضة ما في الصحيح ، ولكن يمكن التوفيق بينهما ، لأن رواية الصحيح ليست صريحة في ركوبهما من بيت الصديق رضى الله عنه . فإذا افترضنا أن اصطحابهما معاً جرى من بئر ميمون أمكن التوفيق بين الروايتين .

لقد حمل أبو بكر رضى الله عنه ثروته ليضعها تحت تصرف رسول الله ﷺ ، وقد ذكرت أسماء ابنته أنها خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم[2] .

لقد مكث الأثنان في الغار ثلاث ليالٍ وقد تمكن المشركون من اقتفاء أثرهم إلى الغار حيث رأى الصديق أقدامهم فقال : « يانبي الله ، لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا .

قال : « أسكت يا أبا بكر اثنان الله ثالثُهما »[3] . وإلى هذا اليقين والتوكل الكامل تشير الآية ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾[4] .

لقد أخفقت قريش في العثور عليهما ، فأعلنت عن مكافأة لمن يقتلهما أو يأسرهما[5] .

لقد أرخت رواية واهية خروج النبي ﷺ من الغار في ليلة الاثنين لأربع ليال خلون من شهر ربيع الأول ، وأدركتهما القيلولة ظهر يوم الثلاثاء بقديد . وهذا

---

(١) يؤيده ما في مغازي عروة ص ١٢٨ ، ١٢٩ ومغازي موسى بن عقبة ، وكذلك رواية الواقدي في طبقات ابن سعد ١/٢٢٧ .

(٢) مستدرك الحاكم ٣/٥ ودلائل البيهقي ٢/٤٨٠ بإسناد فيه انقطاع بين يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير وأسماء ، ولكن يحيى أخذ الخبر عن أبيه عباد كما في سيرة ابن هشام ١/٤٨٨ فهو الذي يروي عن جدته أسماء ، لذلك فإن السند حسن . ثم هو مما يتداول عادة في الوسط العائلي .

(٣) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٢٥٧) .

(٤) التوبة : ٤٠ .

(٥) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٢٣٨) .

التحديد يثير الشك بصحة الرواية فضلاً عن ضعف الإسناد[1] .

لقد مضى الاثنان في الطريق إلى المدينة وهما يحسان برصد المشركين لهما . قال أبو بكر : « أُخذ علينا بالرصد فخرجنا ليلاً »[2] ، ووقعت معجزة للنبي ﷺ في طريق الهجرة ، ولنقرأ ما سجّله الصديق رضى الله عنه عن بداية الرحلة قال : « أسرينا ليلتنا كلها حتى قام قائم الظهيرة ، وخلا الطريق فلا يمر فيه أحد ، حتى رُفعت لنا صخرة طويلة لها ظل ، لم تأتِ عليه الشمس بعد ، فنزلنا عندها ، فأتيتُ الصخرة فسويت بيدي مكاناً ينام فيه النبي - ﷺ - في ظلها ثم بسطت عليه فروة .

ثم قلت : « نم يارسول الله وأنا أنفض لك ما حولك ، فنام »
ثم حكى أبو بكر خبر مرور راعٍ بهما ، فطلب منه لبنا ، وصادف استيقاظ الرسول فشرب ثم قال : « ألم يأنِ للرحيل » قلت : بلى قال : فارتحلنا بعدما زالت الشمس ، وأتبعنا سراقة بن مالك ونحن في جَلد من الأرض [3][4] .

وقد اشتهر في كتب السيرة والحديث خبرُ نزول الرسول ﷺ وأصحابه بخيمة أم مَعْبد بقديد طالبين القِرى ، فاعتذرت لهم لعدم وجود طعام عندها ، إلا شاة

---

(١) ابن سعد : الطبقات ١/٢٣٢ بإسناد واهٍ فيه عبد الملك بن وهب المذحجي اسمه الحقيقي سليمان بن عمرو النخعي قال الإمام البخاري : معروف بالكذب (التاريخ الكبير ٢/٢/٢٨ وانظر حاشية المعلمي اليماني على الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٥/٣٧٣) وانفرد بتوثيقه ابن حبان (الثقات ٧/١٠٨) وفي السند محمد بن بشر بن محمد الواسطي أبو أحمد العسكري ، والصحيح أنه بشر بن محمد بن أبان السكري البصري . ترجم له البخاري ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً (التاريخ الكبير ١/٢/٨٤) وقال أبو زرعة الرازي : هو شيخ (الجرح والتعديل ٢/٣٦٤) وذكر ابن عدي فيه جرحاً شديداً (الكامل ٣/١٠٩٦ - ١١٠٠) ثم إن اعلاه يشك البخاري في إرساله حيث تساءل : الحر ما أدري أدرك أبا معبد ؟ (التاريخ الكبير ١/٢/٨٤) .

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٢٥٥) .

(٣) يعني أرضاً صلبة مستوية .

(٤) صحيح مسلم ٤/٢٣٠٩ من حديث البراء بن عازب .

هزيلة لا تدرّ لبناً . فأخذ الشاة فمسح ضرعها بيده ، ودعا الله ، وحلب في إناء حتى علت الرغوة ، وشرب الجميع ، ولكن هذه الرواية طرقها ما بين ضعيفة وواهية[1] إلاّ طريقاً واحدة يرويها الصحابي قيس بن النعمان السكوني ونصها « لما انطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر يستخيفان نزلاً بأبي مَعْبد فقال : والله مالنا شاة ، وإن شاءنا لحوامل فما بقي لنا لبن .

(١) أخرجها ابن إسحاق بإسناد معضل كما في دلائل النبوة للبيهقي ٤٩٣/٢ من رواية يونس بن بكير عنه .
- وابن خزيمة كما ذكر ابن حجر في الإصابة . ولم أقف على سنده .
- والطبراني : المعجم الكبير ٥٦/٤ بإسناد فيه مكرم بن محرز انفرد ابن حبان بتوثيقه (الثقات ٢٠٧/٩) ولم يذكر فيه ابن أبي حاتم جرحاً ولا تعديلاً (الجرح والتعديل ٤٤٣/٨) وفيه محرز بن مهدي مجهول ، وهشام بن خنيس مجهول الحال . وقال الهيثمي : وفي إسناده جماعة لم أعرفهم (مجمع الزوائد ٥٨/٦) .
- وأخرجه الطبراني من طريق آخر فيه عبد العزيز بن يحيى المديني نسبه البخاري وغيره إلى الكذب وفيه مجاهيل أيضاً كما يقول الهيثمي (مجمع الزوائد ٢٧٩/٨ وانظر ميزان الاعتدال ٥٧٣/٣ والضعفاء للعقيلي ٧٤/٤) .
- وأخرجه ابن سعد : الطبقات ٢٣٠/١ بإسناد واهٍ فيه سليمان بن عمرو النخعي ، وقد دلس اسمه عبد الملك بن وهب المذحجي وهو كذاب (الكامل لابن عدي ١٠٩٦/٣) .
- وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٨٤/١/٢ وفي إسناده عبد الملك بن وهب المذحجي كذاب (التاريخ الكبير ٢٨/٢/٢) وشك البخاري في انقطاع السند .
- وأخرجه البزار بإسنادين أحدهما فيه عبد الرحمن بن عقبة مجهول الحال ويعقوب بن محمد الزهري صدوق كثير الوهم والرواية عن الضعفاء (كشف الاستار ٣٠٠/٢) والآخر سنده حسن ومتنه قال عنه البزار : وهو يخالف سائر الأحاديث في قصة أم معبد (كشف الاستار ٣٠١/٢) ومن اختلاف متنه قوله « نزلا بأبي معبد » وذكره إسلام أبي معبد آنذاك .

وهذه الرواية من حديث قيس بن النعمان أخرجها الطبراني بسند صحيح وسياق اتم فيما ذكر ابن حجر (الإصابة ٥٠٦/٥) .

وساقها الحاكم في المستدرك ٩/٣ من حديث هشام بن حبيش مجهول الحال . وساقها من طريق قيس بن النعمان ٨/٣ - ٩ ، ولم يصرح باسم الراعي .

وأخرجه البغوي وابن شاهين وابن منده من طريق حزام بن هشام بن حبيش بن خالد عن ابيه (السيوطي : الخصائص الكبرى ٣٠٩/١) .

وأخرجه أبو نعيم الأصبهاني بسنده من حديث هشام بن حبيش (دلائل ٢٨٢) . =

فقال رسول الله ﷺ : أحسبه - فما تلك الشاة ؟ فأتىَ بها . فدعا رسول الله ﷺ بالبركة عليها ، ثم حلب عساً فسقاه ، ثم شربوا ، فقال أنت الذي يزعم قريش أنك صابيء ؟ قال : إنهم ليقولون . قال : أشهد أن ما جئت به حق . ثم قال : أتبعك قال : لا حتى تسمع أنا قد ظهرنا . فاتَّبَعَهُ بعدُ » . وهذا الخبر

وأخرجه ابن سيد الناس من طريق أبي بكر الشافعي بإسناد فيه الكديمي وعبد العزيز بن يحيى متهمان (عيون الأثر ١/١٨٨) .

وبإسناد فيه ابن إسحاق عن أسماء بنت أبي بكر مُعضلاً .

وبإسناد فيه هشام بن حبيش مجهول الحال ، وإضاف ابن سيد الناس إلى أسانيد أبي بكر الشافعي سنداً فيه سيف بن عمر التميمي وهو متروك .

وساق ابن كثير الخبر من طريق ابن أبي ليلى ، وليس فيه التصريح بأم معبد أو بأبي معبد ، فسنده منقطع . كما ساقها من رواية البزار بالسند الذي فيه عبد الرحمن بن عقبة (البداية والنهاية ٣/١٨٩) . ثم ساقها ابن كثير بواسطة البيهقي وفي إسناده عبد الملك بن وهب المذحجي كذاب (البداية والنهاية ٣/١٩٠) ويرى ابن كثير أن قصة أم معبد مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضاً (البداية والنهاية ٣/١٨٨) .

ثم إن الحافظ ابن حجر ذكر أن ابن منده ساقها من طريق عبد الرحمن بن عقبة (الإصابة ٦/١٦٩) وقد سبق أنه مجهول الحال .

وذكر الحافظ ابن حجر أيضاً (الإصابة ٨/٣٠٦ - ٣٠٧) أن ابن السكن أخرجها من طريقين : طريق ابن الأشعث حفص بن يحيى التيمي ولم أقف على ترجمته ، ومن طريق آخر بسند لم يذكر ابن حجر سائر رجاله لكن متن روايتي ابن السكن مخالف لمتون الروايات الأخرى .

كذلك أخرج القصة ابن عبد البر في الاستيعاب (١٩٥٨) بإسناد فيه الحكم بن أيوب الخزاعي انفرد ابن حبان بتوثيقه (لسان الميزان ١/٤٧٨) وذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٢/٢٤٥) فلم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً وفيه محمد بن سليمان بن الحكم الخزاعي ذكره ابن ابي حاتم في الجرح والتعديل ٧/٢٦٩ ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً ، ولكنه كتب عنه فيبدوا أنه - على الأقل - يُعتبر بحديثه . وفيه عبد الله بن محمد بن عيسى بن حكيم لم أقف على ترجمته .

وهكذا لا يخلو طريق من طرقها من العلل القادحة ، وهي بمجموع طرقها لا تصلح للاحتجاج بها في موضوع المعجزات . ولكن حديثي التابعي الكبير عبد الرحمن بن أبي ليلي والصحابي جابر بن عبد الله هما أمثل طرق قصة أم معبد يعتضدان إلى الحسن لغيره . لكنهما لا يقويان على مناهضة حديث قيس بن النعمان من طريق الطيالسي فإنه حسن لذاته بل يرى ابن حجر أنه صحيح

فيه معجزة حسيَّة للرسول ﷺ . شاهدها أبو معبد فأسلم[1] .

ولندع رواية سراقة بن مالك تكمل الخبر التاريخي ففيها تفاصيل تكشف عن المعجزة النبوية .

قال سراقة : « لما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم . قال : فبينا أنا جالس في نادي قومي إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا فقال : والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا على آنفاً إني لأراهم محمداً وأصحابه .

قال : فأومأت إليه بعيني أن أسكت . ثم قلت : إنما هم بنو فلان يبتغون ضالة لهم ، قال : لعلَّهُ ، ثم سكت .

قال : ثم مكثت قليلاً ثم قمت فدخلت بيتي ، ثم أمرت بفرسي فقيِّد لي إلى بطن الوادي ، وأمرت بسلاحي ، فأخرج لي من دبر حجرتي ، ثم أخذت قداحي التي أستقسم بها[2] . ثم انطلقت فلبست لأُمتيَ ، ثم أخرجتُ قِداحي فاستقسمتُ بها ، فخرج السهم الذي أكره : لا يضره .

قال : وقد كنت أرجو أن أرده على قريش فآخذ المائة الناقة .

قال : فركبت على أثره ، فبينا فرسي يشتدُّ بي عثر بي فسقطت عنه .

قال فقلت : ما هذا !!

---

(١) رواه البزار بإسناد حسن وقال معقباً : لا نعلم روى قيس عن النبي ﷺ إلا هذا ، ولا نعلمه بهذا اللفظ إلا عنه وهو يخالف سائر الأحاديث في قصة أم معبد (كشف الاستار ٢/٣٠١) وقال الهيثمي : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح (٦/٥٨) وقال الحافظ ابن حجر : « أخرجها الطبراني من حديث قيس بن النعمان بسند صحيح وسياق أتم . (الإصابة ٥/٥٠٦) .

(٢) القِداح والازناد والسهام والاقلام والازلام معناها واحد ، وهي أعواد تسوَّي للاستقسام الذي هو من القِسم أي النصيب وهي متشابهة في أقدار الأجسام ، وإنما تختلف بالعلامات والوسام ، وبواسطتها يستشير المشرك الآلهة (محمود سليم الحوت : في طريق المثيولوجيا عند العرب ص ١٤٢ - ١٤٦) .

قال : ثم أخرجت قداحي فاستقسمتُ بها ، فخرج السهم الذي أكره : لا يضره .

قال : فأبيت إلا أن أتبعه .

قال : فركبت في أثره ، فبينا فرسي يشتد بي عثر بي فسقطت عنه .

قال فقلت : ماهذا !!

قال : ثم أخرجت قداحي فاستقسمتُ بها ، فخرج السهم الذي أكره : لايضره .

قال : فأبيت إلا أن أتبعه ، فركبت في أثره ، فلما بدا لي القوم ورأيتهم عثر بي فرسي فذهبت يداه في الأرض ، وسقطت عنه ثم انتزع يديه من الأرض وتبعهما دخان كالإعصار .

قال : فعرفتُ حين رأيت أنه قد منع مني ، وأنه ظاهر .

قال : فناديت القوم ، فقلت : أنا سراقة بن جعشم ، أنظروني أكلمكم فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه .

قال : فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر : قل له وما تبتغي منا ؟ . فقال لي ذلك أبو بكر .

قال قلت : تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك .

قال : اكتب له ياأبا بكر .

فكتب لي كتاباً في عظم أو في رقعة أو في خزفة ، ثم ألقاه إلي ، فأخذته فجعلته في كنانتي ، ثم رجعت فسكت ، فلم أذكر شيئاً مما كان » . ثم حكى خبر لقائه برسول الله ﷺ بعد فتح مكة وإسلامه[1] .

---

(١) سيرة ابن هشام ١٠٢/٢ - ١٠٤ بإسناد صحيح لغيره ، لأن ابن إسحاق توبع في صحيح البخاري ، تابعه عُقيل (صحيح البخاري كما في فتح الباري ٢٣٠/٧ - ٢٤٨ ، وبين الحافظ ابن حجر وصل حديث الزهري في ٢٤٠/٧) .

وقد ذكر سراقة في رواية صحيحة أنه اقترب من الاثنين حتى سمع قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ، كما ذكر أنه عرض عليهما الزاد والمتاع فلم يأخذا منه شيئاً ، وأنّ وصيته كانت : أخفِ عنا[1] .

وتـذكر رواية صحيحة أنه صار آخر النهار مسلمة للنبي ﷺ بعد أن كان جاهـداً عليه أولـه . وأن الرسول هو الذي دعا عليه فصرعه الفرس[2] . وقد احتاط الاثنان في الكلام مع الناس الذين يقابلونهم في الطريق ، فإذا سئل أبو بكر عن رسول الله قال : هذا الرجل يهديني السبيل ، فيحسب الحاسب إنه إنما يعني الطريق ، وإنما يعني سبيل الخير[3] . وقد صحَّ أن الدليل أخذ بهم طريق السواحل[4] . وفصَّل ابن إسحق وصف الطريق الذي سلكوه قال : « فلما خرج بهما دليلهما عبد الله بن أرقط سلك بهما أسفل مكة ، ثم مضى بهما على الساحل - حتى عارض الطريق - أسفل من عُسْفان ، ثم سلك بهما على أسفل أَمَج ، ثم استجاز بهما من مكانه ذلك ، فسلك بهما الخَرَّار ، ثم سلك ثَنيَّة المُرَّة ، ثم سلك بهما لِقْفاً ، ثم أجاز بهما مِدْلَجة لِقْف ، ثم استبطن بهما مِدْلَجة مَحَاج ، ثم سلك بهما مَرْجِح مَحَاج ، ثم تبطَّن بهما مَرْجِح من ذي الغَضْوين ثم من ذي كَشْر ، ثم أخذ بهما على الجَدَاجِد ، ثم على الأَجْرد ثم سلك بهما ذا سَلَم من بطن أَعْداء مَدْلَجة تِعْهِن ، ثم على العِبابيد ، ثم أجاز بهما الفاجَّة .

قال ابن هشام : ثم هبط بهما العَرْج وقد أبطأ عليهما بعضُ ظهرهم ، فحمل رسول الله ﷺ - رجل من أسلم أوسن بن حُجْر على جمل له يقال له ابن الرّداء إلى المدينة وبعث معه غلاماً يقال له مسعود بن هُنيدة ، ثم خرج بهما دليلهما من العَرْج ، فسلك بهما ثَنيَّة العائر عن يمين ركوبة حتى هبط بهما بطن رِئم ، ثم قدم

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٢٣٨ - ٢٣٩) .
(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٢٤٩ - ٢٥٠) .
(٣) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٢٤٩) .
(٤) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٢٣٢) .

بهما قُباء على بني عمرو بن عوف لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، يوم الاثنين حين اشتدَّ الضحاء ، وكادت الشمس تعتدل[1] .

وكان المسلمون في المدينة قدْ سمعوا بخروجه من مكة ، فكانوا يغدون كل غداة إلى ظاهر المدينة ينتظرونه ، حتى إذا اشتد الحرُّ عليهم عادوا إلى بيوتهم ، حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه انتظروه حتى لم يبق ظل يستظلون به فعادوا ، وقدم الرسول وقد دخلوا بيوتهم ، فبصر به يهودي فناداهم ، فخرجوا فاستقبلوه ، وكانت فرحتهم به غامرة فقد حملوا أسلحتهم وتقدموا نحو ظاهر الحرة فاستقبلوه .

وقد نزل رسول الله ﷺ في قُباء في بني عمرو بن عوف أربع عشرة ليلة وأسس مسجد قباء[2] .

ولما عزم رسول ﷺ أن يدخل المدينة أرسل إلى زعماء بني النجار فجاءوا متقلدين سيوفهم[3] .

وقد سجلت رواية أن عدد الذين استقبلوه خمسمائة من الأنصار[4] . فأحاطوا بالرسول وبأبي بكر وهما راكبان ، ومضى الموكب داخل المدينة ، « وقيل في المدينة : جاء نبي الله جاء نبي الله ﷺ »[5] . وقد صعد الرجال والنساء فوق

---

(١) الحاكم : المستدرك ٣/٨ بإسناد حسن وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وصححه ابنُ حجر وأشار إلى طريقين آخرين له (فتح الباري ٧/٢٣٨) .
وانظر سيرة ابن هشام ١/٤٩١ - ٤٩٢ بدون إسناد .
وفي صحيح مسلم ٤/٢٣١١ أن قدومهما المدينة ليلاً ، ويجمع بينهما بأن الوصول ليلاً والدخول نهاراً (الفتح ٧/٢٤٤) .

(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٢٣٩ ، ٢٦٥) ، وسيرة ابن هشام ١/٤٩٢ بسند حسن وهو صحيح لغيرة .

(٣) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٢٦٥) .

(٤) أخرجه البخاري في التاريخ الصغير كما في فتح الباري ٧/٢٥١ ولم أجده في المطبوع وإسناده صحيح .

(٥) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٢٥٠) .

البيوت ، وتفـرَّق الغلمان في الـطرق ينـادون : يامحمـد يارسول الله ، يامحمد يارسول الله[1] .

قال الصحابي البراء بن عازب - وهو شاهد عيان : « ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ[2] .

أما تلك الروايات التي تفيد استقباله بنشيد (طلع البدر علينا من ثنيات الوداع) فلم ترد بها رواية صحيحة[3] .

وأقبـل رسـول الله ﷺ يسـير حتى نزل جانب دار أبي أيوب الأنصـاري فتساءل : أي بيوت أهلنا أقرب ؟ فقال أبو أيوب : أنا يانبي الله ، هذه داري وهذا بابي . فنزل في داره[4] .

وقد ورد في كتب السيرة أن زعماء الأنصار تطلعوا إلى استضافة الرسول ﷺ ، فكلما مر بأحدهم دعاه للنزول عنده ، فكان يقول لهم : دعوا الناقة فإنها مأمورة فبركت على باب أبي أيوب[5] . وكان داره طابقين ، قال أبو أيوب الأنصاري :

(١) صحيح مسلم ٤/٢٣١١ .
(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٢٦٠) .
(٣) ابن حجر : فتح الباري ٧/٢٦١ ، ٢٦٢ . وابن القيم : زاد المعاد ٣/٥٥١ .
والزرقاني : شرح المواهب اللدنية ١/٣٥٩ ، ٣٦٠ .
(٤) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٢٥٠ ، ٢٦٥) .
(٥) سيرة ابن هشام ١/٤٩٤ بدون إسناد ، ومغازي موسى بن عقبة ١/١٨٣ بدون إسناد وأخرجها ابن عائذ وسعيد بن منصور كلاهما من طريق عطاف بن خالد - وهو صدوق يهم - عن صديق (ابن حجر : فتح الباري ٧/٢٤٦ والتقريب ٣٩٣) .
وعطاف يرويها عن صديق بن موسى عن عبد الله بن الزبير (البداية والنهاية ٣/٢٠٠) .
وأشار ابن حجر إلى تخريج الحاكم لها من طريق إسحاق بن أبي طلحة عن أنس (فتح الباري ٧/٢٤٥) ولم أجده في طبعة المستدرك (وإسحق ثقة كما في التقريب) وإسناد الحاكم في البداية والنهاية ٣/١٩٧ وهو سند ضعيف فيه إبراهيم بن صرمة شيخ يعتبر بحديثه ومحمد بن سليمان لا يعرف حاله .
وأخرجها ابن سعد بسند فيه الواقدي (الطبقات ١/٢٣٦ - ٢٣٧) وبسند معضل (١/٢٣٧).
وأخرجها البيهقي كما في البداية والنهاية ٣/٢٠٠ من طريق سعيد بن منصور نفسه وفيه عطاف ابن خالد ، ويعتضد حديث عبد الله بن الزبير بحديث أنس فيرقى إلى الحسن لغيره .

« لما نزل عليَّ رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السُّفل وأنا وأم أيوب في العلوّ ، فقلت له : يانبي الله - بأبي أنت وأمي - إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك ، وتكون تحتي ، فاظهر أنت فكن في العلو ، وننزل نحن فنكون في السفل . فقال : ياأبا أيوب : إنّ أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سُفل البيت .

قال : فلقد انكسر حِبٌّ لنا فيه ماء ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء يؤذيه[1] .

وقد أفادت رواية ابن سعد أن مقامه بدار أبي أيوب سبعة[2] أشهر .

وقد اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين[3] . وآثروهم . على أنفسهم ، فنالوا من الثناء العظيم الذي خلّد ذكرهم على مر الدهور وتتالي الأجيال ، إذ ذكر الله مأثرتهم في قرآن يتلوه الناس : ﴿والذين تبوّأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم مما أوتوا ويُؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصة ومن يوقَ شُحَّ نفسه ، فأولئك هم المفلحون﴾[4] .

وقد اثنى رسول الله ﷺ على الأنصار ثناء عظيماً فقال : (لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار)[5] و (لو سلكت الأنصار وادياً أو شعباً لسلكتُ وادي الأنصار أو شِعبهم)[6] .

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٤٩٨ - ٤٩٩ بإسناد صحيح ، ومستدرك الحاكم ٣/٤٦٠ - ٤٦١ بإسناد صحيح ، قال الحاكم : هذا إسناد صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، وأشار الحافظ ابن حجر إلى تخريج أبي سعيد الخركوشي له من طريق عبد العزيز بن صهيب عن أنس في كتابه « شرف المصطفى » (فتح الباري ٧/٢٥٢) وقد حُقّق « شرف المصطفى » للخركوشي في جامعة اكستر ببريطانيا ، ولم أقف عليه . وانظر طريقاً آخر له في البداية والنهاية لابن كثير ٣/١٩٩ من طريق أفلح مولى أبي أيوب عنه وإسناده صحيح .

(٢) الطبقات الكبرى ١/٢٣٧ بإسناد ضعيف .

(٣) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٢٦٤) .

(٤) الحشر ٩ .

(٥) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/١١٢) .

(٦) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/١١٠) .

(أسانيد حديث (دعوا الناقة فإنها مأمورة)

محمد بن إسحق : (بدون إسنادٌ) .

موسى بن عقبة : (بدون إسناد) .

سعيد بن منصور : من طريق عطاف بن خالد - صديق بن موسى - عبد الله بن الزبير (١)

البيهقي :

محمد بن سعد - الواقدي

محمد بن عائذ

الحاكم - أبو الحسن علي بن عمر الدار قطني - محمد بن مخلد الدوري - محمد بن سليمان

ابن إسماعيل بن أبي الورد - إبراهيم بن أبي صرمة - يحيي بن سعيد - إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة - أنس .

البيهقي

ابن كثير

وكان رسول الله ﷺ يصلي حيث أدركته الصلاة ، ثم أمر ببناء المسجد في أرض كان فيها نخل لغلامين يتيمين من بني النجار[1] . وقد اشتراها رسول الله ﷺ ، وقام المسلمون بتسويتها وقطع نخيلها وصفوا الحجارة في قبلة المسجد ، وما أعظم سرورهم وهم يعملون في بنائه ورسولُ الله ﷺ يعمل معهم وهم يرتجزون :

اللهمّ إنــه لا خيرَ إلا خيرُ الآخـرة   فانصرُ الانصــارَ والمهــاجـرة[2] .

وقد بناه أولاً بالجريد ثم بناه باللبن بعد الهجرة بأربع سنين[3] .

كانت الهجرة قاسية الوقع على المهاجرين . وقف رسول الله ﷺ بالحَزْورة في سوق مكة فقال : « والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إليَّ ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت »[4] .

لقـد واجـه المهـاجـرون من مكـة صعوبة اختلاف المناخ ، فالمدينة بلدة زراعية ، تغـطي أراضيهـا بساتين النخيل ، ونسبة الرطوبة في جوها أعلى من مكة ، وقد أصيب العديد من المهاجرين بالحمى منهم أبو بكر وبلال . فكان أبو بكر إذا أخذته الحُمىَّ يقول :

كلّ امـريء مصّـبـح في أهــله   والمـوت أدنى مـن شـراك نعله

وكان بلال إذا أقلع عنه الحُمىَّ يرفع عقيرته يقول :

ألا ليتَ شِعــري هل أبـيتـنَّ ليلةً   بوادٍ وحــولي إذخِـر وجَـليلُ
وهـل أرِدَنْ يـومــاً مياهَ مِجَنَّـةٍ   وهــل يَبْـدُونَ لي شامــةٌ وطَـفيلُ

---

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٢٦٥) .
(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٢٦٥) .
(٣) ابن حجر : فتح الباري ٧/٢٤٦ نقلاً عن الزبير بن بكار .
(٤) رواه الترمذي (سنن ٥/٧٢٢) وقال : حسن غريب صحيح .
وابن ماجة : سنن ٢/١٠٣٧ رقم الحديث ٣١٠٨ . والدرامي : سنن ٢/٢٣٩ .

فأخبرت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ فقال « اللهم حبّب إلينا المدينة كحبّنا مكة أو أشدّ ، وصحّحها ، وبارك لنا في صاعها ومدّها ، وانقل حمّاها فاجعلها بالجُحفة »[1]

وقال : « اللهم امض لأصحابي هجرتهم ، ولا تردهم على أعقابهم »[2] .

لقد تغلب المهاجرون على المشكلات العديدة ، واستقروا في الأرض الجديدة مغلبين مصالح العقيدة ومتطلبات الدعوة ، بل صارت الهجرة واجبة على كل مسلم لنصرة النبي ﷺ ومواساته بالنفس ، حتى كان فتح مكة فأوقفت الهجرة . لأن سبب الهجرة ومشروعيتها نصرة الدين وخوف الفتنة من الكافرين .

والحكم يدور مع علته ، ومقتضاه أن من قَدِر على عبادة الله في أي موضع اتفق لم تجب عليه الهجرة منه ، وإلا وجبت . ومن ثم قال الماوردي : إذ قدر على إظهار الدين في بلد من بلاد الكفر ، فقد صارت البلد به دار إسلام ، فالإقامةُ فيها أفضل من الرحلة منها لما يترجي من دخول غيره في الإسلام[3] .

وعندما دون التاريخ في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه اتخذت مناسبة الهجرة بداية التاريخ الإسلامي ، لكنهم أخّروا ذلك من ربيع الأول إلى المحرم لأن ابتداء العزم على الهجرة كان في المحرم ، إذ بيعة العقبة الثانية وقعت في أثناء ذي الحجة ، وهي مقدمة الهجرة . فكان أول هلال استهل بعد البيعة والعزم على الهجرة هلال المحرم ، فناسب أن يجعل مبتدأ التاريخ الإسلامي[4] .

---

(١) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٢٦٢) .
(٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/٢٦٩ .
(٣) ابن حجر : فتح الباري ٧/٢٢٩ .
(٤) فتح الباري ٧/٢٦٨ .

الفصل الثاني

الرسول ﷺ في المدينة :

خصائص المجتمع المدني وتنظيماته الأولى
وإجلاء اليهود

خصائص المجتمع المدني وتنظيماته الأولى

المجتمع المدني قبل الهجرة :

« يثرب » - وهو الاسم القديم للمدينة المنورة - واحة خصبة التربة كثيرة المياه تحيط بها الحرات من جهاتها الأربع وأهمها حرة واقم من الشرق وحرة الوبرة في الغرب . وحرة واقم أكثر خصوبة وعمراناً ، من حرة الوبرة ، ويقع جبل أحد شمالها وجبل عير في جنوبها الغربي ، وتقع فيها عدة وديان أشهرها وادي بطحان ومذينيب ومهزور والعقيق وهي منحدرة من الجنوب إلى الشمال حيث تلتقي عند مجتمع الأسيال من رومة .

وقد ورد اسم يثرب في الكتابات المعينية بما يدل على قدمها[1] . ولكن معلوماتنا عن تاريخها الذي يسبق الإسلام قليلة ومشتتة وتبدو أكثر وضوحاً كلما اقتربنا من الفترة الإسلامية .

اليهود :

تختلف النظريات حول أصل يهود المدينة المنورة - والحجاز عامة - والمكان الذي هاجروا منه ، والزمان الذي قدموا فيه ، ولكن أقواها يميل إلى أن بداية نزوحهم من الشام في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد بعد أن نجح الرومان في السيطرة على سورية ومصر في القرن الأول . ق . م . وعلى اليهود ودولة الأنباط في القرن الثاني بعد الميلاد ، مما أدى باليهود إلى الهجرة إلى شبه جزيرة العرب التي كانت بعيدة عن سيطرة الرومان الذين أفزعوهم .

غير أن هجرة اليهود إلى الحجاز اشتدت بعد فشل التمرد اليهودي ضد الرومان الذي أخمده - الأمبراطور تيتوس في - عام ٧٠ م ، وقد وصل بعض هؤلاء اليهود المهاجرين إلى يثرب كما وصلت مجموعة أخرى من اليهود إلى يثرب بعد فشل ثورة أخرى قاموا بها في زمن الأمبراطور هادريان بين عامي ١٣٢ - ١٣٥ م .

---

(١) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ٣/٢٩٥ .

وشكل هؤلاء اليهود الجالية اليهودية في المدينة والحجاز[1] .

وقد ارتاد يهود بني النضير وبني قريظة منطقة يثرب واستقروا فيها لخصبها وأهمية موقعها التجاري على طرق القوافل إلى الشام .

وقد استقر يهود بني النضير وقريظة في حرة واقم شرقي يثرب وهي أخصب بقاعها[2] . وعرف من أسماء القبائل اليهودية قبل الهجرة أيضاً بنو قينقاع الذين تختلف الآراء في كونهم عرباً تهودوا أو أنهم نزحوا مع النازحين إلى الحجاز وهذا الاختلاف يسرى على البطون الأخرى من يهود التي تسميها المصادر العربية ومنهم بنو عكرمة وبنو محمر وبنو زعورا وبنو الشطيبة وبنو جشم وبنو بهدل وبنو عوف وبنو معاوية وبنو مريد وبنو القصيص وبنو ثعلبة[3] .

ولم تذكر المصادر إحصاء لعدد اليهود ، ولكن كتب السيرة ذكرت أعداد المقاتلين - وهم عادة الرجال البالغون - من كل قبيلة وهم سبعمائة من بني قينقاع ومثلهم تقريباً من بني النضير وما بين السبعمائة والتسعمائة من بني قريظة[4] فالمقاتلون من يهود القبائل الثلاث يزيدون قليلاً على الألفين ، هذا سوى بقية بطون يهود الأخرى الأقل أهمية والتي تسكن في أماكن متناثرة من يثرب أيضاً حيث يذكر السمهودي أنها تزيد على العشرين بطناً[5] .

---

(١) د . جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٥١٣/٦ - ٥١٤ (بيروت ١٩٦٨ - ١٩٧١) .
د . محمد بيومي مهران ، دراسات في تاريخ العرب القديم (نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧م) ص ٤٤٨ - ٤٥٠ .

(٢) أحمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ص ٢٨٨ .

(٣) السمهودي : وفاء الوفا ١١٢/١ - ١١٦ .
وابن هشام : السيرة ٢٥٩/٢ .

(٤) ابن هشام : السيرة ٤٢٨/٢ - ٢٥٩/٣ (تحقيق محيي الدين عبد الحميد) .
وانظر أحمد إبراهيم الشريف ص ٢٩٤ .

(٥) وفاء الوفا ١١٢/١ .

ولا شك أن المجتمع المدني خضع لسيطرة اليهود قبل أن يقوي كيان العرب فيه خضوعاً تاماً اقتصادياً وسياسياً وفكرياً ، حيث ترك اليهود بعض طوابعهم عليه كما أنهم تأثروا بالقبائل العربية التي تحيط بيثرب من كل مكان ، من ذلك أن اليهود نقلوا من الشام إلى يثرب فكرة بناء الآطام حيث بلغ عددها في يثرب تسعة وخمسين أطماً[1] . كما حملوا معهم خبراتهم الزراعية والصناعية مما أثر في ازدهار بساتين يثرب حيث النخيل والأعناب والرمان وبعض الحبوب ، كما ظهر الاهتمام بتربية الدواجن والماشية وبرزت صناعات النسيج الذي تحوكه النسوة إلى جانب الأواني المنزلية وبعض الأدوات الأخرى اللازمة للمجتمع الزراعي . وكما أثر اليهود على مجتمع المدينة فقد تأثروا بالعرب من حولهم فظهرت طوابع الحياة القبلية على يهود بما فيها من عصبية وكرم واهتمام بالشعر وتدريب على السلاح . وطغيان النزعة القبلية على يهود جعلهم لا يعيشون ككتلة دينية واحدة بل قبائل متنازعة لم تتمكن من توحيد صفها حتى في عصر السيرة عندما واجهت أحداث الجلاء .

وبالطبع كان على رأس الأعمال الاقتصادية التعامل بالربا الذي يتقنه اليهود في كل مكان . وإن كان الربا معروفاً في مجتمع مكة التجاري أيضاً .

العرب :

وقد سكن الأوس والخزرج يثرب التي سبقهم إليها يهود وتملكوا أخصب بقاعها وأعذب مياهها ، مما اضطر الأوس والخزرج إلى سكنى الأراضي المهجورة من يثرب ، وينتمي الأوس والخزرج إلى قبيلة الأزد اليمانية الكبيرة التي خرجت من اليمن إلى الشمال في فترات مختلفة ربما أقدمها في حدود عام ٢٠٧ م عندما هاجرت خزاعة إلى مكة .

---

(١) السمهودي : وفاء الوفا ١/١١٦ .

واختلف المؤرخون في سبب الهجرة الأزد ، فبعضهم يرجع ذلك إلى انهيار سد مأرب وحدوث سيل العرم . وقد بيّن القرآن الكريم أنه كان عقوبة لسبأ ، بسبب إعراضهم عن الحق ، وأنه أدى إلى تفرق سبأ في البلاد وكان التصدع الأخير للسد سنة ٥٤٤م في أيام أبرهة[١] ، وبعضهم يقلل من أثر انهيار السد ، ويعزو ذلك إلى الاضطرابات السياسية والتدهور الاقتصادي الذي نجم عن سيطرة الرومان على البحر الأحمر وانتقال تجارة الهند عبره وهو الأرجح لشمول تأثير ذلك على السكان ومنهم الأزد التي كان معظمها يسكن خارج منطقة سد مأرب[٢] . ولا يخفى أن انهيار السد من أسباب التدهور المذكور وما أعقبه من تشتت من حوله من سبأ .

وممن هاجر من الأزد الأوس والخزرج الذين استقروا بيثرب إلى جانب يهود .

فسكن الأوس منطقة العوالي بجوار قريظة والنضير ، وسكن الخزرج سافلة المدينة حيث جاوروا بني قينقاع ، وكانت ديار الأوس أخصب من ديار الخزرج مما كان له أثر في المنافسة والصراع بين الطرفين[٢] .

ويحدد سديو تاريخ هجرتهم بعام ٣٠٠ م ثم سيطرتهم على يثرب في عام ٤٩٢ م[٣] ولا شك أن ثمة تحولات اقتصادية وسكانية حدثت لصالح العرب وتمثلت في زيادة عددهم وثروتهم[٤] ولا يوجد إحصاء لعدد الأوس والخزرج ولكن القبيلتين قدمتا أربعة آلاف مقاتل للجيش الإسلامي الذي ذهب لفتح مكة سنة

---

(١) انظر سورة سبأ ١٥ - ١٩ وجواد علي : المفصل في تاريخ العرب ٢/ ٢٨٥ .

(٢) أحمد إبراهيم : مكة والمدينة ص ٣١٥ .

ومحمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ العرب القديم ص ٤٥٨ - ٤٥٩ .

(٣) أحمد إبراهيم الشريف مكة والمدينة ص ٣٣٧ - ٣٤٠ .

(٤) سديو : تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر ص ٥١ .

(٥) السمهودي : وفاء الوفا ١/ ١٢٥ - ١٢٦ .

وأحمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ص ٣٢٥ .

٨ هـ[1] ولا شك أن هذه التحولات مهدت لسيطرتهم على يثرب التي كانت السيادة فيها ليهود ، وقد حاول اليهود الدفاع عن تسلطهم بتفتيت وحدة العرب من أوس وخزرج وإثارة الشقاق بينهم فأفلحوا في إذكاء العداوة وقيام الحروب بين الجانبين ، وآخر ذلك يوم بعاث[2] قبل الهجرة بخمس سنوات حيث هزم الأوس الخزرج الذين طالما غلبوهم من قبل لتفوق قواتهم عليهم حتى لجأت الأوس إلى محالفة يهود النضير وقريظة فغلبتهم في بعاث ، ولكنهم فطنوا إلى خطورة الإجهاز عليهم وأن ذلك يمكن اليهود من استعادة سيطرتهم على يثرب ، لذلك سعوا إلى المصالحة معهم بل إن الجانبين اتفقا على ترشيح رجل من الخزرج هو عبد الله بن أبي بن سلول الذي وقف مع أهله على الحياد في « بعاث » ليكون ملكاً على يثرب مما يدل على تمكن العرب من المحافظة على قوتهم وتفوقهم على يهود بعد يوم بعاث .

ولا شك أن وقائع أيام العرب بين الأوس والخزرج ولدت شعوراً بالمرارة عند الطرفين ورغبة قوية في العيش بهدوء وسلام ، وهذا الشعور كان يرافق استقبال يثرب للإسلام حاملاً معه بشائر التآخي والسلام ، وقد عبرت السيدة عائشة رضى الله عنها عن أثر الحروب والمنازعات في إقبال أهل المدينة على الإسلام بقولها : « كان يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسوله ﷺ فقدم رسول الله ﷺ ، وقد افترق ملؤهم وقتلت سرواتهم وجرحوا ، قدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم الإسلام »[3]

أثر الإسلام في المجتمع المدني

لا شك أن لكل حضارة وفكر ودين طابعاً يطبعه وصبغة تصبغه ولوناً يميزه ، وعلى قدر أصالة الحضارة وعمقها وشمولها يكون تأثيرها في الإنسان الذي يعيش

---

(١) أحمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة ٣٤٨ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١/ ٦٦٠ - ٦٦٦ ، ٦٦٨ ، ٦٧١ ، ٦٧٦ ، ٦٧٨ - ٦٨٠ .

(٣) صحيح البخاري ٥/ ٤٤ وانظر ٥/ ٦٧ منه .
وابن هشام السيرة ١/ ٢٨٣ .

في إطارها وقد تتشابه الأفكار والمعتقدات ولا تستقل عن بعضها إلا في جوانب معينة كما هو الحال في الفلسفات المادية المهيمنة على عالمنا المعاصر ، فإن التحول من واحدة إلى أخرى لا يتطلب تغييراً جذرياً وانقلاباً شاملاً في حياة الإنسان بل يكفي أن تتغير قناعته بمبدأ منها وتزداد بآخر ليتم التحول الفكري إلى المبدأ الجديد . . إن هذا التحول لا يحتاج إلى مجهود كبير إذ ليس له أثر على السلوك اليومي والعادات المتأصلة في النفس فلا ينعكس إذاً على واقع الحياة .

إن هذه الظاهرة لا تنطبق على الإسلام . فهذا الدين منذ ظهوره أحدث انقلاباً جذرياً في حياة الفرد والجماعة بحيث تغير سلوك الأفراد اليومي وعاداتهم المتأصلة تغيراً كلياً ، كما تغيرت مقاييسهم وأحكامهم ونظرتهم إلى الكون والحياة والإنسان . . وكذلك تغيرت بنية المجتمع بصورة واضحة فاختفت مظاهر وصور وبرزت معالم وظواهر جديدة . .

إن النقلة التي أحدثها الإسلام عميقة وشاملة ، ففي عالم العقيدة يمثل طفرة من عبادة الأشياء المحسوسة كالأصنام والأوثان والكواكب التي يرونها ويلمسونها إلى عبادة الله الواحد الذي ليس كمثله شيء والذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار . والذي لا يمكن تصوره وتمثله ومعرفة كنهه ، بل يعرف بما وصف به نفسه في كتابه الكريم وعلى لسان رسوله الأمين دون تمثيل أو تشبيه ولا نفي أو تعطيل .

وهذه طفرة من « العقل البدائي » الذي يتعامل مع المحسوسات إلى « العقل الحضاري » الذي يتمكن من فهم التوحيد والتنزيه لله رب العالمين . وفي سلوك الإنسان اليومي أحدث الإسلام تغييراً جذرياً . . فالنقلة كبيرة بين ما كان عليه في جاهليته وما صار إليه في إسلامه . . لم يعد العربي كما كان متفلتاً من ضوابط القانون في معاملاته وعلاقاته الاجتماعية بل صار منضبطاً بضوابط الشريعة في جزئيات حياته من أخلاق وعادات ونوم واستيقاظ وطعام وشراب وزواج وطلاق وبيع وشراء . . ولا شك أن العادات تتحكم في الإنسان ويصعب عليه

التخلص منها واكتساب عادات وصفات جديدة . . . لكن ما ولده الإسلام في أنفسهم من إيمان عميق مكنهم من الانخلاع من الشخصية الجاهلية بكل ملامحها واكتساب الشخصية الإسلامية بكل مقوماتها . فاعتادوا على عبادة الله تعالى واتجهوا بكل نشاطهم الاجتماعي والاقتصادي إليه لأن العبادة في الإسلام شاملة لكل نشاط وحركة يقصد بها وجه الله تعالى ، والتزموا بأداء الصلاة التي هي عماد الدين يومياً خمس أوقات محددة . . ولا شك أن النفس تكسل وتحاول التنصل من الواجبات والالتزامات لكن المسلم وقد أسلم وجهه لله تعالى تمكن من الاعتياد عليها ، قال تعالى مبيناً ما تحتاجه الصلاة من صبر : ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها . . . ﴾[1] .

وكذلك الأمر بالنسبة للصوم بما فيه من خرق لعادات الإنسان اليومية في تناول الطعام والشراب يحتاج إلى إرادة قوية وعزيمة مؤمنة . . والتخلي عن جزء مما يملك الإنسان من مال كل سنة لأداء الزكاة يحتاج إلى التخلص من الحرص والشح فلا بد أن يكون حب المسلم لله أعظم من حبه للمال ليخرج زكاته ، ولذلك فإن كثيراً من المرتدين في خلافة الصدّيق رضى الله عنه أعلنوا استعدادتهم للبقاء على إسلامهم إذا أعفوا من الزكاة . وإلى جانب الاعتياد على الأوامر الجديدة وحمل النفس عليها كان لابد للمسلم أن يتخلص من كثير من العادات المتأصلة كشرب الخمر والأنكحة الجاهلية التي أبطلها الإسلام والربا الذي كان يقوم عليه اقتصاد مكة وغيرها . إن المسلمين تخلصوا من هذه العادات وغيرها استجابة لأمر الله تعالى . . . فلما نزل قوله تعالى : ﴿ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾[2] خرجت الأنصار بدنان الخمر إلى

---

(١) سورة طه من الآية ١٣٢ .

(٢) سورة المائدة ٩٠ ، ٩١ .

الأزقة وأراقوها وقالوا : « انتهينا ربنا انتهينا ربنا » وشرب الخمر الذي أقلعوا عنه كان عادة متأصلة في حياة الفرد والمجتمع ، والخمر الذي أراقوه كان مالاً ضحوا به تسليماً لله رب العالمين .

ولم يكن العربي ليخضع لدولة وإنما كانت الوحدة السياسية والاجتماعية هي القبيلة وكانت الدويلات التي نشأت في أنحاء من شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام بوقت طويل قد اندثرت وطغت البداوة والقبلية بما فيها من عصبية وتنازع وصراع وتفكك في سائر شبه الجزيرة ، فلما جاء الإسلام أرسي مفهوم الدولة وربط سائر القبائل والأفراد بها ، فقامت دولة المدينة المنورة على أساس فكري بحت وتوسعت لتوحيد شبه الجزيرة العربية لأول مرة في تاريخها تحت راية الإسلام ، فكانت هذه نقلة في تاريخ شبه الجزيرة العربية السياسي .

وهكذا فإن الإسلام أحدث تغيراً جذرياً في حياة الفرد والمجتمع في المدينة المنورة لما تميز به من عمق وشمول وقدرة على التأثير حتى صبغ الحياة بكل جوانبها بصبغته ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾[1] .

وسوف نتلمس آثار هذا التغيير الشامل في المباحث التالية :

الهجرة وأثرها في التكوين الاجتماعي لسكان المدينة :

قدم المهاجرون إلى المدينة المنورة - كما أطلق على يثرب في الإسلام - وكانوا في البدء من عشائر مختلفة من قريش ، ثم استمرت الهجرة وصار حقاً على المسلمين الجدد في أرجاء الجزيرة أن يهاجروا إليها وظل الأمر كذلك حتى أوقفت الهجرة رسمياً بعد فتح مكة عام ثمان للهجرة .

والهجرة حدث عظيم استحق أن يكون بداية العام الهجري الجديد عند المسلمين منذ أن وضع الخليفة عمر بن الخطاب التقويم الهجري .

فالهجرة كانت دليلاً على الإخلاص والتفاني في سبيل العقيدة ، فقد فارق المهاجرون وطنهم ومالهم وأهليهم ومعارفهم استجابة لنداء الله ورسوله . ولما

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٣٨ .

اعترضت قريش سبيل صهيب الرومي بحجة أنه جمع أمواله من عمله بمكة ولم يكن ذا مال قبل قدومه مكة ، ترك لهم أمواله وهاجر بنفسه فبلغ ذلك رسول الله فقال : ربح صهيب[1] . ومنع المشركون أبا سلمة رضى الله عنه من الهجرة بزوجته وابنه فلم يمنعه ذلك من الهجرة وحيداً تاركاً زوجته وطفله وقد ظلت زوجته أم سلمة تخرج كل غداة بالأبطح تبكي حتى تمسي نحو سنة ، حتى تمكنت من الهجرة بابنها ولحقت بزوجها[2] . وهكذا فإن الهجرة اقترنت بظرْوف صعبة كانت تمحيصاً لإيمان المؤمنين واختباراً لقوة عقيدتهم ، واستعلاء إيمانهم على الأعراض والمصالح والعلائق الدنيوية .

وقد دلت أحداث الهجرة على سلامة التربية المحمدية للصحابة رضوان الله عليهم ، فقد صاروا مؤهلين للاستخلاف في الأرض وتحكيم شرع الله والقيام بأمره والجهاد في سبيله وهم يقبلون على بناء دولة المدينة المنورة بعد أن كانوا مستضعفين في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس .

وقد اختار الله تعالى المدينة لهجرة المسلمين لما صح عن رسول الله ﷺ « قد أريت دار هجرتكم ، أريت سبخة ذات نخل بين لابتين » رواه البخاري ومسلم[3] .

وتأخر الرسول ﷺ في الهجرة وأخر معه أبا بكر الصديق رضى الله عنه حتى أذن الله تعالى له بالهجرة . قالت عائشة رضى الله عنها وتجهز أبو بكر قِبَل المدينة فقال له رسول الله ﷺ على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي ، فلما أذن الله لرسوله بالخروج لم يُعْلِمْ أحداً بذلك إلا علياً وأبا بكر وآله ، وكان المشركون قد غاظتهم هجرة المسلمين فائتمروا لقتل رسول الله ﷺ ، قال تعالى : ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين﴾ الأنفال ٣٠ .

---

(١) الحاكم : المستدرك ٣٩٨/٣ وقال صحيح على شرط مسلم .

(٢) انظر الإصابة ٢٢٢/٨ .

(٣) صحيح البخاري ١٨٦/٧ وصحيح مسلم ٥٧/٧ .

وقد خرج الاثنان إلى جبل ثور حيث أويا إلى غار فيه ، وتعقبهم المشركون إلى المكان حتى بدت أقدامهم خارج الغار فقال الصديق رضي الله عنه : لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا فقال الرسول ﷺ ياأبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، متفق عليه[1] لكن الله تعالى صرف المشركين عنهما فلم يفطنوا لهما ، وخرج الإثنان بعد ثلاثة أيام في طريقهما إلى المدينة[2] يقطعان الصحراء ورسول الله قد بلغ الثالثة والخمسين وأبو بكر بلغ الحادية والخمسين ، لكن القلوب الموصولة بالله تعالى لا يعيفها شيء عن بلوغ القصد وتحقيق أهداف الرساله ، ورسالة الإسلام جاءت تنظم أمور العبادات والمعاملات فهي دستور للحياة لابد لتطبيقه من أرض وأمة تقام فيها أحكام الله تعالى التي اكتمل تشريعها فيما نزل في المدينة المنورة من قرآن وما نطق به رسول الله ﷺ أو عمله أو أمر به من سنة . . . وهي تعطي صورة لأمثل دولة ضمت أمثل مجتمع ظهرت في تاريخ البشر وهي النموذج الذي ينبغي على المسلمين في كل زمان ومكان أن يحتذوه ليكفلوا لأنفسهم سعادة الدارين ويبتعدوا عن الشقاء والحياة الضنك والضياع وسط ركام الجاهلية الذي يزحف عليهم من كل مكان ولا منجى لهم إلا بالعودة إلى الله تعالى والاقتداء بهدي رسوله .

وقد تأخرت هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة حتى هاجر معظم القادرين على الهجرة من أصحابه الذين استجابوا للأمر بالهجرة ، واستمر الحث على الهجرة وبيان فضل المهاجرين بنزول الآيات القرآنية واستمر معها تدفق المسلمين الجدد من كل مكان ، فقد كانت الدولة الإسلامية الناشئة في المدينة المنورة بحاجة إلى المهاجرين من المؤمنين ليتوطد سلطان الإسلام فيها إذ يغالبه اليهود والمشركون والمنافقون ، وتحيط به قوى الأعراب المشركين من حول المدينة ، ويترصده كفار قريش الذين اقضّت الهجرة مضاجعهم فمضوا يخططون للإجهاز على كيان

(١) صحيح البخاري ٢١٧/٧ وصحيح مسلم ١٠٩/٧ .

(٢) أحمد : المسند رقم ٣٥١ وانظر ابن كثير البداية والنهاية ١٨٧/٣ - ١٨٨ .

الإسـلام الفتيِّ ودولته الناشئة ، لذلك تتابعت الآيات في الأمر بالهجرة وبيان فضلها وعظيم أجرها حتى وعد الله تعالى المهاجرين بمنعهم وتمكينهم من مراغمة أعدائهم والتوسعة عليهم في أرزاقهم ، قال تعالى : ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله . . . ﴾[1] . أي أن الذي يخرج بنية الهجرة فيموت في الطريق فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر . وقال تعالى : ﴿والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً وإن الله لهو خير الرازقين ﴾[2] فهنا أقسم تعالى أن يرزق المهاجرين في سبيله رزقاً حسناً سواء قتلوا في الجهاد أو ماتوا على فرشهم في غير جهاد .

وقد منع القرآن الكريم المسلمين القادرين على الهجرة من الإقامة مع المشركين قال تعالى : ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها . فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً ﴾. النساء ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ .

وذلك لأن الإقامة مع المشركين فيها تكثير سوادهم وانتفاعهم بالمسلمين في صناعاتهم وزروعهم بل ربما اضطروهم للمشاركة معهم في حربهم ضد المسلمين كما وقع في غزوة بدر الكبرى ، بالإضافة إلى تعرضهم للفتنة من قبل الكفار لصرفهم عن دينهم ، ولا يخفى ما في بعدهم عن دولة الإسلام من منع استفادة المسلمين منهم في حربهم ومصالحهم وتكثير سوادهم ، لذلك قال رسول الله ﷺ : « من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله » رواه أبو داود .

---

(١) سورة النساء من الآية ١٠٠ .

(٢) سورة الحج ٥٨ .

وقد تأخر بعض المسلمين بمكة عن الهجرة تحت ضغوط أزواجهم وأولادهم فلما هاجروا من بعد ورأوا الذين سبقوهم من المهاجرين قد تفقهوا في الدين هموا بمعاقبة أزواجهم وأولادهم وكان ذلك سبباً في نزول الآية الكريمة : ﴿يا أيها الذي آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم . . . .﴾(١) .

ويتضح من ذلك كله أن الهجرة كانت فرضاً في أول الإسلام على من أسلم حتى إذا كانت غزوة الأحزاب سنة خمس للهجرة وتبينت قدرة الدولة الإسلامية على الدفاع عن نفسها وحماية كيانها أمام قوى الأحزاب مجتمعين لم تعد بحاجة إلى مهاجرين جدد ، فقد تغيرت خطة الدولة الإسلامية من الدفاع إلى الهجوم وعبّر رسول الله ﷺ عن ذلك بقوله : « الآن نغزوهم ولا يغزوننا » .

وكذلك ضاقت المدينة بسكانها المتزايدين وما يحتاجونه من القوت والمسكن ، فطلب الرسول الكريم من بعض المهاجرين بعد الخندق العودة إلى ديارهم قائلاً : « هجرتكم في رحالكم » إذ لم تعد ثمة حاجة لإقامتهم في المدينة بل صار بقاؤهم في قبائلهم أجدى لقيامهم بالدعوة إلى الإسلام خارج المدينة وتوسيع انتشار الإسلام .

ولكن ذلك لا يعتبر وقفاً رسمياً للهجرة ، بل إن إعلان وقف الهجرة كان بعد فتح مكة حيث قال رسول الله ﷺ : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا »(٢) . وبهذا سقط فرض الهجرة إلى المدينة وبقي فرض الجهاد والنية على من قام به أو نزل به عدوّ ، لكن الهجرة باقية الحكم في حق من أسلم في دار الكفر ولم يأمن الفتنة على دينه مع قدرته على الخروج منها .

لقد أدت الهجرة المستمرة إلى تنوع سكان المدينة المنورة فلم يعودوا يقتصرون على الأوس والخزرج ويهود بل نزل معهم المهاجرون من قريش وقبائل العرب

---

(١) سورة التغابن من الآية ١٤ والحديث أخرجه الترمذي سنن ٤/٢٠٢ .
وقال هذا حديث حسن صحيح ، والحاكم : المستدرك ٢/٤٩٠ .
وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الحافظ الذهبي .

(٢) صحيح البخاري ٣/٢٠٠ وصحيح مسلم ٣/١٤٨٧ .

الأخـرى[1] . والمجتمـع المدني الجديد أرسيت قواعده وشيد بنيانه على أساس روابط العقيدة التي استعلت على ارتبـاطـات القبيلة وعصبيتهـا وسائر الروابط الأخـرى ، وبرزت فكرة الأمة الواحدة كما سيتضح عند دراسة دستور المدينة المنـورة ، وتقسيمات السكـان صار أساسها عقدياً وصاروا يقسمون إلى ثلاث مجموعات هي : المؤمنون والمنافقون واليهود .

ولا شك أن تدفق المهاجرين إلى المدينة ولّد مشاكل اقتصادية واجتماعية ، كان لابد من مواجهتها بقرار حاسم ، فكان أن شُرِّع نظام المؤاخاة .

---

(١) ليس لدينـا إحصـاء دقيق لعـدد المهـاجـرين ولكن ابن هشام (السيرة ٢/١١٥ - ١٤٤ ، ٣٤٢ - ٣٤٦ وابن سعد : الطبقات ٢/١٢ سميا عدداً منهم ، وكان من اشترك منهم في بدر ثلاثة وثمانين رجلاً ، وربما كان عدد المهاجرين حتى بدر لا يتجاوز - مع عوائلهم - اربعمائة نفر .

نظام المؤاخاة في عهد النبوة

اعتبر الإسلام المؤمنين كلهم أخوة فقال تعالى : ﴿إنما المؤمنون أخوة﴾ وأوجب عليهم الموالاة لبعضهم والتناصر في الحق بينهم ، لكن موضوع هذا البحث هو المؤاخاة الخاصة التي شرعت وترتبت عليها حقوق وواجبات أخص من الحقوق والواجبات العامة بين المؤمنين كافة .

ويشير البلاذري إلى أن النبي ﷺ آخى بين المسلمين في مكة قبل الهجرة على الحق والمواساة . فآخى بين حمزه وزيد بن حارثة ، وبين أبي بكر وعمر ، وبين عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف ، وبين الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود ، وبين عبيدة بن الحارث وبلال الحبشي ، وبين مصعب بن عمير وسعد ابن أبي وقاص ، وبين أبي عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة ، وبين سعيد ابن زيد بن عمرو بن نفيل وطلحه بن عبيد الله ، وبينه وبين علي بن أبي طالب[1] .

ويعتبر البلاذري (ت ٢٧٦ هـ) أقدم من أشار إلى المؤاخاة المكية ، وقد تابعه في ذلك ابن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ) دون أن يصرح بالنقل عنه[2] ، كما تابعهما ابن سيد الناس دون التصريح بالنقل عن أحدهما[3] . وقد أخرج الحاكم في المستدرك من طريق ابن عمير عن ابن عمر : « آخي رسول الله ﷺ بين أبي بكر وعمر ، وبين طلحة والزبير ، وبين عبد الرحمن بن عوف وعثمان » .

وأخرج الحاكم وابن عبد البر بسند حسن عن أبي الشعثاء عن ابن عباس : (آخي النبي ﷺ بين الزبير وابن مسعود)[4] .

---

(١) البلاذري أنساب الأشراف ١/ ٢٧٠ .

(٢) الدرر في اختصار المغازي والسير ١٠٠ .

(٣) عيون الأثر ١/ ٩٩١ .

(٤) ابن حجر : فتح الباري ٧/ ٢٧١ .

ومال كل من ابن القيم وابن كثير إلى عدم وقوع المؤاخاة بمكة ، فقال ابن القيم : « وقد قيل إنه - أي النبي ﷺ - آخي بين المهاجرين بعضهم مع بعض مواخاة ثانية ، واتخذ فيها علياً أخاً لنفسه ، والثبت الأول[1] والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الإسلام وأخوة الدار وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار »[2] أما ابن كثير فقد ذكر أن من العلماء من ينكر هذه المؤاخاة لنفس العلة التي ذكرها ابن القيم[3] .

ومما يرجح ما ذهب إليه ابن القيم وابن كثير أن كتب السيرة الأولى المختصة لم تشر إلى وقوع المؤاخاة بمكة ، كما أن البلاذري وهو المصدر الوحيد القديم الذي أشار إليها ساق الخبر بلفظ (قالوا) دون إسناد مما يضعف الرواية ، كما أن البلاذري نفسه ضعفه النقاد . وعلى فرض صحة وقوع هذه المؤاخاة بمكة فإنها تقتصر على المؤازرة والنصيحة بين المتآخين دون أن تترتب عليها حقوق التوارث .

المؤاخاة في المدينة :

وقد واجه المهاجرون من مكة إلى المدينة مشاكل متنوعة ، اقتصادية واجتماعية وصحية ، فمن المعروف أن المهاجرين تركوا أهليهم ومعظم ثرواتهم بمكة ، كما أن مهارتهم كانت في التجارة التي تمرست بها قريش ، ولم تكن في الزراعة والصناعة وهما يشكلان أساسين مهمين في اقتصاديات المدينة ، وبما أن

---

(١) يعني المؤاخاة في المدينة .

(٢) زاد المعاد ٢ / ٧٩ وقد سبقه شيخه ابن تيمية فنفى وقوع المؤاخاة بين المهاجرين وخصوصاً مؤاخاة النبي ﷺ لعلي ، لأن المؤاخاة شرعت لإرفاق بعضهم بعضاً ، ولتأليف قلوب بعضهم على بعض ، فلامعنى لمؤاخاة النبي لأحد منهم ولا لمؤاخاة مهاجري لمهاجري (ابن تيمية : منهاج السنة النبوية ٤ / ٩٦ - ٩٧) وتعقبه الحافظ ابن حجر بقوله : « وهذا رد للنص بالقياس واغفال عن حكمة المؤاخاة ، لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوى ، فآخى بين الأعلى والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعلى ويستعين الأعلى بالأدنى وبهذا تظهر مؤاخاته ﷺ لعلي لأنه هو الذي كان يقوم به من عهد الصبا من قبل البعثة واستمر ، وكذا مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة لأن زيداً مولاهم فقد ثبت أخوتهما وهما من المهاجرين (الفتح ٧ / ٢٧١) .

(٣) السيرة النبوية لابن كثير ٢ / ٣٢٤ .

التجارة تحتاج إلى رأس المال فإن المهاجرين لم يتمكنوا من شق طريقهم في المجتمع الجديد بسهولة ، وكانت مشكلة معيشتهم وسكناهم تواجه الدولة الناشئة ، كما أن علائق المهاجرين بالمجتمع الجديد كانت حديثة ، فقد ترك المهاجرون أهليهم ومعارفهم بمكة وأنبتت صلتهم بهم مما ولد إحساساً بالوحشة والحنين إلى بلدتهم « مكة » . إضافة إلى اختلاف مناخ مكة عن المدينة وإصابة المهاجرين بالحمى ، وهكذا كان وضع المهاجرين بحاجة إلى علاج سريع وحل مؤقت واستثنائي ، ولم يبخل الأنصار بشيء من العون بل أبدوا من التضحية وضروب الإيثار ما استحق التخليد في كتاب الله العزيز ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ . وقد بلغ كرم الأنصار حداً عالياً عندما اقترحوا على الرسول ﷺ أن يقسم نخلهم بينهم وبين المهاجرين لأن النخل مصدر معيشة الكثيرين منهم ، على أن الرسول ﷺ طلب من الأنصار أن يقوموا بإدارة بساتين النخيل ويحتفظوا بها لأنفسهم على أن يشركوا المهاجرين في التمر[1] . ولا نعرف إذا كانت الشركة في التمر محددة بنظام كالمناصفة أو المقصود قيام الأنصار بإعالة المهاجرين في تلك المرحلة ، ويبدو أن الرسول ﷺ لم يشأ أن يشغل المهاجرين بالزراعة فهو يحتاجهم لمهام الدعوة والجهاد . كما أن المهاجرين (لايعرفون العمل) كما عبر الرسول ﷺ مما يؤدي إلى خفض الإنتاج الزراعي[2] الذي تحتاجه المدينة .

كما وهبت الأنصار لرسول الله ﷺ كل فضل في خططها ، وقالوا له : إن شئت فخذ منا منازلنا . فقال لهم خيراً ، وابتنى لأصحابه في أراض وهبتها لهم الأنصار وأراض ليست ملكاً لأحد[3] .

وقد أثرت هذه المعاملة الكريمة في نفوس المهاجرين فلهجت ألسنتهم بكرم الأنصار . . عن أنس قال قال المهاجرون : يارسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا

---

(١) البخاري : الصحيح ٥/٣٩ .
(٢) المصدر السابق ٢/٣٢٩ .
(٣) البلاذري : انساب الأشراف ١/٢٧٠ .

عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلاً من كثيراً ، لقد كفونا المئونة واشركونا في المهنأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله . قال : « لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم »[1] .

تشريع نظام المؤاخاة :

ورغم بذل الأنصار وكرمهم فإن الحاجة إلى إيجاد نظام يكفل للمهاجرين المعيشة الكريمة ظلت قائمة ، خاصة أن أنفة « المهاجرين » ومكانتهم تقتضي معالجة أحوالهم بتشريع يبعد عنهم أي شعور بأنهم عالة على « الأنصار » فكان أن شرع نظام المؤاخاة ، ولا تختلف الروايات في تاريخ تشريعه إلا اختلافاً يسيراً ، فهي تجمع على أن المؤاخاة وقعت في السنة الأولى الهجرية ، وتختلف إن كان ذلك بعد بناء المسجد في المدينة أو خلال بنائه[2] . ويحدد ابن عبد البر تاريخ تشريعه بعد الهجرة بخمسة أشهر[3] . أما ابن سعد فقد ذكر أن المؤاخاة بعد الهجرة وقبل غزوة بدر الكبرى[4] دون تحديد دقيق لتاريخ تشريعها .

وكان إعلان هذا التشريع في دار أنس بن مالك كما صرحت الروايات[5] ، ووقعت المؤاخاة بين طرفين هما المهاجرون والأنصار ، فآخى الرسول ﷺ بين كل مهاجري وأنصاري اثنين اثنين .

---

(١) الترمذي : سنن ٤/٦٥٣ حديث رقم ٢٤٨٧ وقال : صحيح غريب .
وأحمد : المسند ٣/٢٠٠ ، ٢٠٤ .
ابن سيد الناس : عيون الأثر ١/٢٠٠ وابن كثير : السيرة النبوية ٢/٣٢٨ .

(٢) ابن عبد البر : الدرر في اختصار المغازي والسير ٩٦ وابن سيد الناس : عيون الأثر ١/٢٠٠ .

(٣) ابن عبد البر : الدرر ٩٦ .

(٤) ابن سعد الطبقات ج ١ قسم ٢/٩ .

(٥) ابن سعد : الطبقات ج ١ قسم ٢/٩ .
وابن القيم : زاد المعاد ٢/٧٩ ، وابن سيد الناس : عيون الأثر ١/٢٠٠ وابن كثير السيرة النبوية ٢/٣٢٤ .

وقد شملت المؤاخاة تسعين رجلاً خمسة وأربعين من المهاجرين وخمسة وأربعين من الأنصار ، ويقال إنه لم يبق من المهاجرين أحد إلا آخي بينه وبين أنصاري[1] . وتتفق المصادر على أن المؤاخاة التي جرت في المدينة كانت بين المهاجرين والأنصار ، لكن ابن سعد يذكر أن ثمة مؤاخاة بين المهاجرين أنفسهم وقعت في المدينة إلى جانب المؤاخاة بينهم وبين الأنصار ، ولم يذكر أية تفصيلات أخرى توضح هدف المؤاخاة بين المهاجرين أنفسهم ، وما يترتب عليها ، ولم تكترث بقية المصادر لهذه الإشارة أو تعقب عليها[2] .

وقد ترتب على تشريع نظام المؤاخاة حقوق خاصة بين المتآخيينْ كالمواساة بين الاثنين ، والمواساة ليست محددة بأمور معينة بل مطلقة لتعني كل أوجه العون على مواجهة أعباء الحياة سواء كان عوناً مادياً أو رعاية ونصيحة وتزاوراً ومحبة ، كما ترتب على المؤاخاة أن يتوارث المتآخين دون ذوي أرحامهم ، مما يرقي بالعلاقات بين المتآخين إلى مستوى أعمق وأعلى من أخوة الدم[3] .

وقد طابت نفوس الأنصار بما سيبذلونه لأخوانهم المهاجرين من عون ، وتصور بعض الروايات عمق التزامهم بنظام المؤاخاة وتفانيهم في تنفيذه ، ومن النماذج الفريدة لهذه المؤاخاة ما حدث بين سعد بي الربيع «الأنصاري» وعبد الرحمن بن عوف « المهاجر » ، حيث قال له سعد : إن لي مالاً فهو بيني وبينك شطران ، ولي امرأتان فانظر أيهما أحب إليك فأنا أطلقها فإذا حلت فتزوجها . قال : بارك الله لك في أهلك ومالك . دلوني على السوق . فلم يرجع حتى رجع

---

(١) البلاذري : أنساب الأشراف ١ / ٢٧٠ ، وابن سعد : الطبقات ج ١ قسم ٢ / ٩ .

(٢) ابن سعد : الطبقات ج ١ قسم ٢ / ٩ .

(٣) البخاري : الصحيح ٣ / ١١٩ و٦ / ٥٥ - ٥٦ و٨ / ١٩٠ - ١٩١ .
ومسلم : الصحيح ٤ / ١٩٦٠ ، وابن سعد : الطبقات ج ١ قسم ٢ / ٩ .
والبلاذري : انساب الأشراف ١ / ٢٧٠ . وابن عبد البر : الدرر ٩٦ .
وابن القيم : زاد المعاد ٢ / ٧٩ . وابن سيد الناس : عيون الأثر ١ / ٢٠٠ .

بسمن وأقط قد أفضله . قال : ورأى رسول الله ﷺ عليَّ أثر صفرة فقال : مهيم ؟ فقلت : تزوجت امرأة من الأنصار . فقال : أولم ولو بشاة[1] .

ولا شك أن المرء يقف مبهوراً أمام هذه الصور الرائعة من الأخوة المتينة والإيثار المتبادل الذي لا نشهد له مثيلا في تواريخ الأمم الأخرى .

وليس موقف ابن عوف في أنفته وكرم خلقه وعدم استغلاله لأخيه بأقل روعة من إيثار ابن الربيع . فقد تمكن – وهو التاجر الماهر – من شق طريقه في الحياة الجديدة وبعد مدة يسيرة تمكن من الزواج ودفع المهر نواة من ذهب[2] . ثم بورك له في عمله ونمت ثروته ليصبح من كبار أغنياء المسلمين ، فقد أبى إلا أن يكون صاحب اليد العليا التي تعطي ولا تأخذ .

إلغاء التوارث بين المتآخين :

لاشك أن التوارث بين المتآخين كان لمعالجة ظروف استثنائية مرت بها الدولة الناشئة . فلما ألف المهاجرون جو المدينة وعرفوا مسالك الرزق فيها ، وأصابوا من غنائم بدر الكبرى ما كفاهم ، رجع التوارث إلى وضعه الطبيعي المنسجم مع الفطرة البشرية على أساس صلة الرحم ، وأبطل التوارث بين المتآخين[3] ، وذلك بنص القرآن الكريم فقال تعالى : ﴿ . . . وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله . . . ﴾[4]

---

(١) النسائي : سنن ١٣٧/٦ .

(٢) البخاري : الصحيح ٣٩/٥ .

(٣) ابن سعد : الطبقات ج ١ قسم ٢ ٩/٢ .
والبلاذري : انساب الأشراف ١/ ٢٧٠ ، ٢٧١ .
وابن القيم : زاد المعاد ٢/ ٧٩ .
وابن سيد الناس : عيون الاثر ١/ ٢٠٠ .

(٤) سورة الأنفال من الآية ٧٥ . وانظر تفسيرها في الشوكاني : فتح القدير ٢/ ٣٣٠ - ٣٣١ .
وعن سبب نزول هذه الآية انظر مسند الطيالسي ٢/ ١٩ والهيثمي : مجمع الزوائد ٧/ ٢٨ وقال : رجاله رجال الصحيح .

فهذه الآية نسخت التوارث بموجب نظام المؤاخاة ، ويرى ابن عباس أن آية ﴿ ولكل جعلنا موالي . . . والذين عقدت أيمانكم﴾ نسخت التوارث بالمؤاخاة ، فالموالي في رأيه هم الورثة بالرحم ﴿والذين عقدت أيمانكم﴾ هم المهاجرون الذي كانوا يرثون بالمؤاخاة . وذكر ابن عباس أن ما ألغى من نظام المؤاخاة هو الإرث أما « النصر والرفادة والنصيحة » فباقية ، ويمكن أن يوصي ببعض الميراث بين المتآخين[1] ، ودون وصية لا يرث . وإلى هذا المعنى ذهب الإمام النووي فقال : «أما ما يتعلق بالإرث فيستحب فيه المخالفة عند جماهير العلماء ، وأما المؤاخاة في الإسلام والمحالفة على طاعة الله تعالى والتناصر في الدين والتعاون على البر والتقوى وإقامة الحق فباقٍ لم ينسخ »[2] .

وينفرد ابن سعد بنقل رواية بإسناده إلى عروة بن الزبير تذكر أن إلغاء التوارث بين المتآخين ونزول آية ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ كان بعد غزوة أحد[3] التي وقعت في شوال سنة ٣ هـ .

ومن الغريب أن ابن حجر[4] ذكر المؤاخاة بين الحتات التميمي ومعاوية بن أبي سفيان وأن الحتات مات في خلافة معاوية فورثه بالأخوة مكتفياً في التعليق على الخبر بإبداء تعجبه لأن للحتات بنون يرثونه[5] دون أن يشير إلى إبطال التوارث بالمؤاخاة أصلاً منذ السنة الثانية الهجرية ولا يصح مثل هذا الخبر إلا أن يكون الحتات قد أوصى لمعاوية بشيء من ميراثه لا كله .

(١) البخاري : الصحيح ٣/١١٩ و٦/٥٥ - ٥٦ و٨/١٩٠ - ١٩١ .

(٢) صحيح مسلم ٤/١٩٦٠ الحاشية .

(٣) السيوطي : لباب النقول في أسباب النزول ص ٢٦٠ نقلاً عن ابن سعد ، والشوكاني فتح القدير ٢/٣٣٠ - ٣٣١ وقال : « أخرجه ابن سعد وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه » .

(٤) نقل ابن حجر ذلك عن ابن عبد البر الذي اعتمد بدوره على ابن إسحق وابن هشام وابن الكلبي .

(٥) ابن حجر : الإصابة قسم ٢ ص ٣٠ .

استمرار المؤاخاة دون توارث :

ويبدو أن النبي ﷺ استمر يؤاخي بين أصحابه مؤاخاة مواساة وتعاون وتناصح دون أن يترتب على ذلك حق التوارث بين المتآخين . وهكذا وردت أخبار تفيد أنه آخى بين أبي الدرداء وسلمان الفارسي(١) مع أن سلمان أسلم بين أحد والخندق مما جعل الواقدي والبلاذري ينكران ذلك(٢) . وكذلك أنكر ابن كثير مؤاخاة جعفر بن أبي طالب لمعاذ بن جبل لأن جعفراً قدم في فتح خيبر أول سنة ٧ هـ(٤) . ومثل ذلك مؤاخاة الحتات مع معاوية بن أبي سفيان(٣) لأن معاوية أسلم بعد فتح مكة سنة ٨ هـ . وكذلك فإن الحتات قدم المدينة في وفد تميم في العام التاسع للهجرة(٥) . وإذا اعتبرنا المؤاخاة مستمرة إلا ما يتعلق بحق التوارث الذي أبطل بعد بدر ، فلا موجب لهذا الاعتراض والإنكار الذي أبداه المؤرخون تجاه هذه الروايات .

وكذلك إذا قبلنا وقوع مؤاخاة دون إرث قبل وبعد تشريع المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار فإن ذلك سوف يفسر الإلتباس الذي وقع فيه ابن إسحق عندما أورد في قائمة المتآخين خبر مؤاخاة النبي ﷺ لعلي ومؤاخاة حمزة لزيد بن حارثة وكلهم مهاجرون في حين أن سائر الأسماء الأخرى التي وردت في قائمته توضح أن المواخاة كانت بين مهاجري وأنصاري(٤) . وقد عقب ابن كثير على مؤاخاة النبي ﷺ لعلي ومؤاخاة حمزة لزيد بأنه لا معنى لهذه المؤاخاة إلا أن يكون النبي ﷺ لم يجعل مصلحة علي إلى غيره فإنه كان ممن ينفق عليه الرسول من صغره . وإلا أن يكون حمزة قد التزم بمصالح مولاهم زيد بن حارثة فآخاه بهذا الاعتبار .

---

(١) البخاري : الصحيح ٥/٨٨ و٣/٤٧ .

(٢) البلاذري : انساب الأشراف ١/٢٧١ .

(٣) ابن كثير : السيرة النبوية ٢/٣٢٦ .

(٤) ابن حجر : الإصابة قسم ٢ ص ٣٠ .

(٥) سيرة ابن هشام ٤/٢٢٢ .

ولكن هذا التعليل الذي قدمه ابن كثير غير مقبول لأن المصادر ذكرت مؤاخاة حمزة بن عبد المطلب لكلثوم بن الهدم أوغيره ، كما ذكرت مؤاخاة زيد ابن حارثة لأسيد بن حضير[1] .

كما أن المؤاخاة بين الرسول ﷺ وعلي تقتضي التوارث ، والنبي لا يورث كما جاء في الحديث ، كما أن البلاذري ذكر مؤاخاة علي لسهل بن حنيف[2] ، وكذلك فإن البلاذري ذكر وقوع مؤاخاة بين النبي وعلي وحمزة وزيد بمكة[3] .

ونخلص من ذلك إلى أن هذه المؤاخاة بين النبي وعلي وبين حمزة وزيد إذا كانت قد وقعت - فإنها مؤاخاة تقتضي المؤازرة والرفقة دون حقوق التوارث وأنها جرت في غير الوقت الذي أعلن فيه نظام المؤاخاة في دار أنس بن مالك .

وأخيراً فإن المؤاخاة التي شرعت بين المؤمنين باقية لم تنسخ سوى ما يترتب عليها من توارث فإنه منسوخ ، وبوسع المؤمنين في كل عصر أن يتآخوا بينهم على المواساة ، والارتفاق والنصيحة ويترتب على مؤاخاتهم حقوق أخص من المؤاخاة العامة بين المؤمنين .

إن استجابة المسلمين لأوامر الله تعالى تظهر في انخلاعهم عن علاقاتهم الاجتماعية والمكانية إذا اقتضت ذلك مصلحة العقيدة .

---

(١) ابن هشام : السيرة ١/ ٥٠٤ - ٥٠٧ .

(٢) البلاذري : أنساب الأشراف ١/ ٢٧٠ .

(٣) المصدر السابق ١/ ٢٧٠ . وقد ورد خبر مؤاخاة حمزة لزيد في مسند أحمد ١/ ٢٣٠ .

آصرة العقيدة هي أساس الارتباط بين الناس

ولاشك أن الروابط التي تجمع بين الناس مختلفة ، وهم يجتمعون بشكل قبائل وشعوب وأوطان وقوميات ، وقد يجتمع أبناء القوميات المختلفة تحت لواء واحد بسبب الدين أو المصالح المشتركة . وتعتبر آصرة القربي أو الدم والانتماء إلى أصل عرقي من أقدم الروابط التي كونت المجتمعات البشرية . ويوم أن ظهر الإسلام كانت تجمعات الناس تظهر بشكل قبائل كما في جزيرة العرب وأماكن أخرى ، وقوميات كما في بلاد فارس ، ومجتمعات دينية كما في الامبراطورية البيزنطية . وقد جعل الإسلام رابطة العقيدة هي الأساس الأول في ارتباط الناس وتآلفهم وان أقرَّ بعض الأواصر الأخرى إذا انضوت تحت هذا الأصل مثل الأرحام التي حث الإسلام على وصلها . ورتب على ذلك الأحكام المتعلقة بالتكافل الاجتماعي والإرث ومثل صلة الجوار وما يترتب عليها من حقوق الجار ومثل الصلة بين أفراد العشيرة وما يترتب عليها من تضامن في الديات ومثل الصلة بين أبناء المدينة وجعلهم أولى من سواهم بزكاة أغنيائهم . . لكن هذه الصلات ينبغي أن تنضوي تحت آصرة العقيدة فإذا خالفتها وأضرت بها لم يبق لها أي اعتبار ، فأساس الارتباط في الإسلام هو العقيدة التي قد تقتضي مصلحتها التفريق بين المرء وأبيه أو ابنه أو زوجته أو عشيرته . . وهكذا قاتل أبو عبيدة رضي الله عنه أباه - وهو يمجد الأصنام - فقتله عندما التقى به في معركة بدر الكبرى . ورأى أبو حذيفة رضي الله عنه أباه المشرك وهو يُسْحبُ ليرمي في القليب ببدر دون أن ينكر قلبه ذلك[1] .

قال ابن إسحق[2] : وحدثني ابن وهب أخو بني عبدالدار أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأساري فرقهم بين أصحابه وقال : استوصوا بهم خيراً . وكان أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه في الأسرى .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٧٥ .

(٢) انظر ابن كثير : البداية والنهاية ٣/٣٠٦ - ٣٠٧ .

قال أبو عزيز : مرّ بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني فقال : أشدد يديك به فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك . . .

قال ابن هشام : وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر ابن الحارث ولما قال أخوه مصعب لأبي اليسر - وهو الذي أسره ما قال . قال له أبو عزيز : ياأخي هذه وصاتك بي ؟ فقال له مصعب إنه أخي دونك .

روى الترمذي[1] بإسناد قال عنه حسن صحيح وهو : حدثنا ابن أبي عمر أخبرنا سفيان عن عمرو بن دينار سمع جابر بن عبد الله يقول : كنا في غزاة - قال سفيان يرون أنها غزوة بني المصطلق - فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار . . وفيه فسمع ذلك عبد الله بن أبي بن سلول فقال : أو قد فعلوها ؟ والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . وقال غير عمرو : فقال له ابنه عبد الله بن عبد الله : « والله لا تنقلب حتى تقر أنك الذليل ورسول الله ﷺ العزيز ففعل » .

وقد كان عبد الله بن عبد الله بن أبي باراً بأبيه هياباً له[2] لكن مصلحة العقيدة هي المعتبرة عنده أولاً فلما رأى أباه يؤذي المسلمين عرض على النبي ﷺ أن يقتله ويأتيه برأسه[3] .

وقد أوضح القرآن الكريم ذلك فيما قصه عن نوح عليه السلام وابنه ﴿ونادي نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال : يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألني ماليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾[4] .

---

(١) الترمذي : سنن ٥/٩٠ كتاب التفسير .
(٢) مسند الحميدي ٢/٥٢٠ .
(٣) الهيثمي : مجمع الزوائد ٩/٣١٨ .
(٤) سورة هود آية ٤٥ ، ٤٦ .

وهكذا بَيَّن الحق سبحانه أن ابن نوح وإن كان من أهله باعتبار القرابة لكن لم يعد من أهله لما فارق الحق وكفر بالله ولم يتبع نوحاً نبي الله . وصرح القرآن الكريم بعلة انقطاع الآصرة بين نوح وابنه بقوله : (إنه عمل غير صالح) . فإذا كانت القرابة من الدرجة الأولى تنبت عندما تصطدم بالعقيدة فالأحرى أن تنبت صلات الدم والعرق والوطن واللون إذا اصطدمت بمصلحة العقيدة .

وقد حصر الإسلام الأخوة والموالاة بين المؤمنين فقط قال تعالى : ﴿إنما المؤمنون أخوة﴾[1] وقطع الولاية بين المؤمنين والكافرين من المشركين واليهود والنصاري حتى لو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو أبناءهم ووصف من يفعل ذلك من المؤمنين بالظلم مما يدل على أن موالاة المؤمنين للكافرين من أعظم الذنوب قال تعالى ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾[2] .

وقد وضع القرآن الكريم مصالح المسلم وعلاقاته الدنيوية كلها في كفة ووضع حب الله ورسوله والجهاد في سبيل العقيدة في كفة أخرى ، وحذر المؤمنين وتوعدهم إن هم غَلَّبوا مصالحهم وعلاقاتهم الاجتماعية على مصلحة العقيدة قال تعالى : ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[3] . وقد نزلت هذه الآيات من سورة التوبة في الحض على الهجرة إلى المدينة المنورة للدفاع عن الدولة الإسلامية التي نشأت فيها . . وقد نجح الصحابة الكرام في امتحان العقيدة . . ففارقوا الأهل والأموال والمساكن التي يحبونها وهاجروا إلى الله ورسوله والجهاد في سبيله .

---

(١) سورة الحجرات ١٠ .
(٢) سورة التوبة ٢٣ .
(٣) سورة التوبة ٢٤ .

وخلاصة القول أن المجتمع المدني الذي أقامه الإسلام كان مجتمعاً عقيدياً يرتبط بالإسلام ، ولا يعرف الموالاة إلا لله ولرسوله وللمؤمنين . وهي أعلى أنواع الارتباط وأرقاها إذ يتصل بوحدة العقيدة والفكر والروح فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم . وهذا المجتمع مفتوح لمن أراد أن ينتمي إليه مهما كان لونه أو جنسه على أن ينخلع من صفاته الجاهلية ويكتسب الشخصية الإسلامية ليتمتع بسائر حقوق المسلمين .

الحب أساس بنية المجتمع المدني

وقد أقام الإسلام المجتمع المدني على أساس الحب والتكافل ، كما في الحديث الشريف « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » فالتواد والرحمة والتواصل أساس العلاقة بين أفراد المجتمع كبيرهم وصغيرهم غَنيهم وفقيرهم حاكمهم ومحكومهم .

وقد تكفلت تعاليم الإسلام بتدعيم الحب وإشاعته في المجتمع ، ففي الحديث النبوي « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » فيعيش المؤمنون بعيداً عن الأثرة والاستغلال وهم يتعاونون في مواجهة أعباء الحياة فمن (كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي والإمام أحمد (والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي وأبو داود .

وعلاقات المؤمنين قائمة على الاحترام المتبادل فلا يستعلي غني على فقير ولا حاكم على محكوم ولا قوي على ضعيف « بحسب امريء من الشر أن يحقر أخاه المسلم « رواه الإمام مسلم » .

وقد تفتر العلاقة بين المسلم وأخيه أو تنقطع ساعة غضب لكن انقطاعها لا يستمر فوق ثلاث ليال « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام » كما في الصحيحين .

وتدعم أسس الحب بالصلة والصدقة (تهادوا تحابوا) ويضع الغني أمواله في خدمة المجتمع وسد الثغرات التي تظهر في بنائه الاقتصادي بسبب التفاوت في توزيع الثروة فيخرج زكاة أمواله فريضة من الله ويواسي المحتاجين بأمواله حتى إنهم ليفرحون إذا كثرت ثروته إذ تعود عليهم بالخير والمواساة .

أخرج الإمام البخاري (٦/ ٣١ كتاب التفسير) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة نخلاً ، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء ، وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب . فلما نزلت ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾[1] قام أبو طلحة فقال : يارسول الله ، إن الله يقول : ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وإن أحب أموالي إليّ (بيرحاء) ، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله ، فضعها يارسول الله حيث أراك الله ، قال رسول الله ﷺ ذلك مال رايح[2] ، ذلك مال رايح ، وقد سمعت ما قلت وإني أرى أن تجعلها في الأقربين ، فقال أبو طلحة : أفعل يارسول الله فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه » .

وكان أغنياء الصحابة يعرفون أنهم مستخلفون على المال الذي اكتسبوه ، فإذا وجدوا ثغرة تعجز الدولة عن سدها أو لا تنتبه لها بذلوا أموالهم في سدها . . وقد ثبت في التاريخ أن عثمان رضي الله عنه تصدق بقافله ضخمة - ألف بعير تحمل البر والزيت والزبيب - على فقراء المسلمين عندما حلت الضائقة الاقتصادية بالمدينة المنورة في خلافة الصدّيق رضي الله عنه وقد عرض عليه التجار خمسة أضعاف ثمنها ربحاً فقال : أعطيت أكثر من ذلك . فقالوا : من الذي أعطاك وما سبقنا إليك أحد ، ونحن تجار المدينة ؟ قال : إن الله أعطاني عشرة أمثالها ثم قسمها بين الفقراء المسلمين .

ومثل هذا كثير في سير المسلمين من سلفنا الصالح لذلك لم تظهر الروح الطبقية ولم يحدث الصراع الطبقي . . . ولم يتكتل الناس وفق مصالحهم الاقتصادية لحرب من فوقهم أو تحتهم . . إن المجتمع الإسلامي لم يشهد صراع الطبقات ولا يعرف استعلاء غني على فقير ولا حاكم على محكوم ولم يعترف ابتداء باختلاف البشر تبعاً لألوانهم وأعراقهم أو دمائهم ، فالمسلمون سواسية كأسنان

(١) آل عمران آية ٩٢ .

(٢) أي أن أجرها يروح ويغدو عليه (فتح الباري ٣/ ٣٢٦) .

المشط لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . . . والمجتمع الإسلامي مفتوح أمام الجميع ففرص الارتقاء والكسب متكافئة أمام أفراده والعلاقات الاجتماعية متكافئة أيضاً فلم يحدث أن مُنع فقير من الزواج بغنية أو حُجب ضعيف عن الترقي إلى أرفع مناصب الدولة وأعلى مراكز القيادة والتوجيه في المجتمع ، فليست هناك طبقية يصطدم رقي الفرد بسقوفها ولو قدر للمجتمع الإسلامي أن يستمر في تقدمه العلمي والحضاري ويمسك بزمام البشرية اليوم لظهرت مزايا الإسلام في بناء مجتمع متراص على أساس الحب والتكافل وليس الحقد والصراع الذي ليس وراءه إلا الدمار .

وإذا كان هذا هو موقف أغنياء المسلمين في المجتمع المدني فما هو موقف ضعفائهم وفقرائهم ؟ .

الأغنياء والفقراء يجاهدون في صف واحد

لقد وقف الأغنياء والفقراء يجاهدون في صف واحد : فالعقيدة الإسلامية منعت ظهور الصراع الطبقي في المجتمع الإسلامي وآخت بين الأغنياء والفقراء ووحدت الصف الداخلي لمواجهة متطلبات الجهاد وهذه صورة من المجتمع المدني توضح كيف عاشت مجموعة من أفقر المسلمين في عصر السيرة .

قال تعالى : ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم ، لا يسألون الناس إلحافاً ، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾[1] .

ذكر ابن سعد في طبقاته[2] بإسناده إلى محمد بن كعب القرظي أن هذه الآية نزلت في أهل الصفة وذكر الطبري[3] في تفسيره بأسانيد عن مجاهد والسدى أنها نزلت في فقراء المهاجرين .

وفيما يلي أعرض لصورة من حياة الفقراء في المجتمع الإسلامي الأول وهم أهل الصفة .

---

(١) البقرة آية ٢٧٣ .

(٢) الطبقات الكبرى ١/ ٢٥٥ .

(٣) تفسير الطبري ٥/ ٢٩١ (ط محمود محمد شاكر) .

أهل الصفة

فقراء المهاجرين :

أعقب هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة المنورة ظهور مشكلة تتعلق بمعيشة المهاجرين الذين تركوا بيوتهم وأموالهم ومتاعهم بمكة فراراً بدينهم من طغيان المشركين .

ولا شك أن بعض المهاجرين لم يستطيعوا العمل حال قدومهم إلى المدينة لأن الطابع الزراعي يغلب على اقتصاد المدينة وليست للمهاجرين حياة زراعية فمجتمع مكة تجاري ، كما أنهم لا يملكون أرضاً زراعية في المدينة وليست لديهم رءوس أموال فقد تركوا أموالهم بمكة . وقد وضع الأنصار إمكانياتهم في خدمة المهاجرين لكن بعض المهاجرين بقى محتاجاً إلى المأوى .

واستمر تدفق المهاجرين إلى المدينة خاصة قبل موقعة الخندق حيث كان الكثير منهم يستقرون في المدينة كما طرقت الوفود الكثيرة المدينة ، ومنهم من لم يكن على معرفة بأحد من أهل المدينة فكان هؤلاء الغرباء بحاجة إلى مأوى دائم أو مدة إقامتهم .

ولا شك أن النبي ﷺ فكر في إيجاد المأوى للفقراء المقيمين والوفود الطارقين .

الصفة :

وحانت الفرصة عندما تم تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة وذلك بعد ستة عشر شهراً من هجرته ﷺ إلى المدينة[1] حيث بقى خائط القبلة

---

(١) خليفه : التاريخ حـ ١ ص ٢٣ وينقل روايات أخرى تذكر أن ذلك كان بعد تسعة أشهر أو عشرة أو سبعة عشر شهراً أو سنتين . وفي صحيح البخاري كتاب الصلاة – باب التوجه نحو القبلة ١/١٠٤ أنه كان بعد ستة عشر أو سبعة عشر شهراً .

الأولى في مؤخر المسجد النبوي ، فأمر النبي ﷺ به فظلل أو سقف وأطلق عليه اسم الصفة أو الظلة[1] ولم يكن لها ما يستر جوانبها[2] .

ويذكر ابن جبير في رحلته أن الصفة دار في آخر قباء يسكنها أهل الصفة ، وتأول السمهودي ذلك بأن من ذكر من أهل الصفة اتخذوا تلك الدار فيما بعد فاشتهرت بذلك ، أي أن المكان الذي ذكره ابن جبير نسب إلى أهل الصفة ولم ينسبوا هم إليه ، لأن نسبتهم كانت إلى صفة المسجد النبوي بالمدينة .

ولا يعرف سعة الصفة ، ولكن يبدو أنها كانت تتسع لعدد كبير حتى أن النبي ﷺ استخدمها في وليمة حضرها ثلثمائة شخص ، وإن كان بعضهم قد جلس في حجرة من حجرات أزواج النبي ﷺ الملاصقة للمسجد[3] .

سكان الصفة :

أول من نزل الصفة المهاجرون[4] ، لذلك نسبت إليهم فقيل صفة المهاجرين[5] . وكذلك كان ينزل بها الغرباء من الوفود التي كانت تقدم على النبي ﷺ معلنة إسلامها وطاعتها[6] وكان الرجل إذا قدم على النبي ﷺ وكان له

---

(١) السمهودي : وفاء الوفا ١/٣٢١ . ياقوت : معجم البلدان (ظلة) ابن منظور لسان العرب مادة (صفف) . ويلاحظ أن كلمة (صفة) لم يقتصر استعمالها على صفة المسجد بل أطلقت على المكان المسقوف منذ الفترة المبكرة فهناك صفة النساء في المسجد النبوي بالمدينة (النسائي : سنن ٨/٧٧ وأبو داود : سنن ٢/٤٤٨) وهناك صفة زمزم بمكة (البخاري : الصحيح : ٢/٤٤ والنسائي : سنن ٣/١٣٥) كما أطلقت الصفة على المكان المظلل في بيوت الناس أيضاً (البخاري : الصحيح ١/٢١٥) .

(٢) ريكندورف : دائرة المعارف الإسلامية ص ١٠٥ .

(٣) مسلم : الصحيح - كتاب النكاح - حديث رقم (٩٤) .

(٤) السمهودي : وفاء الوفا ١/٣٢٣ .

(٥) أبو داود : السنن - كتاب الحروف ٢/٣٦١ .

(٦) البخاري : الصحيح - كتاب الصلاة - باب نوم الرجال في المساجد .
وابن ماجه : السنن - كتاب الصيد - باب الضب .

عريف نزل عليه . وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة[1] . فكان أبو هريرة (رض) عريف من سكن الصفة من القاطنين ومن نزلها من الطارقين ، فكان النبي ﷺ إذا أراد دعوتهم عهد إلى أبي هريرة فدعاهم لمعرفته بهم وبمنازلهم ومراتبهم في العبادة والمجاهدة[2] . وإلى جانب المهاجرين والغرباء نزل بعض الأنصار في الصفة حباً لحياة الزهد والفقر رغم استغنائهم عن ذلك ووجود دار لهم في المدينة ، ومنهم كعب بن مالك الأنصاري[3] وحنظلة بن أبي عامر الأنصاري (غسيل الملائكة) وحارثة بن النعمان الأنصاري وغيرهم .

ولأن أهل الصفة كانوا أخلاطاً من قبائل شتى سماهم النبي ﷺ (الأوفاض) وقيل في سبب هذه التسمية أيضاً إن كل واحد منهم كان معه وفضة : وهي مثل الكنانة الصغيرة يلقي فيها طعامه ، لكن القول الأول أجود[4] .

عددهم وأسماؤهم :

كان عددهم يختلف باختلاف الأوقات ، فهم يزيدون إذا قدمت الوفود إلى المدينة ويقلون إذا قل الطارقون من الغرباء ، على أن عدد المقيمين منهم في الظروف العادية كان في حدود السبعين رجلاً[5] . وقد يزيد عددهم كثيراً حتى

---

(١) أحمد : المسند ٣/٤٨٧ وأبو نعيم : الحلية ١/٣٣٩/٣٧٤ والسمهودي وفاء الوفا ١/٣٢٣ .
والعريف : النقيب أو القيم بأمور القبيلة أو الجماعة (لسان العرب مادة «عرف») .

(٢) أبو نعيم : الحلية ١/٣٧٦ .

(٣) ابن أبي حاتم جـ٣ ق٢ ص ١٦٠ .
وانظر سامي مكي العاني : ديوان كعب بن مالك الأنصاري ص ٧٧ حيث ينفي صحة نسبته إليهم لأنه أنصاري وأهل الصفة مهاجرون فقراء . ولكن لعله أحب حياة الفقر والزهد فخالطهم وساكنهم مع وجود دار له في المدينة ، وقد أورد أبو نعيم في الحلية (١/٣٥٥ ، ٣٥٦) أسماء بعض الأنصار من أهل الصفة .

(٤) أحمد : المسند ٦/٣٩١ . وأبو نعيم : الحلية ١/٣٣٩ .
وابن منظور : لسان العرب مادة (وفض) .

(٥) أبو نعيم : الحلية ١/٣٣٩ ، ٣٤١ .

أن سعد بن عبادة كان يستضيف وحده ثمانين منهم فضلاً عن الآخرين الذين يتوزعهم الصحابة[١] .

ويذكر السمهودي أن أبا نعيم سرد أسماءهم في الحلية فزادوا على المائة[٢] .

لكن عدد من سماهم أبو نعيم إثنان وخمسون فقط منهم خمسة نفي أبو نعيم أن يكونوا من أهل الصفة . وأبو نعيم وحده الذي يقدم إلينا قائمة طويلة بأسماء المشهورين من أهل الصفة ، وهو ينقل من مصدر أسبق لا يصرح باسمه ، ولعله الكتاب الذي صنفه أبو عبد الرحمن السلمي (ت ٤١٢ هـ) في أهل الصفة[٣] .

وفيما يلي قائمة بأسماء أهل الصفة كما ذكرها أبو نعيم[٤] مضافاً إليهم من ذكرتهم بقية المصادر ممن لم يذكرهم أبو نعيم :

١ - أبو هريرة (رض) حيث نسب نفسه إليهم[٥] .

٢ - أبو ذر الغفاري (رض) حيث نسب نفسه إليهم[٦] .

٣ - واثلة بن الأسقع[٧] .

٤ - قيس بن طهفة الغفاري ، حيث نسب نفسه إليهم[٨] .

٥ - كعب بن مالك الأنصاري[٩] .

---

(١) المصدر السابق ١/٣٤١ .

(٢) السمهودي : وفاء الوفا ١/٣٢١ .

(٣) حاجي خليفة : كشف الظنون ١/٢٨٦ وابن حجر : الاصابة قسم ١/٦٠١ وسماه أصحاب الصفة وقسم ٦/٥٥٠ .

(٤) أبو نعيم : الحلية ١/٣٤٨ فيما بعد .

(٥) البخاري : الصحيح - كتاب البيوع - باب (١) وابن سعد : الطبقات الكبري ١/٢٥٦ . وابن سيد الناس : عيون الأثر ٢/٢١٧ وابن حجر : الاصابة ترجمة رقم ٥٥٠٥ .

(٦) ابن سيد الناس : عيون الأثر ٢/٣١٧ وابن سعد الطبقات ١/٢٥٦ .

(٧) ابن سيد الناس : عيون الأثر ٢/٣١٧ .

(٨) ابن سعد : الطبقات الكبرى ١/٢٥٦ . وابن سيد الناس : عيون الأثر ٢/٣١٧ ، وابن حجر : الإصابة ترجمة رقم ٤٣٠٠ .

(٩) ابن أبي حاتم : الجرح والتعديل جـ ٣ ق ٢ ص ١٦٠ .

٦ - سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي .

٧ - سلمان الفارسي(رض) .

٨ - أسماء بن حارثة بن سعيد الأسلمي .

٩ - حنظلة بن أبي عامر الأنصاري (غسيل الملائكة) .

١٠ - حازم بن حرملة .

١١ - حارثة بن النعمان الأنصاري النجاري .

١٢ - حذيفة بن أسيد أبو سريحة الأنصاري .

١٣ - حذيفة بن اليمان (رض) وهو من المهاجرين حالف الأنصار فعد في جملتهم .

١٤ - جارية بن جميل بن شبة بن قرط .

١٥ - جعيل بن سراقة الضمري .

١٦ - جرهد بن خويلد (وقيل بن رزاح) الأسلمي[1] .

١٧ - رفاعة أبو لبابة الأنصاري ، وقيل اسمه بشير بن عبد المنذر من بني عمرو بن عوف .

١٨ - عبد الله ذو البجادين .

١٩ - دكين بن سعيد المزني وقيل الخثعمي[2] .

٢٠ - خبيب بن يساف بن عنبة .

٢١ - خريم بن أوس الطائي .

٢٢ - خريم بن فاتك الأسدي .

٢٣ - خنيس بن حذافة السهمي .

---

(١) أبو داود السنن - كتاب الحمام - باب النهي عن التعري ٢/٣٦٣ .
وأحمد : المسند ٣/٤٧٩ .

(٢) وقال أبو نعيم : الحلية ١/٣٦٥ (لا أعلم لاستيطانه الصفة ونزولها أثراً صحيحاً) ولم يجزم بنفي نسبته إليهم .

٢٤ - خباب بن الأرت .

٢٥ - الحكم بن عمير الثمالي .

٢٦ - حرملة بن أياس ، وقيل هو حرملة بن عبد الله العنبري .

٢٧ - زيد بن الخطاب .

٢٨ - عبد الله بن مسعود .

٢٩ - الطفاوي الدوسي .

٣٠ - طلحة بن عمرو النضري .

٣١ - صفوان بن بيضاء الفهري .

٣٢ - صهيب بن سنان الرومي .

٣٣ - شداد بن أسيد .

٣٤ - شقران مولى النبي ﷺ .

٣٥ - السائب بن خلاد .

٣٦ - سالم بن عمير من الأوس من بني ثعلبة بن عمرو بن عوف .

٣٧ - سالم بن عبيد الأشجعي(*) .

٣٨ - سفينة مولى النبي ﷺ .

٣٩ - سالم مولى أبي حذيفة .

٤٠ - أبو رزين .

٤١ - الأغر المزني .

٤٢ - بلال بن رباح .

٤٣ - البراء بن مالك الأنصاري .

٤٤ - ثوبان مولى النبي ﷺ .

٤٥ - ثابت بن وديعة الأنصاري .

٤٦ - ثقيف بن عمرو بن شميط الأسدي .

(*) ذكره أيضاً النسائي في أصحاب الصفة (فضائل الصحابة ٥ حديث رقم ٨) .

٤٧ - سعد بن مالك أبو سعيد الخدري (رض) .

٤٨ - العرباض بن سارية[١] .

٤٩ - غرفة الأزدي[٢] .

٥٠ - عبد الرحمن بن قرط[٣] .

٥١ - عباد بن خالد الغفاري[٤] .

وقد أورد أبو نعيم أسماء رجال ذكروا في أهل الصفة ، ونفى نسبتهم إليها وهم[٥] .

١ - سعد بن أبي وقاص ، وقد اعتمد من نسبه إليهم على قول سعد (رض) فينا نزلت ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ والآية مكية - كما في تفسير ابن كثير - ولم تنزل في أهل الصفة .

٢ - حبيب بن زيد بن عاصم الأنصاري النجاري . وهو من أهل (العقبة) فوقع تصحيف فصارت (الصفة) .

٣ - أبو أيوب الأنصاري : وهو من أهل (العقبة) فصحفت .

٤ - حجاج بن عمرو المازني الأنصاري .

٥ - ثابت بن الضحاك الأنصاري .

انقطاعهم للعلم والعبادة والجهاد :

ينقطع أهل الصفة للعلم ويعتكفون في المسجد للعبادة ويألفون الفقر والزهد ، فكانوا في خلوتهم يصلون ويقرأون القرآن ويتدارسون آياته ويذكرون الله تعالى ، ويتعلم بعضهم الكتابة حتى أهدى أحدهم قوسه لعبادة بن الصامت

---

(١) السراج : حديثه ، حديث رقم ٧٨ وابن حجر : الإصابة ترجمة رقم ٥٥٠٥ .

(٢) الإصابة : ترجمة رقم ٦٩١٣ .

(٣) الإصابة ترجمة رقم ٥١٩٠ .

(٤) الإصابة ترجمة رقم ٤٤٦٣ .

(٥) انظر عنهم على التعاقب الحلية ١/٣٦٨ ، ٣٥٥ ، ٣٦١ ، ٣٥٧ ، ٣٥١ .

(رض) لأنه كان يعلمهم القرآن والكتابة[1] ، واشتهر بعضهم بالعلم وحفظ الحديث عن النبي ﷺ مثل أبي هريرة (رض) الذي عرف بكثرة تحديثه ، وحذيفة بن اليمان الذي اهتم بأحاديث الفتن .

لكن انقطاع أهل الصفة للعلم والعبادة لم يعزلهم عن المشاركة في أحداث المجتمع والإسهام في الجهاد ، بل كان منهم الشهداء ببدر مثل صفوان بن بيضاء ، وخريم بن فاتك الأسدي وخبيب بن يساف وسالم بن عمير وحارثة بن النعمان الأنصاري[2] ، ومنهم من استشهد بأحد مثل حنظلة الغسيل[3] ، ومنهم من شهد الحديبية مثل جرهد بن خويلد وأبو سريحة الغفاري[1] ، ومنهم من استشهد بخيبر مثل ثقف بن عمرو[2] ، ومنهم من استشهد بتبوك مثل عبد الله ذو البجادين[3] ، ومنهم من استشهد باليمامة مثل سالم مولى أبي حذيفة وزيد بن الخطاب[4] ، نعم هكذا كانوا رهباناً في الليل فرساناً في النهار .

ملابسهم :

لم يكن لأهل الصفة من الملابس ما يقيهم من البرد أو يسترهم ستراً كاملاً ، فليست عندهم أردية[5] . وما لأحد منهم ثوب تام[6] . فكانوا يربطون في أعناقهم الأكسية أو البرد[7] ، أو يأتزرون بالأزر[8] ، أو الكساء ، فمنهم من

---

(١) أبو داود : السنن ٢/٢٣٧ وابن ماجه : السنن ٢/ ٧٣٠ .
(٢) انظر عنهم على التعاقب الحلية ١/٣٧٣ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٧١ ، ٣٥٦ .
(٣) المصدر السابق ١/ ٣٧٥ .
(١) المصدر السابق ١/٣٥٣ ، ٣٥٥ .
(٢) المصدر السابق ١/٣٥٢ .
(٣) المصدر السابق ١/ ٣٦٥ .
(٤) المصدر السابق ١/ ٣٦٧ ، ٣٧٠ .
(٥) ابن سعد : الطبقات الكبرى ١/ ٢٥٥ ، وأبو نعيم : الحلية ١/ ٣٧٧ ، وابن سيد الناس : عيون الأثر ٢/ ٣١٧ .
(٦) الحلية ١/ ٣٤١ .
(٧) الحلية ١/ ٣٧٧ .
(٨) البخاري : الصحيح ١/ ١١٤ ، وابن سعد : الطبقات ١/ ٢٥٥ .

تغطي منهم ما يبلغ نصف الساقين وأحياناً قد لا يبلغ الركبتين ، وتذكر المصادر أنهم كانوا يلبسون الحِوْتكية[1] وهي عمَّة يُتعمم بها [2] .

والخنف وهي برد شبه اليمانية تعمل من نوع غليظ من أردأ الكتان[3] ، وكانوا يخجلون من الظهور بملابسهم أحياناً لأنها لا تسترهم ستراً كاملاً[4] ، وسرعان ما كانت تتسخ ملابسهم فجوانب الصفة مكشوفة للهواء والتراب حتى اتخذ العرق من جلودهم طوقاً من الوسخ والغبار[5] .

طعامهم :

كان جل طعامهم التمر ، فكان النبي ﷺ يجري لكل رجلين منهم مداً من تمر في كل يوم ، وقد اشتكوا من أكل التمر وقالوا له أحرق بطوننا ، لكن النبي ﷺ لم يستطع أن يوفر لهم طعاماً غيره فصبرهم وواساهم[6] ، وكان كثيراً ما يدعوهم إلى تناول الطعام في بيته ، لكنه لم يتمكن من تقديم الطعام الجيد لهم فلم يكن يوسع على نفسه وأهله بالنفقة ، ففي بعض المرات سقاهم لبناً ، ومرة أطعمهم جشيشة (طحين ولحم أو تمر مطبوخ) ومرة أخرى حيسة (طعام من التمر والدقيق والسمن) وثالثة شعير محمص ، لكنهم نالوا في إحدى المرات الثريد[7] ، وكان عليه الصلاة والسلام يعتذر إليهم إذا لم يكن الطعام جيداً ، فقد قدم لهم مرة صحفة فيها صنيع من شعير ، وقال : « والذي نفس محمد بيده ما أمسى في آل محمد طعام ليس شيئاً ترونه »[8] .

---

(١) أحمد : المسند ١٢٨/٤ .

(٢) (لسان العرب مادة «حتك») .

(٣) أحمد : المسند ٤٨٧/٣ ، والحلية ٣٧٤/١ ، والسمهودي : وفاء الوفا ٣٢٣/١ .

(٤) الحلية ٣٤٢/١ .

(٥) المصدر السابق ٣٤١/١ .

(٦) أحمد : المسند ٤٨٧/٣ ، وأبو نعيم : الحلية ٣٣٩/١ ، ٣٧٤ ، والسمهودي : وفاء الوفا ٣٢٣/١ .

(٧) البخاري : الصحيح ٦٨/٨ ، ١١٩ ، وأحمد : المسند ٥١٥/٢ ، ٤٩٠/٣ ، وابن سعد ٢٥٦/١ ، والحلية ٣٧٣/١ - ٣٧٤ ، والسمهودي : وفاء الوفا ٣٢٣/١ .

(٨) ابن سعد : الطبقات ٢٥٦/١ .

ولا شك أنهم كانوا ينالون طعاماً أجود عندما يضيفهم أحد أغنياء الصحابة في داره وكثيراً ما كانوا يفعلون [1] ، ولكنهم في كثير من الأحيان ما كانوا يحصلون على ما يمسك رمقهم ، فأثر فيهم ذلك فكانوا يخرون في الصلاة لما بهم من الجوع حتى يقول الأعراب إن هؤلاء مجانين وكان أبو هريرة (رض) يصرع بين المنبر وحجرة عائشة (رض) لما به من الجوع[2] ، لكن قلة طعامهم ما كانت لتؤدي بهم إلى الشره والمغالبة على الطعام ، بل كانت حقوق الأخوة وآدابها تحكم علاقاتهم ببعضهم ، وقد حكى أبو هريرة (رض) أنهم كانوا إذا اجتمعوا على أكل التمر وأكل أحدهم تمرتين معاً قال لأصحابه (إني قد قرنت فأقرنوا) لئلاً ينال من التمر أكثر منهم[3] .

لقد قنعوا بالقليل من الطعام والخشن من الثياب ، وعافت نفوسهم القصور لينقطعوا إلى العبادة والعلم والمجاهدة ، فكانوا أمثلة للزهد والترفع عن الدنيا .

رعاية النبي والصحابة لأهل الصفة :

كان النبي ﷺ يتعهد أهل الصفة بنفسه ، فيزورهم ويتفقد أحوالهم ويعود مرضاهم[4] كما كان يكثر مجالستهم ويرشدهم ويواسيهم ويذكرهم ويقص عليهم ويوجههم إلى قراءة القرآن الكريم ومدارسته وذكر الله والتطلع إلى الآخرة ويشجعهم على احتقار الدنيا وعدم تمني الحصول على متاعها[5] ، وكان إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها[6] ، وكثيراً ما كان يدعوهم إلى تناول الطعام في إحدى حجرات

(١) البخاري : الصحيح - كتاب المواقيت - باب السمر مع الضيف والأهل ، والحلية ١/ ٣٤١ .
(٢) الحلية ١/ ٣٣٩ - ٣٧٨ .
(٣) المصدر السابق ١/ ٣٣٩ - ٣٤٠ .
(٤) المصدر السابق ١/ ٣٧٥ .
(٥) أحمد : المسند ٤/ ٨ . وأبو نعيم : الحلية ١/ ٣٤٠ ، ٣٤١ .
والسمهودي : وفاء الوفا ١/ ٣٢٢ .
(٦) البخاري : الصحيح - رقاق - باب (١٤) وأحمد : المسند ٢/ ٥١٥ .
وأبو نعيم : الحلية ١/ ٣٧٧ ، ٣٣٩ والسمهودي : وفاء الوفا ١/ ٣٢٢ .

أزواجه (رض)[1] ولم يكن يغفل عنهم مطلقاً ، بل كانت حالتهم ماثلة أمامه ، وقد طلب من ابنته فاطمة (رض) أن تتصدق عليهم لما ولدت الحسن (رض) بوزن شعره من الفضة[2] . وقد جاءه مرة سبي فسألته ابنته فاطمة (رض) خادماً لأنها تعبت من كثرة أعمالها وكلت فأجابها (عليه الصلاة والسلام) « أخدمكما وأدع أهل الصفة تطوي » وأوضح لها أنه سيبيع السبي وينفقه على أهل الصفة ، ويبدو أنها سألته أيضاً أن يعطيها مالاً ، وكان النبي ﷺ قد زار عليا (رض) فوجد أن فراشهما قصير لا يغطيهما فعلمهما كلمات في الدعاء وآثر إعطاء أهل الصفة عليهما وقال : « لا أعطيكم وأدع أهل الصفّة تلوي بطونهم من الجوع »[3] . وقد أوصى النبي ﷺ الصحابة بالتصدق على أهل الصفة[4] فجعلوا يصلونهم بما استطاعوا من خير[5] فكان أغنياء قريش يبعثون بالطعام إليهم[6] وكان النبي ﷺ يوزع أهل الصفة بين أصحابه بعد صلاة العشاء ليتعشوا عندهم ، ويقول : « من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث وإن أربع فخامس أو سادس[7] فيأخذ الصحابة بعضهم ومن بقى منهم يصحبهم النبي ﷺ إلى داره فيتعشون معه »[8] .

---

(١) البخاري : صحيح - رقاق باب (١٤) - واستئذان باب (١٤) وأحمد المسند ٢/٥١٥ ، ٣/٤٢٩ ، ٤٩٠ .
وابن ماجه : سنن - كتاب المساجد والجماعات - باب النوم في المسجد وأبو نعيم : الحلية ١/٣٣٨ - ٣٣٩ والسمهودي : وفاء الوفا ١/٣٢٢ - ٣٢٣ .
(٢) البيهقي : سنن ٩/٣٠٤ .
(٣) أحمد المسند ١/٧٩ ، ١٠٦ .
(٤) المصدر السابق ٦/٣٩١ والحلية ١/٣٩٩ .
(٥) الحلية ١/٣٤٠ .
(٦) الحلية ١/٣٧٨ .
(٧) البخاري - الصحيح - كتاب المواقيت - باب السهر مع الضيف والأهل .
(٨) المصدر السابق وابن سعد : الطبقات ١/٢٥٥ والحلية ١/٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٧٣ .

ويبدو أن الأمر كان كذلك في بداية الهجرة ، فلما جاء الله بالغني لم تعد هناك حاجة لتوزيعهم على دور الصحابة[1] .

وقد استثارت حالة أهل الصفة سبعين من الأنصار يقال لهم القراء – وهم الذين استشهدوا يوم بئر معونة – فكانوا يقرأون القرآن ويتدارسون بالليل ويتعلمون ، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه بالمسجد ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة والفقراء[2] وقد اقترح محمد بن مسلمة الأنصاري وآخرون من الأنصار على النبي ﷺ أن يخرج كل واحد منهم قنوا[3] من بستانه حين ينضج التمر لأهل الصفة والفقراء فوافق على ذلك ، ووضع في المسجد حبلاً بين ساريتين فأخذ الناس يعلقون الأقناء على الحبل ، فربما اجتمعت عشرين قنواً وأكثر .

وكان معاذ بن جبل (رض) يقوم على حراسة الأقناء . وتشير رواية أخرى إلى أن النبي ﷺ هو الذي أشار على الناس بالتصدق بقنو من ثمار بساتينهم ليرفع الله تعالى عنهم عاهة أصابت ثمارهم ففعلوا[4] .

وأنكر النبي ﷺ على رجل علق قنوا فيه حشف وأراد أن يكون التصدق بأطيب من ذلك[5] . ويشير نص أورده السمهودي إلى استمرار عادة تعليق الأقناء في مسجد الرسول ﷺ بالمدينة – على الأقل – خلال القرن الثاني الهجري[6] .

الآيات التي قيل إنها نزلت في أهل الصفة :

١ – قوله تعالى : ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض . ولكن ينزّل

---

(١) ابن سعد : الطبقات ١/ ٢٥٥ .

(٢) مسلم : الصحيح – كتاب الامارة – حديث رقم (١٤٧) . وأحمد المسند ٣/ ٢٧٠ . وابن سعد : الطبقات الكبرى ٣/ ٥١٤ .

(٣) القنو : العذق بما فيه من الرطب وجمعه أقناء (لسان العرب – مادة «قنا») .

(٤) السمهودي : وفاء الوفا ١/ ٣٢٤ – ٣٢٥ .

(٥) المصدر السابق ١/ ٣٢٥ والحشف : اليابس الفاسد من التمر (لسان العرب مادة «حشف») .

(٦) المصدر السابق أيضاً ١/ ٣٢٤ .

بقـدر ما يشـاء ، إنـه بعباده خبير بصير﴾[1] فقد ذكر الطبري وأبو نعيم بسندهما إلى عمرو بن حريث وغيره : إنها أنزلت هذه الآية في أصحاب الصفة . لكن الآية مكية فلا تصح أن تكون فيهم[2] .

٢ - وقوله تعالى : ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجـاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً ، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليـم﴾[3]
فقـد ذكـر ابن سعـد بسنده إلى ابن كعب القرظي قال : هم أصحاب الصفة[4] وذكر الطبري بأسانيده عن مجاهد والسدى أنها في فقراء المهاجرين[5] .

٣ - قولـه تعـالى : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداوة والعشي يريدون وجهه . . ﴾[6] وقد ذكر ابن كثير أنها مكية لا يمكن نزولها في أهل الصفة[7] ، وإلى ذلك تذهب بعض روايات الطبري[8] .

٤ - قولـه تعـالى : ﴿واصـبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداوة والعشي يريدون وجه . . . ﴾[9] لكنها مكية لا يمكن نزولها في أهل الصفة .

٥ - قوله تعالى : ﴿ولا على الذين إذا ما أتوْك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم

---

(١) الشورى آية ٢٦ .
(٢) الطبري : تفسير (ط مصطفى البابي الحلبي) جـ ٢٥ ص ٣٠ والحلية ١/٣٣٨ .
(٣) البقرة آية ٢٧٣ .
(٤) الطبقات الكبرى ١/٢٥٥ .
(٥) الطبري : تفسير ٥/٥٩١ (ط محمود محمد شاكر) .
(٦) الأنعام من الآية ٥٢ .
(٧) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٢/١٣٥ .
(٨) الطبري : تفسير ١١/٣٧٦ (ط محمود محمد شاكر) .
(٩) الكهف من الآية ٢٨ .

عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع . . .)[1] فذكر أبو نعيم أنها نزلت في أهل الصفة[2] . لكن الروايات التي يوردها كل من الطبري وابن كثير لا تنص على ذلك ، وأغلبها تنص على أن الآية نزلت في السبعة البكائين من بني مزينة[3] .

المؤرخون لأهل الصفة :

أقدم من عقد فصلاً في أهل الصفة هو محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ) وسائر ما ذكره مأخوذ عن الواقدي ، ومع ذلك فلا نجد تلك النصوص في كتاب المغازي للواقدي (طبعة مارسدن) فلعلها من كتابه الآخر (الطبقات) وهو مفقود[4] وينقل عنه ابن سعد كثيراً في الطبقات الكبرى[5] .

لكن أقدم من علمته أفرد كتاباً في أهل الصفة هو أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي النيسابوري (ت ٤١٢ هـ) في كتابه (تاريخ أهل الصفة)[6] وهو مفقود ولعله المصدر الذي نقل عنه أبو نعيم كثيراً في الفصل الذي عقده لأهل الصفة من كتابه حلية الأولياء وإن لم يصرح باسمه ، لكنه صرح بالنقل عنه في موضع آخر من كتابه[7] ، وقد وصفه بأنه مرتب على حروف المعجم وأن فيه

---

(١) التوبة من الآية ٩١ .

(٢) الحلية ١/٣٧١ - ٣٧٢ .

(٣) انظر الطبري : تفسير ١٤/٤٢١ - ٤٢٣ (ط محمود محمد شاكر) .
وابن كثير : تفسير ٢/٣٨١ - ٣٨٢ .

(٤) أكرم العمري : بحوث في تاريخ السنة المشرفة ص ٥٣ .

(٥) المصدر السابق ص ٥٦ .

(٦) حاجي خليفة : كشف الظنون ١/٢٨٦ لكنه سماه « تاريخ أهل الصفة » ولعله تحريف (انظر مقدمة كتاب طبقات الصوفية للسلمي بقلم نور الدين شريبة جـ ١ ص ٣٤) .

(٧) أبو نعيم : الحلية ٨/٢٥ .

«أسماء جماعة عرفوا من أهل القبلة نسبوا إلى أهل الصفة وهو تصحيف من بعض النقلة »[1] .

ومن المتأخرين ألف تقي الدين السُّبكي (ت ٧٥٦ هـ) كتاباً عنهم سماه : (التحفة في الكلام على أهل الصفة)[2] ، وألف شمس الدين السخاوي رسالة بعنوان « رجحان الكفة في أخبار أهل الصفة »[3] . كما عقد السمهودي مقالاً عن أهل الصفة جمع فيه الروايات المشتتة في كتب الحديث والتاريخ والجغرافية ومعاجم اللغة .

* * *

رحم الله القوامين الصوامين المجاهدين الزاهدين أهل الصفة وصدق الله العظيم ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً﴾ .

فأنّي هذا النموذج مما يحدثه الفقراء المدقعون في المجتمعات الجاهلية من تكوين العصابات التي تتولى أعمال السرقة والقتل وأنواع العدوان الذي يفقد المجتمعات الاستقرار والإحساس بالأمن . . . ألا إنه الفرق بين تربية محمد ﷺ والتربية الجاهلية . . . والفرق بين نظام الله والنظم البشرية .

والآن أعرض لصورة من الارتباط القوى الذي أوجده الإسلام عملياً في المدينة المنورة حيث تظهر صورة المجتمع الإسلامي بأزهى وأكمل حالاتها ومنها نتبين لماذا لا يحدث الصراع الطبقي في المجتمع الإسلامي ولماذا يقف الأغنياء والفقراء في صف واحد لدعم رسالة الإسلام ، إنها الأخوة بين المؤمنين والتكافل بينهم كما يظهران في تشريع دستور دولة المدينة المنورة .

---

(١) المصدر السابق ٣٤٧/١ .

(٢) ريكندورف دائرة المعارف الإسلامية ص ١٠٦ .

(٣) تقع في ٣٢ ورقة ، ٢١ سطراً ، ١٨×١٦ سم وهي مجلدة بمكتبة الجمعية الآسيوية بكلكتا بالهند ، ١٣٢١ - ف ١٣٤١ ، ومنها صورة في مكتبة كلية الآداب بجامعة الملك عبد العزيز بجدة .

إعلان دستور المدينة (المعاهدة)

لقد نظم النبي ﷺ العلاقات بين سكان المدينة ، وكتب في ذلك كتاباً أوردته المصادر التاريخية ، واستهدف هذا الكتاب أو الصحيفة توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة ، وتحديد الحقوق والواجبات ، وقد سميت في المصادر القديمة بالكتاب والصحيفة ، وأطلقت الأبحاث الحديثة عليها لفظة الدستور والوثيقة .

طرق ورود الوثيقة (الصحيفة) :

وقد اعتمد الباحثون المعاصرون على الوثيقة في دراسة تنظيمات الرسول ﷺ في المدينة المنورة[١] ولكن من الضروري جداً التأكد أولاً من مدى صحة الوثيقة قبل أن تبني عليها الدراسات ، خاصة أن أحد الباحثين يرى أن الوثيقة موضوعة[٢] .

ونظراً لأهمية الوثيقة التشريعية إلى جانب أهميتها التأريخية ، فلا بد من تحكيم مقاييس أهل الحديث فيها لبيان درجة قوتها أو ضعفها ، وما ينبغي أن يتساهل فيها كما يفعل مع الروايات والأخبار التأريخية الأخرى إن أقدم من أورد نص الوثيقة كاملاً هو محمد بن إسحق (ت ١٥١ هـ) لكنه أوردها دون إسناد[٣] . وقد صرح بنقلها عنه كل من ابن سيد الناس[٤] وابن كثير[٥] فوردت

(١) كتب في الوثيقة كل من الدكتور صالح أحمد العلي في بحثه « تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة » والدكتور عبد العزيز الدوري في كتابه النظم الإسلامية . و .
Sarjcant The Constitution of Medina. In, Islamic Quarterly. VIII/12 .
وآخرون ذكرهم الأستاذ محمد حميد الله في كتابة مجموعة الوثائق السياسية ص ٣٩ - ٤١

(٢) ذهب إلى ذلك الأستاذ يوسف العش في إحدى حواشيه على كتاب الدولة العربية وسقوطها لفلهوزن ترجمة العش (انظر منه ص ٢٠ حاشية رقم ٩) .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ٥٠١/١ - ٥٠٤ .

(٤) ابن سيد الناس : عيون الأثر ١٩٧/١ - ١٩٨ .

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٢٤/٣ - ٢٢٦ .

عندهما دون إسناد أيضاً ، وقد ذكر البيهقي[1] إسناد ابن إسحق للوثيقة التي تحدد العلاقات بين المهاجرين والأنصار دون البنود التي تتعلق باليهود لذلك لا يمكن الجزم بأنه أخذها من نفس هذه الطريق أيضاً . وقد ذكر ابن سيد الناس أنَّ ابن أبي خيثمة[2] أورد الكتاب (الوثيقة) فأسنده بهذا الإسناد (حدثنا أحمد بن خباب أبو الوليد حدثنا عيسى بن يوسف حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو المزني عن أبيه عن جده . أن رسول الله ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار فذكر بنحوه – أي بنحو الكتاب الذي أورده ابن إسحق)[3] . ولكن يبدو أن الوثيقة وردت في القسم المفقود من تاريخ ابن أبي خيثمة إذ لا وجود لها فيها وصل إلينا منه . كذلك وردت الوثيقة في كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام بإسناد آخر هو (حدثني يحيى بن عبد الله بن بكير وعبد الله بن صالح قالا حدثنا الليث بن سعد قال حدثني عقيل بن خالد عن ابن شهاب أنه قال : بلغني أن رسول ﷺ كتب بهذا الكتاب . . .)[4] وسرده .

كما وردت الوثيقة في كتاب الأموال لابن زنجويه من طريق الزهري أيضاً[5] .

هذه هي الطرق التي وردت منها الوثيقة بنصها الكامل ، والتطابق كبير بين سائر الروايات سوى بعض التقديم والتأخير في العبارات أو اختلاف بعض المفردات أو زيادة بنود قليلة ، ولا يؤثر هذا الاختلاف على مضمونها العام .

---

(١) السنن الكبرى ٨/١٠٦ « كتاب الديات » .

(٢) هو الحافظ الحجة الإمام أحمد بن أبي خيثمة زهير بن حرب النسائي المتوفي سنة ٢٧٩ هـ وقد وصل إلينا السفر الثالث من تأريخه (انظر أكرم العمري : بحوث في تاريخ السنة المشرفة ص ٨٧ – ٩٠) .

(٣) ابن سيد الناس : عيون الأثر ١/١٩٨ .

(٤) أبو عبيد : الأموال ٥١٧ .

(٥) يرويها حميد بن زنجوية (ت ٢٤٧ هـ) من طريق عبد الله بن صالح أيضاً بمثل إسناد أبي عبيد (انظر كتاب الأموال لابن زنجويه تحقيق د . شاكر ديب فياض رقم ٧٥٠) .

مدى صحة الوثيقة :

اعتمد عدد من الباحثين المعاصرين على الوثيقة فبنوا عليها دراساتهم ، في حين ذهب الأستاذ يوسف العش إلى أن الوثيقة موضوعة فهو يقول : « إنها لم ترد في كتب الفقه والحديث الصحيح رغم أهميتها التشريعية ، بل رواها ابن إسحق بدون إسناد ، ونقلها عنه ابن سيد الناس ، وأضاف أن كثير بن عبد الله بن عمرو المزني روى هذا الكتاب عن أبيه عن جده ، وقد ذكر ابن حبان البستي : أن كثير المزني روى عن أبيه عن جده نسخة موضوعة لا يحل ذكرها في الكتب ولا الرواية عنها إلا على جهة التعجب »[1] . ويرى العش أن ابن اسحق اعتمد على رواية كثير لكنه تعمد حذف الإسناد[2] .

لقد ذهب الأستاذ العش إلى ذلك لأنه تصور أن الوثيقة لم يروها غير ابن إسحق ولم يعثر على إسناد لها سوى ما ذكره ابن سيد الناس من رواية ابن أبي خيثمة لها من طريق كثير المزني . لكن أبا عبيد القاسم بن سلام أورد الوثيقة من طريق الزهري وهي طريق مستقلة لا صلة لها بكثير المزني . ونظراً لكون ابن إسحق من أبرز تلاميذ الزهري ، فإن ثمة احتمالا لأن يكون قد أورد الوثيقة من طريقه ، لولا أن البيهقي ذكر إسناد ابن إسحق للوثيقة التي تحدد العلاقات بين المهاجرين والأنصار دون أن تتناول البنود المتعلقة بيهود ولا يمكن الجزم بأن ابن إسحق أخذ البنود المتعلقة بيهود من هذه الطريق أم من طريق أخرى . فقال البيهقي : « أخبرني أبو عبد الله الحافظ ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ثنا أحمد ابن عبد الجبار ثنا يونس بن بكير عن ابن إسحق قال حدثني عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس بن شريق قال : أخذت من آل عمر بن الخطاب هذا الكتاب كان مقروناً بكتابه الصدقة » والحديث بهذا الإسناد ضعيف لأن عثمان تحملها

---

(١) انظر عبارة ابن حبان في تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ٨/٤٢٢ .

(٢) يوسف العش : حاشية رقم (٩) ص ٢٠ من كتاب الدولة العربية وسقوطها ترجمة العش .

وجادة وفي الإسناد رجال فيهم ضعف مثل عثمان فهو صدوق له أوهام ويونس بن بكير يخطيء . والعطار ضعيف وتحمله للسيرة صحيح . فالرواية على ضعفها صالحة للاعتبار وقد توبعت ، وإن هذا النص يهدم الأساس الذي بنى عليه الأستاذ العش رأيه . كما أنه لا يمكن الحكم على الوثيقة بأنها موضوعة لأن كتب الحديث لم ترو نصها كاملاً !! فقد أوردت كتب الحديث مقتطفات كثيرة منها تغطي عدداً كبيراً من بنودها كما سيرد خلال البحث .

وبذلك يتبين أن الحكم بوضع الوثيقة مجازفة ، ولكن الوثيقة ترقي بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصحيحة ، فابن إسحق في سيرته رواها دون إسناد مما يجعل روايته ضعيفة وأوردها البيهقي من طريق آخر تصلح أساساً للدراسة التاريخية التي لا تتطلب درجة الصحة التي تقتضيها الأحكام الشرعية خاصة أن الوثيقة وردت من طرق عديدة تتضافر في إكسابها القوة ، كما أن الزهري علم كبير من الرواد الأوائل في كتابة السيرة النبوية . ثم إن أهم كتب السيرة ومصادر التاريخ ذكرت موادعة النبي ﷺ لليهود وكتابته بينه وبينهم كتاباً[٣] . كما ذكرت كتابته كتاباً بين المهاجرين والأنصار أيضاً .

كذلك فإن أسلوب الوثيقة ينم عن أصالتها « فنصوصها مكونة من كلمات وتعابير كانت مألوفة في عصر الرسول ﷺ ثم قل استعمالها فيما بعد حتى أصبحت مغلقة على غير المتعمقين في دراسة تلك الفترة . وليس في هذه الوثيقة نصوص تمدح أو تقدح فرداً أو جماعة ، أو تخص أحداً بالإطراء أو الذم لذلك يمكن القول بأنها وثيقة أصلية وغير مزورة »[١] . ثم إن التشابه الكبير بين أسلوب الوثيقة وأساليب كتب النبي ﷺ الأخرى يعطيها توثيقاً آخر[٢] .

---

(١) صالح العلي : تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة ص ٤ – ٥ .

(٢) يراجع للمقارنة كتاب « مجموعة الوثائق السياسية » .

تاريخ كتابة الوثيقة :

الـراجح أن الوثيقة في الأصل وثيقتان ثم جمع المؤرخون بينهما ، إحداهما تتناول موادعة الرسول ﷺ لليهود والثانية توضح التزامات المسلمين من مهاجرين وأنصار وحقوقهم وواجباتهم .

ويترجح عندي أن وثيقة موادعة اليهود كتبت قبل موقعة بدر الكبرى[1] أما الـوثيقـة بين المهاجرين والأنصار فكتبت بعد بدر ، فقد صرحت المصادر بأن موادعة اليهود تمت أول قدوم الرسول ﷺ إلى المدينة ، فقال أبو عبيد القاسم بن سلام إن الوثيقة « كتبت حدثان مقدم رسول الله ﷺ المدينة قبل أن يظهر الإسلام ويقـوي وقبل أن يؤمر بأخذ الجزية من أهل الكتاب »[2] . وإنما ظهر الإسلام وقوى بعد معركة بدر الكبرى ويقول البلاذري : « قالوا وكان رسول الله ﷺ عند قدومه المدينة وادع يهودها وكتب بينه وبينهم كتاباً ، واشترط عليهم أن لا يمالئوا عدوه وأن ينصروه على من دهمه ، وأن لا يقاتل عن أهل الذمة ، فلم يحارب أحداً ولم يُهجْهُ ، ولم يبعث سرية حتى أنزل الله عز وجل عليه ﴿أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ فكان أول لواء عقده لواء حمزة بن عبد المطلب[3] .

وبذلك يوضح البلاذري أن وثيقة موادعة اليهود كتبت قبل إرسال السرايا الأولى ، ومن المعلوم أن سرية حمزة كانت في رمضان سنة ١ هـ أي قبل غزوة بدر بسنة وأيام[4] . ويقول البلاذري في موضع آخر وهو يتحدث عن غزوة بني قينقاع

---

(١) ذهب الدكتور صالح العلي إلى أنها كتبت بعد بدر أيضاً (تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة ص ٦) .

(٢) الأموال رقم ٥١٨ .

(٣) البلاذري : انساب الأشراف ١/٢٨٦ .

(٤) انظر الطبري : تاريخ ٢/٤٠٢ نقلاً عن الواقدي وأما ابن إسحق فيرى أن سرية عبيدة بن الحارث أسبق من سرية حمزة ويوضح تقارب وقت إرسالها وأنه في ربيع الأول سنة اثنتين بعد الهجرة فيكونا قد اتفقا على خروج السرايا الأولى قبل بدر وهو المهم في هذا البحث . (انظر ابن هشام : السيرة النبوية ١/٥٩٥) .

« وكان سببها أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة وادعته يهود كلها وكتب بينه وبينها كتاباً ، فلما أصاب ﷺ أصحاب بدر وقدم المدينة غانماً موفوراً بغت وقطعت العهد »[1] . وهكذا جزم البلاذري بأن موادعة اليهود كانت قبل بدر .

ويقول الطبري : « ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة منصرفه من بدر ، وكان قد وادع حين قدم المدينة يهودها ، على أن لا يعينوا عليه أحداً وأنه إن دهمه بها عدو نصروه ، فلما قتل رسول الله ﷺ من قتل ببدر من مشركي قريش أظهروا له الحسد والبغي . . . وأظهروا نقض العهد »[2] وهكذا يؤيد نص الطبري أن وثيقة موادعة اليهود كانت عند قدومه ﷺ المدينة قبل غزوة بدر .

وأما ما ورد في سنن أبي داود[3] وهو قوله - بعد ذكر مقتل كعب بن الأشرف وشكوى يهود والمشركين ذلك للرسول ﷺ (ودعاهم النبي ﷺ إلى أن يكتب بينه وبينهم كتاباً ينتهون إلى ما فيه فكتب النبي ﷺ بينه وبينهم وبين المسلمين عامة صحيفة) ومن المعلوم أن قتل كعب بن الأشرف جرى بعد بدر الكبرى فإنه يلزمنا التوفيق بينها وبين الروايات التاريخية فإنها أقوى حسب شروط المحدثين من روايات المؤرخين التي سقتها ولكن ما دام بإمكاننا التوفيق فلا داعي لإسقاط سائر الروايات التاريخية إذ لا مانع بعد مقتل كعب أن تُعاد كتابة الصحيفة تأكيداً أو تجديداً لتعود الطمأنينة إلى النفوس بعد هذه الحادثة التي أرعبت يهود والمشركين .

وقد خَرَّج البيهقي هذه الرواية من غير طريق أبي داود وفيها زيادة هي : « كتبها رسول الله ﷺ تحت العذق الذي في دار بنت الحارث فكانت تلك الصحيفة بعد رسول الله ﷺ عند علي بن أبي طالب »[4] .

أما الوثيقة بين المهاجرين والأنصار فقد كتبت بعد وثيقة موادعة اليهود في السنة الثانية من الهجرة . فقد ذكر الطبري في حوادث سنة ٢ هـ (وقيل إن في

(١) البلاذري : انساب الأشراف ٣٠٨/١ .
(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٤٧٩/٢ .
(٣) أبو داود : سنن ٤٠٢/٣ .
(٤) البيهقي : سنن ١٨٣/٩ .

هذه السنة كتب رسول الله ﷺ المعاقل . فكان معلقاً بسيفه)[1] واسم سيفه هذا ذو الفقار وكان قد غنمه في غزوة بدر[2] .

وهـذه المعـاقـل التي كانت معلقـة بالسيف هي نصـوص من الوثيقة بين المهاجرين والأنصار كما تدل رواية ابن سعد : « أخبرنا عبد الله بن موسى أخبرنا إسرائيل عن جابـر عن عامـر قال : قرأت في جفن سيف رسول الله ﷺ ذي الفقـــار : العقـــل على المؤمنـين ولا يترك مفـرح في الإسـلام ولا يقتـل مسلم بكافر)[3] . وقد احتفظ علي (رض) فيما بعد بالسيف وفيه الصحيفة وقد سئل علي (رض) عما في الصحيفة مرة من قبل أبي جحيفة[4] وثانية من قبل الاشتر[5] فذكر بعض ما فيها لسائليه إما بالمعنى أو نصاً كما أنه ذكر محتواها مجملاً في إحدى خطبه[6] .

ومن ذلك قوله : ما كتبنا عن النبي ﷺ إلا القرآن وما في هذه الصحيفة ، قال النبي ﷺ : المدينة حرام ما بين عائر إلى كذا فمن أحدث حدثاً وآوى محدثاً فعليه لعنـة الله والمـلائكة والناس أجمعين لا يقبل منه عدل ولا صرف ، وذمة المسلمـين واحـدة يسعى بها أدناهم فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل . ومن والى قوماً بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل »[7] . كما ذكر أن

---

(١) الطبري : تاريخ ٤٨٦/٢ . وانظر المقريزي : امتاع الاسماع ١٠٧/١ .

(٢) أحمد : المسند ٢٧١/١ . وابن سعد الطبقات ج ٢ قسم ١٧/١ . والطبري ٤٧٨/٢ . والذهبي : تاريخ الإسلام : ٢٩٠/١ .

(٣) ابن سعد : الطبقات ١٧٢/١ .

(٤) البخاري : الصحيح ١٤/٩ والترمذي : صحيح ١٨٢/٦ وابن ماجه : السنن ٨٨٧/٢ . وأحمد المسند ٧٩/١ .

(٥) أحمد السند ١١٩/١ ، ١٢٢ .

(٦) البخاري : الصحيح ٢٩٦/٢ .

(٧) البخـاري : (الصحيح (ط ليدن) ٢٩٨/٢ - ٢٩٩ وانظر ٢٩٦/٢ منه أيضاً وأبو داود : السنن ٤٨٨/٢ وأحمد : المسند ١١٩/١ ، ١٢٢ ، ٢٤٢/٣ .

في الصحيفة أيضاً الجراحات وأسنان الإبل[1] وأضاف مرة « ألا لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده »[2] كما ذكر أن فيها العقل وفكاك الأسير أيضاً[3]

وقد قرأ أصحاب علي (رض) في الصحيفة المذكورة أن إبراهيم حرم مكة وأني أحرم المدينة ما بين حرتيها وحماها كله لا يختلي خلالها ولا ينفر صيدها ولا تلتقط لقطتها إلا لمن أشار بها ولا تقطع منها شجرة إلا أن يعلف رجل بعيره ، ولا يحمل فيها السلاح لقتال[4] .

ومن الواضح أن هذه المقتطفات معظمها يطابق - نصاً - ما ورد في الوثيقة ، كما أنها تغطي معظم بنود الوثيقة المتعلقة بالتزامات المسلمين من المهاجرين والأنصار تجاه بعضهم ، ولكن ليس فيها إشارة إلى البنود المتعلقة بموادعة اليهود ، مما يرجح أن الوثيقة في الأصل وثيقتان ، وأن الصحيفة التي كانت معلقة بسيف رسول الله ﷺ ثم صارت عند علي (رض) هي نفس الكتاب بين المهاجرين والأنصار .

ومن الجدير بالذكر أن ثمة نصوصا تطابق ما في « الصحيفة بين المهاجرين والأنصار » لكنها منسوبة إلى كتب أخرى كتبها النبي ﷺ . مثل رواية عمرو بن

---

(١) البخاري : الصحيح ٢/٢٩٦ وابن ماجه : السنن ٢/٨٨٧ .

(٢) أحمد : المسند : ١/١١٩ وأخرجه أحمد من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قضى أن لا يقتل مسلم بكافر (المسند ٢/١٧٨) وانظر عن طرق أخرى للحديث ابن ماجة : السنن ٢/٨٨٧ والبخاري : الصحيح ٩/١٤ ، ١٦ (ط مصطفى البابي الحلبي) وصحيح الترمذي شرح ابن العربي ٦/١٨٢ .

(٣) البخاري : صحيح ٩/١٤ (ط مصطفى البابي الحلبي) وأحمد : المسند ١/٧٩ . وانظر الشوكاني : نيل الأوطار ٧/١٠ .

(٤) أحمد : المسند ١/١١٩ . وانظر ٤/١٤١ منه .

وفي صحيح مسلم بشرح النووي ٩/١٣٦ عن جابر قال النبي ﷺ « إني أحرم ما بين لابتي المدينة أن يقطع عضاهها أو يقتل صيدها . . . » وكان أهل المدينة في صدر الدولة الأموية يحتفظون بكتاب من أديم خولي فيه ينص النبي ﷺ على حرمة المدينة (أحمد : المسند ٤/١٤١ والخطيب البغدادي : تقييد العلم ص ٧٢) .

حزم أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن كتاباً ، وكان في كتابه « إن من اعتبط مؤمناً قتلا عن بينة فإنه قود ، إلا أن يرضى أولياء المقتول »[1] وهذا الكتاب إنما أرسل متأخراً عن وقت كتابة الوثيقة .

كما صرحت بعض الروايات بأن النبي ﷺ قال يوم فتح مكة : « لا يقتل مؤمن بكافر »[2] لكن هذه النصوص التي حددت أزمانها بوقت متأخر عن الوقت الذي كتبت فيه الوثيقة لا تصلح دليلاً على أن الوثيقة هي مجموعة من الكتب التي دونت في أوقات متباينة ثم دمجت في الوثيقة[3] . إذ لا مانع من أن يذكر النبي ﷺ بعض بنود الوثيقة في كتبه اللاحقة ، وينبغي الانتباه إلى عدم ورود نصوص متعلقة باليهود في الصحيفة التي تناولت المعاقل مما يرجح أن وثيقة موادعة اليهود مستقلة عن الوثيقة بين المهاجرين والأنصار التي تناولت المعاقل . ويؤيد ذلك أيضاً حديث أنس بن مالك (رض) « حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك »[4] ولم يذكر أنس وجود اليهود في هذا الحلف .

وحديث ابن عباس (رض) : « كتب رسول الله كتاباً بين المهاجرين والأنصار أن يعقلوا معاقلهم ويفدوا عانيهم بالمعروف والإصلاح بين الناس »[5]

وكذلك حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « أن النبي ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار أن يعقلوا معاقلهم ، وأن يفدوا عانيهم بالمعروف والإصلاح بين المسلمين »[6] ولم يذكر اليهود فيه . ولعل مما يؤيد ذلك أن البيهقي

---

(١) الشوكاني : نيل الأوطار ٧/٦١ وانظر مجموعة الوثائق السياسية ١٨٦ فهي توضح أن النص من كتابه ﷺ الذي كتبه لعمرو بن حزم عامله على اليمن .

(٢) الشوكاني : نيل الأوطار ٧/١٠ .

(٣) ذهب إلى هذا الرأي Sarjcant في مقالة The Constitution of Medina

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية : ٣/٢٢٤ وقال قد رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود .

(٥) ابن حزم : مسائل من الايصال (مطبوع آخر كتابه المحلي) ١٢/٤٠٧ .

(٦) أحمد : المسند ١/٣٧١ و ٢/٢٠٤ وعنه ابن كثير : البداية والنهاية ٣/٢٢٤ .

ساق البنود المتعلقة بالمهاجرين والأنصار مبيناً سند ابن إسحق وليس فيها إشارة ليهود وهي مطابقة لما أورده ابن هشام عن ابن إسحق .

وهكذا فإن الروايات التي ذكرتها ترجح أن الوثيقة في الأصل وثيقتان إحداهما تتعلق بموادعة اليهود كتبت قبل بدر أول قدوم النبي ﷺ المدينة ، والثانية تتعلق بحلف المهاجرين والأنصار وتحديد التزاماتهم وكتبت بعد بدر ، لكن المؤرخين جمعوا بين الوثيقتين .

كتابه (ﷺ) بين المهاجرين والأنصار واليهود

بسم الله الرحمن الرحيم

نص الوثيقة : [1] :

١ - هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش (وأهل) يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .

٢ - إنهم أمة واحدة من دون الناس .

٣ - المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٤ - وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٥ - وبنو الحارث (بن الخزرج) على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف .

٦ - وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٧ - وبنوجشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٨ - وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٩ - وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١٠ - بنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

---

(١) نقلتها من كتاب مجموعة الوثائق السياسية لأنه قارن بين سائر الروايات واثبت الاختلافات في الحاشية انظر منه ص ٤١ - ٤٧ .

١١ - وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

١٢ - وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف من فداء أو عقل (١٢ب) وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

١٣ - وإن المؤمنين المتقين (أيديهم) على (كل) من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو اثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم .

١٤ - ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن .

١٥ - وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .

١٦ - وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

١٧ - وإن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم .

١٨ - وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً .

١٩ - وإن المؤمنين يبيء[1] بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله .

٢٠ - وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه . (٢١ ب) وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن .

٢١ - وإنه من اعتبط[2] مؤمناً قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول (بالعقل) وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

٢٢ - وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر ان ينصر محدثاً أو يؤويه ، وإن من نصره أو آواه . فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

---

(١) أي يمنع ويكف .

(٢) أي قتله دون جناية أو سبب يوجب قتله كما في لسان العرب ٧/٣٤٨ .

٢٣ - وإنه مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد .

٢٤ - وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .

٢٥ - وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .

٢٦ - وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف .

٢٧ - وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف .

٢٨ - وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف .

٢٩ - وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف .

٣٠ - وإن ليهود بني الأوس مثل ماليهود بني عوف .

٣١ - وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم واثم ، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته .

٣٢ - وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

٣٣ - وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف وإن البر دون الإثم .

٣٤ - وإن موالي ثعلبة كأنفسهم .

٣٥ - وإن بطانة يهود كأنفسهم .

٣٦ - وإنه لا يخرج منهم أحداً إلا بإذن محمد .

(٣٦ ب) - وإنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وإنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم وإن الله على أبرِّ هذا .

٣٧ - وإن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم .

(٣٧ ب) وإنه لا يأثم أمرؤ بحليفه وإن النصر للمظلوم .

٣٨ - وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .

٣٩ - وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

٤٠ - وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

٤١ - وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .

٤٢ - وإن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث ، أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره .

٤٣ - وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها .

٤٤ - وإن بينهم النصر من دهم يثرب .

٤٥ - وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك ، فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين .

(٤٥ ب) على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم .

٤٦ - وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره .

٤٧ - وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم وأثم ، وإن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله ﷺ .

تحليل الوثيقة :

إن ما رجحته من تجزئة الوثيقة واعتبارها وثيقتين يجعل الكلام عنها وتحليلها يقوم على فصل المواد المتعلقة باليهود عن المواد التي تنظم علاقة المسلمين ببعضهم وتحدد واجباتهم وحقوقهم .

وسأبدأ بالكلام عن البنود المتعلقة باليهود لأنها أقدم - حسب ما رجحته - رغم أنها تتأخر بالنسبة لتسلسل البنود في الوثيقة حيث تتقدمها بنود الوثيقة الثانية المتعلقة بالمهاجرين والأنصار .

وثيقة موادعة اليهود :

تتضمن وثيقة موادعة اليهودِ البنود من رقم (٢٤) إلى رقم (٤٧) مما يدل على عدم حدوث التداخل بين بنود الوثيقتين ، بل ذكرت بنود كل وثيقة مجتمعة ومتسلسلة ولا يتعارض مع هذا القول ورود البند رقم (١٦) خلال بنود وثيقة المهاجرين والأنصار مع أنه يتعلق باليهود إذ هو يؤكد على إلتزام المسلمين بالعدل تجاه حلفائهم اليهود ، فلا يشترط أن يكون ضمن بنود وثيقة موادعة اليهود .

ويدل أحد بنود الوثيقة (رقم ٢٤) على أن اليهود التزموا بدفع قسط من نفقات الحرب الدفاعية عن المدينة (وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين) وقد ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام إلى أن التزامات اليهود المالية لا تقتصر على الحرب الدفاعية فهو يرى أن اليهود كانوا يغزون مع المسلمين أيضاً ، قال أبو عبيد « ونرى أنه إنما كان يسهم لليهود إذا غزوا مع المسلمين بهذا الشرط الذي شرطه عليهم من النفقة ، ولولا هذا لم يكن لهم في غنائم المسلمين سهم »[1] . وذكر أبو عبيد « حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن يزيد ابن يزيد بن جابر عن الزهري قال : كان اليهود يغزون مع رسول الله ﷺ فيسهم لهم »[2] . وهذا الحديث من مراسيل الزهري لا يحتج به ، وقد رويت أحاديث أخرى في اشتراك اليهود مع النبي ﷺ في غزواته ، وهي بالإضافة إلى ماتقدم :

١ - حديث « استعان رسول الله ﷺ بيهود قينقاع ، الذي ورد من طريق الحسن بن عمارة ، وقد خرجه أبو يوسف[3] والبيهقي ، وذكر البيهقي أن الحسن بن عمارة متروك »[4] ورغم أن الحسن بن عمارة غير متفق على تضعيفه لكن أكثر جهابذة المحدثين يضعفونه حتى حكى السهيلي إجماعهم على ذلك[5] .

---

(١) أبو عبيد : الأموال ص ٢٩٦ .
(٢) أبو عبيد : الأموال ص ٢٩٦ .
(٣) أبو يوسف : الرد على سير الأوزاعي ص ٤٠ .
(٤) البيهقي : سنن ٥٣/٩ .
(٥) العسقلاني : تهذيب التهذيب ٣٠٤/٢ - ٣٠٨ .

٢ – حديث « أن النبي ﷺ أسهم لقوم من اليهود قاتلوا معه » أخرجه الترمذي[١] من طريق الزهري مرسلاً وقال إنه حديث حسن غريب والقاعدة أن مراسيل الزهري لا يحتج بها .

٣ – حديث « أن النبي ﷺ كان يغزو باليهود »[٢] وهو من مراسيل الزهري لا يحتج به .

٤ – حديث « أن رسول الله ﷺ غزا بناس من اليهود » أخرجه البيهقي[٣] . وقال هذا منقطع . وهو من مراسيل الزهري أيضاً .

٥ – حديث « خرج رسول الله ﷺ بعشرة من يهود المدينة غزا بهم خيبر » أورده الواقدي[٤] وهو ضعيف وعنه البيهقي[٥] والزيلعي[٦] .

٦ – حديث « أن النبي ﷺ قاتل معه قوم من اليهود في بعض حروبه فأسهم لهم مع المسلمين » خرجه الخطيب البغدادي[٧] عن أبي هريرة (رض) ، لكن إسناده ضعيف سقط منه بعض الرواة .

وهكذا يتبين أن سائر الأحاديث المروية عن اشتراك اليهود مع الرسول ﷺ في الحروب ضعيفة . وقد وردت أحاديث تدل على منع النبي ﷺ اليهود من الاشتراك مع المسلمين في الحروب وهي :

---

(١) الترمذي : سنن ٧/٤٩ .

(٢) الزيلعي : نصب الراية ٣/٤٢٢ .

(٣) البيهقي : سنن ٩/٥٣ .

(٤) الواقدي : كتاب المغازي ٢/٦٨٤ .

(٥) البيهقي : سنن ٩/٥٣ وقال هذا منقطع وإسناده ضعيف .

(٦) الزيلعي : نصب الراية ٣/٤٢٢ .

(٧) الخطيب : تاريخ بغداد ٤/١٦٠ قال : « أخبرني الحسن بن علي بن عبد الله المقريء حدثنا أحمد بن الفرح الوراق حدثنا أبو بكر أحمد بن (الردين) قال : قريء على رزق الله بن موسى وأنا أسمع قال حدثنا سفيان بن عيينة عن يزيد بن يزيد بن جابر عن أبي هريرة . ومن الواضح أن يزيد بن يزيد بن جابر لم يلق أبا هريرة فقد ولد يزيد في حدود سنة ٧٧ هـ في حين توفي أبو هريرة سنة ٥٧ هـ » .

١ - أخـرج أبو عبد الله الحاكم[1] حديثاً عن أبي حميد الساعدي قال : خرج رسول الله ﷺ حتى إذا خلف ثنية الوداع إذا كتيبة ، قال : من هؤلاء ؟ قالـوا : بنـو قينقـاع ، وهو رهط عبد الله بن سلام ، قال : واسلموا ؟ قالوا : لابل هم على دينهم . قال : قولوا لهم فليرجعوا فإنا لا نستعين بالمشركين .

وقـد رواه الحاكم كشاهد لحديث آخر رواه ، وفيه « فإنا لا نستعين بالمشركـين على المشركـين » وقـال الحـاكم عنـه « صحيح الإسنـاد ولم يخرجاه » . وقد روى الحديث نفسه على أنه في غزوة أحد ، في حين أن رواية الحاكم تذكر أنه في إحدى غزواته دون تحديد للغزوة[2] . ولا شك أن التحديد بغزوة أحد خطأ لأن بني قينقاع أجلوا قبل أحد بسنة . وقد أخرجه البيهقي عن أبي حميد الساعدي من طريق الحاكم أيضاً[3] . وروى الواقدي وابن سعد أنهم كانوا حلفاء عبد الله بن أبي بن سلول وأن النبي ﷺ قال : « لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك »[4] .

٢ - ذكر ابن إسحق[5] والإمام سحنون[6] وابن القيم[7] كلهم من طريق الزهري « أن الأنصار قالت يوم أحد ألا نستعين بحلفائنا من يهود » ؟ فقال ﷺ « لا حاجة لنا فيهم » .

---

(١) الحاكم المستدرك على الصحيحين ٢/١٢٢ .
(٢) الزيلعي : نصيب الراية ٣/٤٢٣ .
(٣) البيهقي : سنن ٩/٣٧ .
(٤) الواقدي : كتاب المغازي ١/٢١٥ - ٢١٦ . وابن سعد : الطبقات الكبرى ٢/٢٧ .
(٥) سيرة ابن هشام ٢/٦٤ .
(٦) مالك بن أنس : المدونة الكبرى ٣/٤٠ .
(٧) ابن القيم : زاد المعاد ٢/٩٢ .

إن الحديث الأول أصح إسناداً مما سواه ، ولكن فيه سعد بن المنذر وهو مقبول عند الحافظ ابن حجر فلا يحتج به إلا مع المتابعة ولكن مما يرجح هذا الرأي أن ما ورد في نص الوثيقة عن اشتراك اليهود في نفقات الحرب إنما يقتصر على الحرب الدفاعية عن المدينة ، ولعل البند رقم (٤٤) يوضح ذلك « وإن بينهم النصر على من دهم يثرب » .

وقال كعب بن مالك الأنصاري (رض) : « كان المشركون واليهود من أهل المدينة حين قدمها رسول الله ﷺ يؤذون النبي ﷺ وأصحابه أشد الأذى ، فأمر الله تعالى نبيه بالصبر على ذلك ، والعفو عنهم ، وفيهم أُنزلت الآية ﴿ ودَّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً ﴾[1] .

فلماذا يخرج بعض اليهود لنصرة المسلمين كما في رواية الحاكم ؟ إن ذلك يرجع إلى المحالفات التي كانت بين الأوس والخزرج واليهود قبل مجيء الإسلام ، فلعل اليهود أرادوا التأكيد على تلك الأحلاف وتقوية ارتباطهم بحلفائهم القدامى للإفادة من هذه الصلة في الوقيعة بين المسلمين وتخذيلهم وغلغلة النفاق بين صفوفهم ، لكن النبي ﷺ قطع عليهم الطريق برفض معونتهم ما داموا على الكفر . إن استمرار أثر المحالفات القديمة بين الأوس والخزرج واليهود يتضح من قول الأنصار للنبي ﷺ في أحد «ألا نستعين بحلفائنا من يهود » ؟ كما يتضح من شفاعة عبد الله بن أبي بن سلول كبير المنافقين في بني قينقاع حلفاء قومه الخزرج ، ومن محاولة بعض الأوس تخليص حلفائهم يهود بني قريظة من القتل بعد نزولهم على حكم النبي ﷺ فحكّم النبي ﷺ سعد بن معاذ فحكم بقتلهم وبذلك تبرأ من حلفهم كما تبرأ من قبله عبادة بن الصامت (وهو من بني عوف من الخزرج) من بني قينقاع حين حاربوا الرسول ﷺ .

---

(١) البقرة ١٠٩ والرواية في سنن أبي داؤد ٤٠١/٣ والواحدي أسباب النزول ١٢٩ بسند صححه ابن حجر (العجاب ق ٣٨ أ) .

وقد تناولت البنود من رقم (٢٥) إلى (٣٥) تحديد العلاقة مع المتهودين من الأوس والخزرج ، وقد نسبتهم البنود إلى عشائرهم العربية ، وأقرت حلفهم مع المسلمين ، « وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين » وقد وردت العبارة في كتاب الأموال «أمة من المؤمنين» مما جعل أبا عبيد يقول : « فإنما أراد نصرهم المؤمنين ومعاونتهم إياهم على عدوهم بالنفقة التي شرطها عليهم ، فأما الدين فليسوا منه في شيء ، ألا تراه قد بين ذلك فقال لليهود دينهم وللمؤمنين دينهم »[١] . أما ابن إسحق فقد قال «مع المؤمنين» وهو أجود ، ولعل ما في كتاب الأموال مُصَحَّف .

وقد بين ابن عباس سبب وجود رجال من الأوس والخزرج ضمن القبائل اليهودية فقال : « كانت المرأة من نساء الأنصار تكون مقلاه[٢] ، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوِّده ، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا : لانَدَع أبناءنا فأنزل الله ﴿ لا إكراهَ في الدين ﴾ »[٣] .

وقد كفلت المادة رقم (٢٥) لليهود حريتهم الدينية ، كما حددت مسئولية الجرائم وحصرتها في مرتكبها (إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ - أي لا يهلك - إلا نفسه وأهل بيته) فالمجرم ينال عقابه وإن كان من المتعاهدين (لايحول الكتاب دون ظالم ولا آثم) .

وقد منع البند رقم (٤٣) اليهود من إجارة قريش أو نصرها وكان النبي ﷺ يستهدف التعرض لتجارة قريش التي تمر غربّي المدينة في طريقها إلى الشام ، فلا بد من أخذ هذا التعهد لئلا تؤدي إجارتهم لتجارة قريش إلى الخلاف بينهم وبين المسلمين . كما منع البند رقم ٣٦ اليهود من الخروج من المدينة إلا بعد استئذان الرسول ﷺ وهذا القيد على تحركاتهم ربما يستهدف بالدرجة الأولى منعهم من

(١) أبو عبيد : الأموال ص ٢٩٦ .

(٢) المقلاة : هي التي لا يعيش لها ولد (غريب الحديث للخطابي ٨١/٣) .

(٣) سنن أبي داؤد ١٣٢/٣ وتفسير الطبري ١٠/٣ وأسباب النزول للواحدي ٧٧ . وإسناده صحيح .

القيام بنشاط عسكري كالمشاركة في حروب القبائل خارج المدينة[1] مما يؤثر على أمن المدينة واقتصادها ، واليهود كمواطنين في الدولة الإسلامية في المدينة يجب أن يخضعوا للنظام العام ، كذلك فإن اليهود اعترفوا بموجب البند رقم (٤٢) بوجود سلطة قضائية عليا يرجع إليها سائر سكان المدينة بما فيهم اليهود ، لكن اليهود لم يُلْزموا بالرجوع إلى القضاء الإسلامي دائماً بل فقط عندما يكون الحدث أو الاشتجار بينهم وبين المسلمين ، أما في قضاياهم الخاصة وأحوالهم الشخصية فهم يحتكمون إلى التوراة ويقضي بينهم أحبارهم . ولكن إذا شاءوا فبوسعهم الاحتكام إلى النبي ﷺ وقد خيّر القرآن الكريم النبي ﷺ بين قبول الحكم فيهم أو ردهم إلى أحبارهم ﴿ . . . فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين ﴾[2] . . . ولا شك أن احتكامهم إلى النبي ﷺ إنما كان متأخراً بعد ضعفهم ، كما أن سورة المائدة متأخرة النزول .

ومن القضايا التي أراد اليهود تحكيم الرسول ﷺ فيها اختلاف بني النضير وبني قريظة في دية القتلى بينهما ، فقد كانت بنو النضير أعزَّ من بني قريظة ، فكانت تفرض عليهم دية مضاعفة لقتلاها ، فلما ظهر الإسلام في المدينة امتنعت بنو قريظة عن دفع الضعف ، وطالبت بالمساواة في الدية ، فنزلت الآية ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ﴾[3] .

كما أن المعاهدة امتدت بموجب البند رقم (٤٥) لتشمل حلفاء المسلمين وحلفاء اليهود من القبائل الأخرى ، إذ شرطت المادة على كل طرف مصالحة

---

(١) ذهب إلى ذلك عبد المنعم خان : رسالات نبوية فيما نقله عنه الدكتور صالح العلي في محاضراته (خطيه لم تنشر بعد) . والدكتور صالح أحمد العلي : تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة ص ١٦ .

(٢) سورة المائدة من الآية ٤٢ وانظر عزة دروزة : سيرة الرسول ٢ / ١٤٨ .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (الفتح الرباني ١٨ / ١٣٠) بسند حسن . والاية من سورة المائدة ٤٥ .

حلفاء الطرف الآخر لكن المسلمين استثنوا قريشاً « إلا من حارب في الدين » لأنهم كانوا في حالة حرب معهم .

وقد اعتبرت منطقة المدينة حرماً بموجب البند رقم (٣٩) «وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة » والحرم هو ما لايحل انتهاكه ، فلا يقتل صيده ولا يقطع شجره ، وحرم المدينة بين الحرة الشرقية والحرة الغربية وبين جبل (ثور) في الشمال وجبل عير في الجنوب ، ويدخل وادي العقيق في الحرم[1] وبذلك أحلت هذه المادة الأمنَ داخل المدينة ومنعت الحروب الداخلية .

وثيقة الحلف بين المهاجرين والأنصار:

تبدأ الوثيقة التي كتبت بين المهاجرين والأنصار ببيان الأطراف المتحالفة فهي بين «المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، والتميز بين المؤمنين والمسلمين واضح لأن المعروف أن المؤمن هو من آمن اقراراً باللسان وتصديقاً بالقلب ، والمسلم هو من خضع لأحكام الإسلام وأدي فرائضه ، ويتميز الصنفان في أهل يثرب فقط لظهور النفاق فيهم بعد غزوة بدر الكبرى ، أما المهاجرون فليس فيهم مسلم إلا وهو مؤمن مصدق بقلبه .

ويقرر البند رقم (١) « أنهم أمة واحدة من دون الناس » أمه تربط أفرادها رابطة العقيدة وليس الدم ، فيتحد شعورهم وتتحد أفكارهم وتتحد قبلتهم ووجهتهم ، ولاؤهم لله وليس للقبيلة ، واحتكامهم للشرع وليس للعرف ، وهم يتمايزون بذلك كله على بقية الناس « من دون الناس » فهذه الروابط تقتصر على المسلمين ولا تشمل غيرهم من اليهود والحلفاء ، ولا شك أن تمييز الجماعة الدينية كان أمراً مقصوداً يستهدف زيادة تماسكها واعتزازها بذاتها ، يتضح ذلك في تمييزها بالقبلة واتجاهها إلى الكعبة بعد أن اتجهت ستة عشر أو سبعة عشر شهراً

---

(١) انظر محمد حميد الله : الوثائق السياسية ص ٤٤١ - ٤٤٢ والنووي : صحيح مسلم بشرح النووي ٩/١٣٦ .

إلى بيت المقدس[1] وقد مضى النبي ﷺ يميز أتباعه عمن سواهم في أمور كثيرة ويوضح لهم أنه يقصد بذلك مخالفة اليهود . من ذلك : أن اليهود لا يصلون بالخف فأذن النبي ﷺ لأصحابه أن يصلوا بالخف ، واليهود لا تصبغ الشيب فصبغ المسلمون شيب رأسهم بالحناء والكتم . واليهود تصوم عاشوراء والنبي ﷺ يصومه أيضاً ثم اعتزم أواخر حياته أن يصوم تاسوعاء معه مخالفة لهم . ثم إن النبي ﷺ وضع للمسلمين مبدأ مخالفة غيرهم والتميز عليهم فقال : « من تشبه بقوم فهو منهم » وقال : « لا تشبهوا باليهود » والأحاديث في ذلك كثيرة وهي تفيد معنى تميّز المسلمين واستعلائهم على غيرهم ، ولا ريب أن التشبه والمحاكاة للأخرين يتنافى مع الأعتزاز بالذات والاستعلاء على الكفار[2] . ولكن هذا التميز والاستعلاء لا يشكل حاجزاً بين المسلمين وغيرهم ، فكيان الجماعة الإسلامية مفتوح وقابل للتوسع ويستطيع الانضمام إليه من يقبل (ايديولوجيته) .

وقد ذكرت البنود من (٣) إلى (١١) الكيانات العشائرية ، واعتبرت المهاجرين كتلة واحدة لقلة عددهم أما الأنصار فنسبتهم إلى عشائرهم ، وذكر العشائر لا يعني اعتبارها الأساس الأول للارتباط بين الناس ، ولا يعني الإبقاء على العصبية القبلية والعشائرية فقد حرم الإسلام ذلك : « ليس منا من دعا إلى عصبية » وإنما للاستفادة منها في التكافل الاجتماعي ، وجعل الإسلام العقيدة هي الأصل الأول الذي يربط بين اتباعه لكنه اعترف بارتباطات أخرى تندرج تحت رابطة العقيدة وتخدم المجتمع وتساهم في بناء التكافل الاجتماعي بين أبنائه ، مثل الارتباطات الخاصة بين : أفراد الأسرة الواحدة وما يترتب عليها من حقوق وواجبات على الآباء والأبناء والأمهات وأفراد العشيرة الواحدة وما يترتب عليهم من حقوق وواجبات كالتضامن في دفع الديات وفكاك الأسرى وإعانة المحتاج منهم ؛ وأفراد المحلة الواحدة : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى

---

(١) خليفة : التاريخ ٢٣ - ٢٤ وسيرة ابن هشام ١ / ٥٥٠ .

(٢) يعطي ابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم فكرة واضحة عن هذا المعنى .

ظننت أنه سيورثه » وأفراد القرية الواحدة : « أيما أهل عرصة أصبح فيهم أمرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى » ، وأبناء المدينة الواحدة فلا تخرج زكاة أموالهم من مدينتهم إلا بعد استيفاء حاجات أبنائها . . وهكذا رتب الإسلام على الوحدات الاجتماعية الصغيرة القيام بمهام التكافل الاجتماعي وبذلك سد ثغرات كبيرة ، وتأتي الدولة في نهاية المطاف فتسد ما تبقى من ثغرات مما عجز عنه الأفراد . . ولاشك أن ذلك يرفع عبئاً كبيراً عن كاهل الدولة تنوء به الدول الحديثة .

وهكذا فإن إقرار الروابط العشائرية قصد به الاستفادة منها في التكافل الاجتماعي ، ولكن لا تناصر في الظلم ولا عصبية وبذلك حوّل الإسلام وجهة الروابط القبلية واستفاد منها بتكييفها وفق أهدافه العليا .

إن التكافل الاجتماعي يحتم على العشيرة أن تعين أفرادها ، ومن ذلك إذا قتل فرد منها أحداً خطأ ، فإنها تدفع دية القتل بالتضامن بين أفرادها ، وقد كان ذلك متعارفاً عليه في الجاهلية فأقرته الوثيقة لما فيه من التعاون : « على ربعتهم يتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى » أي على شأنهم وعادتهم من أحكام الديات[1] . وكذلك تعين العشيرة الأسرى من أفرادها بمفاداتهم بالمال : « وهم يفدون عانيهم - أي الأسير - بالمعروف » .

كما أكدت الوثيقة على المسئولية الجماعية ، واعتبرت سائر المؤمنين مسئولين عن تحقيق العدل والأمن في مجتمع المدينة . إن أهمية ذلك كبيرة لأن النبي ﷺ لم يشكل قوة منظمة كالشرطة لتعقب الجناة ومعاقبتهم .

ونظراً لكون الحدود على الجرائم مصدرها الله تعالى لذلك فإن السعي إلى تطبيقها واجب ديني على المؤمنين ، وهذا يكسب الأحكام قدسية ويعطيها قوة

---

(١) أبو عبيد : الأموال ص ٢٩٤ . وابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/٢٧٩ .
وانظر شرح الزرقاني المالكي على المواهب اللدنية للقسطلاني ٤/١٦٨ . وابن منظور : لسان العرب مادة (عقل) .

كبيرة ، ويمنع ما ينشأ في نفوس بعض الناس من الرغبة في تحديها والخروج عليها كما يحدث في ظل القوانين الوضعية . إن اهتمام الوثيقة بإبراز دور المؤمنين يتضح من البند رقم (١٣) والبند رقم (٢١) حيث ينص البند رقم (١٣) : « وإن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم أو ابتغى دسيعة أو اثماً أو عداوناً أو فساداً بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعاً ، لو كان ولد أحدهم » فهي تعتمد على المؤمنين في الأخذ على يد البغاة والمعتدين والمفسدين والمرتشين ، ومعنى (دسيعة ظلم) أي طلب عطية من دون حق[٢] . وتخصيص المتقين بتحمل المسئولية لأنهم أحرص من سواهم على تنفيذ الشريعة لكمال إيمانهم ولأن من اتصف بأصل الإيمان قد يرتكب الحرام فيبغي ويخالف الحدود فيمنع من ذلك[٣] .

أما البند رقم (٢١) فنصه : « ومن أعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به » أي أن من قتل بلا جناية كانت منه ولا جريرة توجب قتله فإن القاتل يقاد به ويقتل إلا إذا اختار أهل القتيل أخذ الدية بدل القصاص أو وقع منهم العفو »[٤] ، وسواء اختار أهله القتل أو الدية فإن المؤمنين كافة - بضمنهم أهل القاتل - يتعاونون في تطبيق الحكم عليه وعدم حمايته مهما بلغت درجة قرابته لهم إذ : « لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو يؤويه ، وإن من نصره ، أو آه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل » . والمحدث كل من أتى حداً من حدود الله عز وجل ،

---

(١) أبو عبيد : الأموال ص ٢٩٤ . وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني ٤/١٦٨ .

(٢) ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/١١٧ . وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية ٤/١٦٨ وابن منظور : لسان العرب مادة (دسع)

(٣) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني ٤/١٦٨ .

(٤) ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/٤٢٤ . وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني ٤/١٦٨ - ١٦٩ والشوكاني : نيل الأوطار ٧/٦١ .

فليس لأحد منعه من إقامة الحد عليه ، ومن آواه فإن الله يلعنه ويغضب عليه ولا يقبل منه التوبة عن فعلته في نصرة المجرمين ولا يقبل منه فدية لذلك[1] .

ويقتضي التكافل الاجتماعي بين المؤمنين أن يعينوا المفرح منهم (أي الذي أثقله الدين)[2] . إن كان أسيراً بفدائه وإن كان جنى جناية عن خطأ دفعوا الدية عنه كما ينص البند رقم (١٢) وقد ذهب ابن سعد إلى أن المفرح هو من يكون في القوم لا يعرف له مولى[3] . ومن الواضح أن صلة الولاء يترتب عليها العون والمساعدة في الديات وغيرها . فمن لم يكن له عشيرة ينتسب إليها صلبية أو ولاء فإن المؤمنين جميعاً أولياؤه وعليهم مساعدته ، فإذا جنى جناية كانت جنايته على بيت المال لأنه لا عاقلة له[4] .

لقد أقر البند (١٢ ب) فكرة الحلف ولكنه لم يسمح بالتجاوز على حقوق الولاء التي للسيد على المعتقين من مواليه ، فلا يجوز لأحد مخالفتهم دون إذن سيدهم ، ويتضح من حديث شريف أن الإسلام إنما أقر استمرار الأحلاف القديمة لكنه منع استحداث أحلاف جديدة ونص الحديث : « لما دخل رسول الله ﷺ مكة عام الفتح قام في الناس خطيباً فقال : ياأيها الناس إنه ما كان من حلف في الجاهلية فإن الإسلام لم يزده إلا شدة ولا حلف في الإسلام »[5] .

ويبرز في البند رقم (١٤) استعلاء المؤمنين على الكافرين : « لا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن » فهذل دليل على أن دم الكافر لا يكافيء دم المؤمن ؛ وتأكيد على الترابط الوثيق بين المؤمنين وموالاتهم لبعضهم ، وقطع صلات الود والولاء القديمة مع الكفار .

---

(١) أبو عبيد : الأموال ص ٢٩٦ .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ٥٠٢/١ . وأبو عبيد : الأموال ص ٢٩٤ . وابن الأثير النهاية ٤٢٤/٣ . وابن منظور : لسان العرب مادة (فرح) .

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى : ٤٨٦/١ .

(٤) ابن منظور : لسان العرب مادة (فرح) .

(٥) رواه أحمد : المسند ١٨٠/١ و ٢١٥/٢ ورواه الترمذي وقال (هذا حديث حسن صحيح) انظر صحيح الترمذي بشرح ابي العربي المالكي ٨٣/٧ .

ويقرر البند رقم (١٧) : « إن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم » فمسئولية إعلان الحرب والسلم لا يقررها الأفراد بل النبي ﷺ فإذا أعلن الحرب فإن سائر المؤمنين يصبحون في حالة حرب مع الخصم ولا يمكن لفرد منهم مهادنته لأنه مرتبط بالسياسة العامة للمؤمنين[1] . كما أن عبء الحرب لا يقع على عشيرة دون أخرى بل إن الجهاد فرض على جميع المؤمنين وهم يتناوبون الخروج في السرايا والغزوات[2] « وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً » بند رقم (١٨) .

وقد أقر البند رقم (١٥) مبدأ الجوار الذي كان معروفاً قبل الإسلام ، وجعل من حق كل مسلم أن يجير ، وأن لا يخفر جواره ، كما حصر الموالاة بين المؤمنين ، والموالاة تقتضي المحبة والنصرة فلا يجوز لمؤمن أن يوالي كافراً : « والمؤمنون بعضهم أولياء بعض »﴿يأيها الذين أمنوا لا تتخذوا اليهود والنصاري أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم . . .﴾[3] . ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين . . .﴾[4] .

لكن البند رقم (٢١) يمنع من بقي على الشرك من الأوس والخزرج من إجارة قريش وتجارتها أو الوقوف أمام تصدي المسلمين لها ، فقد كان النبي ﷺ مصمماً على المضي في سياسة التعرض لتجارة قريش ، ولا شك أن المسلمين من الأوس والخزرج وهم الأكثرية الغالبة في عشائرهم هم الذين سيتكفلون بتطبيق هذه المادة بالنسبة للمشركين من أفراد عشائرهم . إن هذا الالتزام سبق أن أخذ تعهد اليهود به أيضاً عند موادعتهم وإن تكرر النص في الوثيقة يؤيد اعتبار الوثيقة تأليفاً بين وثيقتين منفصلتين كما سبق .

---

(١) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني ١٦٨/٤ .

(٢) ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث ٢٦٧/٣ . وشرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني ١٦٨/٤ وابن منظور : لسان العرب مادة (عقب) .

(٣) سورة المائدة من الآية ٥١ .

(٤) سورة آل عمران : من الآية ٢٨ .

ولا مانع من أن ينص في وثيقة الحلف بين المهاجرين والأنصار على معاملة اليهـود المحـالفـين للمسلمـين بالمعـروف والعـدل وعـدم التحـريض عليهم وإيذائهم ، رغم عدم وجود اليهود عند صياغة النصوص ، بل إن ذلك يعبر عن ثبات القيم الأخلاقية في السياسة الإسلامية وأنها لا تعرف المخاتلة ولا الطعن من الخلف (بند رقم ١٦) .

وفي ختام بنود الوثيقة المتعلقة بالتحالف بين المهاجرين والأنصار يقرر البند رقم (٢٣) أن النبي ﷺ هو المرجع الوحيد في كل خلاف يقع بين المسلمين في المدينة : « وإنه مهما اختلفتم فيه من شيء ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد ﷺ » .

نقض يهود المدينة للمعاهدة وإجلاؤهم عنها

لم يلتزم اليهود بالمعاهدة التي أبرمها الرسول ﷺ معهم بل سرعان ما نقضوها ولم يكتفوا بعدم الوفاء بالتزاماتهم التي حددتها بل وقفوا مواقف عدائية أيضاً ، فكان ذلك سبب إجلائهم عن المدينة المنورة ، وفيما يلي بيان لأحداث جلائهم وأسبابه الممهدة والمباشرة .

إجلاء بني قينقاع[1]

تاريخ الغزوة :

يتفق المؤرخون على أنها وقعت بعد غزوة بدر الكبرى ، وقد حدد الزهري تاريخها فذكر أنها كانت في شوال من السنة الثانية من الهجرة ، ويضيف الواقدي أنها كانت يوم السبت للنصف من شوال[2] .

سبب الغزوة :

تشير كتب السيرة إلى أن يهود بني قينقاع أظهروا الغضب والحسدعندما انتصر المسلمون ببدر ، وقد بلغ بهم الأمر إلى حد المجاهرة بالعداء .

ولتصوير الجو النفسي الذي أحاط بجلائهم لابد من استعراض بعض الأحداث ، ومنها أن النبي ﷺ رأى أن يجمعهم وينصحهم بعد انتصاره ببدر

---

(١) أفدت في حصر الروايات وانتقاء الصحيح منها في هذا المبحث من رسالة أعدها بإشرافي الشيخ أكرم حسين علي بعنوان (مرويات يهود المدينة) لنيل درجة الماجستير من قسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية ، وهي رسالة نافعة حبذا لو نشرت .
الطبري : التاريخ ٢/ ٤٧٩ - ٤٨٠ والواقدي : المغازي ١/ ١٧٦ .
وابن سعد : الطبقات الكبرى ٢/ ٢٨ - ٢٩ .

(٢) الطبري : التاريخ ٢/ ٤٧٩ - ٤٨٠ .
والواقدي : المغازي ١/ ١٧٦ .
وابن سعد : الطبقات الكبرى ٢/ ٢٨ - ٢٩ .

فجمعهم في سوق بني قينقاع ، فقال : « يامعشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً . قالوا : يامحمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً في قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال : إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا » ولا يخفي ما في ردهم من تحدّ وتهديد مع أنهم كانوا قد انضموا تحت لواء رئاسته بموجب المعاهدة ، وهذه الرواية وردت من طريق ابن إسحق[1] . وقد حسنها الحافظ ابن حجر[2] . ولكن في سندها محمد بن محمد مولى زيد بن ثابت ، حكم عليه الحافظ نفسه بأنه مجهول[3] .

وإذا قبلنا تحسين ابن حجر لها فإن ذلك لا يعني أن سبب جلاء بني قينقاع يعود إلى رفضهم قبول الإسلام ، ففي هذه المرحلة كان الإسلام يقبل التعايش السلمي معهم ولم يكن النبي ﷺ يشترط على أحد من يهود أن يدخل في الإسلام مقابل بقائه في المدينة المنورة بل إن نصوص المعاهدة[4] تؤكد إعطاء اليهود حريتهم الدينية في المدينة المنورة . وإنما يعود سبب الجلاء إلى ما أظهروه من روح عدائية . انتهت إلى الإخلال بالأمن داخل المدينة المنورة ، فقد وردت رواية تشير إلى أن أحدهم عقد طرف ثوب امرأة مسلمة في سوق بني قينقاع ، فلما قامت انكشفت وصاحت فقام أحد المسلمين فقتل اليهودي وتواثب اليهود فقتلوا المسلم ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع . وهذه الرواية ضعيفة في إسنادها انقطاع بين ابن هشام وعبد الله بن جعفر المخرمي ، ثم إنها موقوفة على تابعي صغير مجهول الحال هو أبو عون ولكن يستأنس بها من الناحية التاريخية ، فقد أوردتها معظم مصادر السيرة[5] وهي

---

(١) ابن هشام : السيرة ٢٩٤ وأبو داود : السنن ٣/٤٠٢ - ٤٠٣ .

(٢) فتح الباري ٧/٣٣٢ .

(٣) التقريب ٢/٢٠٥ .

(٤) راجع مبحث «اعلان دستور المدينة» .

(٥) ابن هشام : السيرة ٢/٥٦١ والواقدي : المغازي ١/١٧٦ - ١٧٧ .
وابن كثير : البداية والنهاية ٤/٣ - ٤ وابن سيد الناس : عيون الأثر ١/٢٩٥ .

تصور تتابع الأحداث التي أدت إلى إجلاء بني قينقاع ، وإن رفضهم الدخول في الإسلام لم يكن سبب جلائهم ، بل السبب الحقيقي في ذلك هو إخلالهم بالأمن ومجاهرتهم بالعدوان مما جعل الرسول ﷺ يقتنع بعدم إمكان العيش معهم بسلام .

الحصار:

إن خبر إجلاء بني قينقاع صحيح[1] وقد أورد ابن إسحق بروايته عن عاصم ابن عمر بن قتادة - والواقدي - دون إسناد - تفاصيل حصار المسلمين لبني قينقاع ، وتابعهم المؤرخون وكتاب السيرة في ذلك ، ورغم أن هذه التفاصيل لم تثبت صحتها من الناحية الحديثية ولكنها مما يتساهل في نقله عند المحدثين ومما يعتمد عليه وفق مناهج النقد التاريخي التي لا تشترط الإسناد وصحته ، ولا يعقل إهمال هذه الأخبار في الدراسات التاريخية إلا إذا تعلقت بالعقيدة أو الشريعة فإنه لا يعتمد في ذلك إلا على الروايات الصحيحة والحسنة التي تنهض للاحتجاج بها ، وقد ورد في تفاصيل خبر حصار بني قينقاع أنهم كانوا حلفاء عبد الله بن أبي ابن سلول وكانوا أشجع اليهود وكانوا صاغة ، فلما أظهروا صريح العداء والبغضاء وخاف النبي ﷺ خيانتهم ، استخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر ، وعقد لواء أبيض حمله حمزة بن عبد المطلب ، وحاصرهم خمس عشرة ليلة إلى هلال ذي القعدة فاشتد عليهم الحصار ونزلوا على حكم الرسول ، على أن له أموالهم ، وأن لهم النساء والذرية ، فأمر بهم فكتفوا ثم كلّمه فيهم حليفهم عبد الله بن أبي بن سلول وألح في ذلك قائلاً : « أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع منعوني من الأحمر والأسود وتحصدهم في غداة واحدة » . فقال رسول الله ﷺ : «هم لك»[2] . وأمر بهم أن يجلوا عن المدينة وتولى أمر جلائهم عبادة بن الصامت ،

---

(١) البخاري : الصحيح ٣/١١ .

(٢) كلام عبد الله بن أبي نقله ابن إسحق عن عاصم بن عمر موقوفاً عليه (ابن هشام : السيرة ٢/٥٦٢ - ٥٦٣) وعاصم من صغار التابعين ، فالرواية ضعيفة حسب اصطلاح المحدثين ، وهي مما يُتساهل فيه من الأخبار ، وأهميتها في ذكر عدد مقاتلي بني قينقاع .

فلحقـوا بأذرعات ، وتولى قبض أموالهم محمد بن مسلمة الأنصاري حيث تم تقسيمها بين الصحابة بعد إخراج الخمس للرسول ﷺ[1] .

وقـد نزل في إجلاء بني قينقاع قوله تعالى : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ﴾إلى قوله تعالى : ﴿ فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة﴾[2] وقد نقل أهل التفسير أن قوله تعالى : ﴿يأأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾[3] . نزل في موالاة عبد الله بن أبي ليهود بني قينقاع . وفي نفس الوقت أعلن عبادة بن الصامت براءته من حلفائه من يهود مظاهرة لله ولرسوله بقوله : « يارسول الله إن لي موالي من يهود كثير عددهم ، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ، وأتولى الله ورسوله » .

والفرق واضح بين عبد الله بن أبي الذي أشرب قلبه النفاق وبين عبادة بن الصـامت الذي صقلته التربية المحمدية ، وخلصته من آثار العصبية الجاهلية والأهواء والمصالح الشخصية ، فنظر إلى مصلحة العقيدة وقدمها على مصالحه الخاصة ، فكان مثلاً للمؤمن الواعي الملتزم .

مقتل كعب بن الأشرف :

ذهب جمهور العلماء إلى أن قتل ابن الأشرف وقع بعد غزوة بدر وقبل غزوة بني النضير ، وحدد الواقدي ذلك بدقة فذكر أنه وقع في السنة الثالثة لأربع عشرة

---

(١) الواقدي : المغازي ١/١٧٦ - ١٧٧ وابن سعد : الطبقات الكبرى ٢/٢٩ .

(٢) أبو داود : سنن ٣/٤٠٢ - ٤٠٣ وابن حجر : فتح الباري ٧/٣٣٢ وحكم على إسناد ابن إسحق بالحسن رغم أن فيه محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت وهم حكم عليه في التقريب بأنه مجهول وقد انفرد ابن حبان بتوثيقه . وسند أبي داؤد من طريق محمد بن أبي محمد أيضاً .

(٣) سورة المائدة الآية ٥١ - ٥٢ . وقد ذكر سبب النزول الطبري في تفسيره ٦/٢٧٤ - ٢٧٥ وابن كثير في تفسيره ٢/٦٧ - ٦٩ وفي سند الرواية ضعف لأن عطية بن سعد من رجال إسنادها صدوق يخطيء كثيراً ويدلس ولم يصرح فيها بالسماع ، ولكن ابن إسحق أورد حديثاً مرسلاً في ذلك كما ساق ابن مردويه رواية في ذلك ، فربما قويت هذه الروايات ببعضها والله أعلم .

ليلة مضت من شهر ربيع الأول على رأس خمسة وعشرين شهراً من الهجرة النبوية[1] . وكعب بن الأشرف ، أبوه عربي من طيء وأمه عقيلة بنت أبي الحقيق من بني النضير الذين حالفهم الأب وتزوج منهم ، وكان كعب شاعراً يناصب الإسلام العداء[2] وقد غاظه انتصار المسلمين ببدر وساءه الأمر فزار مكة ، فكان يهجو النبي ﷺ ويحرض عليه كفار قريش[3] ويبكي قتلى المشركين ببدر ثم رجع إلى المدينة فشبب بنساء المسلمين[4] فأمر النبي ﷺ بقتله ، وفصّل البخاري خبر مقتله ، وخلاصته أن محمد بن مسلمة الأنصاري أبدى استعداده لتنفيذ أمر النبي ﷺ بقتله ، واستأذنه في أن يستخدم الخديعة ، فأذن له لأن كعباً صار محارباً مهدور الدم فمضى محمد بن مسلمة إلى كعب وطلب منه أن يقرضه تمراً ليدفعه للرسول مظهراً تذمره منه لما يكلفهم به ، فأراد كعب رهينة من النساء أو الأبناء فاعتذر محمد بن مسلمة لما يلحقهم من عار ذلك وعرض عليه أن يرهن عنده السلاح فوافق كعب . فجاءه محمد بن مسلمة ليلاً ومعه صحابي آخر هو أبو نائلة وهو أخو كعب من الرضاعة ومعهما ثلاثة آخرون من الصحابة ، فنادوه فنزل إليهم ومشى معهم فاحتالوا لقتله متظاهرين بشم عطر شعره فأجهزوا عليه بسيوفهم حتى أصيب أحدهم بسيوف أصحابه[5] . وقد اشتكت اليهود مقتله ، فبين لهم الرسول ﷺ ما صدر منه من عداء وهجاء ، وفزعت يهود وبقايا المشركين مما حدث وخافوا على أنفسهم ، فدعاهم الرسول ﷺ إلى كتابة معاهدة بينهم فكتبت صحيفة عامة كما تذكر رواية أبي داود في رواية تصلح للاحتجاج بها لما لها

---

(١) الواقدي : المغازي ١/١٨٤ .
(٢) انظر ابن هشام : السيرة ٢/٥٦٤ وابن حجر : فتح الباري ٧/٣٣٧ .
(٣) أبو داود : السنن ٣/٤٠٢ . وانظر دلائل النبوة للبيهقي ٣/١٩٧ .
(٤) ابن هشام : السيرة ٢/٥٦٤ - ٥٦٥ بإسناد ضعيف موقوف على أحد صغار التابعين لكن ما نقلناه مما يتساهل فيه وتؤيده الروايات الصحيحة الأخرى .
(٥) البخاري : الصحيح ٥/٢٥ - ٢٦ .

من شواهد ومتابعات[1] . ويبدو أن كتابة الصحيفة جاء تأكيداً لما في المعاهدة التي كتبت قبل بدر بين المسلمين واليهود بعد أن أثار مقتل ابن الأشرف مخاوف يهود .

وقد يبدو مقتل ابن الأشرف متسماً بالغدر ، ولكن صاحب النظر الفاحص والبصيرة النافذة يدرك أن ابن الأشرف معاهد بموجب الصحيفة التي التزم فيها يهود بني النضير مع الآخرين ، وأنه بهجائه للنبي وهو رئيس الدولة بالنسبة لابن الأشرف وبإظهاره التعاطف مع أعداء المسلمين ورثاء قتلاهم وتحريضهم على المسلمين يكون قد نقض العهد وصار محارباً مهدور الدم . وأما استدراجه ممن يثق بهم وقتله بالخديعة فإنه جائز مع المحارب ، وقد تم بأمر الرسول ﷺ[2] ولكن الرسول ﷺ لم يؤاخذ بني النضير بجريرة كعب بن الأشرف واكتفى بقتله جزاء غدره وجدد المعاهدة معهم ، ولكن يبدو أن لمقتل كعب أثراً عميقاً في نفوسهم فقد مضوا يكيدون للإسلام رغم تجديدهم المعاهدة ، حيث أن الخوف وليس النوايا الطيبة هو الذي جرّهم إلى تجديدها كما سيتبين من الأحداث التالية :

إجلاء بني النضير

تاريخ غزوة بني النضير :

وردت روايتان صحيحتا الإسناد تدلان على أن غزوة بني النضير كانت بعد غزوة بدر الكبرى .

الأولى : ما رواه الزهري قال : أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب ابن مالك عن رجل من أصحاب النبي ﷺ[3] .

---

(١) أبو داود : سنن ٤٠٢/٣ والبيهقي : دلائل النبوة ٢/٤٦٢ - ٤٦٤ .
والهيثمي : مجمع الزوائد ١٩٥/٦ - ١٩٦ . وانظر ابن إسحق : السيرة ١٩٩ - ٢٠٠ . بإسناد حسن .

(٢) انظر الطحاوي : مشكل الآثار ٧٨/١ - ٧٩ .

(٣) عبد الرزاق : المصنف ٣٥٧/٥ .
وأبو داود السنن ١٣٩/٢ - ١٤٠ كتاب الخراج والفيء والإمارة .

الثانية : ما رواه عروة عن عائشة[1] فرغم أن البيهقي قال إن ذكر عائشة غير محفوظ ، ولكن الذهبي صححها ويبدو لي أنها من قبيل زيادة الثقة المقبولة ، ولم يذكر غير البيهقي علة الإرسال فيها ، كما وردت رواية مرسلة عن عروة بأنها كانت على رأس ستة أشهر من بدر[2] .

ونقل البيهقي رواية أخرى عن عروة أنها كانت في محرم سنة ثلاث[3] وهي توافق الأولى لأن بدراً كانت في ١٧ رمضان سنة ٢ هـ ونقل ذلك عن موسى بن عقبة أيضاً[4] ، وعروة تابعي كبير ، وموسى تابعي صغير والإسناد إليهما فيه من لم أعثر على ترجمته ولولا ذلك لقويت الرواية إلى مرتبة الحسن .

أما ابن إسحق فذكر أنها كانت في سنة أربع من الهجرة[5] وذكر الواقدي وابن سعد دون إسناد أنها كانت في شهر ربيع الأول على رأس سبعة وثلاثين شهراً من الهجرة[6] ووافقهم ابن هشام في أنها كانت في ربيع الأول[7] . وقد تابع جل كتاب السيرة ابن إسحق في تحديد تاريخ الغزوة . وقطع ابن القيم بوهم الزهري أو وقوع الغلط عليه في أنها كانت بعد بدر بستة أشهر ، فلاشك عنده أنها بعد أحد وهو بذلك يرجح رواية جماهير أهل السيرة والمغازي[8] . ويرى ابن حجر أن ما ذكره عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب أقوى مما ذكره ابن إسحق من حيث الصحة الحديثية . ولكنه يرى أيضاً أنه إذا ثبت أن سبب إجلاء بني النضير يتعلق بقصة دية القتيلين العامريين يتعين الأخذ بقول ابن إسحق لأن بئر معونة كانت بعد أحد بالاتفاق[9] .

---

(١) الحاكم : المستدرك ٢/٤٨٣ كتاب التفسير .

(٢) عبد الرزاق : المصنف ٥/٣٥٧ .

(٣) (٤) البيهقي : دلائل النبوة ٣/٤٤٦ - ٤٥٠ وأبو نعيم : دلائل النبوة ٣/١٧٦ - ١٧٧ .

(٥) ابن هشام : السيرة ٣/٦٨٣ والبخاري : الصحيح ٣/١١ معلقاً عن ابن إسحق .

(٦) مغازي الواقدي ١/٣٦٣ وطبقات ابن سعد ٣/٥٧ .

(٧) السيرة : ٣/٦٨٣ .

(٨) ابن القيم : زاد المعاد ٢/١١٠ .

(٩) الفتح ٦/٣٨٨ - ٣٨٩ .

وقد رويت آثار في تفسير قوله تعالى : ﴿ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفّ أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾[1] وأنها نزلت في شأن يهود بني النضير عندما هموا بقتل النبي ﷺ فأنقذه الله بنعمة منه . لكن هذه الآثار فيها ضعف ويمكن أن تعتضد لتصبح بمجموعها صالحة للاحتجاج بها[2] . وهي تقوي ما ذهب إليه ابن إسحق ولكن يبقى السؤال قائماً دون جواب حاسم : متى تمت غزوة بني النضير؟ لم يجزم ابن حجر برأي قاطع في الأمر رغم رجحان الدليل الصحيح عنده وعلق التسليم برأي ابن إسحق بثبوت تعلق الغزوة بقصة العامريين القتيلين . . . ويبدو أن استفاضة الروايات على ضعفها في تأييد قول ابن إسحق ، هو السبب في عدم جزم الحافظ ، وهو مسلك مع الروايات التاريخية يتسم بالمرونة في تطبيق قواعد مصطلح الحديث وبمراعاة التخصص واحترام أقوال أصحاب المغازي .

سبب غزوة بني النضير:

تذكر المصادر سببين لهذه الغزوة يتمثلان بمحاولتين لقتل الرسول ﷺ :

الأولى : محاولة بني النضير قتل الرسول ﷺ بعد غزوة بدر الكبرى وقد سجلت لهم المصادر محاولتين ، الأولى بعد كتابة قريش إليهم وتهديدها لهم بالحرب إن لم يقاتلوا الرسول ﷺ فاستجاب بنو النضير لهم وعزموا على الغدر ، وأرسلوا إلى النبي أن يخرج إليهم في ثلاثين رجلاً من أصحابه ، ووعدوا أن يخرجوا بمثلهم من أحبارهم ، إلى موضع وسط ليستمعوا منه ، فإن صدقوه آمنت يهود ،

(١) سورة المائدة : الآية ١١ .

(٢) انظر أسانيدها في تفسير الطبري ٦/١٤٦ - ١٤٧ بأسانيد منها ما فيها الوقف على يزيد بن رومان ومنها ما فيها ضعف محمد بن حميد الرازي وكثرة خطأ سلمة بن الفضل الأبرشي . ودلائل النبوة لأبي نعيم ص ١٧٦ - ١٧٧ بأسانيد فيها ضعف وترقي إلى ابن عباس وعروة ودلائل النبوة للبيهقي ٣/٤٤٦ - ٤٤٨ بسنديه إلى عروة بن الزبير وموسى بن عقبة (موقوفين عليهما) . وابن كثير التفسير ٣/٣١ نقلاً عن ابن إسحق ومجاهد وعكرمة .

فلما اقتربوا اقترح اليهود أن يجتمع النبي ومعه ثلاثة من أصحابه بثلاثة من أحبارهم فإن أقنعهم آمنت بنو النضير، وقد حمل الثلاثة خناجرهم ، لكن امرأة منهم أفشت خبرهم لاخٍ لها مسلم ، فأخبر النبي فرجع ولم يقابلهم ، ثم حاصرهم بالكتائب وقاتلهم فنزلوا على الجلاء وعلى أن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح فاحتملوا حتى أبواب بيوتهم . وهذه الرواية إسنادها رجاله ثقات وفيه جهالة اسم الصحابي ولا تضر[1] .

أما المحاولة الثانية فقد رواها ابن إسحق وتابعه معظم كتاب السيرة الأخرين ، وتتلخص بأن النبي ﷺ ذهب إلى بني النضير ليستعين بهم على دفع دية رجلين معاهدين قتلهما خطأ عمرو بن أمية الضمري في أعقاب حادثة بئر معونة ، فجلس النبي إلى جدار لبني النضير فهموا بإلقاء حجر عليه وقتله فأخبره الوحي بذلك فانصرف عنهم مسرعاً إلى المدينة ثم أمر بحصارهم فنزلوا على الصلح بعد حصار ست ليال ، على أن لهم ما حملت الإبل[2] وهذه الرواية موقوفة علي يزيد بن رومان وهو من صغار التابعين ، لكنها تتقوى مع المتابعة وقد توبعت برواية عروة بن الزبير في مغازي موسى بن عقبة[3] ، أما موسى بن عقبة صاحب المغازي فقد ذكر فيها إضافة لما ذكره ابن إسحق أنه « كانت النضير قد دسوا إلى قريش وحضوهم على قتال رسول الله ﷺ ودلوهم على العورة »[4] .

ورغم أن رواية عبد الرزاق أقوى سنداً من رواية ابن إسحق ، ولكن الأخيرة حظيت بقبول كتاب السيرة ، وكلتا الروايتين تعزو حصار المسلمين لبني النضير إلى محاولتهم قتل الرسول ﷺ غدراً ، وأما رواية موسى بن عقبة فلم تحدد وقتاً

(١) عبد الرازق : المصنف ٣٥٩/٥ - ٣٦٠ وانظر فتح الباري ٣٣١/٧ ، وسنن أبي داود ١٣٩/٢ - ١٤٠ كتاب الخراج والفيء والإمارة . والمستدرك للحاكم ٤٨٣/٢ كتاب التفسير .

(٢) ابن إسحق : السيرة ١٩١/٣ .

(٣) ابن حجر : فتح الباري ٣٣١/٧ .

(٤) ابن حجر : فتح الباري ٣٣٢/٧ .

للأعمال التي ارتكبها اليهود ضد المسلمين من الدس والتحريض وتقديم المعلومات لقريش ، والمعروف أنهم حرضوا المشركين على قتال المسلمين فكانت غزوة أحد ، وأنهم أعانوا أبا سفيان في غزو أطراف المدينة التي أدت إلى مطاردة المسلمين له في غزوة السويق بعد أحد ، ومعلوم تلك الأشعار التي أنشدها كعب ابن الأشرف النضري في تحريض قريش على حرب المسلمين . فلعل الإشارة إليها في رواية موسى بن عقبة فيكون ما ذكره إشارة إلى سوء العلاقة بين المسلمين وبني النضير وأنها ختمت بمحاولة الغدر التي كانت سبباً مباشراً في حصارهم تقف وراءه سلسلة من الأعمال العدائية .

إنذار الرسول صلى الله عليه وسلم لبني النضير بالجلاء

لم ترد رواية صحيحة من الناحية الحديثية تدل على إنذار النبي ﷺ لبني النضير بالجلاء لكن إجلاءهم ثابت في حديث صحيح يرويه عبد الله بن عمر (رض)[1] . أما الإنذار فقد ذكره الواقدي وابن سعد - دون إسناد - وفيه أنه طلب منهم الخروج من المدينة خلال عشرة أيام فمن رئي بعد ذلك ضربت عنقه ، فاستعدوا للخروج لكن عبد الله بن أبي بن سلول حرضهم على التمرد وعدم الخروج ووعدهم النصر ، فأعلنوا تمردهم وحاصرهم المسلمون[2] وقد أوردت روايتان - بإسنادين موقوفين على عروة بن الزبير وموسى بن عقبة وفيهما رواة لم أعثر لهم على ترجمة - خبر إنذار النبي لبني النضير بالجلاء[3] ، وقد سجلت

---

(١) البخاري : صحيح ٣/١١ .
ومسلم : صحيح ٥/١٥٩ .

(٢) مغازي الواقدي ١/٣٦٣ - ٣٧٠ والواقدي متروك وابن إسحق : سيرة ابن هشام ٣/٦٨٢ بدون إسناد وطبقات ابن سعد ٣/٥٧ - ٥٨ بدون إسناد والبيهقي دلائل النبوة ٣/٤٤٦ - ٤٥٠ بإسنادين فيهما مجاهيل أربعة .

(٣) البيهقي : دلائل النبوة ٣/٤٤٦ - ٤٤٨ وأبو نعيم : دلائل النبوة ٣/١٧٦ - ١٧٧ . وفي إسناديهما أبو جعفر محمد بن عبد الله البغدادي وأبو علاقة محمد بن عمرو بن خالد ومحمد بن عبد الله بن عتاب ولم أعثر على تراجمهم ، وبقية رجال الإسنادين ممن يحتج بهم . وقد وثق الخطيبُ القاسم بن عبد الله بن المغيرة . (تاريخ بغداد ١٢/٤٣٣)

معظم كتب السيرة خبر الإنذار دون أسانيد[1] . ورغم أن موقف المنافقين لم تسجله إلا روايات ضعيفة لا تصلح للاحتجاج بها لكن يكفي لثبوته ما ورد في سورة الحشر التي ثبت بطرق صحيحة أنها نزلت في بني النضير[2] .

حصار بني النضير ومعاهدة إجلائهم :

وقد صح أن رسول الله ﷺ حاصرهم بالكتائب وقال لهم : « إنكم لا تأمنون عندى إلا بعهد تعاهدوني عليه ، فأبوا أن يعطوه عهداً ، فقاتلهم يومهم ذلك هو والمسلمون ، ثم غدا الغد على بني قريظة بالخيل والكتائب - وترك بني النضير - ودعاهم إلى أن يعاهدوه ، فعاهدوه فانصرف عنهم وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء ، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل إلا الحلقة[3] ، فجاءت بنو النضير ، واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم ، وأبواب بيوتهم ، فكانوا يخربون بيوتهم ، فيهدمونها فيحملون ما وافقهم من خشبها »[4] .

وقد ثبت بنص القرآن[5] والحديث[6] أن النبي ﷺ حرق وقطع بعض نخل بني النضير خلال الحصار .

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٣٣٤ - ٣٣٥ وابن سيد الناس : عيون الأثر ٣/٤٨ . وابن كثير : البداية والنهاية ٣/٤٥ وغيرها .

(٢) ابن سيد الناس : عيون الأثر ٢/٤٩ وابن كثير : التفسير ٤/٣٣٠ والسيوطي : لباب النقول في أسباب النزول ٢١٤ .

(٣) الحلقة : السلاح .

(٤) عبد الرزاق : المصنف ٥/٣٥٨ - ٣٦١ وأبو داود : السنن ٣/٤٠٤ - ٤٠٧ والبيهقي : دلائل النبوة ٣/٤٤٦ - ٤٤٨ وانظر فتح الباري ٧/٣٣١ .

(٥) سورة الحشر من الآية ٥ قوله تعالى : ﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله . . . ﴾ .

(٦) صحيح البخاري ٣/١١ ، ١٤٣ وسنن أبي داود ٣/٣٦ وسنن الترمذي مع شرحه تحفة الأحوذي ٥/١٥٧ - ١٥٨ وسنن ابن ماجه ٣/٩٤٨ - ٩٤٩ .

وتقرر معاهدة الجلاء حقن دماء اليهود ، وإجلاءهم عن ديارهم ، والسماح لهم بأخذ ما تحمله إبلهم من المتاع والأموال سوى السلاح فيتركونه للمسلمين . ويمكن الجمع بين الروايات الصحيحة التي تذكر أنهم أجلوا إلى الشام[1] وبين ما ذكره ابن سعد[2] من توجههم إلى خيبر بأن زعماءهم مثل حيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع وغيرهم ذهبوا إلى خيبر ومعظمهم ذهب إلى الشام ، ورواية ابن سعد ضعيفة دون إسناد ولكن تؤيد ذلك الأحداث اللاحقة الثابتة بالمرويات القوية مثل أخبار قتالهم في غزوة خيبر وقتل كنانة وأسر صفية وخبر سلام بن أبي الحقيق ، والجمع يكون بالقول بأنهم أجلوا إلى الشام وبعضهم استقر بخيبر . وبذلك قال ابن إسحق[3] . وقد أسلم من بني النضير إثنان فأحرزا أموالهما وهما يامين بن عمر بن كعب وأبو سعد بن وهب[4] أما أموال بني النضير ونخلهم فكانت للرسول خاصة بنص القرآن[5] « فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة ثم يجعل ما بقى في السلاح والكراع عدة في سبيل الله »[6] . وقد قسم النبي أرضهم بين المهاجرين ، وأعطى اثنين من الأنصار فقط هما سهل بن حنيف وأبو دجانة سماك بن خرشة لحاجتهما[7] .

وقد أدى إجلاء بني النضير إلى كسر شوكة اليهود والمنافقين في المدينة حيث جددت قريظة المعاهدة مع المسلمين خلال حصار بني النضير وأظهرت رغبتها في

---

(١) عبد الرازق : المصنف ٥/٣٥٨ - ٣٦١ .

(٢) ابن سعد : الطبقات ٣/٥٨ .

(٣) ابن هشام : السيرة ٣/٦٨٣ دون إسناد ويؤيده ما في دلائل النبوة ٣/٤٤٦ - ٤٤٩ بإسناديه إلى عروة وموسى بن عقبة وفيهما رجال لم أعثر لهم على ترجمة .

(٤) ابن هشام : السيرة ٣/٦٨٣ بإسناده إلى عبد الله بن أبي بكر .

(٥) الحشر ٦ ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ وقد نزلت سورة الحشر في بني النضير (صحيح البخاري ٣/١٤١ وصحيح مسلم ٨/٣٤٥) .

(٦) البخاري : الصحيح ٣/١٤٣ والشافعي في السنن (الساعاتي : بدائع السنن ٣/١١٠) .

(٧) عبد الرزاق : المصنف ٥/٣٥٨ - ٣٦١ وأبو داود السنن ٣/٤٠٤ - ٤٠٧
وانظر ابن حجر : الفتح ٧/٣٣١ وسيرة ابن هشام ٣/٦٨٣ - ٦٨٤ .

المحافظة على العهد حتى كانت غزوة الأحزاب . والمنافقون لم ينجزوا وعدهم لبني النضير بالنصر وتبين ليهود عدم جدوى الاعتماد عليهم .

وقـوى كيان الإسـلام بالتخلص من بني النضـير والإفـادة من أراضيهم باقطاعها للمهاجرين الذين كانوا يعتمدون في سكناهم على أراض وبيوت للأنصار .

تحريض بني النضير للمشركين :

وقد استمر الحقد يعمل في نفوس يهود بني النضير مما دفعهم إلى تحريض المشركين من قريش والأحزاب على مهاجمة المدينة في غزوة الخندق ، وقد وردت روايات ضعيفـة إمـا لإرسال أو لانقطاع أو لجهالة[1] أحد الرواة في الإسناد ، ولكنها تصلح بمجموعها للاحتجاج وتقوى ببعضها وهي ترقي إلى عروة بن الزبير وعاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر بن حزم وسعيد بن المسيب وموسى ابن عقبة ، حيث ذكر بعضها أسماء بعض هؤلاء المحرضين من بني النضير ، ذكـرهـا ابن إسحق وهم سلام بن أبي الحقيق النضري وكنـانة بن أبي الحقيق النضري ، وحيي بن أخطب النضري[2] .

غـزوة بـني قريظـة

تاريخ الغـزوة :

وقعت غزوة بني قريظة في آخـر ذي القعـدة وأول ذي الحجـة من السنة الخامسة[3] ، عقب غزوة الخندق التي كانت في شوال سنة خمس للهجرة على قول

---

(١) سيرة ابن هشـام ٣/٧٠٠ - ٧٠١ ومصنف عبـد الـرزاق ٥/٣٦٨ - ٣٧٣ . وابن سعـد ٣/٦٥ - ٦٦ - وابن حجر : فتح الباري ٧/٤١٢ - ٤١٤ .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/٧٠٠ - ٧٠١ .

(٣) طبقات ابن سعد ٣/٧٤ ، وسيرة ابن هشام ٣/٧١٥ - وتاريخ الرسل والملوك ٣/٥٩٣ وابن سيد الناس : عيون الأثر ٣/٦٨ .

قتـادة وعـروة بن الزبير وابن إسحق وعبد الرزاق[1] . وقد ذهب الإمام مالك وموسى بن عقبة إلى أن الخندق كانت في شوال سنة أربع ، وبه قال ابن حزم وقد استدل الثلاثة بحديث عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه وعرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه[2] .

وقد بيّن البيهقي إمكان الجمع بين القولين فقال : «ولا اختلاف بينهم في الحقيقة ، لأن مرادهم أن ذلك بعد مضي أربع سنين وقبل استكمال خمس » . وقد صرح الزهري بأن الخندق كانت بعد أحد بسنتين ، ولا خلاف أن أحداً في شوال سنة ثلاث إلا على قول من ذهب إلى أن أول التاريخ من محرم السنة التالية لسنـة الهجـرة ، ولم يقدروا الشهور الباقية من سنة الهجرة من ربيع الأول إلى آخرها ، كما حكاه البيهقي ، وبه قال يعقوب بن سفيان الفسوي وقد صرح بأن بدراً في الأولى وأحداً في سنة اثنتين وبدر الموعد في شعبان سنة ثلاث ، والخندق في شوال سنة أربع وهذا مخالف لقول الجمهور ، فإن المشهور أن عمر رضي الله عنه جعل أول التاريخ من محرم سنة الهجرة ، وعن مالك أنه من ربيع الأول سنة الهجرة .

فصارت الأقوال ثلاثة والصحيح قول الجمهور أن أحداً في شوال سنة ثلاث وأن الخندق في شوال سنة خمس من الهجرة .

أما حديث ابن عمر فقد أجاب عنه جماعة من العلماء منهم البيهقي بأنه عرض يوم أحد وهو في أول الرابعة عشرة ، ويوم الأحزاب وهو في أواخر الخامسة عشرة وهو المعقول لأن المشركين لما انصرفوا عن أحد واعدوا المسلمين إلى بدر العام القابل ولم يقع . فقال : فلا يعقل أن يأتوا لحصار المدينة بعد شهرين[3] .

---

(١) مصنف عبد الرزاق ٣٦٧/٥ وسيرة ابي هشام ٦٩٩/٣ والهيثمي ١٤٣/٦ وعزاه للطبراني وقال إن رجاله ثقات .

(٢) صحيح البخاري ٣٣/٣ ، ٧٣ وانظر قول مالك .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٩٣/٤ - ٩٤ والسيرة النبوية ١٨٠/٣ - ١٨١ .
وابن القيم : زاد المعاد ٣٨٨ - ٣٨٩ وابن حجر : فتح الباري ٣٩٣/٧ .

سبب الغـزوة :

ويرجع سبب الغزوة إلى نقض بني قريظة العهد الذي بينهم وبين النبي ﷺ حيث ثبت ذلك بطرق قابلة بمجموعها للاحتجاج بها ، وكان نقضهم للعهد بتحـريض من حيي بن أخـطب النضري[1] وفي وقت حرج وخـطير بالنسبـة للمسلمين الذين كان يحاصرهم عشرة آلاف مقاتل من الأحزاب ، وقد ثبت أن النبي ﷺ أرسل الزبير بن العوام[2] لاستطلاع خبرهم ثم أرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير[3] . لمعرفة صحة ما يشاع من غدر بني قريظة ، وقد أكد له هؤلاء صحة الخبر فاشتد الأمر على المسلمين .

وقد فصّل ابن إسحق خبر غدر بني قريظة ونقضهم العهد دون إسناد وجل كتاب السيرة أوردوا ذلك دون إسناد[4] .

وذكر موسى بن عقبة دون إسناد أيضاً أن قريظة طلبت من حيي بن أخطب أن يأخـذ لهم تسعين رجلاً من أشراف قريش وغطفان رهائن لئلا يرجعوا عن المدينة قبل القضاء على المسلمين فيها ، فوافق حيي على ذلك فأعلنوا نقضهم للصحيفة[5] .

وقـد أمـر الله تعـالى نبيه بقتال بني قريظة بعد عودته من الخندق ووضعه السلاح[6] فأمر النبي ﷺ أصحابه بالتوجه إليهم وقد أعلم أصحابه بأن الله تعالى

---

(١) أورد ذلـك عبـد الـرزاق من مراسيل سعيد بن المسيب وهي أصح المراسيل والرواية صالحة للاحتجاج بها مع المتابعة (المصنف ٥/٣٦٨ - ٣٧٣) وأبو نعيم من مراسيل سعيد أيضاً (دلائل النبوة ٣/١٨٣) .

(٢) صحيح البخاري ٣/٣٠٦ وصحيح مسلم ٧/١٣٨ .

(٣) ابن هشام : السيرة ٣/٧٠٦ بدون إسناد .

(٤) مغازي الواقدي ٣/٤٥٤ - ٤٥٩ وتاريخ الرسل والملوك ٣/٥٧٠ - ٥٧٣ .
وابن حزم جوامع السيرة ١٨٧ - ١٨٨ وابن عبد البر : الدرر ١٨١ - ١٨٣ وابن سيد الناس عيون الأثر ٣/٥٩ - ٦٠ وابن كثير ، البداية والنهاية ٤/١٠٣ - ١٠٤ .

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ٤/١٠٣ - ١٠٤ .

(٦) البخاري : الصحيح ٣/٢٤ وأحمد : المسند ٦/٥٦ ، ١٣١ ، ٢٨٠ .

قد أرسل جبريل ليزلزل حصونهم ويقذف في قلوبهم الرعب[1] وأوصاهم أن (لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة) كما في رواية البخاري[2] - أو الظهر - كما في رواية مسلم[3] . وقد حان وقت العصر وبعضهم في الطريق فمنهم من صلى ومنهم من أخر وأقر النبي الطرفين فقد اجتهدوا في مراده من أمره . ومن أخر صلّاها بعد العشاء الآخرة كما وضح ابن إسحق[4] .

وقد جمع العلماء بين روايتي البخاري ومسلم بالقول باحتمال أن يكون بعضهم قد صلى الظهر قبل الأمر وبعضهم لم يصلها فأمر من لم يصلها أن لا يصلي الظهر ومن صلاها أن لا يصلي العصر ، وقيل باحتمال أن تكون طائفة قد ذهبت بعد طائفة فقيل للأولى الظهر وللثانية العصر[5] .

وخرج النبي ﷺ بنفسه إلى بني قريظة واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم[6] وإن لم يثبت بحديث صحيح لكنه مما يتساهل في قبوله .

وقد وردت آثار مرسلة تتقوى ببعضها إلى رتبة الحسن لغيره تفيد أنه بعث عليا على المقدمة برايته[7] .

وانفرد ابن سعد بذكر عدد جيش المسلمين وعدد خيلهم فذكر أنهم كانوا ثلاثة آلاف رجل معهم ستة وثلاثون فرساً[8] .

وتختلف الروايات في مدة حصاره لبني قريظة أكان شهراً[9] أم خمساً وعشرين

---

(١) البخاري : الصحيح ٣/٢٤ ، ١٤٤ .

(٢) البخاري : الصحيح ٣/٣٤ .

(٣) مسلم : الصحيح ١٦٣/٥ .

(٤) سيرة ابن هشام ٣/٧١٦ - ٧١٧ من مراسيل معبد بن كعب بن مالك وهو مقبول من الثالثة .

(٥) ابن حجر : فتح الباري ٧/٤٠٨ - ٤٠٩ .

(٦) ابن هشام : السيرة ٣/٧١٦ وابن سعد ٣/٧٤ كلاهما دون إسناد .

(٧) سيرة ابن هشام ٣/٧١٦ - ٧١٧ وفتح الباري ٧/٤١٣ .

(٨) ابن سعد ٣/٧٤ وابن سيد الناس : عيون الأثر ٣/٦٨ دون إسناد .

(٩) تاريخ الرسل والملوك ٢/٥٨٣ بلفظ الشك من الراوي بين الشهر والخمس وعشرين ليلة .

ليلة[1] أم خمسة عشر يوماً[2] أم بضع عشرة ليلة[5] ، وأقوى الأدلة تبين أنه كان خمساً وعشرين ليلة وتميل معظم كتب المغازي إلى ذكر هذه المدة تبعاً لرواية ابن إسحق[4] .

نجاح الحصار ومصير بني قريظة :

ولما اشتد الحصار وعظم البلاء على بني قريظة ، أرادوا الاستسلام والنزول على أن يحكم الرسول ﷺ فيهم ، وقد استشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر من الصحابة - وكان حليفاً لهم - فأشار إلى أن ذلك يعني ذبحهم .

وقد ندم على مشورته هذه وربط نفسه إلى إحدى سواري المسجد النبوي حتى قبلت توبته[5] .

أما بنو قريظة فقبلوا النزول على حكم سعد بن معاذ ، ورأوا أنه سيرأف بهم بسبب الحلف بينهم وبين قومه الأوس .

فجيء بسعد محمولاً لأنه كان قد أصابه سهم في ذراعه يوم الخندق فقضى فيهم أن تقتل المقاتلة وأن تسبى النساء والذرية ، وأن تقسم أموالهم ، فأقره رسول الله ﷺ وقال : قضيت بحكم الله[6] وبذلك تبرأ سعد بن معاذ من حلف بني قريظة ولم يقع في نفوس الأوس شيء رغم تحالفهم مع بني قريظة وقرب عهدهم بالإسلام ، فسيدهم سعد هو الذي حكم فيهم ، وكان عدد مقاتلتهم

---

(١) الفتح الرباني لترتيب مسند الأمام أحمد ٢١/٨١ - ٨٣ ورواته كلهم ممن يحتج بهم .
وتاريخ الرسل والملوك ٢/٥٨٣ ومجمع الزوائد للهيثمي ٦/١٣٦ - ١٣٨ .

(٢) ابن سعد ٣/٧٤ بدون إسناد .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٤/١١٨ - ١١٩ وفتح الباري ٧/٤١٣ عن موسى بن عقبة عن الزهري مرسلاً .

(٤) تاريخ الرسل والملوك ٢/٥٨٣ وابن حزم : جوامع السيرة ١٩٣ ، وابن عبد البر : الدرر ١٨٩ وابن سيد الناس : عيون الأثر ٢/٦٩ .

(٥) الفتح الرباني لترتيب مسند أحمد ٢١/٨١ - ٨٣ بإسناد حسن .

(٦) البخاري : الصحيح ٢/١٢٠ ، ٣/٢٤ - ٢٥ ومسلم : الصحيح ٥/١٦٠ - ١٦١ .

الـذين نفـذ فيهم الحكم أربعـمائة[1] ، ونجا ثلاثة من بني قريظة بدخولهم في الإسلام[2] فأحرزوا أنفسهم وأموالهم وربما نجا ثلاثة آخرون منهم بحصولهم على الأمان من بعض الصحابة أو لما أظهروه من وفاء بالعهد خلال الحصار ، فقد وردت أخبار كثيرة في ذلك لكنها لا تبلغ درجة الاحتجاج بها ، وقد حبس أسراهم في دار بنت الحارث[3] ، ثم نفذ القتل في سوق المدينة حيث حفرت أخاديد وقتلوا فيها بشكل مجموعات[4] ، ولم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة[5] كانت قد قتلت صحابياً هو خلاد بن سويد برحي ألقتها عليه .

أما الغلمان غير البالغين فقد أطلق سراحهم[6] - وبعد إنفاذ حكم القتل في مقاتلة بني قريظة شرع في تقسيم أموالهم وذراريهم بين المسلمين[7] وقد فصلت كتب المغازي كيفية تقسيم الأموال والذراري لكن ما ذكرته لا يرقي إلى درجة الاحتجاج به .

وقد اصطفى الرسول ﷺ ريحانة بنت عمرو بن خنافة من بين السبي لنفسه وهو قول ابن إسحق وابن سعد وغيرهم كثير وقال الواقدي ومن تابعه إنه تزوجها والأول أرجح .

---

(١) أحمد : المسند ٣/ ٣٥٠ بإسناد حسن ، وذكر ابن حجر الفتح ٧/ ٤١٤ الاختلاف في عددهم مابين أربعمائة إلى تسعمائة ، وجمع بين الأقوال بأن الزيادة لاتباع بني قريظة من مواليهم وغيره .

(٢) البخاري : الصحيح ٣/ ١١ ومسلم : الصحيح ٥/ ١٥٩ والثلاثة هم ثعلبة بن سعية وأسيد ابن سعية وأسد بن عبيد .

(٣) وهذه رواية ابن إسحق (ابن هشام : السيرة ٣/ ٧٢١) أما عروة فذكر أنها «دار أسامة بن زيد» والجمع بينهما أن الأسرى وضعوا في الدارين لكثرتهم .

(٤) أحمد : المسند ٣/ ٣٥٠ والترمذي : سنن ٤/ ١٤٤ - ١٤٥ .

(٥) ابن هشام : السيرة ٣/ ٧٢٢
وأحمد : المسند ٦/ ٢٧٧ .
وأبو داود : السنن ٢/ ٢٥٠ . وإسناده حسن لذاته .

(٦) ابن هشام : السيرة ٣/ ٧٢٤ .
وابن سعد : الطبقات الكبرى ٢/ ٧٦ - ٧٧ .

(٧) البخاري : الصحيح ٣/ ١١ . ومسلم : الصحيح ٥/ ١٥٩ .

وقد جنح بعض المؤرخين المعاصرين إلى نفي الروايات المتعلقة بالعقوبات التي واجهتها بنو قريظة وتضعيفها[1] . بزعم أن إثباتها يجرح المشاعر الإنسانية ويخدم الدعاية الصهيونية ، وليس الأمر كذلك فإن أوثق المصادر الإسلامية قد أثبتت وقوع ذلك ، ولم تكن العقوبة الشديدة إلا جزاء للخيانة العظمى التي ارتكبها بنو قريظة عندما غدرت بالمسلمين وتبرأت من حلفهم بدل أن تشترك معهم في الدفاع عن المدينة المنورة بموجب نصوص المعاهدة بين الطرفين .

ومازالت الدول تحكم بقتل الخونة المتواطئين مع الأعداء حتى في الوقت الحاضر .

وكان جزاء بني قريظة من جنس عملهم حين عرّضوا بخيانتهم أرواح المسلمين للقتل وأموالهم للنهب ونساءهم وذراريهم للسبي ، فكان أن عوقبوا بذلك جزاء وفاقاً ، وليس من داع للتنصل من حقائق التاريخ وتكذيب الرويات الصحيحة .

---

(١) انظر بحث الدكتور وليد عرفات ضمن بحوث مؤتمر السيرة العالمي بقطر .

فتح خيبر[1] وبقية المعاقل اليهودية في الحجاز

خيبر واحة زراعية تقع شمال المدينة المنورة ، وتبعد عنها بحوالي ١٦٥ كم[2] وترتفع عن سطح البحر بنحو ٨٥٠ م ، وهي من أعظم حرار بلاد العرب بعد حرة بني سليم[3] وامتازت خيبر بخصوبة أرضها ووفرت مياهها فاشتهرت بكثرة نخيلها .

هذا سوى ما تنتجه من الحبوب والفواكة لذلك كانت توصف بأنها قرية الحجاز ريفاً ومنعة ورجلاً ، وكان بها سوق يعرف بسوق النطاة تحميه قبيلة غطفان التي تعتبر خيبر ضمن أراضيها[4] .

ونظراً لمكانتها الاقتصادية فقد سكنها العديد من التجار وأصحاب الحرف وكان فيها نشاط واسع للصيرفة .

وكان يسكنها قبل الفتح أخلاط من العرب واليهود ، وزاد عدد اليهود فيها بعد إجلاء يهود المدينة في عهد السيرة[5] .

ولم يظهر يهود خيبر العداء للمسلمين حتى نزل فيهم زعماء بني النضير ، الذين حز في نفوسهم إجلاؤهم عن ديارهم ، ولم يكن الإجلاء كافياً لكسر شوكتهم ، فقد غادروا المدينة ومعهم النساء والأبناء والأموال وخلفهم القيان

---

(١) أفدت في حصر الروايات وانتقاء الصحيح منها في هذا المبحث من الرسالة التي أعدها الشيخ عوض أحمد الشهري ، وعنوانها (مرويات غزوة خيبر) لنيل درجة الماجستير من قسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وكنت أحد أعضاء لجنة المناقشة ، وهي رسالة نافعة حبذا لونشرت بعد تنقيحها .

(٢) هذا بالنسبة للطريق المسفلت ، وهو يختلف عن الطريق التي سلكها الرسول ﷺ إلى خيبر .

(٣) انظر الموسوعة العربية الميسرة ٧٧٠ وحمد الجاسر : في شمال غرب الجزيرة ٢١٧ .

(٤) حمد الجاسر : في شمال غرب الجزيرة ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٥) حمد الجاسر في شمال غرب الجزيرة ٢٣٨ - ٢٣٩ .

بضمر بن الدفوف والمزامير بزهاء وفخر مارئي مثله في حي من الناس في زمانهم[1] .

وكان من أبرز زعماء بني النضير الذين نزلوا في خيبر سلام بن أبي الحقيق ، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، وحيي بن أخطب فلما نزلوا دان لهم أهلها[2] .

وكان تزعم هؤلاء ليهود خيبر كافياً في جرها إلى الصراع والتصدي للانتقام من المسلمين ، فقد كان يدفعهم حقد دفين ورغبة قوية في العودة إلى ديارهم داخل المدينة .

وكان أول تحرك قوي ما حدث في غزوة الأحزاب حيث كان لخيبر وعلى رأسها زعماء بني النضير دور كبير في حشد قريش والأعراب ضد المسلمين وتسخير أموالهم في ذلك ، ثم سعيهم الناجح في إقناع بني قريظة بالغدر والتعاون مع الأحزاب[3] .

فلما رد الله الأحزاب عن المدينة خائبين ، اهتم الرسول ﷺ بمعالجة الموقف في خيبر التي صارت مصدر خطر كبير على المسلمين .

ويذكر ابن إسحق بإسناد فيه راو مجهول أن الرسول ﷺ أرسل إليهم كتاباً يدعوهم إلى الإسلام ويذكرهم بما في كتبهم من ذكر بعثته عليه الصلاة والسلام[4] . ولم يستجب اليهود بالطبع لدعوته ، ولم يعتذروا عما فعلوه في تأليب الأحزاب فكان أن عمد الرسول إلى القضاء على زعمائهم الذين لعبوا دوراً في التأليب عليه ، ومنهم سلام بن أبي الحقيق الذي وجه الرسول ﷺ عبدَ الله بن عتيك ومعه رجال من الأنصار فقتلوه .

وقد ساق البخاري قصه قتله مفصلة حيث احتال عبد الله بن عتيك في الدخول إلى بيت داخل حصنه وبين حرسه ورجاله حتى قتله في مخدعه[5] ، مما

---

(١) (٢) ابن هشام السيرة ٣/٢٧٢ .

(٣) ابن هشام السيرة ٣/٢٥٣ وقد نقل ذلك عن ائمة السيرة جامعاً لأسانيدهم وفيها راو مجهول وهي معلولة بالإرسال لكنها مما يتساهل فيها من الأخبار ولا يشترط لقبولها بلوغ درجة الصحة الحديثية .

(٤) ابن هشام : السيرة ٢/١٩٥ .

(٥) فتح الباري ، كتاب المغازي ، باب قتل أبي رافع ٧/٣٤٠ .

يدل على رباطة جأشه وعلو همته وعظم استعداده للتضحية من أجل عقيدته .

ولكن القضاء على بعض الزعماء لا يكفي لإزالة الخطر عن المسلمين ، وكانت معاهدة الحديبية التي وقعت سنة ست من الهجرة بين المسلمين وقريش ، قد أتاحت الفرصة أمام المسلمين ليتفرغوا لفتح خيبر . وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن الله تعالى وعد المسلمين بفتح خيبر وحيازة غنائمها في سورة الفتح التي نزلت في طريق العودة من الحديبية ، وذلك بقوله تعالى : ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ، ومغانم كثيرة يأخذونها ، وكان الله عزيزاً حكيماً ، وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً ، وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً﴾[1] .

تاريخ الغزوة :

ذهب ابن إسحق إلى أنها في المحرم من السنة السابعة ، وقال الواقدي إنها في صفر أو ربيع الأول من السنة السابعة بعد العودة من الحديبية إلى المدينة في ذي الحجة سنة ست[2] وذهب الإمامان الزهري ومالك إلى أنها وقعت في المحرم من السنة السادسة[3] وقد تابع المؤرخون هؤلاء الروّاد في تحديد تاريخ الغزوة فاختلفت أقوالهم تبعاً لذلك ، والخلاف بين ابن إسحق والواقدي يسير أقل من ثلاثة أشهر . وكذلك فإن الخلاف بينهما وبين الإمامين الزهري ومالك مرجعه إلى الاختلاف في ابتداء السنة الهجرية الأولى فمنهم من احتسب الأشهر التي سبقت ربيع أول وهو شهر الهجرة فأضاف سنة إلى تواريخ الحوادث التي في عصر السيرة

---

(١) الفتح ١٨ - ٢١ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢ / ١٣٠ والواقدي : المغازي ٢ / ٦٣٤ .

(٣) ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ١ / ٣٣ .

ومنهم من أهملها واعتبر ربيع أول بداية التقويم فأسقط سنة من تواريخ الحوادث ، ولا بد من التفطن لهذا الأمر عندما يكون الاختلاف بين كتاب السيرة في تاريخ الحادث سنة ، واحدة ، وقد رجح الحافظ ابن حجر قول ابن إسحق على قول الواقدي[1] .

الطريق إلى خيبر:

ولما توجه المسلمون بقيادة المصطفى ﷺ إلى خيبر كانوا يكبّرون ويهللون رافعين أصواتهم فطلب منهم أن يرفقوا بأنفسهم قائلاً : « انكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم »[2] وهذه الصورة توضح الروح المهيمنة على الجيش الإسلامي ودوافعه الإيمانية القوية ومعنوياته القتالية العالية وهو يتوجه نحو قلاع وحصون ملئت رجالاً وسلاحاً ومؤونة ومتاعاً ، ولكن هل يحول ذلك كله دون المؤمنين وبلوغهم أهدافهم السامية ؟ .

وقد انفرد الواقدي بتحديد الطريق التي سلكها الرسول ﷺ إلى خيبر بصورة مفصلة ، والواقدي خبير بمسالك الطرق وتحديد الأماكن التي جرت فيها أحداث السيرة فقد كان يتتبعها ويسأل عنها ، ويقف عليها بنفسه ، وقد تبين أن النبي ﷺ خرج من المدينة فسلك ثنية الوداع فزغابة فنقمي فالمستناخ فالوطة فعصر فالصهباء فالخرصة ثم سلك بين الشق والنطاة ثم المنزلة ثم الرجيع حيث انطلق منها لفتح خيبر[3] . والملاحظ أن الرجيع تقع شمال شرق خيبر ويبدو أن النبي قصد من ذلك أن يفصل خيبر عن الشام وعن حلفائها من غطفان .

وصف فتح خيبر:

وقد افتتح النبي ﷺ منطقة النطاة أولاً وسقط حصناها ناعم والصعب بيد المسلمين ثم منطقة الشق وسقط حصناها أبي والنزار ، والنطاة والشق في الشمال

---

(١) الفتح ٧/٤٦٤ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر ٧/٤٧٠ .

(٣) معازي الواقدي ٢/٦٣٩ .

الشرقي من خيبر ثم فتح منطقة الكتيبة وأسقط حصنها المنيع (القموص) وهو حصن ابن أبي الحقيق . ثم افتتح منطقة الوطيح ثم منطقة السلالم وأسقط حصنيها وهذا التسلسل في فتح مناطق خيبر معتمد على وصف الواقدي[1] ، ويختلف وصف ابن إسحق في التقديم والتأخير فهو يتفق مع الواقدي في أن بداية الفتح كانت لحصن ناعم من منطقة النطاة ويختلف في تقديم فتح حصن القموص على حصن الصعب[2] .

وتدل الأحاديث الصحيحة على أن النبي ﷺ وصل خيبر قبل انبلاج الفجر وصلى الفجر قربها ثم هاجمها بعد أن بزغت الشمس ، وقد فوجيء الفلاحون من يهود الذين خرجوا إلى أعمالهم ومعهم مواشيهم وفؤوسهم ومكاتلهم بوجود المسلمين فقالوا : محمد والخميس !! فقال الرسول ﷺ « الله أكبر ، خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين »[3] .

فلجأ اليهود إلى حصونهم وحاصر المسلمون حصن ناعم ، وسعت غطفان إلى نجدة يهود خيبر وكانوا حلفاءهم ، ولكنهم لم يشتركوا في القتال فقد خافوا أن يهاجم المسلمون ديارهم ، ويقرر الواقدي وصول غطفان إلى حصون خيبر ، أما ابن إسحق فيقرر أنهم عادوا إلى ديارهم قبل وصولهم إلى خيبر . وينفرد الواقدي بأن النبي عرض على غطفان تمر خيبر لسنة مقابل انسحابهم وأنهم رفضوا ذلك ولا يصلح الاعتماد على هذه الرواية لضعف الواقدي مع تفرده بها[4] .

وحمل راية المسلمين في حصار ناعم أبو بكر رضى الله عنه لليومين الأولين ، ولم يفتح له ، وأصاب الناس يومئذ شدة وجهد ، فقال رسول الله ﷺ : إني دافع اللواء غداً إلى رجل يحبه الله ورسوله ، ويحب الله ورسوله ، لا يرجع حتى يفتح

(١) مغازي الواقدي ٢/ ٦٣٩ .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/ ٤٣٨ .

(٣) البخاري : الصحيح ، كتاب الصلاة ١/ ٤٧٨ ، كتاب الأذان ٢/ ٨٩ ومسلم : الصحيح ، كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة خيبر ٣/ ٤٢٦ .

(٤) مغازي الوافدي ٣/ ٦٥٠ وسيرة ابن هشام ٣/ ٤٣٨ .

له ، فطابت نفوس المسلمين ، فلما صلى الفجر في اليوم التالي دعا علياً رضي الله عنه ودفع إليه اللواء فحمله رضي الله عنه في اليوم الثالث فتم الفتح على يديه[1] وتشير رواية إلى أن حامل الراية قبل علي هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدل أبي بكر رضي الله عنه وهي رواية ضعيفة مدارها على ميمون البصري وهو ضعيف[2] وكذلك وردت رواية تفيد أن أبا بكر وعمر وعلياً رضي الله عنهم تعاقبوا في الأيام الثلاثة على حمل الراية ، وهي رواية ضعيفة لضعف راويها بريدة بن سفيان[3] .

وقد أوصى النبي ﷺ علياً أن يدعو يهود خيبر إلى الإسلام وما يجب عليهم من حق الله وقال له : (فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم)[4] . مما يدل على أن النبي ﷺ ما كان حريصاً على غنائم خيبر بل كان همه نشر العقيدة وإزاحة العقبات من طريقها .

ولما سأله علي رضي الله عنه (يارسول الله على ماذا أقاتل الناس ؟ قال : قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)[5] .

---

(١) مسند أحمد ٣٥٣/٥ ومستدرك الحاكم ٣٧/٣ ومجمع الزوائد ١٥٠/٦ وقد حكم عليه الحاكم بصحة الإسناد ووافقه كل من الذهبي والهيثمي .

(٢) مسند أحمد ٣٥٨/٥ وكشف الاستار عن زوائد مسند البزار للهيثمي ٣٣٨/٢ . والطبري ٣٠٠/٢ وتقريب التهذيب ٢٩٢/٢ .

(٣) سيرة ابن هشام ٤٤٥/٣ والطبري : تاريخ ٣٠٠/٢ ومستدرك الحاكم ٣٧/٢ وانظر تهذيب التهذيب ٤٣٣/١ .
وأوردهـا الطبراني (مجمع الوائد ١٢٤/٩) والبزار (ابن كثير : السيرة ٣٥٥/٣) من طريق أخرى فيها حكيم بن جبير وهو ضعيف كما في تقريب التهذيب ١٩٢/١ .

(٤) مسلم : الصحيح ، كتاب فضائل الصحابة ١٨٧٢/٤ .

(٥) شرح النووي على مسلم ١٧٧/١٥ .

وقد استشهد في حصار حصن ناعم محمود بن مسلمة الأنصاري حيث ألقى عليه مرحب رحي من أعلى الحصن[1] . وقد بارز علي مرحباً هذا وقتله[2] وكان مرحب من أبطال يهود فأثر مقتله في معنوياتهم .

ووردت عدة روايات تفيد تترس علي رضى الله عنه بباب عظيم كان عند حصن ناعم بعد أن أسقط يهودي ترسه من يده ، وكلها روايات ضعيفة[3] . وأطراحها لا ينفي قوة علي وشجاعته ، فيكفيه ما ثبت في ذلك وهو كثير .

وقد استغرق فتح حصن ناعم عشرة أيام[4] . وتوجه المسلمون بعده إلى حصن الصعب بن معاذ في منطقة النطاة وكان فيه خمسمائة مقاتل وفيه الطعام والمتاع وكان المسلمون في ضائقة من قلة الطعام ، وقد حمل الراية في فتحه الحباب ابن المنذر وأبلى بلاء حسناً ، وقاوم اليهود مقاومة عنيفة واستغرق الفتح ثلاثة أيام ، ثم فتح المسلمون حصن قلعة الزبير وهو آخر حصون النطاة . وقد اجتمع فيه الفارّون من حصن ناعم والصعب وبقية ما فتح من حصون يهود ، وكان حصن قلعة الزبير منيعاً مرتفعاً ، وقد قطع المسلمون مجرى الماء عنهم واضطروهم إلى النزول للقتال وأصابوا منهم عشرة وفتح الحصن بعد حصار ثلاثة أيام ، وانتقل المسلمون من الرجيع إلى المنزلة بعد أن تخلصوا من أهل النطاة وهم أشد اليهود .

ولا شك أن موقف المسلمين قوي كثيراً بعد هزيمة أهل النطاة وحيازتهم أطعمتهم ومتاعهم ، بالإضافة إلى ما أصاب بقية يهود خيبر من رعب لسقوط منطقة النطاة .

---

(١) سيرة ابن هشام ٤٣٨/٣ ومغازي الواقدي ٦٤٥/٢ .

(٢) مسلم : الصحيح ، كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة ذي قرد ١٤٣٣/٣ .

(٣) الفتح الرباني للساعاتي ١٢٠/٢١ وسيرة ابن هشام ٤٤٦/٣ - والسيرة لابن كثير ٣٥٩/٣ والإصابة لابن حجر ٥٠٩/٢ .

(٤) مغازي الواقدي ٦٥٧/٢ .

وقد توجه المسلمون لفتح منطقة الشق وهي تحتوي على عدة حصون منها حصن أبي وحصن النزار ، وقد بدأ المسلمون بفتح حصن أبي وجرت مبارزات فردية أمام الحصن أصيب فيها مقاتلة يهود ثم اقتحم المسلمون الحصن وحازوا ما فيه من طعام ومتاع ، وتمكن بعض مقاتلة يهود من التحول إلى حصن نزار وتحصنوا فيه وقاتلوا المسلمين بالنبل والحجارة ثم تهاوت مقاومتهم أمام حصار المسلمين حتى فتح الحصن وفر بقية أهل الشق من حصونهم إلى منطقة الكتيبة في الجنوب الغربي من خيبر وتحصنوا في حصن القموص المنيع ، وتحصن بعض فلّهم مع أهل حصني الوطيح والسلالم فحاصرهم المسلمون أربعة عشر يوماً حتى طلبوا الصلح دون أن يقع قتال إذ إن حصن نزار كان آخر حصن جرى فيه قتال وانهارت بعده مقاومة اليهود فاقتصروا على التحصن في حصونهم وانتهى التحصن دائماً بطلب الصلح .

ووصف فتح حصون الصعب والزبير ومنطقتي الشق والكتيبة يعتمد على الواقدي[1] . الذي انفرد بتقديم صورة واضحة عن أحداث فتح هذه المناطق ، وهو إخباري غزير المعلومات رغم ضعفه عند المحدثين ، ولكن مثل هذه الأخبار مما يتساهل فيه .

أما روايات ابن إسحق في وصف فتح خيبر فهي مضطربة وتنقصها الدقة إذا ما طوبقت مع مواقع حصون خيبر .

وقد ذكرت رواية صحيحة أن النبي ﷺ قاتل أهل خيبر فغلب على النخل والأرض ، وألجأهم إلى قصرهم ، فصالحوه على أن لرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء والحلقة[2] . ولهم ما حملت ركابهم على أن لا يكتموا ولا يغيبوا شيئاً فإن فعلوه فلا ذمة لهم ولا عهد . فغيبوا مسكاً لحيي بن أخطب ، وقد كان قتل قبل خيبر . وكان احتمله معه يوم بني النضير حين أجليت النضير ، فيه جلبهم .

(١) معازي الواقدي ٢/ ٢٥٩ ، ٦٧٠ .

(٢) أي الذهب والفضة والسلاح والدروع .

قال : فقال لسعية[1] أين مسك حيي بن أخطب ؟ .

قال : أذهبته الحروب والنفقات . فوجدوا المسك .

فقتل ابني أبي الحقيق ، وسبي نساءهم وذراريهم[2] .

ويذكر ابن إسحق دون إسناد أن الذي أخفى الكنز وسئل عنه هو كنانة بن الربيع[3] ويذكر ابن سعد كنانة وأخوه الربيع[4] ، وفي إسناد ابن سعد محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وهو صدوق سيئ الحفظ جداً[5] .

والثابت أن يهود حصن القموص سألوا النبي ﷺ الصلح ونكثوا العهد فحاز أموالهم .

أما أهل حصني الوطيح والسلالم فإنهم لما أيقنوا بعدم جدوى المقاومة بعد سقوط النطاة والشق والقموص سألوا النبي ﷺ « أن يسيرهم وأن يحقن دماءهم ففعل »[6] .

وبذلك سقطت سائر خيبر بيد المسلمين ، وسارع أهل فدك في شمال خيبر إلى طلب الصلح وأن يسيرهم ويحقن دماءهم ويخلوا له الأموال فوافق على طلبهم[7] فكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب ، وحاصر المسلمون وادي القرى ، وهي مجموعة قرى بين خيبر وتيماء ليالي[8] ثم استسلمت فغنم المسلمون أموالاً كثيرة وتركوا الأرض والنخل بيد اليهود وعاملهم عليها مثل خيبر وصالحت تيماء على مثل صلح خيبر ووادي القرى[9] .

---

(١) عم حيي بن أخطب (عون المعبود ٨/٢٤١) .

(٢) أبو داود : السنن ، كتاب الخراج والإمارة والفيء ، باب ما جاء في حكم أرض خيبر ٣/٤٠٨ .

(٣) ابن هشام - السيرة ٣/٤٤٩ .

(٤) ابن سعد : الطبقات ٢/١١٢ .

(٥) تقريب التهذيب ٢/١٨٤ .

(٦) (٧) سيرة ابن هشام ٣٢/٤٤٩ .

(٨) تاريخ خليفة ٨٥ نقلاً عن ابن اسحق .

(٩) ابن القيم : زاد المعاد ١/٤٠٥ .

وبذلك انهارت سائر المعاقل اليهودية أمام المسلين . وخبر طلب الصلح من قبل أهل حصني الوطيح والسلالم وأهل فدك أورده ابن إسحق بسند منقطع لا يصلح للاحتجاج به في أحكام السياسة الشرعية ، ويصلح لوصف الوقائع التأريخية فرواية عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم مشهور بمعرفة المغازي .

وقد بلغ قتلى يهود في معارك خيبر ثلاثة وتسعين رجلاً[١]. وسبيت نساؤهم وذراريهم ، ووقعت في السبي صفية بنت حيي بن أخطب أم المؤمنين رضى الله عنها فاعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها[٢] .

واستشهد من المسلمين عشرون رجلاً فيما ذكر ابن إسحق[٣] ، وأما الواقدي فذكر أنهم خمسة عشر رجلاً[٤] وهذا من خذلان الله تعالى ليهود فإن قتلاهم وهم يدافعون في حصون منيعة أكثر بكثير من شهداء المسلمون المهاجمين في ساحات مكشوفة !! وقد صح أن امرأة يهودية أهدت النبي ﷺ شاة مشوية قد سمتها ، وأكثرت السم في الذراع عندما عرفت أنه يحبها ، فلما أكل من الذراع أخبرته أنها مسمومة فلفظ اللقمة ، واعترفت المرأة ، فلم يعاقبها[٥] ، وقد قتلها بعد ذلك عندما مات بشر بن معرور من أثر السم الذي ازدرده مع الطعام[٦] .

ومما أعان على فتح خيبر تفرغ المسلمين بعد صلح الحديبية لقتال يهود خيبر دون أن تنجدهم قريش ، وتخاذل قبيلة غطفان حليفة يهود خيبر عن نجدتهم خوفاً على ديارهم من المسلمين . وقد أصابت الكآبة والغيظ قريشاً لما بلغها خبر انتصار المسلمين على يهود خيبر[٧] وهو أمر ما كانت تتوقعه لما هو مشهور من

---

(١) معازي الواقدي ٢/٦٩٩ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب النكاح ٢/١٠٤٥ .

(٣) سيرة ابن هشام ٢/٨٠٤ - ٨٠٥ حيث يذكر قائمة بأسمائهم .

(٤) مغازي الواقدي ٢/٧٠٠ .

(٥) البخاري الصحيح ٥/١٧٦ ومسلم : الصحيح ٧/١٤-١٥ .

(٦) الحاكم المستدرك ٣/٢٢٠ .
وابن هشام : السيرة ٢/٢٤٠ - ٢٤١ .

(٧) مسند أحمد ٣/١٣٨ وموارد الظمآن ٤١٣ .

حصانة قلاع اليهود وحصونهم في خيبر وكثرة مقاتليهم وسلاحهم . وكذلك كان صدي فتح خيبر مدوياً في أوساط القبائل العربية الأخرى التي أدهشها الخبر وخذَّلها النصر ، فكفكفت من عدائها ، وجنحت إلى المسالمة والموادعة ، ففتحت آفاق جديدة أمام انتشار الإسلام .

عدم إجلاء يهود خيبر في عهد النبي ﷺ :

وقد صح أن رسول الله ﷺ أبقى يهود خيبر فيها على أن يعملوا في زراعتها وينفقوا عليها من أموالهم ولهم نصف ثمارها . على أن للمسلمين حق إخراجهم منها متى أرادوا وكان اليهود قد بادروا بعرض ذلك على النبي ﷺ وقالوا : نحن أعلم بالأرض منكم فوافق على ذلك بعد أن همّ بإخراجهم منها[1] .

وهمه بإخراجهم دليل على أنَّ خيبر كلها فتحت عنوة لأن من صالح منهم صالح على حقن دمه وإجلائه منها .

فأقاموا فيها وكان رسول الله ﷺ يبعث من قبله رجلاً لتقدير الثمار وقبض حصة المسلمين ، وقد بعث عبد الله بن رواحة مرة فقدر الثمار بعشرين ألف وسق من تمر ثم خيرهم بين أخذها حسب تقديره أو تركها له وفق ذلك فقالوا متعجبين من عدالته : هذا الحق وبه تقوم السموات والأرض قد رضينا أن نأخذه بما قلت[2] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب معاملة النبي أهل خيبر ٤٩٦/٧ وصحيح مسلم ، كتاب المساقاة ، باب المساقاة والمعاملة بجزء من التمر والزرع ١١٨٦/٣ ، ١١٨٧ .
وأبو داود : سنن ، كتاب البيوع ، باب في المساقاة ٦٩٧/٣ ولا يتعارض ذلك في رواية أخرى في سنن أبي داود ، كتاب الخراج ، باب ما جاء في حكم أرض خيبر ٤١٢/٣ تقول (فلما صارت الأموال بيد النبي ﷺ والمسلمين ولم يكن لهم عمال يكفونهم عملها فدعا رسول الله ﷺ اليهود فعاملهم) إذ يمكن التوفيق بأن اليهود عرضوا ذلك على الرسول ﷺ وأنه رد عليهم بعد أن تأمل في عرضهم ورأى ما فيه من مصلحة للمسلمين فدعاهم وعاملهم .

(٢) الفتح الرباني في ترتيب مسند أحمد ١٢٥/٢١ وهو حديث صحيح .

ولكن وردت رواية أخرى صحيحة تفيد أنه قدرها بأربعين ألف وسق فأخذوا التمر وعليهم عشرون ألف وسق[1]..

والجمع بين الروايتين الصحيحتين ممكن لأن المراد بالأربعين حصة اليهود والمسلمين ، وبالعشرين حصة أحدهما فقط .

أثر فتح خيبر:

ولا شك أن فتح خيبر عاد على المسلمين بالخير الكثير وعزز إمكانياتهم الاقتصادية بدخل سنوي دائم حتى قالت عائشة رضى الله عنها معقبة على فتح خيبر : (الآن نشبع من التمر) وقال ابن عمر رضى الله عنهما : (ما شبعنا حتى فتحنا خيبر)[2] .

ولا شك أن هذه الأقوال كافية لتوضيح ما عاد به فتح خيبر من تعزيز لوضع المسلمين الاقتصادي ولإيضاح حقيقة الوضع الاقتصادي قبل الفتح ، ومع شدة حاجة المسلمين قبل خيبر فقد كان الرسول ﷺ يفضل إسلام يهود خيبر على كل غنيمة كما يتضح من وصيته لعلي رضى الله عنه ، ولم يكن راغباً في إفناء يهود أو إجلائهم لذلك قبل الصلح لما عرض عليه يهود حصون القموص والوطيح والسلالم ذلك ، كما قبل بعد الصلح - الذي وافق بموجبه اليهود على إجلائهم من خيبر- أن يبقيهم في خيبر بناء على طلبهم ، وكل ذلك يدل على الروح السمحة والعدالة السامية ، كما أن ذلك حقق للدولة الإسلامية مصالح عليا اقتصادية وعسكرية حيث تمت المحافظة على طاقات المسلمين العسكرية ووجهوا إلى الجهاد الدائم من أجل توحيد جزيرة العرب تحت راية الإسلام ولم يتحولوا إلى الفلاحة التي تحتاج إلى إدامة العمل في استصلاح الأرض ورعاية الزرع والنخل

---

(١) أبو داود سنن ، كتاب البيوع ، باب الخرص ٣/٧٠٠ وأبو عبيد : الأموال ١٩٨ .والوسْقُ : ستون صاعاً والصاع : أربعة أمداد والمد ٤ ,٥٤٣ غم .

(٢) صحيح البخاري : كتاب المغازي باب غزوة خيبر٧/٤٩٥ .

مما يستنفد طاقتهم ، وكذلك تمت الإفادة من خبرة وطاقة الفلاحين اليهود للحفاظ على مستوى الإنتاج الزراعي في خيبر لأنهم يمتلكون خبرة بالأرض وزراعتها ، مما يوفر للمسلمين حصة كبيرة يمكن الإفادة منها في تجهيز الجيوش والقيام بالنفقات الأخرى التي تحتاجها الدولة .

وقد حاز المسلمون الأموال المنقولة ، فكان الرجل يأخذ حاجته من الطعام دون أن يُقسم بين المسلمين أو يخرج منه الخمس إذ كان قليلاً[1] . خلافاً لما يذكره الواقدي من كثرته وأنه يكفي المسلمين يأكلون ويعلفون دوابهم شهراً أو أكثر[2] .

كيفية توزيع غنائم خيبر :

وقد وردت آية قرآنية توضح أن غنائم خيبر خاصة بمن شهد الحديبية من المسلمين لا يشركهم فيها أحد وهي قوله تعالى : ﴿سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم . يريدون أن يبدلوا كلام الله . قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً﴾[3] .

وقد قسم الرسول ﷺ أرض خيبر إلى نصفين ، نصف لما ينزل به من النوائب والوفود ونصف للمسلمين من أهل الحديبية ، وبلغ عدد الأسهم كلها ستة وثلاثين سهماً[4] منها ثمانية عشر سهماً ، قسمت على أهل الحديبية ، وكان الجيش ألفاً وخمسمائة فيهم ثلاثمائة فارس ، فأعطى الفارس سهمين والراجل سهماً[5] .

---

(١) الساعاتي : الفتح الرباني بترتيب مسند الإمام أحمد ٢١ / ١٢٥ .
وأبو داود : السنن ، كتاب الجهاد ، باب النهي عن النهبي إذا كان في الطعام قلة في أرض العدو ٣ / ١٥١ والحاكم : المستدرك ٢ / ١٣٤ .

(٢) مغازي الواقدي ٢ / ٦٦٥ .

(٣) سورة الفتح آية ١٥ وانظر : تفسير الطبري ٢٦ / ٥٠ .

(٤) عوض الشهري : مرويات غزوة خيبر ص ١٩٥ .

(٥) سنن أبي داود ، كتاب الخراج والفيء والإمارة ، باب ما جاء في حكم أرض خيبر ٣ / ٤١٣ والحاكم : المستدرك ٢ / ١٣١ وصححه وأقره الذهبي .

ولم يغب عن فتح خيبر من أصحاب بيعة الحديبية أحد سوى جابر بن عبد الله ومع ذلك أعطى سهماً مثل من حضر ولكن هذه الرواية ضعيفة وردت من طريق ابن إسحق دون إسناد[1] .

وقد ثبت أن النبي ﷺ أعطى أهل السفينة من مهاجرة الحبشة الذين عادوا منها إلى المدينة ووصلوا خيبر بعد الفتح من غنائم خيبر ، وكانوا ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً بقيادة جعفر بن أبي طالب ، ولم يقسم لأحد لم يشهد الفتح سواهم[2] .

وربما يرجع استثناؤهم إلى أنهم حبسهم العذر عن شهود بيعة الحديبية ، ولولا ذلك لشهدوها . ولعله استرضى أصحاب الحق من الغانمين في الإسهام لهم ، كما أعطى أبا هريرة وبعض الدوسيين من الغنائم برضا الغانمين حيث قدموا عليه بعد فتح خيبر ، ولم يشتركوا في القتال[3].

نماذج من المجاهدين :

وقد صح أن أعرابياً شهد فتح خيبر أراد النبي ﷺ أثناء المعركة أن يقسم له قسماً وكان غائباً ، فلما حضر أعطوه ما قسم له فجاء به إلى النبي ﷺ فقال : ما على هذا اتبعتك ، ولكني اتبعتك على أن أرمي ها هنا - وأشار إلى حلقه - بسهم فأدخل الجنة . قال : إن تصدق الله يصدقك . فلبثوا قليلاً . ثم نهضوا في قتال العدو فأتى به يحمل قد أصابه سهم حيث أشار ، فكفنه النبي ﷺ بجبته وصلى عليه ودعا له ، فكان مما قال : (اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك فقتل شهيداً ، وأنا عليه شهيد)[4] .

---

(١) سيرة ابن هشام ٤٦٧/٣ .

(٢) صحيح البخاري كتاب فرض الخمس ٢٣٧/٦ وصحيح مسلم : كتاب فضائل الصحابة ١٩٤٦/٤ .

(٣) عمر بن شبة : تاريخ المدينة ١٠٥ .

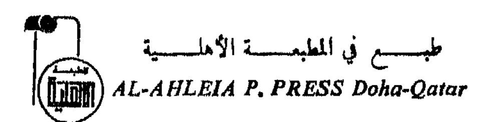
(٤) مصنف عبد الرزاق ٢٧٦/٥ .

إلا أن هذه الرواية شاهد قوي على ما يبلغه الإيمان من نفس أعرابي ألف حياة الغـزو والسلب والنهب في الجاهلية فإذا به لا يقبل ثمناً لجهاده إلا الجنة فكيف يبلغ الإيمان إذاً من نفوس الصفوة من أصحاب رسول الله ﷺ ، أيقال إنهم فتحوا ديار يهود طمعاً في أرض ومال ؟ أيتهمون بأن التعصب الديني دفعهم لطرد يهود وهم الذين دعوهم للإسلام قبل القتال وقبلوا أن يعطوهم الأمان بعد الحصـار وأبقوهم في خيبر بعد الاستسلام فمكثوا فيها رغم قتلهم عبد الله بن سهل الأنصاري حيث اتهمهم بقتله المسلمون ، فحلفوا أنهم لم يقتلوه ، فوداه الرسول ﷺ وفي قضية مقتله شرعت القسامة - وأقرهم بخيبر فاستقروا . حتى خلافـة عمر رضى الله عنه فبدت منهم العداوة والبغضاء وغدروا بالمسلمين . فدعوا[1] يدي ورجلي عبد الله بن عمر وهو نائم في سهمه من خيبر . فأجلاهم عمـر رضى الله عنـه من خيبر وأعطاهم قيمة ما كان لهم من التمر مالاً وإبلاً وعروضاً من أقتاب وحبال . وأخذ المسلمون ضياعهم من مغانم خيبر فتصرفوا فيها .

وهكذا انتهى دور اليهود العسكري والاقتصادي في الحجاز وتفرغ المسلمون لاخضاع قبائل العرب المشركة ولتوحيد جزيرة العرب تحت راية الإسلام .

(١) الفدع : عوج في المفاصل كأنها قد فارقت مواضعها ، وأكثر ما يكون في رسغ اليد أو القدم (المعجم الوسيط مادة «فدع») .

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية
٦٣ لسنة ١٩٩١ م


طبع في المطبعة الأهلية
AL-AHLEIA P. PRESS Doha-Qatar